

عقيد أحمد عبد الوهاب



فلسطين

بين

الحقائق والأباطيل

دراسة من العقيدة والتاريخ

في

الشعب
المعهد الإلهي
الأرض

الناشر
مكتبة وهبة

مدرسین اُجماع عبدالوہاب

فلسطین بین الحقائق والأباطیل

الناشر: مکتبہ وَهْبَة
۱۴ شارع الجمهوریہ - بعبدین

الطبعة الأولى

ربيع الاول سنة ١٣٩٢ هـ

أبريل سنة ١٩٧٢ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٢/٣٠٦٩

DS

119.7

A1344

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

بين الحق والباطل صولات وجولات ... تمتد طويلا عبر القرون ،
وتأخذ لها أماكن للصراع مرة هنا ومرة هناك ..

وفي القرن العشرين اختار الباطل أرض فلسطين ميدانا للمعارك ،
وحشد لذلك من ضروب القوى والامكانيات ما جعل الصراع يمتد عنيقا
رهيبا ، ويبدى من الدلائل ما ينذر بامتداده طيلة العشرات من السنين .

ولقد تمخضت النتائج الاولى لهذا الصراع عن قيام دولة اسرائيل في
عام ١٩٤٨ - تلك الدولة التي جاءت بفعل محصلة قوتين متوازيتين تعملان
في اتجاه واحد هما :

الاستعمار والصهيونية .

ويمكن التدليل في سهولة ويسر على صدق تلك الدعوى ، حين نتتبع
دور كل منهما ، كما تكشف عنه الوثائق والاسانيد .

* * *

المخطط الاستعماري :

فمن وجهة نظر الاستعمار نجد الأصوات الرسمية وغير الرسمية قد
ارتفعت منذ قرن مضى قبل قيام دولة اسرائيل ، تطالب بالتمكين لسكان
يهودي غريب عن منطقة الشرق الأوسط العربية والحيوية ، من أن يزرع
قرب التقاء القارات الكبرى بالعالم القديم - أي بفلسطين - حتى يكون
ذلك ركيزة من ركائز الاستعمار في المنطقة . وفي هذا المضمون كتب توماس
كلارك عام ١٨٦١ في كتابه « الهند وفلسطين » (١) يقول : « ان بعث الأمة
اليهودية سوف ينعش بنى اسرائيل ويعود علينا بأفضل المنافع قاطبة
ولئن كانت الضرورة فيما مضى تقضى بالابقاء على مملكة تركيا كدولة محايدة
والحفاظ على سلامة حدودها كخط دفاعي وحائل - فمن المؤكد أن احتلال
اليهود لفلسطين تحت حماية بريطانيا يجب أن يكون بمثابة الضرورة القصوى
على الاطلاق .

Thomas Clark ; INDIA and PALESTINE, Mauechestes, 1861

(١) ملف وثائق فلسطين - القاهرة - ض ٥٣ - المرجع رقم ١١

1886225

وإذا كانت بريطانيا تعتمد من جديد على تجارتها كحجر الزاوية في عظمها ، وإذا كان أقرب مجرى للتجارة وأفضله يمر عبر محور القارات الثلاث الكبرى ، وبما أن اليهود يؤلفون شعبا تجاريا في الجوهر - فهل توجد بادرة أكثر طبيعية من زدهم على طول ذلك الطريق العظيم للتجارة القديمة ؟ » .

*

وفي مطلع القرن العشرين عقد في لندن مؤتمر استعماري ، هدفه تحديد الوسائل التي تستطيع بها دول الاستعمار - آنذاك - أن تضمن بقاء مستعمراتها في قبضتها أطول فترة ممكنة ، حتى تستغل مواردها وخيراتها . وقد اشترك في المؤتمر كبار العلماء في التاريخ والاجتماع والزراعة والبتروال والجغرافيا والاقتصاد . وفي عام ١٩٠٧ قدم المؤتمر توصية الى رئيس الوزراء البريطاني كامبل بنرمان (٢) جاء فيه :

« ان اقامة حاجز بشري ، قوى وغريب ، على الجسر البري الذي يربط أوروبا بالعالم القديم ، ويربطهما معا بالبحر الأبيض المتوسط ، بحيث يشكل في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس ، قوة عدوة لشعب المنطقة وصديقة للدول الأوروبية ومصالحها - هو التنفيذ العملي العاجل للسبل والوسائل المقترحة » .

*

وفي عام ١٩٢٠ كتب الكولونيل ماينر تزهاجن السكرتير العسكري للورد اللنبي - مذكرة الى رئيس الوزراء لويد جورج جاء فيها :

« اننا نسير بحكمة زائدة مستهدفين السماح لليهود بانشاء وطنهم القومي في فلسطين ، فقد حررنا العرب من النير التركي ولن نستطيع البقاء في مصر الى الابد . وستتطور القومية العربية الى مرحلة المناذاة بالسيادة من المحيط الى الخليج ، ومما لا شك فيه أن السيادة العربية واليهودية ستستدمان . واذا قدر لمشروع الهجرة اليهودية الى فلسطين النجاح ، فان الصهيونية ستتوسع على حساب العرب دون سواهم ، وسيبطل العرب قصارى جهودهم للقضاء على قوة فلسطين اليهودية ، وهذا يعنى سفك الدماء .

وبريطانيا تتحكم الآن في الشرق الأوسط ، ونحن لا نستطيع أن نكون اصدقاء للعرب واليهود في آن واحد ، واني اقترح منح الصداقة البريطانية لليهود وحدهم بتقدير أنهم الشعب الذي سيكون صديقنا المخلص الموالى في المستقبل . ان اليهود مدينين لنا كثيرا وهم يحفظون لنا هذا الجميل وسيكونون ثروة لنا - بعكس العرب . . وسوف تكون فلسطين حجر الزاوية في الشرق الأوسط .

الآن دعنى اتكلم عن فلسطين بالنسبة الى مصر ، ففي حالة تطور السلاح من طائرات ودبابات سيكون الفصل في المعركة للسلاح الأحدث . ولذلك فانى أرى في مصر العدو المسلح لليهود ، وبتطور القوميتين العربية واليهودية الى مرحلة السيادة وبخسارتنا قناة السويس في سنة ١٩٦٨ - أى بعد ٤٧ سنة - فان بريطانيا ستخسر مراكزها في الشرق الأوسط . ولتقوية هذه المراكز اقترح ضم سيناء الى فلسطين ، ففي حالة ضم سيناء الينا فاننا نربح حدا فاصلا بين مصر وفلسطين ، ونثبت لبريطانيا مركزا قويا في الشرق الأوسط مع اتصال سهل بالبحرين المتوسط والأحمر وقاعدة استراتيجية واسعة النطاق مع ميناء حيفا الممتاز الذي سنستعمله بموافقة اليهود .

ومن حسنات هذا الضم انه سيحبط أى محاولة مصرية لاجلاق القناة في وجه ملاحظتنا ، كما سيمكننا من حفر قناة تربط البحرين المتوسط والأحمر « (٣) » .

*

ويتساءل هربرت سايد بوثام في كتابه « بريطانيا العظمى وفلسطين » الذى نشر عام ١٩٣٧ (٤) عن ماهية المصالح البريطانية التى تنسجم مع خلق دولة يهودية بفلسطين أو « الى أى حد يتلاءم مثال تلك الدولة اليهودية مع مصالح الامبراطورية ؟ » - ثم يجيب على هذا التساؤل فيقول :

• ان اليهود وحدهم يمكنهم الاستعمار فلسطين ، وهم وحدهم يستطيعون بناء مملكة مستقلة جديدة على البحر الأبيض المتوسط ترتبط بهذه البلاد (انجلترا) منذ البداية في العمل الامبريالى ، وتكون في آن واحد وقاية ضد الشرق الغربى ، وسيطاً بينه وبيننا ، ومدنية تتميز عن مدينتنا

(٣) المرجع ١١ - ص ٢٧٩

(٤) المرجع ١١ - ص ٦٣٧

لأنها متشربة بأفكارنا السياسية تقف في المرحلة نفسها من التطور السياسي وتدشن حياتها الثانية كأمة تكن الوفاء وعرافان الجميل لهذه البلاد باعتبارها الأب الثاني لها .

*

لقد كان هذا هو المخطط الاستعماري تجاه فلسطين العربية : هدفه من قديم زرع جسم يهودى غريب عن المنطقة العربية ، يعمل كقاعدة استراتيجية تؤمن مصالح دول الاستعمار فى المنطقة ، ويعمل كراس جسر لها يضمن السيطرة على القوى والامكانيات العربية .

المخطط الصهيونى :

- واذا أردنا تتبع العمل الصهيونى ومخططاته لوجدنا أنه يبدأ بداية ساخرة فقد كانت باريس تشهد فى عام ١٨٩١ محاكمة للضابط الفرنسى اليهودى الفريد دريفوس بتهمة الخيانة العظمى لبيعه أسراراً عسكرية لمانيا ، وفى هذه الأثناء ذهب صحفى نمسوى يهودى يدعى تيودور هرتزل ، مراسلاً لصحيفته ، لتغطية أبناء تلك القضية .
وفى هذا تقول المراجع التى تتعاطف مع الصهيونية :

« هناك استمع هرتزل الى هتاف عامة الشعب الفرنسى : ليسقط اليهود - كما استمع الى غير ذلك من الفاظ التحقير والاهانة .

ولقد هزته هذه المشاهد حتى اقتنع تماماً بأن عالم الأميين (تحقير يطلق على كل من عدا اليهود) لا يمكن الاطمئنان الى أنه سيتترك اليهود يعيشون فى سلام . ولهذا كتب هرتزل الحل الذى رآه للمشكلة اليهودية فى كتيب بعنوان (الدولة اليهودية) ونشره عام ١٨٩٦ « (٥) .

وكان الحل الذى اقترحه هرتزل هو « أن يمنح اليهود السيادة على جزء من الأراضى يمكنهم من أن يعيشوا حياتهم كأمة .

وستتكفل وكالتان متخصصتان للقيام بهذا العمل هما (جمعية اليهود) ، (والشركة اليهودية) وستخول الجمعية السلطات للتفاوض مع الحكومة بكونها ممثلة للشعب اليهودى وسيكون هدفها خلق الدولة اليهودية ، اما الشركة فهى لتمويل هذه العمليات .

وتساءل هرتزل هل ستكون الدولة في فلسطين ام في الاجنتين ؟

وقال ان الجمعية هي التي ستحدد .

ان الأرجنتين من أخصب بقاع العالم ومساحتها كبيرة وتعداد سكانها ضئيل وجوها معتدل ولاشك أن جمهورية الأرجنتين ستجنى مكاسب هائلة من وراء اعطائنا قطعة من الأرض .

اما فلسطين فلها ذكريات تاريخية ، وان مجرد ذكر اسم فلسطين يثير شعبنا ويحفزه واذا ما وافق السلطان (التركي) على اعطائنا فلسطين ، فاننا في مقابل ذلك سنتعهد بتنظيم الأحوال المالية لتركيا ، وسنعمل على ان نظل مرتبطين بكل أوروبا التي ستضمن بقاءنا « (٦) .

*

وتقول المصادر الاسرائيلية « ان هرتزل لم يكن يدري شيئا عن اسلافه الصهاينة ابتداء من موسى هس الى احادها ام (اشير جتزربرج) ولم يعرف من الديانة اليهودية الا القليل ، كما انه لم يعرف اللغة العبرية . ورغم أن أغلب اليهود في الغرب رأوا أن فكرته تدعو للسخرية الا أنه استطاع أن يعقد مؤتمرا لمناقشتها حضره حوالي ٢٠٠ مندوب من يهود العالم في مدينة بازل بسويسرا عام ١٨٩٧ وفي النهاية أقر المجتمعون برنامج بازل ، الذي يقضى بانشاء وطن لليهود في فلسطين يقره القانون الدولي .

لقد كان هرتزل مقتنعا بأن الخطوة الأولى تتطلب العمل على كسب التأييد الدولي ، والحصول على موافقة الحكومة التركية (التي كانت فلسطين خاضعة لها آنذاك) وكان يرى ان الاستعمار يجب الا يبدأ الا بعد أن يتحقق هذا لكن آخرين وعلى رأسهم حاييم وايزمان كان يرى ضرورة بدء العمل فوراً ، ولهذا انشأ صندوق الجباية اليهودي في عام ١٩٠١ لشراء الأراضي بفلسطين .

ولقد تلقى هرتزل اقتراحات من السياسة البريطانيين منها ان استيطان اليهود يمكن ان يبدأ في شبه جزيرة سيناء تحت الحماية البريطانية ، واقتراحا آخر باستيطان شرق افريقيا (في أوغندا) ولما كان يرى ان الاقتراح الأول مستحيل « (٧) ، « فقد قبل هرتزل عرض بريطانيا لتأسيس وطن قومي يهودي في أوغندا، ولكنه اضطر الى نبذ الفكرة

كأمام سخرية الشعب الذي نظمته في الحركة الصهيونية . وكان على رأس معارضي هرتزل - حاييم وايزمان الذي أصبح فيما بعد أول رئيس لدولة اسرائيل .

وفي ٢ نوفمبر ١٦١٧ كتب المستر بلفور وزير الخارجية خطابا الى اللورد روتشيلد عرف بعد ذلك باسم تصريح بلفور .

ان الصورة الاولى للتصريح الذي كتبه المستر بلفور لم تكن تحتوى على كل التحفظات المعروفة ، ولكن هذه التحفظات اضيفت بتحريض رجل يهودى يصفه وايزمان بأنه عدو من الداخل ، - هذا الرجل هو السر ادوين مونتاجو وزير الدولة البريطانى لشئون الهند .

ولقد وافق حلفاء بريطانيا على التصريح وبعد شهر من صدوره دخل الجنرال النبي القدس .

لقد انخرط المتطوعون من اليهود في جيوش الحلفاء وكونوا الفيلق اليهودى ، وكان أول مندوب سامى بريطانى الى فلسطين يهوديا هو السر هربرت صموئيل . وفي فلسطين حارب اليهود بل انهم تعلموا كيف يحاربون ، وكان خير معلم لهم الضابط الانجليزى وينجت الذى كان صهيونيا متحمسا اكثر من الصهاينة أنفسهم « (٨) .

الصهيونية ضد المصالح الحقيقية لليهود :

هذا - ولقد كان الوزير اليهودى البريطانى السر ادوين مونتاجو من أشد المعارضين لفكرة انشاء وطن قومى يهودى بفلسطين وامكانية تطويره ليصبح دولة في المستقبل ، وكان يرى في ذلك خطرا على اليهود واليهودية ، كما كان يرى ان الصهيونية حركة متعصبة خبيثة لا تعمل من اجل المصالح الحقيقية لليهود ، ولكنها تعمل في الواقع من اجل استغلالهم عن طريق السيطرة عليهم والتحدث باسمهم ، بصرف النظر عما تجره عليهم بعد ذلك من مشاكل مثل مشكلة الولااء المزدوج وغيرها من المشاكل والمتناقضات .

وتبين وثائق الحرب البريطانية لعام ١٩١٧ والتي كشفت وزارة الخارجية البريطانية النقاب عنها عام ١٩٦٧ - بعد مرور خمسين عاما - ان السر مونتاجو حاول ان يوقف الاتجاه السائد بين وزراء الحكومة

البريطانية لاصدار تصريح يشير الى انشاء وطن قومي يهودى بفلسطين -
اذ قام في ٢٣ أغسطس ١٩١٧ بتوزيع مذكرة على زملائه الوزراء اختار لها
عنوانا هو : معاداة الحكومة الحاضرة للسامية - قال فيها :

« ان اختيارى لعنوان هذه المذكرة لايحمل معنى العداء وليس شجارا
مع وجهة نظر معادية للسامية قد يحملها بعض الزملاء . . انما اود ان
اسجل رايى وهو ان سياسة حكومة صاحب الجلالة معادية للسامية من حيث
النتيجة ، وانها سوف تصبح صعيدا لتجمع المعادين للسامية في كل بلد من
بلدان العالم .

والدافع الذى حفزنى الى هذا الرأى هو المراسلات المتبادلة بين اللورد
روتشيلد ومستتر بلفور التى تسلمتها بالأمس .

ان خطاب لورد روتشيلد مؤرخ في ١٨ يوليو ، ورد مستتر بلفور
سيورخ في أغسطس عام ١٩١٧ وأخشى ان يكون احتجاجى قد جاء
متأخرا ، وثمة احتمال بأن الحكومة كانت ملتزمة عمليا حين كتب لورد
روتشيلد خطابه وقبل ان اصبح عضوا في الحكومة ، ذلك انه من الواضح
انه كانت هناك بعض المراسلات او المحادثات قبل ذلك الخطاب ، الا اننى
باعتبارى **الوزير اليهودى الوحيد فى الحكومة** أشعر بأنه يجدر بزملائى ان
يمنحونى فرصة للتعبير عن وجهة نظر قد انفرد بها وحدى ، ولكننى
اتمكس بها تمسكا شديدا ، ولا بد لى ان اطلب السماح لى بالاعراب عنها
حينما تسنح الفرصة .

ان الصهيونية ما فتئت تبدو لى دائما مذهبا سياسيا خبيثا
لايمكن ان يعتنقه أى مواطن مخلص للملكة المتحدة ، فاذا تطلع يهودى
انجليزى الى جبل الزيتون واضحى يتحرق شوقا الى اليوم الذى يستطيع
فيه ان ينفذ تراب بريطانيا عن حدائه ويعود الى احترام الزراعة في
فلسطين يكون - كما تراءى لى دائما - قد اعترف بأهداف لاتتفق مع هويته
البريطانية ، واعترف بأنه لم يعد صالحا للمشاركة في الحياة في بريطانيا
العظمى ، او لأن يعامل كمواطن انجليزى .

لقد كنت أفهم دائما ان الذين يمارسون هذا المذهب انما كانوا
مدفوعين الى ذلك بسبب القيود المفروضة على اليهود ورفض منحهم
الحرية في روسيا . ولكن في الوقت الذى تم فيه الاعتراف بهؤلاء اليهود ،
يعتبارهم يهودا روسيين ومنحوا كافة حرياتهم ، يبدو انه من غير المعقول
ان تعترف الحكومة البريطانية رسميا بالصهيونية ، وان يخول مستتر
بلفور سلطة القول بأنه سوف يعاد تأسيس فلسطين لتكون الوطن القومى

لشعب اليهودى ، وأنا أعلم ما ينطوى عليه ذلك وان كنت أستنتج انه يعنى **أن على المسلمين والمسيحيين أن يخلوا السبيل لليهود وانه يجب أن يتبوا اليهود مراكز الأفضلية ويصبحوا مرتبطين ارتباطا خاصا بفلسطين كارتباط الانجليز بانجلترا . .** كما سيعامل اليهود من الآن فصاعد كأجانب فى كل بلد آخر غير فلسطين . بل لعل الجنسية أيضا لن تمنح الا بعد اختبار دينى . وثمة أربعة مبادئ اعرضها مع التأكيد :

١ - اذكر انه لا توجد أمة يهودية . ان أفراد أسرته الذين عاشوا فى هذا البلد عدة اجيال لا يشتركون بأية صورة وبأى شكل مع أية أسرة يهودية فى أى بلد آخر فى رأى أو رغبة ، ولا يجمع بينهم أى شىء أكثر من الحقيقة الماثلة فى أنهم يعتقدون نفس الديانة بدرجات متفاوتة . وان القول بأن اليهودى الانجليزى واليهودى المغربى ينتميان لأمة واحدة لا يقل مجافاة للحقيقة عن القول بأن المسيحى الانجليزى والمسيحى الفرنسى ينتميان لأمة واحدة ، ولعلهما ينتميان لجنس واحد .

٢ - حين يقال لليهود أن فلسطين هى وطنهم القومى فسوف ترغب كل دولة فورا فى التخلص من مواطنيها اليهود ، وسوف تجدون فى فلسطين سكانا يطردون أهاليها الحاليين ويأخذون أحسن ما فى البلد ، يفدون إليها من كافة اركان الأرض ويتحدثون بكل لغة من لغات الأرض ، ولا يستطيعون التفاهم مع بعضهم الا عن طريق المترجم .

انى على اتم استعداد لحرمان كل صهيونى من الحقوق المدنية ، بل لعلنى اجد دافعا قويا لتحريم المنظمة الصهيونية باعتبارها غير قانونية ومنافية للمصالح القومية ولكنى لا اجد مناصا من أن طالب الحكومة البريطانية أن تكون على قدر كاف من التسامح بحيث ترفض الموافقة على نتيجة من شأنها أن تجعل من مواطنيها اليهود ضمنا ان لم يكن بنص القانون أغرابا وأجانب .

٣ - **انى أنكر أن لليهود اليوم علاقة بفلسطين** أو انها مكان صالح لهم كى يعيشوا فيه . صحيح ان فلسطين تلعب دورا كبيرا فى التاريخ اليهودى ، ولكن الأمر كذلك بالنسبة للتاريخ الاسلامى الحديث ، كما انها أصبحت بعد عهد اليهود تلعب دورا اكبر من أى بلد آخر فى التاريخ المسيحى .

انى لا أنكر على اليهود فى فلسطين حقوقا استعمارية مساوية لغيرهم ممن يعتقدون أديانا أخرى ولكن اعتبار الدين اختبارا لازما للحصول على اليهودية الوطنية يبدو أمرا لا يقره الا الذين تتسم نظرتهم الى حصة معينة فى تاريخ فلسطين بالتعصب وضيق الأفق ومن ثم فهم يطالبون لليهود بمركز لا حق لهم فيه .

إذا كانت ذاكرتى لا تخوننى فان تعداد اليهود فى العالم يبلغ ثلاثة أضعاف العدد الذى تستطيع أن تستوعبه حتى لو طرد جميع السكان الموجودين بها حاليا ، أى أن ثلث عدد اليهود فقط هو الذى يستطيع العودة الى فلسطين وماذا يحدث للباقيين ؟

٤ - اننى افهم بسهولة ان عددا غير قليل من غير اليهود فى انجلترا يرغبون فى التخلص منا - ولكن كما انه لا يوجد اجماع بين المسيحيين الانجليز فى التفكير واسلوب الحياة ، فذلك هو الحال ايضا بين اليهود الانجليز . ومن دواعى سرورى أن التحامل ضد الزواج المختلط أخذ يتصدع ولكن عندما يصبح لليهود وطن قومى فسوف يترتب على ذلك بلا شك ازدياد الدافع الى حرماننا من حقوقنا كمواطنين بريطانيين زيادة هائلة ، وسوف تصبح فلسطين الحى اليهودى الجيتو للعالم .

لو كان الأمر بيدى لقلت للورد روتشيلد ان الحكومة مستعدة لعمل كل ما فى وسعها لتحصل لليهود فى فلسطين على الحرية الكاملة للاقامة والحياة على قدم المساواة مع سكان هذا البلد الذين يعتقدون اديانا أخرى ، ولايسعنى سوى ان اطلب من الحكومة الا تذهب لأبعد من ذلك » . (٩)



واستمر السر مونتاجو يواصل حملته ضد فكرة الوطن القومى اليهودى وخاصة بعد ما تردد من أن هدف الحكومة البريطانية من اصدار تصريح تبنى تلك الفكرة انما كان مناورة سياسية أريد من ورائها تدعيم قضية الحلفاء فى أمريكا عن طريق استخدام النفوذ الصهيونى المؤثر فيها ، ولهذا كتب الى زميله اللورد سيسل فى ١٤ سبتمبر ١٩١٧ يقول :

« لقد وطدت امرى على اكتشاف ما اذا كان الصهاينة لهم الأغلبية ، واذا كان الأمر كذلك هل هى أغلبية كبيرة بالنسبة لليهود فى المملكة المتحدة ؟

اذا أجرى بحث مفصل للتحقق من الرأى تجاه الصهيونية بين المسئولين عن بعض المؤسسات الكبرى مثل : مجلس الأوصياء لاغثة الفقراء ، والجمعية البريطانية اليهودية التى تعالج بصفة أساسية المسائل الخاصة باليهود فى الشرق ، واللجنة الروسية اليهودية .. فانى اعتقد انه سيتبين ان العمل الخيرى الذى يمثل النشاط الطائفى الرئيسى

(٩) ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية - مركز دراسات الشرق الأوسط - القاهرة - ص ٢٠٥

الذى يقوم به اليهود فى بريطانيا ، تمارسه غالبية راجحة من اليهود لم يعربوا عن أى عطف على الصهيونية ، أو من الذين عارضوها بالفعل .
ان أحد الأسباب التى ذكرت فى اثناء المناقشة التى جرت فى مجلس

الوزراء (عما يدفع الحكومة البريطانية لاتخاذ اجراء فى موضوع الوطن القومى اليهودى) هو دعم قضية الحلفاء فى أمريكا . اننى لم اطع على نصوص البرقية التى ارسلتها الى امريكا غير أنه من الواضح ان الرئيس ولسن لا يرغب فى اصدار تصريح قاطع يحمل أى التزام حقيقى حاليا ، فهذا السبب اذن لا يعتد به ، ومن ثم اجدنى مضطرا الى ان اوكد مرة اخرى انه لا يجب ان يستخدم أى متحدث باسم الحكومة البريطانية أى صيغة كلامية توحى بأن هناك شعبا يهوديا بالمعنى السياسى . . ان مثل هذا التصريح سيكون بمثابة صدمة قاسية يشعر بها اليهود البريطانيون » (١٠)

*

وفى ٩ اكتوبر ١٩١٧ وزع السر مونتاجو مذكرة على زملائه الوزراء البريطانيين تعالج موضوع الصهيونية ، وتنكر على الصهاينة استخدام الدين رداء يخفى اغراضهم السياسية . وكان مما جاء فيها :

((لقد حصلت على قائمة تضم بعض الشخصيات البارزة المناهضة للصهيونية (بالمذكرة) ويلاحظ انها تضم كل يهودى ذى شأن فى الحياة العامة باستثناء لورد روتشيلد الحالى ومستر هيربرت صموئيل وقلة اخرى . . وهؤلاء جميعا من الرجال اليرى يحيون حياة انجليزية فى الوقت الذى يعترفون فيه باخوانهم فى الدين ويقدمون لهم الخدمات سواء فى هذه البلاد أو خارجها .

انى ما زلت اعتقد بأنه يجب ألا يكون هناك أية محاولات لاعادة قيام امة يهودية ، واطن انى لست مخطئا اذا قلت ان نسبة تتراوح بين ٥٠ ، ٧٥٪ من الذين يدعون بالقوميين اليهود هم اما ملحدون واما مارقون عن الدين ، والغالبية العظمى بين الزعماء اليهود لا يهتمون مطلقا بالديانة اليهودية وأن الظروف السائدة حاليا فى هذا الشأن حتى قبل قيام الامة اليهودية فعلا كما يتمنى هؤلاء القوميون اليهود - هى نفس الظروف التى كانت سائدة عندما كانت الدولة اليهودية حقيقة واقعة وكان الانبياء ورجال الدين فى خلاف ونزاع مستمر مع المملكة والدولة ، الأمر الذى أدى فى النهاية الى تدمير الدولة - وهذا هو ما سينتكرر حدوثه بالتأكيد اذا ما اقيمت دولة يهودية مرة اخرى)) (١١) .

(١٠) المرجع السابق ص ٢٤٢

(١١) المرجع السابق ص ٢٦٤

ان احدا لا يستطيع اذن انكار حقيقة القول بأن قيام دولة اسرائيل
بفلسطين انما حدث نتيجة لمؤامرة استعمارية تستهدف منطقة الشرق
العربى . اثارها مفامرة صهيونية لو اخفقت في اغتصاب فلسطين لذهبت
مبحث عن فريسة اخرى قد تكون في الأرجنتين أو أوغند أو استراليا وربما
في الولايات المتحدة الأمريكية .

الى هنا والحق واضح في القضية الفلسطينية ، لا لبس فيه ولا ابهام
- اذ يمكن تلخيص الموقف في ان فلسطين تعرضت لغزو استعماري مسلح ،
استولى على الأرض وانقض على المواطنين قتلا وتشريدا ، فأهلك من اهلك
وطرد من بقى منهم حيا .

وليس في هذا الموقف ما يشير الجدل ، لكن فيه الكثير مما يشير الأسى
والغضب ، ويدفع النفوس الى التصميم على مقاومة العدوان .

بيد ان قوى الصهيونية - وهي تعلم جيدا زيف دعواها في فلسطين -
حرصت من أول يوم نشطت فيه للعمل ، على أن تغلف مطامعها السياسية
برداء مخادع من العقيدة والتاريخ ، فدأبت على القول بأن عودة اليهود الى
فلسطين - لانشاء دولة اسرائيل - انما هو تحقيق لعهد الهى عاهد به الله
الأب الأكبر ابراهيم واستأثر به الاسرائيليون دون غيرهم من ذرية ابراهيم
الأخرين ، كما تستند تلك العودة الى حقوق تاريخية اكتسبها نتيجة
لاقامة آبائهم الأولين بها فترة في غابر الزمان .



هذا - ويتحدث بن جوربون عن الصهيونية وفلسفتها فيرى أنها تستمد
وجودها وقوتها « من مصدر عميق عاطفى دائم، مستقل عن الزمان والمكان،
وهو قديم قدم الشعب اليهودى ذاته - هذا المصدر هو : الوعد الالهى
والأمل بالعودة .

ويرجع الوعد الى قصة اليهودى الأول الذى ابلغته السماء أن :
سأعطيك ولذريتك من بعدك جميع أرض كنعان ملكا أبديا لك .

هذا الوعد بوراثنة الأرض رأى الشعب اليهودى فيه جزءا من ميثاق
دائم تعاهدوا مع الههم على تنفيذه وتحقيقه « (١٢) .

ان المغالطة في هذا القول واضحة بادىء ذى بدء .

فما كان ابراهيم صاحب العهد الالهى يهوديا ، ومن غير المعقول ان ينتسب الجد الى الحفدة والأبناء ، بل العكس هو الصحيح . ذلك ان كلمة (اليهودى) لم تعرف الا بعد السبى البابلى ، أى فى القرن السادس قبل الميلاد ، وهو الزمن الذى يتباعد عن زمن ابراهيم وذريته الأولين - اسماعيل واسحق ويعقوب - بأكثر من اثنى عشر من القرون .

وما علينا من ذلك الآن ، فليست هذه اول المغالطات واطورها ، بل وراءها الكثير والكثير من الزيف والأباطيل .

ولما كانت الصهيونية تملك من وسائل الدعاية كل خطر ومؤثر ، فقد استطاعت النفوذ والتسلل الى بواطن الكثير من دوائر الفكر العالمى ، وعملت بذلك على طمس معالم الحق فى القضية الفلسطينية ، وجعلت الكثير من الطوائف غير اليهودية تعتقد بشرعية قيام دولة اسرائيل استنادا الى قصص ونبؤات تتحدث عنها الأسفار المقدسة .

وبذلك تمكنت الصهيونية من تغيير شكل القضية ، فبعد أن كانت قضية سياسية واضحة المعالم محددة الأبعاد والقوى والتيارات اذا بها تتحول عند أولئك الكثيرين الى قضية دينية يكتنفها الغموض نتيجة الانزلاق فى متاهات التأويل وتفسير النصوص المقدسة بما يتفق مع المطامع والغايات .

* * *

ان هذا الكتاب يمثل دراسة لقضية فلسطين ، تستهدف الكشف عما بها من حقائق وما لحق بها من أباطيل وهو دراسة لبعض من أخطر جوانبها التى كثيرا ما يدور حولها الجدل والنقاش ، وأعنى هنا جانبى : العقيدة والتاريخ .

ويقع هذا الكتاب فى سبعة فصول :

ويختص الفصل الأول بدراسة مركزة « للأسفار المقدسة » ، باعتبارها المرجع الرئيسى الذى تستخرج منه النصوص والتأويلات .

وأما الفصل الثانى فيعرض بشيء من التفصيل « لابراهيم » - الجد الأكبر - وصاحب العهد الالهى الذى ثور حوله القضايا والمجادلات .

ويمثل الفصل الثالث عملية مسح « للتاريخ الاسرائيلى بفلسطين » ، مع شيء من الاسهاب فى سرد بعض القصص بغية التعرف على الفكر الاسرائيلى وتقييم الوجود الاسرائيلى القابر بفلسطين تقيما حضاريا .

ويروى الفصل الرابع تاريخ شعوب الشرق القديم وحركتها مع التاريخ وعلاقة تلك الشعوب « بفلسطين » ، كما يتكلم في موضوع : السامية والساميين ، ويبين مالحق به من مفاهيم خاطئة .

وفي مقارنة بين الوجود الحضارى لكل من العرب والاسرائيليين ، فان الفصل الخامس يعرض لشيء من « الحضارة العربية » ، كما يناقش دعوى الاسرائيليين في موضوع (الحقوق التاريخية) وما يترتب على الأخذ بتلك النظرية من اضطراب في نظام العالم ، رغم ما يعود على العرب من جراء هذا التطبيق .

ويناقش الفصل السادس موضوع « القضية بين الحق والقوة » فيبين وضوح الحق العربى في القضية الفلسطينية ، وهو الذى ارتآه كثير من الأحرار ودافعوا عنه رغم ما أصابهم من عنت وبلاء .

كذلك يتحدث هذا الفصل عن وجهة نظر الاسرائيليين في الحق ، ويبين أن ذلك دائما أمر نسبى يخضع للمطامع والأهواء - ويستشهد لذلك بقضية من أهم قضايا العقيدة اليهودية ، الا وهى قضية المسيح .

فحين نستعرض أحدث مبتكرات الفكر الاسرائيلى في قضية المسيح نعد تطاولا على الحق يفوق كل وصف ، وذلك حين يدعى ذلك الفكر المتعصب ، أن المسيح الذى جاء منذ أكثر من تسعة عشر قرنا مضت ، والذى يؤمن به أكثر من نصف سكان العالم من مسيحيين ومسلمين ، انما كان مسيحا دعيا ، دبر بخياله الواسع مؤامرة الصلب ، وكان هو مؤلف تلك الدراما ومخرجها وممثلها ، بالإضافة الى الممثلين الآخرين الذين استعملهم وفق هواه ، وبالأخص يهوذا الخائن ومجمع اليهود . لقد كان هؤلاء ضحايا للمسيح ! .

نعم - هكذا يقول الفكر الاسرائيلى الحديث ، القادر على قلب الحقائق وتحويل الأبرياء الى مذنبين والعكس بالعكس .

واما عن القوة الاسرائيلية فقد تحدد موقعها من القوى الواعية والقوى الغشوم ، وذلك بمقارنتها بأنماط مختلفة من قوى التايخ ، القديم منها والحديث ، فظهرت لنا القوة الاسرائيلية دائما قوة غشوم .

ويعتبر الفصل السابع والآخر « اسرائيل .. والعرب .. والعالم » خاتمة تتجمع فيه خلاصة الكتاب على ضوء ماسبق من عروض ومناقشات ، ثم يحدد موقف كل من : الاسرائيليين ، والعرب والعالم من قضية فلسطين ، بعد أن تكشفت فيها بوضوح جوانب الحقائق والأباطيل .

اننى أخطب في هذا الكتاب العقل والضمير الانساني لمختلف العقائد والطوائف ، وخاصة بين اليهود والمسيحيين والمسلمين ، راجيا أن يكون صوت الحق أقوى مما توارثه الكثير من الناس من تقاليد جاءت ثمرة للاقاصيص والروايات .

وفي هذا العمل لم أنفرد بجديد ، اذ أن أغلب مادته معلوم من قبل ، ولم يزد دورى فيه عن إعادة البناء والتأليف - ذلك أن الحقائق لا تؤلف ولكن يؤلف بينها ، ثم تعرض دائما للدراسة والتمحيص كى تبقى نقية بعد أن ينزاح عنها ماعساه يكون قد لحق بها من زيف وأباطيل .



هذا - ولقد حرصت قدر الطاقة على أن تكون مناقشة الموضوعات والقضايا الفرعية التى تندرج تحت فصول هذا الكتاب ، مدعمة دائما بالنصوص التى تنتسب الى أفراد أو هيئات لايمكن اتهامها من قريب أو بعيد بممالة العرب والعروبة ويتضح ذلك من القاء نظرة على قائمة المراجع التى يعتمد عليها الكتاب .

بل ان دراسة بعض الموضوعات الهامة مثل : الحضارة العربية - تتطلب أن يؤخذ فى الاعتبار - بوعى وتبصر - آراء غير العرب من العلماء والباحثين .

ولهذا لم يخرج هذا الفصل - الخامس - عن ترديد لاقوال أولئك العلماء .

ان هذا الكتاب وهو يناقش هذه القضية الخطيرة - قضية فلسطين - لايقبل منه أن يلقي القول على سجيته ، مرة بالمنطق ومرات بالهوى والخيال . لكن ألزم اللوزم فى عمل كهذا أن يركن دائما فى مناقشاته الى وثائق واسبانيد .

ورغم ما فى التزام هذا المبدأ من جهد ومشقة ، فلقد ألزمت نفسى أن يكون هذا الكتاب « كتاب نصوص » - حتى يكون فى مجموعته ركيزة من ركائز الحق فى القضية الفلسطينية .



لقد كثر الاستشهاد بالنصوص المقدسة - ولا حرج - اذ أن ذلك يتمشى مع طبيعة هذه الدراسة ، فقد ذكر النص مرة لبيان أحد الجوانب ، كما يذكر نفس النص مرة أخرى لبيان جانب آخر .

كذلك حرصت على أمانة النقل الا من بعض التغييرات الطفيفة في كلمات الربط بين الجمل والفقرات المختلفة التي يتطلبها نسج الكلام .

وأرجو هنا أن يميز القارئ بين الفقرات المنقولة عن المراجع المختلفة - والتي تظهر دائما بين علامات الترقيم - وبين كلام المؤلف ، الذي غالبا ما يستخدم للربط بين تلك الفقرات والتعقيب عليها ، مع شيء من الشرح والتحليل .

وفيما عدا الكتب المقدسة ، فقد رأيت أنه من الأفضل عند الاستشهاد بنص من أحد المراجع ، أن تذكر بيانات المرجع موجزة في المرة الأولى في ذيل الصفحة التي ذكر بها النص ، ثم اذا كانت هناك عودة لذات المرجع مرة أخرى ، فيكتفى بذكر رقمه المدرج بقائمة المراجع المذكورة في آخر الكتاب .

*

والله أسأل أن تنكشف للناس الحقائق فيروها ببصائرهم ، وان يفرض الحق وجوده قويا، ولو بعد حين - وهو ما أومن به ايماننا لا يتزعزع، مهما توالى الهزائم وتكاثرت النكبات .

« ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله ، لا يخلف الله وعده ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون » .

أحمد عبد الوهاب

الفصل الأول

أسفار العهد القديم

أسفار العهد القديم

تعتبر أسفار العهد القديم هي المرجع المقدس الذي يحرص الاسرائيليون على أن يستخرجوا من نصوصه وتأويلاته ما يؤيد مطامعهم في أرض فلسطين . ومن أجل ذلك كان من اللازم التعرف على هذه الأسفار بالقدر الذي يجعلنا على بينة من أمرها من حيث : مشتملاتها ، وكيفية تكوينها ، وتاريخها ، وتراجمها .

ولسوف نرجع في هذا المجال الى أبحاث العلماء المتخصصين في هذه الدراسات ، وهم الذين أنفقوا السنوات الطويلة في بحثها ودراستها ، بل وانفقت اجيال متتابعة من أمثال أولئك العلماء قرونا عديدة في هذا العمل الدقيق والهام ، ثم قامت دوائر المعارف العالمية مثل « دائرة المعارف الأمريكية » و « دائرة المعارف البريطانية » بجمع خلاصة تلك الأبحاث بين طياتها .

ولهذا سوف نرجع الى هاتين الدائرتين ، لنعرف منهما حقيقة أسفار العهد القديم - ونحن في عملنا هذا انما نقصد مراجع علمية يعتبر قولها في هذه القضية فوق مستوى الشبهات .

مقدمة وتعريف :

تقول دائرة المعارف الأمريكية : « يتكون العهد القديم - حسب عقيدة البروتستانت - من ٣٩ سفرا بخلاف ملحق يعرف بالأبوكريفا APOCRYPHA - أى الأسفار المحذوفة ، على حين تضيف الطوائف الأخرى مثل الكاثوليك والانجيليين والكنائس الأرثوذكسية تلك الاسفار المحذوفة وعددها ١٤ سفرا - الى أسفار العهد القديم ، وبذلك يصبح مجموع أسفاره ٥٣ سفرا .

والشائع بين اليهود هو أن الأسفار الخمسة الأولى Pentateuch المنسوبة لموسى تكون الجزء الأول من الأسفار وتعرف بالتوراة أو الناموس ، على حين تكون الكتب التاريخية الجزء الثانى وتعرف بكتب النبوات أو الأنبياء ، أما الجزء الثالث فيعرف بالكتب أى أن العهد القديم يتكون من : الناموس والأنبياء والكتب » (١) .

*

(١) « دائرة المعارف الأمريكية - "ENCYCLOPEDIA AMERICANA" »

طبعة ١٩٥٩ - الجزء الثالث - ص ٦١٢ - المرجع رقم (١٥)

كيف صارت كتب العهد القديم أسفاراً مقدسة :

« لقد كان هناك نشاط أدبي بين الإسرائيليين منذ عهد مبكر ، فسجلوا تقاليدهم القبلية وقوانين الجماعة الإسرائيلية ، هذا بجانب الأغاني الشعبية وترانيم العبادة وما ينطق به الكهنة والأنبياء من كهانة ووحى . كذلك سجل الإسرائيليون حكمة الشيوخ وأقوالهم وسلوكهم والأحداث التاريخية الهامة . وواضح أن كل ما سجلوه لم يكن مختصاً بالمسائل الدينية ، إلا أنه بعد أن استقرت حياة الطائفة الإسرائيلية بدأت تظهر بالتدريج - وعن غير قصد - عناصر من هذه الآداب اعتبرت الطائفة ركائز لحياتها العقائدية ، وبهذا أعطيت هذه العناصر وقاراً خاصاً تفرقت به وتحولت بذلك إلى كتابات مقدسة . ولا شك أن الكتاب الأصليين لهذه الكتب لم يدبر بخلدهم أن ما كتبوه وسجلوه سيكون له مثل هذه القداسة في حياة الطائفة الإسرائيلية في يوم من الأيام » (٢) .

متى اكتسبت أسفار العهد القديم الصبغة القانونية :

« يتكون العهد القديم من ثلاثة أجزاء هي :

١ - التاموس : وهو يتكون من أسفار : التكوين - الخروج - اللاويين العدد - التثنية . .

٢ - الأنبياء : وهو ينقسم إلى جزئين :

(أ) الأنبياء السابقين ويتكون من أسفار : يشوع - القضاة - صموئيل (الأول والثاني) - الملوك (الأول والثاني) .

(ب) الأنبياء المتأخرين ويتكون من أسفار : أشعيا - ارميا - حزقيال - الاثنا عشر نبيا الأصغر (هو شع - يوئيل - عاموس - عوبديا - يونا - ميخا - ناحوم - حبقوق - صفنيا - حجي - زكريا - ملاخي) .

٣ - الكتب : وهي تتكون من :

(أ) المزامير - الأمثال - أيوب

(ب) راعوث - نشيد الانشاد - الجامعة - مراثي ارميا - أستير .

(ج) دانيال - عزرا - نحميا - أخبار الأيام (الأول والثاني) .

وقد اكتسبت كل من الأجزاء الثلاثة الرئيسية للعهد القديم صبغتها القانونية على مدى قرون طويلة بيانها كالاتى : -

اكتمل الناموس شرعيته حوالى عام ٤٠٠ ق م . - والأنبياء حوالى عام ٢٠٠ ق م . واما الكتب فكانت حوالى عام ٩٠ ميلادية . (٣) .

هذا - واذا كانت تواريخ تلقى موسى للتوارة تتراوح بين ١٢٩٠ و ١٢٥٠ ق م ، كما يقدر ذلك المؤرخون ، صار من الواضح أن أسفار (الناموس) التى وصلتنا قد استغرقت أكثر من ثمانية قرون ، حين اكتمل بناؤها وأخذت صورتها القانونية . ولا يختلف الحال كثيرا بالنسبة (للأنبياء) (والكتب) فلكل منهما استغرق قرونا عدة ليكتسب قانونيته .

اللغات واللهجات التى كتبت بها أسفار العهد القديم :

« كتبت أسفار العهد القديم باللغة العبرية عدا بعض الكلمات والتعابير والأسماء ، كما جاء فى بعض اصحاحات الأسفار الآتية : التكوين ٣١ : ٤٧ ، وأرمياء ١٠ : ١١ أو مثل بعض الاصحاحات التى كتبت بأكملها أو أجزاء منها وهى : فى سفر عزرا من اوائل الاصحاح الرابع ٤ : ٨ الى اواخر الاصحاح السادس ٦ : ١٨ ، وكذلك فى الاصحاح السابع ٧ : ١٢ - ٢٦ ، وفى سفر دانيال من ٢ : ٤ الى ٧ : ٢٨ - فكل هذه الاصحاحات والفقرات المشار اليها كتبت بالأرامية . لقد كانت العبرية هى لغة اسرائيل ويهوذا (المملكتين) حتى السبى البابلى ، ولكن يهود ما بعد السبى بينما احتفظوا بالعبرية لغة مقدسة فانهم كانوا يتكلمون الأرامية ، وهى اللغة التى كانت سائدة آنذاك فى غرب آسيا . ومن المعلوم أن كلا من العبرية والأرامية تنتمى الى عائلة واحدة أو مجموعة متجانسة من اللغات تعرف بمجموعة اللغات السامية . وتنقسم هذه المجموعة الى :

- (أ) مجموعة شرقية وهى : الآشورية - البابلية ، وتعرف بالاكديية .
- (ب) مجموعة جنوبية غربية هى . العربية والآثيوبية .
- (ج) مجموعة شمالية غربية هى : الفينيقية والموابية والعبرية والأرامية والسوريانية .

ولذلك يعتبر العهد القديم كتابا غير متجانس ، إذ أنه مجموعة من الوثائق تكونت خلال فترة تزيد على الألف عام بواسطة رجال لهم تراث لغوي متنوع . ذلك أن اللغة العبرية التي كتبت بها أسفار العهد القديم هي في الواقع لغة خليط في أصلها وتطورها . ويعترف العهد القديم بأن يعقوب كان « اراميا تائها » (تثنية ٢٦ : ٥) وكان اختيار الآباء السابقين لزوجات يتكلمن لسانا آخر (سفر التكوين ٢٤ : ١٠ ، ٤١ : ٤٥) له أثر كبير في تطور اللغة وتنوع لهجاتها . ولا تقرر سوى الواقع عندما نقول أن اللغة العبرية لم تكن لغة نقية فذلك هي النتيجة التي تقرها الدراسات اللغوية لكتب العهد القديم » (٤) .

كيف وصلتنا أسفار العهد القديم :

« لم تصلنا أى نسخة بخط المؤلف الأصلي لكتب العهد القديم ، أما النصوص التي بين أيدينا فقد نقلتها إلينا اجيال عديدة من الكتبة والنساخ . ولدينا شواهد وفيرة تبين أن الكتبة قد غيروا بقصد أو بدون قصد في الوثائق والأسفار التي كان عملهم الرئيسي هو كتابتها ونقلها . وقد حدث التغيير بدون قصد حين أخطأوا في قراءة أو سمع بعض الكلمات ، أو في هجائها ، أو أخطأوا في التفريق بين ما يجب فصله من الكلمات وما يجب ان يكون تركيبا واحدا . كذلك فانهم كانوا ينسخون الكلمة أو السطر مرتين ، وحيانا ينسون كتابة كلمات بل فقرات بأكملها . وأما تغييرهم في النص الأصلي عن قصد فقد مارسوه مع فقرات بأكملها حين كانوا يتصورون أنها مكتوبة خطأ في صورتها التي بين أيديهم . كما كانوا يحذفون بعض الكلمات أو الفقرات أو يزيدون على النص الأصلي فيضيفون فقرات توضيحية . . وهكذا . ولا يوجد سبب يدعو للافتراض بأن وثائق العهد القديم (الأسفار) لم تتعرض للأنواع العادية من الفساد النسخي على الأقل في الفترة التي سبقت اعتبارها أسفار مقدسة .

لقد نشأت بين اليهود طائفة خصصت نفسها لرعاية هذه الوثائق عرفت بالكتبة كما يشير الى ذلك سفر عزرا (الذي رجع من سبى بابل وهو كاتب ماهر في شريعة موسى - ٧ : ٦) ، ونحميا ٨ : ١٣ ، وقد سميت هذه الطائفة أخيرا بالسوفريم Sopherim أو الأسفاريين . ولم يكن عملهم مقصورا على النسخ ، بل كانوا يحفظون الوثائق و مترجمين لها ، بل ومؤلفين بكل معنى الكلمة . وكان من نتيجة عملهم أن أخذ النص صورته القانونية ليترجم بعد ذلك الى اللغات الأخرى .

وحين زاد الاحترام للأسفار فان جماعة الأسفاريين قد أدخلت على النص بعض التغييرات التي تبجل اسم اله اسرائيل ، أوتشوه أسماء معبودات الوثنيين ، كما كانوا ينفخون فقرات بدت لهم غير مفهومة ، وأحيانا يستخدمون أحدث ما صارت اليه اللغة بدلا من اللغة القديمة . فكل هذا ظاهر لدينا في النص الذي نقلوه لنا .

وتعتبر فترة الأسفاريين الأولى من عام ٥٠٠ قبل الميلاد الى عام ١٠٠ ميلادية حيث اكتمل بناء النص العبري القانوني لأسفار العهد القديم . ويرجح أن يكون هذا العمل قد قامت به مدرسة الشيخ المعمر اكيبا المتوفى عام ١٣٥ ميلادية . ثم تانى فترة الأسفاريين الثانية وهى تمتد من عام ١٠٠ الى عام ٥٠٠ ميلادية ، وكان عملهم مختصا بتصحيح النص . وبعد ذلك جاءت طائفة المازوريتيين Masorettes أى النقليين - الذين ينقلون من السلف الى الخلف - وقد امتد عملهم من عام ٥٠٠ ميلادية حتى اختراع الطباعة . وقد عمل هؤلاء النقليون على مد النص بما ينقصه من علامات الترقيم والوقف والتشكيل ، كما صنّفوا كثيرا من الحواشى والتفاسير وبعض الإحصائيات ، وذلك بغية جعل النص مفهوما للقراء « (٥) .

« ولقد ازدهرت مدارس طائفة النقليين لفترة حوالى أربعة قرون ، وأخيرا كانت الغلبة للنص الذى صنفته مدرسة طبرية بفلسطين ، على سائر المدارس الأخرى .

وفي القرن العاشر الميلادى كان يوجد في طبرية عائلتان من النقليين هما : عائلة ابن اشير وعائلة ابن نفتالى . وأخيرا تغلب النص الذى صنفته عائلة ابن اشير واعتمدت قانونيته وخاصة من جماعة ابن ميمون في القرن الثانى عشر الميلادى « (٦) .

*

وليس عجيبا ما تذكره دائرة المعارف الأمريكية عما فعله الكتبة الاسرائيليون بالنصوص الأصلية لأسفار العهد القديم على مدى قرون عديدة، حيث جرت اقلامهم بالتغيير والتبديل ، اذ اننا نجد في أسفار العهد القديم الى الآن ما يدين أولئك الكتبة ويتهممهم بالكذب والتحريف والافتراء على الله ، بغية الريح ولو على حساب العقيدة . وفي هذا يقول وحى الرب على لسان النبى ارميا : « كيف تقولون نحن حكماء وشريعة الرب معنا . حقا انه الى الكذب حولها قلم الكتبة الكاذب . . ومن الصغير الى الكبير كل واحد مولع بالربح ، من النبى الى الكاهن كل واحد يعمل بالكذب - ارميا ٨ : ٨ - ١٠ . »

(٥) المرجع ١٥ - ص ٦١٧ - ٦١٨

(٦) المرجع ١٥ - ص ٦٢١

تراجم أسفار العهد القديم :

« لقد كتبت نصوص العهد القديم بالعبرية عدا بعض الفقرات في دانيال وعزرا وأرمياء (سبقت الإشارة إليها) إذ وجدت هذه بالأرامية . ولما رجع يهود السبى من بابل وجدوا أن الأرامية هي اللغة السائدة في فلسطين فمن المحتمل أن بعض الكتب الحديثة للعهد القديم قد كتبت اصلا بالأرامية ثم ترجمت الى العبرية حيث وصلتنا بتلك اللغة وعلى أى حال فقد جاء وقت كانت العبرية لغة يصعب فهمها وخاصة بالنسبة لعامة الشعب عندما كانوا يشهدون طقوسا تجرى بها وقد ادى ذلك الى ضرورة ايجاد ترجمة بالأرامية ليفهمها الشعب . (نحميا ٨ : ٨) ومن هنا ظهرت التراجم لأسفار العهد القديم ، وإن كانت لم تصلنا أى ترجمة آرامية من تلك التراجم الأولى » (٧)

✱

النسخة السامرية :

« توجد ترجمة آرامية للتوراة (أسفار موسى الخمسة) يستخدمها السامريون وتعرف بالترجمة السامرية . ولقد كانت التوراة السامرية اصلا بالعبرية ولكنهما مكتوبة بحروف سامرية . ولكن عندما فقد اللسان العبرى بين السامريين ، رأوا أنهم في حاجة الى ترجمة باللغة الأرامية التى يفهمونها . ولقد بدأ تصنيفها في مطلع القرن الأول الميلادى واستمر العمل بها حتى حلت اللغة العربية محل الأرامية في القرن الحادى عشر » (٨) .

✱

النسخة الاغريقية (السبعينية Septuagint) :

« عرفت النسخة الاغريقية للعهد القديم كترجمة من العبرية الى الاغريقية لينتفع بها اليهود المقيمون في العالم الاغريقى ، وخاصة في مصر والذين لم يعرفوا من العبرية الا القليل . وفي القرن الثالث قبل الميلاد كانت هناك ترجمة اغريقية لبعض كتب العهد القديم وخاصة للناموس ، ولذلك عملت محاولة لاجاد نسخة مقبولة جديدة ، عندما تكونت لجنة مراجعة أخرجت لنا النسخة التى تعرف باسم النسخة السبعينية ، وهى الترجمة الاغريقية للنسخة التى راجعها سبعون عالما (بالاسكندرية) . ولقد قبلت الكنيسة المسيحية النسخة السبعينية ولكنها مدت هذه التسمية لتشمل تراجم من العبرية الى الاغريقية لععدد من الكتب الأخرى هى : الجامعة - المكابين الأول والثانى عزرا الأول ، وبعض الأسفار الأخرى .

(٧) المرجع ١٥ - ص ٦١٨

(٨) المرجع ١٥ - ص ٦١٩

على أنه قد وجدت تراجم أخرى لأسفار العهد القديم من العبرية الى الاغريقية استحدثت بعد النسخة السبعينية . ذلك انه بعد ان وضعت مدرسة اكيبا الصورة القانونية الأخيرة للعهد القديم بالعبرية - وكان ذلك في حوالى القرن الأول الميلادى - وجد كثير من اليهود ان النسخة السبعينية التى يتداولها المسيحيون ليست كافية فى نظرهم . ولذلك عملت تلك التراجم الاغريقية الأخرى من النسخة العبرية القانونية الأخيرة « (٩) .

✱

النسخة السورانية Peshitta :

« وهى قد عملت لتخدم الطوائف اليهودية التى انتشر بينها هذا اللسان الأرامى . وقد قبلتها الكنيسة المسيحية وراجعتها ، وصارت ابتداء من القرن الخامس الميلادى هى النسخة التى يأخذها النصارى اليعاقبة والنسطوريون . ويبدو أن سفرى اخبار الأيام الأول والثانى قد فقدوا من النسخة السورانية الأصلية ، كما أن مخطوطات كثيرة منها تحتوى على كتب من الأسفار المحذوفة ، بل وبعض الكتب التى تعرف باسم الأسفار المكذوبة - Pseudepigrapha « (١٠) .

✱

النسخة اللاتينية Vulgate :

« وجدت بعض التراجم للعهد القديم من الاغريقية الى اللاتينية ويرجع وجودها ابتداء من القرن الثانى الميلادى ويطلق عليها اسم النسخة اللاتينية القديمة . ولقد حاول جيروم - المتوفى عام ٤٢٠ م . - مراجعة تلك النسخة من النصوص الاغريقية التى كانت فى متناول يده آنذاك ولكنه لم يكمل هذا العمل ، وقام بدلا من ذلك بعمل ترجمة جديدة من العبرية . وكان نتاج عمله النسخة المعروفة لنا باسم اللاتينية الأصلية Original Vulgate وهى الترجمة اللاتينية الشائعة لأسفار الكتاب المقدس « (١١) .

✱

النسخة القبطية :

« توجد فى أربع لهجات هى : الصعيدية وكان يتكلم بها فى مصر العليا ، والقيومية حول منطقة الفيوم ، والأخميمية فى منطقة طيبة ، والبحيرية فى

(٩) المرجع ١٥ - ص ٦١٩

(١٠) المرجع ١٥ - ص ٦١٩

(١١) المرجع ١٥ - ص ٦١٩

شمال الدلتا وجوار البحر المتوسط . واقدمها جميعا هي النسخة الصعيدية وترجع الى القرن الرابع الميلادى وأحدثها البحرية ، وترجع الى القرن السابع الميلادى وكلها تراجم عن الاغريقية « (١٢) .

الأسفار المفقودة :

لقد رأينا أن هناك ما يعرف باسم ، الأسفار المحذوفة ، والأسفار المكذوبة - كذلك فان هناك عددا من الأسفار يعرف باسم الأسفار المفقودة . وفي هذا نقول دائرة المعارف الأمريكية : « يشير العهد القديم الذى نعرفه اليوم الى كتب وأسفار أخرى غير موجودة الآن وتشير اليها أسفاره مثل : العدد ٢١ : ١٤ ، ١٥ - يشوع ١٠ : ١٣ - صموئيل الثانى ١ : ٨ - الملوك الأول ١١ : ٤١ - أخبار الأيام الأول ٢٩ : ٢٩ - أخبار الأيام الثانى ٩ : ٢٩ ، ١٢ : ١٥ » .

والأسفار والكتب المفقودة والمشار اليها آنفا هي :

كتاب الحروب - وفيه يقول سفر العدد : « لذلك يقال في كتاب حروب الرب وأهب في سوفة وأودية أرنون » .

سفر ياشر - وقد ذكره سفر يشوع : « فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من اعدائه . اليس هذا مكتوبا في سفر ياشر » .

كذلك تكلم عنه سفر صموئيل الثانى : « ورتاداود بهذه المرثاة شاول ويوناتان ابنه . وقال الم يتعلم بنو يهوذا نشيد القدس . هوذا ذلك مكتوب في سفر ياشر » .

سفر أمور سليمان - وهو مذكور في سفر الملوك الأول : « وبقيّة أمور سليمان وكل ما صنع وحكمته اما هي مكتوبة في سفر أمور سليمان » .

سفر أخبار صموئيل وناتان وجاد وغيرهم ويقول سفر أخبار الأيام الأول : « وأمور داود الملك الأولى والاخيرة أما هي مكتوبة في سفر أخبار صموئيل الرائي وأخبار ناتان النبي وأخبار جاد الرائي » .

كذلك يقول سفر أخبار الأيام الثانى : « وبقيّة أمور سليمان الأولى والاخيرة اما هي مكتوبة في أخبار ناتان النبي وفي نبوة اخيا الشيلونى وفي رؤى يعدو الرائي على يربعام بن نباط » .

« وأمر رجيعام الأولى والأخيرة اما هي مكتوبة في أخبار شمعيان النبي
وعدو الرائي عن الانساب » .

فحص أسفار العهد القديم :

يقوم العلماء المتخصصون - منذ قرون مضت والى الآن - بفحص
أسفار العهد القديم فحصا بعين الناقد البصير ، محاولين بذلك الوصول
الى النصوص الأصلية التي غيرت منها الأحداث على مر العصور . ويعتبر
عمتهم هذا نوعا من النقد وأن كان في الواقع نقدا بناءا . اذ لا يعقل أن يقوم
اللاهوتيون الذين وهبوا حياتهم لخدمة تلك الأسفار ، بمحاولة النيل منها
أو التعريض بها . وفي هذا تقول دائرة المعارف الأمريكية :

« ان الغرض من نقد النص هو إعادة بناء النص الأصلي للعهد القديم ،
ويسمى هذا عادة بالنقد الأدنى لتمييزه عن النقد الأعلى الذي يتعلق
بتساؤلات عن المؤلفين وتاريخ الكتابة وتحليل المصادر الأصلية والظروف
التاريخية . . ونحن نعلم أن كتب العهد القديم قد كتبت بالعبرية عدا بعض
الفقرات التي كتبت بالأرامية (سبقت الإشارة إليها) . وفي الأزمان القديمة
كانت تلك اللغات تكتب بحروف ساكنة ، أما الحروف الصوتية فقد حفظت
شفاها ثم استخدم لها فيما بعد حروف ساكنة معينة او علامات . كذلك
فان بعض الحروف العبرية والأرامية متشابهة تماما في الشكل والنطق
ويصعب التمييز بينها ، كما أن لبعض الحروف اكثر من نطق صوتي واحد
مثل الحروف ت،س،ك . كل هذه الخواص للغات الأصلية التي كتب بها أسفار
العهد القديم ساعدت على ايجاد اخطاء في نقل نصوصه الينا . ولقد كتبت
أسفار العهد القديم على طول الفترة من القرن الحادى عشر ق . م . الى
القرن الأول ق . م . وأخذ صورته النهائية في القرن الأول الميلادى ، ولم
تصلنا أى نسخة بخط المؤلف الأصلي . على أن أقدم نسخة أصلية من كتب
العهد القديم هي كتاب اشعيا الذى اكتشف ضمن وثائق البحر الميت
وعثر عليه عام ١٩٤٧ م . والذى يعتقد كثير من العلماء انه كتب في القرن
الأول أو الثانى ق . م .

وعلى مدى القرون الطويلة التي كتبت فيها أسفار العهد القديم نجد أن
نصوصه قد نسخت مرارا واعيدت كتابتها باليد ، ولقد حدثت اخطاء في
عملية النسخ سببها عدم القدرة على قراءة احد النصوص قراءة صحيحة ،
أو المعجز عن سماع نقطه نطقا صحيحا حين كان يملئ على الكاتب ، أو من
كتب الكتاب نفسه أو عجزه عن فهم ما كان يكتبه ، أو حتى بسبب اهماله .
ولقد كان يحدث أحيانا أن بعض المواد التي كتبت على هامش النص تضاف
اليه .

ويمكن اثبات ان الأخطاء تسربت الى النص بمقارنة اجزاء - في
النسخة العبرية - تتكلم عن شيء واحد في مكانين مختلفين وعلى سبيل
المثال ما نجده في : (صموئيل الثاني ٢٢ والمزمور ١٨) ، (المزمور ١٤
والمزمور ٥٣) ، أشعيا ٣٦ - ٣٩ والملوك الثاني ١٨ : ١٣ - ٢٠ : ١٩) ،
وكذلك بمقارنة سفر أخبار الأيام الذي عمل كتوليفة من أسفار صموئيل
والمملوك .

ان كل هذه الفروق صغيرة كانت أم كبيرة ترجح أن احدها كان
الأصلى وأن الباقي نقل عنه .

*

لقد ظهرت بعض نسخ أصلية للعهد القديم قبل ظهور نسخة
المازوريتين العبرية (التي سوف نصلح على تسميتها بالنسخة العبرية
الحديثة) ومن أهمها النسخة السبعينية الاغريقية والنسخة الآرامية
والنسخة السورانية والنسخة اللاتينية ، وتختلف هذه النسخ أحيانا عن
النسخة العبرية الا أنه بمقارنة هذه النسخ معا يمكن الوصول الى النص
العبري الأصلي كما يتضح من الأمثلة الآتية : -

١ - في سفر صموئيل الأول ١٤ : ١١ نجد أن فقرة طويلة قد سقطت
من النسخة العبرية الحديثة على حين بقيت تلك الفقرة في النسختين
السبعينية واللاتينية . وفي الترجمة الانجليزية التالية نجد أن الكلمات
المائلة هي التي فقدت من النص العبري :

And Saul said to the Lord, God of Israel, "Why hast thou
not answered thy servant today. If the guilt be in me or
Janathan my son, O Lord God of Israel, give Urim, but if
the guilt be in thy people Israel, give Thummim" Jonathan
and Saul were taken, and the people escaped.

ولمعرفة السبب الذي من أجله اسقط الكاتب العبري كل هذه الكلمات
نقول أن عينيه لا بدقد قفزتا من كلمة اسرائيل قرب أول الفقرة الى كلمة اسرائيل
قرب نهايتها ، وكان من نتيجة ذلك أنه حذف تلقائيا - دون أن يدري - الكلمات
الواقعة بينهما « (١٣) .

وانا لنجد أن تلك الكلمات قد حذفت من الترجمة الانجليزية المعروفة
بنسخة الملك جيمس حيث تقرأ هذه الفقرة - بعد اضافة الكلمة المائلة -
كالتالي :-

Therefore Saut said unto the Lord God of Israel, give a
perfect Lot. And Saul and Jonathan were taken, but the people
escaped.

وكذلك حذفت تلك الكلمات من الترجمة العربية لنسخة البروتستانت حيث نقرؤها الى الآن هكذا :
(وقال شاول للرب اله اسرائيل هب صدقا . فأخذ يونانان وشاول .
أما الشعب فخرجوا) .
ومن الواضح أن حذف تلك الكلمات قد أفقد الفقرة معناها .

*

٢ - وثمة نوع آخر من الأخطاء نجده في المزمور ٤٩ : ١١ فالجزء الأول من الفقرة العربية يمكن ترجمته الى الانجليزية كالاتى :

Their inwardness (qibram) is their homes forever, their dwellingplaces to all generations.

واضح أن هذا الكلام لا معنى له . وقد ترجم في نسخة الملك جيمس بتصرف - بعد اضافة الكلمات المائلة كالاتى :

Their inward thought is that their houses shall continue forever, and their dwelling places to all generations.

وهذه الكلمات المائلة غير موجودة في النص العبرى على الاطلاق » .

وفي الترجمة العربية لنسخة البروتستانت تقرأ هذه الفقرة كالاتى :

(باطنهم ان بيوتهم الى الأبد مساكنهم الى دور فدور - المزمور ٤٩)
وتستطرد دائرة المعارف الأمريكية فتقول : « لكننا اذا رجعنا الى
النسخة السبعينية والنسخة السوربانية والنسخة الأرامية ، لوجدنا أن
هذه الفقرة يمكن ترجمتها الى الانجليزية كالاتى :

Their graves (qibram) are their homes forever, their dwelling places to all generations.

وواضح ان الخطأ النسخى نشأ عن تبادل الحرفين b&r كل مكان
الأخر ، حيث تحولت الكلمة التى كتبت اصلا qibram الى كلمة «
qibram» (١٤) .

ويمكن ترجمة الفقرة الانجليزية المذكورة آنفا الى العربية كالاتى :
(قبورهم هى بيوتهم ومساكنهم الى دور فدور) . ولاشك أن هذا
يعطى معنى مفهوما غير الذى تعطيه الفقرة ١١ من المزمور ٤٩ .

*

« ولقد اكد اكتشاف وثائق البحر الميت (عام ١٩٤٧) ضرورة ادخال
بعض التغيرات على النسخة العبرية الحديثة كما في سفر اشعيا ٤٩ :
٢٤ حيث تستبدل كلمة «البار المذكورة بها الى كلمة (الجبار) التى تنفق
عليها النسخ السبعينية والسوربانية واللاتينية (وهى تقرأ فى الترجمة
العربية لنسخة البروتستانت هكذا :

هل تـد لـمـها مـن الجـبار غـنـيمـة وـهل يـفـلت سـبـى المـنـصـور) .
وـيـرـجـح أن يـكـون خـطأ الكـاتـب فـي المـنـسـخـة العـبـرـيـة الـحـديـثـة سـبـب تـشـابـه
كـلـمـتى البـار والجـبار .

كـذلـك يـرى أـغـلـب العـلـمـاء ضـرورة تـهـذـيب فـقـرة مـن سـفـر عـامـوس ٦ : ١٢
والـتى تـقـرأ هـكـذا :

هـل تـركـض الخـيـل عـلـى الصـخـر أو يـحـرث عـلـيـه بـالـبـقـر - اذ أن عـدم
التـوافـق المـوجـود فـي هـذه الفـقـرة يـمـكـن أـرجـاعـه الـى خـطأ مـن الكـاتـب الـاسـرائـيـلى
بـسـبـب ضـم كـلـمـتـين عـبـرـيـتـين كان يـجـب فـصلـهـما ، وعلـى هـذا الأـسـاس تـكـون
قـراءـة النـص بـعـد مـعـالـجـته كـالآتـى : -

هـل تـركـض الخـيـل عـلـى الصـخـر أو تـحـرث الثـيران فـي البـحـر « (١٥)

*

وـنـكـتـفى بـهـذا القـدر مـن الأمـثـلـة الـتى سـاقـتـها دائـرة المـعـارف الـأمـريـكـيـة
لـتـبـين بـوضـوح مـقـدار الـاخـتـلاف الـواقـع بـيـن النـسـخـ المـخـتـلـفـة لـلعـهـد القـديـم ،
والـذـى لا يـجـد القـارىء أـى صـعـوبـة فـي التـحـقـق مـنـه بـنـفـسـه .

ولـنـذهـب الـآن الـى دائـرة المـعـارف الـبرـيـطـانـيـة نـسـتـفـيـها الرأى فـي أسـفـار
العـهـد القـديـم مـكـتـفـين بـعـنـصـر وـاحـد مـن عـنـاصـر الـدراسـة فـي مـثـل هـذه
المـوضـوعـات - وهـو التـقـويـم التـاريـخـى للأـحـداث . ولـقـد اخـترت هـذا العـنـصـر
بـالذات لـأنـه حـديـث أـرقـام ، وأـحـاديـث الأـرقـام تـكـون دائـما مـن المـسـائل الـتى
لا تـحـتـاج الـى شـرح أو تـأويل ، ذلـك أن الشـروح والتـأويلات غـالـبا ما تـحـكـمها
أهـواء المـفسـرين واتـجـاهـاتـهم .

*

تـقـول دائـرة المـعـارف الـبرـيـطـانـيـة : « ان التـقـويـم التـاريـخـى لأـحـداث العـهـد
القـديـم قـد صـار لـاعتـبـارات كـثـيرة أمـرا غـير مـوثـوق فـيـه . فـقـبـل قـيام المـلـكـة
لـم تـكـن الـظـروف تـسـمـح بـعـمـل تـقـويـم تـاريـخـى يـعـتـمـد عـلـيـه . و فـي واقـع الأـمر
فـان تـاريـخ الأـحـداث القـديـمـة قـد أضـيـف بـعـد قـرون عـديـدة مـن وقـوعها ،
وـدرجـة الدقـة فـيها مـظـهـريـة فـقـط . . وحتـى بـعـد تـكوـين المـلـكـة فـان الأـخـطـاء
تـسـرـبت الـى الأـرقـام بـحـيـث صـار الخـطأ فـي تـواريـخ الأـحـداث نـحو بـضـع عـشـرات
مـن الـسـنـين .

فـالتـقـويـم التـاريـخـى لأـحـداث الفـتـرة القـديـمـة الـتى تـبـدأ مـن خـلق الأـنـسـان
حـتى خـروج بنـى اسـرائـيل مـن مـصر - يـعـتـمـد عـلـى ما يـعـرف بـاسـم روائـيات
الـكـهـنة لـأسـفـار مـوسى الخـمـسة . أن الأـرقـام هـنا فـي الغـالـب - أن لـم تـكـن

دائما - هي ارقام مصطنعة . ومن الملاحظات البارزة فى هذا المجال ما نجده فى اختلاف الأرقام بين كل من النسختين السامرية والاغريقية وبين النسخة العبرية ، وذلك بالنسبة للفترة من بدء الخلق حتى مولد ابراهيم ، اذ تنخفض الأرقام فى النسخة السامرية بينما ترتفع فى النسخة الاغريقية .

فالنسخة العبرية تقدر للفترة من بدء الخلق حتى الطوفان ١٦٥٦ عاما ، بينما يبلغ تقديرها فى النسخة السامرية ١٣٠٧ عاما ، وفى النسخة الاغريقية ٢٢٦٢ عاما .

كذلك تقدر النسخة العبرية للفترة من الطوفان حتى دعوة ابراهيم ٣٦٥ عاما ، بينما هي فى النسخة السامرية ١٠١٥ عاما ، وفى النسخة الاغريقية ١١٤٥ عاما .

ان هذه الأرقام ترجع الى اصول بابلية ولكنها عديمة القيمة التاريخية ، وحتى لو اخذنا بوجه النظر التى تقدر عام ١٤٩١ ق . م . تاريخا لخروج الاسرائيليين من مصر - رغم أنه تاريخ مبكر اكثر من المحتمل - فان تاريخ بدء الخليقة يرجع الى عام ٤١٥٧ ق . م . حسب النسخة العبرية (والى عام ٥٣٢٨ ق . م . حسب النسخة الاغريقية) . كذلك تكون بلبله السن البشر قد حدث فى بابل عام ٢٥٠١ ق . م . حسب النسخة العبرية (وفى عام ٣٠٦٦ ق . م . حسب النسخة الاغريقية) . لكن الآثار القديمة للمصريين والبابليين تؤكد ظهور الانسان على وجه الأرض لفترة طويلة من الزمن قبل أى من التاريخين المذكورين لبدء الخليقة . كذلك تبين النقوش والكتابات القديمة للمصريين والبابليين ان اختلاف السنة البشر قد حدث قبل أى من التاريخين المذكورين بفترة طويلة . أن الأرقام المذكورة فى الاصحاحين الخامس والحادى عشر من سفر التكوين لا تبين سوى ما كان يتصوره كتبة الأسفار عن تواريخ تلك الأيام الغابرة . « (١٦) .

*

وبعد - ذلك بعض ما كان من انباء أسفار العهد القديم وتاريخها وما جرى لها عبر القرون الطويلة .

(١٦) دائرة المعارف البريطانية -

ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA

طبعة ١٩٦٠ - الجزء الثالث - ص ٥١٠ - المرجع رقم (١٦)

الفصل الثاني

إبراهيم

ابراهيم

الموطن والنسب :

تخبرنا أسفار العهد القديم بأن ابراهيم يأتى فى الجيل التاسع لذرية سام بن نوح ، اذ أن العرق السامى يجرى هكذا :

« سام . أرفكشاد . شالح . عابر . فالج . رعو . سروج . ناحور . تارح . ابرام وهو ابراهيم - أخبار الأيام الأول ١ : ٢٤ - ٢٧ » .

ولقد كان تارح - والد ابراهيم - يعيش مع قبيلته فى موطنهم الأسمى بمدينة أور - بالعراق القديم - واذا به يقرر فجأة الذهاب الى أرض كنعان (فلسطين) ، وهو يرتحل اليها عبر طريق طويل مارا بحران - مدينة القوافل - التى تقع حاليا بتركيا قرب الحدود السورية . وهناك يموت تارح :

« أخذ تارح ابرام ابنه ولوطا ابن هاران ابن ابنه وسارأى كنته امرأة ابرام ابنه فخرجوا معا من أور الكلدانيين ليذهبوا الى أرض كنعان . فأتوا الى حاران واقاموا هناك وكانت أيام تارح مئتين وخمسين سنة . ومات تارح فى حاران - تكوين ١١ : ٣١ - ٣٢ » .

وفى حران تلقى ابراهيم الأمر الالهى بالذهاب الى أرض كنعان ، كما تلقى البشرى بأنه سيكون مباركا وعظيما . فرحل ابراهيم بقبيلته من حران الى فلسطين وعمره آنذاك ٧٥ عاما .

« وقال الرب لابرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت ابيك الى الأرض التى اريك فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك . . وتبارك فيك جميع قبائل الأرض . فذهب ابرام كما قال له الرب وذهب معه لوط . وكان ابرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرجا من حاران - تكوين ١٢ : ١ - ٤ » .

ابراهيم وزوجه فى مصر :

« وحدث جوع فى الأرض . فانحدر ابرام الى مصر ليغترب هناك . . وحدث لما قرب أن يدخل مصر قال لسارى امراته انى قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر فيكون اذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امراته فيقتلوننى ويستبقونك . قولى أنك أختى ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى

فحدث لما دخل ابرام الى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدا . ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون . فصنع الى ابرام خيرا بسببها . وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد واماء واتن وجمال .

فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراى امرأة ابرام . فدعا فرعون ابرام وقال ماهذا الذى صنعت بى . لماذا لم تخبرنى أنها امرأتك . لماذا قلت هى أختى حتى أخذتها لى لتكون زوجتى . والآن هو ذا امرأتك . خذها واذهب ..

فصعد ابرام من مصر هو وامراته وكل ماكان له ولوط معه الى الجنوب .

وكان ابرام غنيا جدا فى المواشى والفضة والذهب - تكوين ١٢ : ١٠-١٩ ، ١٣ : ١-٢ .

وغنى عن البيان أنه حسب هذا القصة المقدس ، فقد أخذ فرعون سارة زوجة له ، وكان بينهما ما يكون بين الأزواج . ولقد دفع فرعون الى ابراهيم ثمن تمتعه بسارة : بقرا وحميرا وجمالا وعبيدا . وكان ذلك مصدر غنى لنبى الله ابراهيم .

*

وكادت تتكرر نفس المأساة لابراهيم حين تعرضت زوجته سارة لمحاولة سطو على عرضها من ابيمالك ملك جرار بفلسطين - لكن ارادة الله تدخلت ومنعت ذلك الملك أن يمس المرأة .

وقد عنف ابيمالك ابراهيم كثيرا على انكاره الزوجية بسارة ، وماترتب على ذلك من محاولة اغتصابها . ولم يجد ابراهيم ما يعتذر به سوى أن يقول أن سارة فى حقيقتها أخته بنت أبيه ، ولكنها ليست بنت أمه ، ولما كانت هذه الأخت غير شقيقة لابراهيم فقد اتخذها زوجة له :

« وانتقل ابراهيم . . . وتفرب فى جرار . وقال ابراهيم عن سارة امراته هى أختى . فأرسل ابيمالك ملك جرار وأخذ سارة . فجاء الله الى ابيمالك فى حلم الليل وقال له ها أنت ميت من أجل المرأة التى أخذتها فانها متزوجة ببعل . ولكن لم يكن ابيمالك قد اقترب اليها .

قال ياسيد أمة باراة تقتل . ألم يقل هو لى أنها أختى وهى أيضا نفسها قالت هو أختى . بسلامة قلبى ونقاوة يدي فعلت هذا .

فقال له الله فى الحلم أنا أيضا علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا . وأنا أيضا أمسكتك عن أن تخطيء الى . لذلك لم أدعك تمسها . فلأن رد امرأة الرجل فانه نبى فيصلى لاجلك فتحيا . .

ثم دعا ايمالك ابراهيم وقال له ماذا فعلت بنا وبماذا اخطأت اليك حتى جلبت على وعلى مملكتى خطية عظيمة . أعمالا لا تعمل عملت بي ..
فقال ابراهيم انى قلت ليس فى هذا الموضع خوف الله البتة . فيقتلوننى لاجل امراتى .

وبالحقيقة هى أختى ابنة أبى . غير أنها ليست ابنة أمى . فصارت لى زوجة . وحدث لما أتاهنى الله من بيت أبى أنى قلت لها هذا معروفك الذى تصنعين الى . فى كل مكان تأتى اليه قولى عنى هو أختى - تكوين ٢٠ : ١ - ١٣
وتقرر توراة موسى أن زواج الأخ بأخته سواء كانت شقيقة أم لم تكن انما هو زنى عقوبته القتل امام أعين الناس :

« اذا اخذ رجل اخته بنت أبيه أو بنت أمه ورأى عورتها ورأت عورته فذلك عار . يقطعان امام أعين شعبهما . قد كشف عورة اخته يحمل ذنبه - لاويين ٢٠ : ١٧ »



العهد والأرض

ابراهيم يستوطن أرض كنعان :

تخبرنا الأسفار أن اقامة ابراهيم فى أرض كنعان كانت نتيجة لرغبة لوط ابن أخيه فى الإقامة بالأردن . فلقد حدثت مخاصمة بين رعاة كل منهما ، اضطر معها ابراهيم الى التدخل حتى يضمن حسن العلاقة مع ابن أخيه . من أجل ذلك اقترح ابراهيم على لوط أن يختار من الأرض مايشاء ، وأنداك سيرحل عنها ابراهيم الى أرض أخرى . فاختار لوط أرضا خصبة فى الأردن، فكسوها الخضرة والزرع المثمرة كمصر جنة الله فى أرضه :

« قال ابرام للوط لاتكن مخاصمة بينى وبينك وبين رعائى ورعاتك لاننا نحن اخوان اليست كل الأرض امامك . اعتزل عنى أن ذهبت شمالا فأنا يمينا وان يمينا فأنا شمالا . فرفع لوط عينيه ورأى كل دائرة الأردن أن جميعها سقى .. كجنة الرب كأرض مصر .. فاختار لوط لنفسه كل دائرة الأردن وارتحل لوط شرقا فاعتزل الواحد عن الآخر .

ابرام سكن فى أرض كنعان ولوط سكن فى مدن الدائرة ونقل خيامه الى سدوم . تكوين ١٣ : ٨ - ١٢ » .



العهد الإلهي :

وبعد أن استقر إبراهيم في أرض كنعان ، جاءه وعد الهى بأن تكون له ولنسله تلك الأرض . وحتى ذلك الوقت كان نسل إبراهيم بظهر الغيب ، إذ أنه مازال عقيما .

« وقال الرب لإبرام بعد اعتزال لوط عنه . ارفع عينيك وانظر من الموضع الذى أنت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا . لأن جميع الأرض التى أنت ترى أعطيها لك ولنسلك الى الأبد واجعل نسلك كتراب الأرض . حتى اذا استطاع أحد أن يعد تراب الأرض فنسلك أيضا يعد . قم امش في الأرض طولها وعرضها لأنى لك أعطيها .

فنقل الإبرام خيامه وأتى وأقام عند بلوطات ممرا التى في حبرون
- تكوين ١٣ : ١٤ - ١٨ . »

ومن الأمور الواضحة هنا أن أرض الموعد لاتضم أرض الاردن التى سكنها لوط وذريته من بعده وهم الموابيون والعمونيون - لكن أرض الموعد يمكن تحديدها بمنطقة تقع في مرمى البصر لإبراهيم ، أو أنها على أكثر تقدير منطقة يحددها نشاط إبراهيم وتجواله في الرعى والتجارة .



ثم جاء وحى الله لإبراهيم في الرؤيا يبشره بذرية كثيرة ، ويقطع معه ميثاقا :

« بعد هذه الامور صار كلام الرب الى إبرام في الرؤيا قائلا . لا تخف يا إبرام أنا ترس لك فقال إبرام أيها السيد الرب ماذا تعطينى وأنا ماض عقيما ومالك بيتى هو اليعازار الدمشقى . . انك لم تعطينى نسلا . . فاذا كلام الرب اليه قائلا . لا يرتك هذا بل الذى يخرج من أحشائك هو يرثك ثم أخرجه الى خارج وقال انظر الى السماء وعد النجوم ان استطعت أن تعدها وقال له هكذا يكون نسلك . فأمن بالرب فحسبه له برا .

وقال له أنا الرب الذى أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لثريتها . .

في ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام . ميثاقا قائلا : لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات - تكوين ١٥ : ١ - ١٨ . »

ومن المعلوم أن العهد أو الميثاق انما يكون شريعة بين طرفين أو اكثر ، يحدد لكل موقفه أمام الآخر بالنسبة لما تم توثيقه والتعاقد عليه . وعلى هذا فان مانحن بصدده ليس عهدا ولكنه وعد . وعلى أى حال فسوف نترك الكلام عن هذا العهد الإلهي الآن حتى تزيدنا الأسفار من أمره وضوحا حين نتكلم عن « تجديد العهد » بعد قليل .

وواضح أن أرض الموعد هنا يقصد بها مساحة تمتد من نهر الفرات شرقا الى نهر مصر غربا وهذا الأخير هو ما يعرف باسم وادي العريش . وهو مجرى (خور) يسير فيه الماء أثناء المطر ، يبدأ قرب منتصف الطرف الشمالي الشرقي لشبه جزيرة سيناء وينتهي عند العريش .

ولقد أردت من هذا الاستطراد أن أزيل كل لبس قد يحدث عند الكلام عن « نهر مصر » حتى لا يفهم أحد - خطأ - أن المقصود هو « نهر النيل » إذ لاعلاقة اطلاقا بين الاثنين سوى اشتراكهما في اللفظ فقط .

* * *

تحقق البشرى ومولد اسماعيل :

تزوج ابراهيم من هاجر المصرية ، التي ما أن حملت منه حتى دبت الغيرة في قلب زوجته الأولى سارة ، فاضطهدتها حتى « هربت من وجهها . فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية . .

وقال لها ملاك الرب تكثيرا اكثر نسلك فلا يعد من الكثرة .
وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابنا وتدعين اسمه اسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك . وانه يكون انسانا وحشيا . يده على كل واحد ويد كل واحد عليه وأمام جميع اخوته يسكن . .

فولدت هاجر لابرام ابنا ، ودعا ابرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر اسماعيل وكان ابراهيم ابن ست وثمانين سنة - تكوين ١٦ : ٦ - ١٦ .

*

تجديد العهد :

بعد مولد اسماعيل بثلاثة عشر عاما جاء الوحي لابراهيم يجدد له العهد - ويبيئه اذ يجعل من ابراهيم وذريته أمما تؤمن بالله الواحد رب العالمين ، ثم يقرر الختان علامة لذلك الميثاق ، لا يبطلها الا من تحلل من عهد الله - فاستحق بذلك القتل :

« ولما كان ابرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لابرام وقال له : أنا الله القدير سر امامى وكن كاملا . فاجعل عهدى بينى وبينك واكثرك كثيرا جدا .

فسقط ابرام على وجهه وتكلم الله معه قائلا . أما أنا فهو ذا عهدى معك وتكون أبا لجمهور من الأمم فلا يدعى اسمك بعد ابرام بل يكون اسمك ابراهيم .

وأقيم عهدي بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهدا أبديا
لاكون لها لك ولنسلك من بعدك . وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك
كل أرض كنعان ملكا أبديا وأكون لهم .

وقال الله لابراهيم وأما أنت فتحفظ عهدي أنت ونسلك من بعدك .
يختن منكم كل ذكر فتختنون فى لحم غرلتكم فىكون علامة عهد بينى وبينكم .
فىكون عهدي فى لحمكم عهدا أبديا - وأما الذكر الأغلف الذى لا يختن فى لحم
غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها أنه قد نكث عهدي .

وقال الله لابراهيم ساراي امرأتك لاتدعو اسمها ساراي بل اسمها
سارة وأباركها وأعطيك أيضا منها ابنا . .
فأخذ ابراهيم اسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته . . وختن لحم غرلتهم
فى ذلك اليوم عينه كما كلمه الله .

وكان ابراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن . . وكان اسماعيل
ابن ثلاثة عشر سنة حين ختن - تكوين ١٧ « .
ويمكن اجمال عناصر العهد الالهى لابراهيم فى الآتى :

١ - عهد الله بين ابراهيم وبين نسله من بعده ، أن يكون الخالق العظيم
لهم ربا والها ، له عليهم حق العبادة والسلوك حسب شريعته ، فىكونون
بذلك هم عبيده الذين ينعمون بشرف التعامل معه ويتقبلون فى نعمائه .

٢ - وبناء على ذلك فقد أعطى الله أرض كنعان لابراهيم ولنسله من
بعده لتكون لهم ملكا أبديا .

وهنا نلاحظ أن أرض الموعد تقل كثيرا هذه المرة عما سبق ترديده من
إنها الأرض التى تمتد من نهر الفرات شرقا الى نهر مصر (وادى
العريش) غربا .

ولما كان الكلام عن أرض الموعد قد تأكد هذه المرة بأن المقصود بها
أرض كنعان ، فلا معنى بعد ذلك للكلام عن تلك الأرض الواسعة (نهر
الفرات - نهر مصر) -والتى جاء ذكرها قبل ذلك بأكثر من ثلاثة عشر عاما .
وعلى ذلك فسوف تكون مناقشتنا لأرض الموعد باعتبارها أرض كنعان
ولا شىء أكثر من ذلك .

٣ - وقد جعل الختان علامة للعهد بين الله ، وبين ابراهيم ونسله
الذى سيكون شعوبا كثيرة وليس شعبا واحدا . وكان اسماعيل هو أول
نسل ابراهيم الذين صدقت فيهم البشرى وصدق فيهم حفظ العهد .

ذرية ابراهيم :

عرفنا مما سبق أن ابراهيم رزق بولده البكر اسماعيل من زوجه هاجر .

كذلك رزق ابراهيم بولده الثانى اسحق من زوجه سارة .
« وفعل الرب لسارة كما تكلم . فحبلت وولدت لابراهيم ابناً في شيخوخته . . ودعا ابراهيم اسم ابنه المولود الذى ولدته سارة اسحق . .
وكان ابراهيم ابن مائة سنة حين ولد له اسحق ابنه - تكوين ٢١ : ٤ » .
وبذلك يكون لابراهيم وعمره ١٠٠ عام ولدان : الاول بكره اسماعيل من هاجر المصرية الذى ولدته وعمر ابراهيم آنذاك ٨٦ عاماً .

*

والثانى ولده اسحق الذى ولدته سارة بعد مولد اسماعيل بنحو ١٤ عاماً ثم اتخذ ابراهيم زوجة ثالثة تدعى قطورة ، وأنجب منها أبناء كثيرين ، كانوا آباء لقبائل وشعوب استقرت في فلسطين والاردن وشبه الجزيرة العربية وكان منهم المديانيون الذى أصهر اليهم موسى .

« وعاد ابراهيم فأخذ زوجة اسمها قطورة فولدت له : زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحا .
وولد يقشان شبا وددان .
وكان بنو ددان اشوريم ولطوشيم ولأميم .
وبنو مديان عيفة وعفر وحنوك وايبداع والدعة .

جميع هؤلاء بنو قطورة - تكوين ٢٥ : ١ - ٤ » .

ومن الواضح هنا - وحسبما تذكره هذه الفقرات الأولى من الاصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين - أن قبائل كثيرة قد خرجت من ابراهيم وقطورة ، لم تذكر لنا الأسفار من أنسابها سوى النذر اليسير .

*

كذلك كان لابراهيم سرارى أنجب منهم ذرية تحمل اسمه وتشارك في مجده .

« وأما بنو السرارى اللواتى كانت لابراهيم فأعطاهم ابراهيم عطايا وصرّهم عن اسحق ابنه شرقاً الى أرض المشرق وهو بعد حى - تكوين ٢٥ : ٦ »

حقيقة الذبيح ابن ابراهيم

نقرأ في الأسفار أن الله أراد أن يمتحن ابراهيم ليظهر مقدار ثقته فيه، والرضا بقضائه ، فألقى اليه الأمر الإلهي بذبح ابنه - وحيدته - الذي جاء قرّة عين لأبيه ، واعطاه ابراهيم كل حبه . وفي هذا تقول الأسفار :

« وحدث بعد هذه الامور أن الله امتحن ابراهيم فقال له يا ابراهيم فقال هاأذا فقال خذ ابنك وحيدك الذي تحبه اسحق واذهب الى أرض المريا واصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك .

فبكر ابراهيم صباحا وشد على حماره وأخذ اثنين من غلماناه معه واسحق ابنه وشقق حطبا لمحرقة وقام وذهب الى الموضع الذي قال له الله . وفي اليوم الثالث رفع ابراهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد . فقال ابراهيم لغلاميه اجلسا انما هاهنا مع الحمار . أما أنا والغلام فنذهب الى هناك ونسجد ثم نرجع اليكما . .

فلما أتيا الى الموضع الذي قال له الله بنى هناك ابراهيم المذبح ورتب الحطب وربط اسحق ابنه ووضع على المذبح فوق الحطب . ثم مدا ابراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه . فناداه ملاك الرب من السماء وقال ابراهيم ابراهيم . فقال لا تمتد يدك الى الغلام ولا تفعل به شيئا لأنى علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عنى .

فرفع ابراهيم عينيه ونظر واذا كبش وراءه ممسكا في الغابة بقربيه . فذهب ابراهيم وأخذ الكبش واصعده محرقة عوضا عن ابنه .

ونادى ملاك الرب ابراهيم ثانية من السماء وقال بذاتى اقسمت يقول الرب . انى من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك اباركك بمباركة وأكثر نسلك تكثيرا كنجوم السماء وكالرمل الذى على شاطئ البحر . ويرث نسلك باب أعدائه . ويتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض . من أجل أنك سمعت لقولى .

ثم رجع ابراهيم الى غلاميه . فقاموا وذهبوا معا الى بئر سبع . وسكن ابراهيم فى بئر سبع - تكوين ٢٢ : ١-١٩ » .

ويمكن تلخيص قصة الذبيح فيما يلى :

- أراد الله أن يمتحن ابراهيم فأمره بذبح ابنه وحيدته الذى يحبه .

- ولقد استسلم ابراهيم لأمر الله ، وجدفى تنفيذه بكل ما أوتى من عزم
وحين بلغ الأمر غايته وظهر صدق ايمان ابراهيم - أمام نفسه وأمام
الخلق - فان رحمة الله تداركت الوالد والولد . واستبدل الذبيح الانسان
بآخر حيوان .

- ومن أجل ذلك اجزل الله العطاء لابراهيم ، فوعده بالخير والبركة له
ولنسله من بعده - ولا شك أن أول من يتحقق فيهم ذلك الوعد الالهى هم
الذبيح بن ابراهيم وذريته .

وحين نسأل عن شخصية الذبيح ، فان القصة تجيب بوضوح :

- ان الذبيح هو الابن الوحيد لابراهيم وقد تأكد ذلك من تكرار :
« ابنك وحيدك » ثلاث مرات .

- وأن القصة تقرر كذلك أن الذبيح هو اسحق الذى التصق اسمه
بلفظ « ابنك وحيدك » وهنا يبرز عدد من الملاحظات نجلها في الآتى :

- عرفنا مما سبق أن اسماعيل يكبر أخاه اسحق بأربعة عشر عاما .
وعلى ذلك يكون لابراهيم ابن وحيد فى احدى الحالتين الآتيتين :

الأولى - أن تكون قصة امتحان ابراهيم قد جرت حوادثها فى فترة
الأربعة عشر عاما التى امتدت من بعد مولد اسماعيل حتى قرب مولد اسحق
وفى هذه الحالة يكون الذبيح هو اسماعيل الابن الوحيد لابراهيم والذى لابد
وأن يحبه كل الحب .

الثانية - أو أن تكون حادثة الذبيح قد جرت لاسحق بشرط وفاة
أخيه الاكبر اسماعيل وبذلك يكون اسحق هو الابن الوحيد لابراهيم .
لكننا نعلم أن اسماعيل عاش حياة طويلة بلغت ١٣٧ عاما .
« وهذه سنو حياة اسماعيل مائة وسبع وثلاثون سنة - تكون .
٢٥ : ١٧ » .

كذلك فان كلا من اسماعيل وأخيه اسحق قد حضرا وفاة والدهما
ابراهيم واشتركا فى دفنه :

« وأسلم ابراهيم روحه ومات بشيبة سالحة .. ودفنه اسحق
واسماعيل - تكوين ٢٥ : ٨ - ٩ » .

وإذا تكون الحالة الثانية ممتنعة الحدوث . وتكون قصة الذبيح قد
جرت حوادثها بعد أن ولد اسماعيل ونما وصار أنيس أبيه ، ولكن قبل
مولد اسحق .

— ولقد رزق إبراهيم بولده البكر اسماعيل بعد طول عناء ، وتردد محير بين اليأس والرجاء وما دام الأمر كذلك ، فمن الطبيعي أن يتعلق قلب إبراهيم بولده هذا الوحيد .

وإذا أضفنا الى ذلك ما كان من أمر اسماعيل نفسه ، اذا انه نشأ قوى البنية مقاتلا ممتازا ، وصيادا ماهرا — فان ذلك مما يزيد من حب أبيه اليه . فلقد كانت بشارة الملاك لأمه قبل مولده : « انه يكون انسانا وحشيا يده على كل واحد ، ويد كل واحد عليه — تكوين ١٦ : ١٢ » .

وبعد أن كبر اسماعيل واشتد عوده ، نجد الأسفار تقول فيه : « وكان الله مع الغلام فكبر .. وكان ينمو رامى قوس — تكوين ٢١ : ٢٠ » .

كذلك فانا نجد عدة مناسبات تبين لنا مدى تعلق إبراهيم بابنه اسماعيل وعلى سبيل المثال :

١ — بعد ثلاثة عشر عاما من مولد اسماعيل ، ظهر الرب لإبراهيم يؤكد له العهد ويجعل الختان له علامة ، ويبارك إبراهيم والصالحين فقط من نسله ثم يبشره بأسحق وليدا من سارة .

ولما كان اسماعيل شغل أبيه الشاغل ، فقد اغتم إبراهيم تلك الفرصة ، وأخذ يدعو الله أن يكأ اسماعيل برعايته . فاستجاب له الله ووعدته خيرا في اسماعيل :

« وقال الله لإبراهيم ساراي امرأتك .. أباركها وأعطيك أيضا منها ابنا .. وقال إبراهيم ليت اسماعيل يعيش أمامك فقال الله .. قد سمعت لك فيه — تكوين ١٧ : ١٥ — ٢٠ »

٢ — وبعد أن ولدت سارة اسحق فانها حرضت إبراهيم على طرد هاجر وابنها اسماعيل . ومع أن إبراهيم كان له آنذاك ولدان — اسماعيل واسحق — وكان يمكن أن يتعزى بولده اسحق حين يفارقه اسماعيل ، الا أن كلام سارة أغضب إبراهيم كثيرا ، وساءه أشد الاستياء لأنه كان موجها ضد مستقبل ابنه الذي يحبه اسماعيل :

« ورات سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح . فقالت أطرد هذه الجارية وابنها . لأن ابن الجارية لا يرث مع ابني اسحق . فقبح الكلام جدا في عيني إبراهيم لسبب ابنه — تكوين ٢١ : ١٩ — ١١ » .

٣ — يذكر « التلمود » شذرات عن حياة اسماعيل وعلاقته بأبيه ، الذي كان يتردد على بيت ابنه في موطنه البعيد — بالجزيرة العربية — بين الحين والحين ، ليطمئن عليه ، ويقوم أمر بيته حين يرى به عوجا .

وفي هذا يقول التلمود : « لقد عاش اسماعيل مع أمه فترة من الزمن في بيرة فاران ثم رحلا الى مصر حيث تزوج اسماعيل وأنجب هناك أربعة أولاد وبنتا واحدة . لكنه سرعان ما عاد الى البرية موطنه المفضل حيث بنى الخيام لنفسه ولعائلته وشعبه فقد باركه الله وجعله مالكا للكثير من قطعان الماشية والأغنام .

وحدث بعد عدة سنوات أن استسلم ابراهيم لرغبة كانت تتملكه دائما لزيارة ابنه اسماعيل . فأخبر سارة بذلك ثم بدأ رحلته على جمل (١) . ولما وصل الى مسكن ابنه اسماعيل وجده خارجا يصطاد ووجد زوجته التي لم تكن تعرف حماها فعاملته بجفاء ، ورفضت تقديم الماء والطعام اليه . فقال لها ابراهيم :

« عندما يعود زوجك ، صفى له مظهرى ثم قولى له : جاءنا رجل عجوز من أرض الفلسطينيين وهو يطلب منك أن تستبدل وتد خيمتك بأخر أصلح منه ، ثم ركب ابراهيم دابته وانصرف . ولما عاد اسماعيل وقصت عليه زوجته الخبر ، أيقن اسماعيل أن الزائر كان أباه ابراهيم ، وأن زوجته لم تحسن معاملته ، فطلقها وتزوج بأخرى » .

ويذكر التلمود أن القصة تكررت ثانية بعد نحو ثلاث سنوات ، ولكن في تلك المرة كانت زوجة اسماعيل الجديدة كريمة مع حماها . ولما رجع اسماعيل الى بيته وعلم ما حدث سر كثيرا بزوجه ثم « أخذ زوجته وعائلته وسافر لزيارة والده ، وبقوا معه هناك في أرض فلسطين عدة أيام » . (٢)

ولاشك ان القصة على هذا النحو تعطى دلالات هامة منها :
- أن ابراهيم كان شديد التعلق بابنه اسماعيل - رغم استقرار حياته مع سارة وابنها اسحق ، وكان اسماعيل هو الابن المقرب الى قلب أبيه .
- كذلك نعلم ان موطن اسماعيل كان بعيدا عن أرض الفلسطينيين بحيث لو ظهر فيه رجل منهم لكان غريبا . ولقد كان ذلك الموطن في الصحراء العربية المجاورة لفلسطين حيث الجمل هو وسيلة الانتقال الرئيسية .

(١) من المهم أن نذكر النص الانجليزي لهذه الفقرة نقلا عن الترجمة الانجليزية للتلمود ، للكاتب اليهودى بولانو ، وهو كالآتى :
« Abraham, yielding to a longing which had always possessed him, determined to visit his son, and informing Sarah of his intention he started off alone, upon a camel » .

H. Polano : THE TALMUD ... ٥٤ ، ٥٣ ص ١٨

(٢) المرجع رقم ١٨ ص ٥٤

وكل هذا يتفق تماما مع ما تذكره المراجع العربية من هجرة اسماعيل الى الحجاز واستقراره هناك ، ثم دوام الصلة بينه وبين ابيه حتى أواخر أيامه .

من كل ذلك يتضح أن اسماعيل كان هو الشخص الوحيد الذى يمكن أن يخاطب فيه ابراهيم فيقال له : « ابنك وحيدك الذى تحبه » .

*

ولاشك أن رغبة سارة فى حرمان اسماعيل من حقوقه الطبيعية فى ابيه ابراهيم انما هو أمر يرفضه ذو الضمائر السليمة وأولهم ابراهيم ، كما ترفضه شريعة الرب التى جاء بها موسى لبنى اسرائيل فيما بعد والتى تقول :

« اذا كان للرجل امرأتان احدهما محبوبة وأخرى مكروهة فولدتهما بنين المحبوبة والمكروهة فان كان الابن البكر للمكروهة فيوم يقسم لبنية ما كان له لا يحق له ان يقدم ابن المحبوبة بكرا على ابن المكروهة البكر . بل يعرف ابن المكروهة بكرا ليعطيه نصيب اثنين من كل ما يوجد عنده لانه أول قدرته له حق البكورية . - تثنية ٢١ : ١٥ - ١٧ » .

فلو تصورنا جدلا أن سارة كانت هى الزوجة المحبوبة ، بينما كانت هاجر هى المكروهة ، لغاز مع ذلك اسماعيل بكر ابراهيم من هاجر بالنصيب الأوفى فى كل ما يتعلق بابيه .

*

كذلك فإن يعقوب قد تزوج الاختين ليئة وراحيل ، كما تزوج - بطريقة تناظر تماما ما حدث لابراهيم - جاريتهما زلفة وبلهة ، وكما أنجب يعقوب من الاختين فانه أنجب كذلك من الجاريتين ومن هؤلاء النسوة الأربعة جاء بنو اسرائيل ليشتروا جميعا فى بناء الكيان الاسرائيلى :

« فلما رأت راحيل انها لم تلد ليعقوب .. أعطته بلهة جاريتها زوجة فدخل عليها يعقوب فحبلت بلهة وولدت ليعقوب ابنا .. دعت اسمه دانا .. وولدت ابنا ثانيا ليعقوب .. دعت اسمه نفتالى .

ولما رأت ليئة انها توقفت عن الولادة أخذت زلفة جاريتها وأعطتها ليعقوب زوجة فولدت زلفة .. ليعقوب ابنا .. دعت اسمه جادا .. وولدت ابنا ثانيا ليعقوب .. دعت اسمه اشير - تكوين ٣٠ : ١ - ١٣ » .

وعلى ذلك فان أى محاولة لحصر ميراث ابراهيم - الروحى والمادى - فى ولده اسحق وذريته مع تجريد اسماعيل وبنيه من ذلك الميراث ، انما هو تعصب ممقوت من صنع البشر ، وافتراء على ما فى الأسفار المقدسة من نصوص ومعانى .

*

٤ - تطالعنا بعض الفقرات التي تحكى بشارات سبقت مولد كل من اسماعيل واسحق . وبدراسة هذه الفقرات نجد أنها تنبئ بما يمكن ان يحدث للأخوين في مستقبل حياتهما . فبالنسبة لاسماعيل نجد ملاك الرب قد بشر هاجر اثناء حملها بوليدتها المنتظر :

« وقال لها ملاك الرب تكثيرا اكثر نسلك فلا يعد من الكثرة . وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى وتلدن ابنا . وتدعين اسمه اسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك .. وأمام جميع اخوته يسكن - تكوين ١٦ » .

ونلاحظ هنا ان البشرى لم تذكر شيئا عن ذرية لاسماعيل في المستقبل بل تكلمت عن نسل لهاجر ، واخوة لاسماعيل . ومادامت هاجر قد حملت من ابراهيم بوليدتها البكر اسماعيل ، فانها يمكن ان تحمل منه ذرية اخرى يتكاثر منها نسل هاجر .

ولا يوجد في تلك البشرى ما يمنع حدوث مكروه لاسماعيل - مثل موته أو قتله قبل أن يكبر وتكون له ذرية .

فلو حدث بعد مولد اسماعيل ان جاء الوحي لابراهيم يأمره بذبح ابنه هذا - ما كان هناك تناقضا بين ما اخبرت به السماء قبل مولد اسماعيل وبعد مولده ، وليس امام ابراهيم آنذاك الا الرضا بأمر الله والشروع في تنفيذه دون تردد . وذلك ما حدث فعلا من ابراهيم .

أما بالنسبة لاسحق فانا نجد أن البشرى التي تلقاها ابراهيم قبل مولد هذا الابن بعام ، قد بشرته كذلك بذرية لاسحق ينجبهم فيما بعد :

« قال الله .. سارة امرأتك تلد لك ابنا وتدعو اسمه اسحق . وأقيم عهدى معه عهدا أبديا لنسله من بعده .. عهدى اقيمه مع اسحق الذى تلده لك سارة في هذا الوقت في السنة الآتية - تكوين ١٧ : ١٩٠ - ٢١ » .

كيف اذا ينبئ وحى السماء ابراهيم بذرية لاسحق - قبل مولده - ويقام معها عهد الله ، ثم يعود وحى السماء ليطلب من ابراهيم أن يذبح ابنه اسحق وهو لازال بعد صبيا لم يتزوج وينجب ذرية .

ولو حدث ذلك الموقف لتشكك ابراهيم في ذلك الذى يأتيه بخبر السماء لما يبدو من التناقض الواضح ، ولتردد ابراهيم في التنفيذ خاصة وان الأمر يتعلق بموت ابنه وحيدته وكيف ؟ قتلا بيد الوالد ابراهيم ؛ ٤ - فلسطين

حاشا ان يتناقض وحى السماء . انما يأتى التناقض حين تتدخل شهوات البشر . والحق الذى نراه واضحا من خلال دراستنا لأسفار العهد القديم ، يجعلنا نقطع بان الذبيح هو اسماعيل بن ابراهيم .

فلقد كان هو الابن البكر الوحيد آنذاك لابراهيم ، ولما نما واشتد عوده قبل ان يبلغ الرابعة عشر من عمره ، امتحن الله به اياه ابراهيم . ولقد كانت رحمة الله مع ابراهيم واسماعيل فاجتازا تلك التجربة الشاقة بسلام ، وحين ظهر الرب لابراهيم وكان عمره ٩٩ عاما ، ودعا الله من اجل ولده اسماعيل وقال :

« ليت اسماعيل يعيش أمامك » - فاستجاب له الله وقال له :

« قد سمعت لك فيه . ها أنا اباركه واثمره وأكثره كثيرا جدا .

اثنى عشر رئيسا يلد وأجعله امة كبيرة - تكوين ١٧ : ١٨ ، ٢٠ . »

وجدير بالذكر ان نسخة المملك جيمس الانجليزية من الكتاب المقدس تصف ذرية اسماعيل فى هذه الفقرة بأنها سبتكون :

« امة عظيمة - a great nation »

وفرق كبير بين الأمة العظيمة والأمة الكبيرة ، اذ ان كل الأمم ترجو ان تكون عظيمة بصرف النظر عما وراء ذلك من كثرة او قلة .



- واذا اعتبرنا الكشف عن حقيقة الذبيح من الأمور الهامة التى اضطربنا الى مناقشتها بشيء من الاسهاب - فلاشك ان الاهم من ذلك ، وهو ما دعانا لهذه المناقشة ، هو معرفة الاتجاه الذى اختطه لأنفسهم كتبة الأسفار من الاسرائيليين ، حين قرروا حصر تركة ابراهيم وكل ما يتعلق بها من تراث مادى وروحى فى ذرية يعقوب بن اسحق بن ابراهيم - ثم طرد كل من سواهم من ذرية ابراهيم حتى لا يكون لهم شرف القسمة فى بيت ابراهيم خليل الله .

ونستطيع الآن أن نقطع يقينا بأن كلمة « اسحق » قد اضيفت عقب « ابنك وحيدك » وذلك بمراجعة التلمود الذى يذكر هذه الفقرة خالية من كلمة اسحق ، وهى تقرأ هكذا :

«And the word of the Lord came unto Abraham, saying :
Take now thy son whom thou Lovest, and offer him for a burnt-offering upon one of the mountains which I will tell thee of.»

ويمكن ترجمتها كالاتى :

« وكان كلام الرب الى ابراهيم - « والآن خذ ابنك وحيدك الذى تحبه واصعده محرقة على احد الجبال الذى اقول لك » (٣) .

وليس عجيبا اذا ان يضيف الكتبة الاسرائيليون كلمة « اسحق » الى الكلمات :

« ابنك وحيدك الذى تحبه » كى يستقر فى الاذهان ان الذبيح هو اسحق . فلقد كانت تلك عاداتهم التى مارسوها كما قرر ذلك العلماء ومنهم اولبريت حين قال :

« ان الميل الذى كان سائدا بين الكتبة ومصنفى الكتب فى الشرق القديم - للاضافة بدلا من الحذف ، قد اثر تأثيرا مباشرا على اعمال العلماء الاقدمين الذين اخرجوا لنا التوراة . ومما يجدر ذكره فى هذا المقام ما اخبرنى به صديق الراحل العالم وينر الذى كان حجة زمانه فى معرفة مصادر توراة موسى اذ قال : انه يعتقد ان مالا يزيد عن تلك الشريعة المنسوبة لموسى هو ماجاء به فعلا ، واما الثلثان الآخران فقد تكونا نتيجة للشروح والحواشى التى اضيفت اخيرا » . (٤)

*

وقد يعجب القارئ لذلك ولعل عجبته يزول حين يقرأ ما تقوله اسفار العهد القديم فى وصف اولئك الكتبة :

« كيف تقولون نحن حكماء وشريعة الرب معنا . انه الى الكذب حولها قلم الكتبة الكاذب - ارميا ٨ : ٨ »

آه من قلم الكتبة الكاذب .. كم طمس من الحق ، وكم اضاف وكم حذف ..

ابراهيم وارض الموعد

لقد عاش ابراهيم فى فلسطين غربيا بين سكانها ومالكها الاصليين ، لم يمتلك فيها موضع قدم . حتى اذا فاجاه موت زوجته سارة ، انطلق يبحث عن مقبرة يمتلكها ليوارى فيها جثمان زوجته وموتى بيته من اللاحقين . وفى هذا كلم ابراهيم بنى حث ليشتري منهم مقبرة ، لكنهم لما كانوا يوقرونه كرجل صالح يعيش بينهم فقد فوضوه ان يختار أفضل مقابرهم هبة منهم دون مقابل .

(٣) المرجع ١٨ - ص ٥٤

W.F. Albright : FROM THE STONE AGE TO CHRISTIANITY.(٤)

ص ٨٠ - المرجع رقم (٢٠)

« كانت حياة سارة مئة وسبعة وعشرين سنة .. وماتت .. فأتى إبراهيم ليندب سارة ويكى عليها وقام إبراهيم من امام ميتته وكلم بنى حث قائلا أنا غريب ونزير عندكم أعطوني ملك قبر معكم أدفن ميتى من امامى .

فأجاب بنو حث إبراهيم قائلين له . اسمعنا ياسيدى انت رئيس من الله بيننا فى افضل قبورنا ادفن ميتك . لا يمنع احد منا قبره عنك حتى لا تدفن ميتك . فقام إبراهيم وسجد لشعب الأرض لبني حث وكلمهم قائلا ان كان فى نفوسكم ان ادفن ميتى من امامى فاسمعونى والتمسوا لى من عفرون بن صوحر ان يعطينى مغارة المكفيلة التى له التى فى طرف حقله بئمن كامل .

فأجاب عفرون الحثى إبراهيم فى مسامع بنى حث .. قائلا . لا ياسيدى اسمعنى . الحقل وهبتك اياه . والمغارة التى فيه لك وهبتها .. ادفن ميتك ..

فسجد إبراهيم امام شعب الأرض وكلم عفرون قائلا .. ليتك تسمعنى . اعطيك ثمن الحقل خذ منى فأدفن ميتى هناك .

فأجاب عفرون قائلا .. الأرض باربع مئة شاقل فضة ما هى بينى وبينك فادفن ميتك فسمع إبراهيم لعفرون ووزن الفضة التى ذكرها .

بعد ذلك دفن إبراهيم سارة امراته فى مغارة حقل المكفيلة .. فوجب الحقل والمغارة التى فيه لإبراهيم ملك قبر عند بنى حث - تكوين ٢٣ « .

تلك هى القصة الكاملة لامتلاك إبراهيم موطننا لموتاه فى أرض الموعد - أرض كنعان - ان صح اعتبار مقابر الموتى ملكا يتوارثه الاحياء ويتنازعون امتلاكه .



ويرى نفر من العلماء ان عملية بيع المغارة بالكيفية التى تمت بها ، انما كانت تمثل فى الواقع صفقة رابحة لملكها الاصلى عفرون الحثى . وفى هذا يقول هاريسون :

« ان الاكتشاف القانون الحثى القديم فى تركيا قد القى ضوءا على عملية بيع مغارة المكفيلة . فمن الواضح أن تلك الصفقة قد كلفت إبراهيم ثمنا باهظا ، ذلك ان القانون الحثى كان يحتم على مشتري الملكية بأكملها ان يقدم بعض الخدمات الالزامية عند انتقال الأرض . اما اذا كان المباع هو جزء من الملكية فان تلك الالتزامات - التى لانعرف ماهيتها - تسقط

عن المشتري ولهذا فقد كانت رغبة ابراهيم ان يشتري جزءا من ملكية عفرون ، حتى يتجنب تلك الالتزامات . لكن عفرون رأى من صالحه ان يلح على ابراهيم كى يقبل الصفقة كلها حتى يجبره على القيام بتلك الالتزامات، وهذا ما حدث اذ أعلنت الصفقة أمام الجمهور ، ودفع الثمن فضة موزونة حسب النظام المعمول به آنذاك « (٥) .

* * *

حقيقة مفهوم الوعد بالأرض :

تقرر اسفار العهد القديم ان ابراهيم تلقى وعوداً واضحة كل الوضوح بأنه شخصياً سوف يمتلك كل أرض كنعان ، هذا بالإضافة الى تملك نسله لها ملكاً ابدياً . وسوف نعيد كتابة هذه النصوص مرة أخرى :

« وقال الرب لابرام بعد اعتزال لوط عنه . ارفع عينيك وانظر من الموضع الذى انت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً لأن جميع الأرض التى انت ترى لك اطيها ولنسلك الى الأبد ..

قم امش فى الأرض طولها وعرضها لأنى لك اعطيها » .

« ولما كان ابرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لابرام وقال له انا الله التقدير سر امامى وكن كاملاً فاجعل عهدى بينى وبينك واكثرك كثيراً جداً ..

واعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً ابدياً » .

ولقد عرفنا مما سبق ان نصيب ابراهيم من أرض كنعان لم يكن سوى مقبرة للموتى اشترها بماله الخاص بعد مفاوضات مع ملاكها الأصليين . وبذلك يمكن القول بأن ابراهيم لم يمتلك شيئاً فى أرض كنعان، باعتبار ان المقابر ليست الا مستقراً للموتى لا يستفيد منه الأحياء .

*

ويتفق هذا القول وهذا المفهوم مع ما تقره أسفار العهد الجديد :

« ظهر اله المجد لأبينا ابراهيم - وقال له اخرج من ارضك ومن عشيرتك وهلم الى الأرض التي اريك فخرج حينئذ من ارض الكلدانيين وسكن في حاران ومن هناك نقله بعد ما مات ابوه الى هذه الأرض التي انتم ساكنون فيها . ولم يعطه فيها ميراثا ولا وطأة قدم .
- أعمال الرسل ٧ : ١ - ٥ » .

ولنا أن نسأل : هل اعطى ابراهيم شيئا من أرض كنعان ؟
والجواب هنا قاطع بأن ابراهيم لم يمتلك شيئا في ارض كنعان سوى مقبرة اشتراها بماله الخاص .

*

وكذلك كان الحال مع اسحق ابن ابراهيم الذي تقول الأسفار انه تلقى وعدا الهيّا بتملك أرض كنعان حيث « ظهر له الرب وقال لانتزل الى مصر . . تغرب في هذه الأرض فأكون معك وأباركك . لاني لك ولنسلك اعطى جميع هذه البلاد - تكوين ٢٦ : ٢ - ٣ » .

لكننا نعلم من الأسفار كذلك ان اسحق بن ابراهيم قد عاش في أرض كنعان غريبا متجولا لم يمتلك فيها موضع قدم . وكانت ثروته تتركز في العبيد والمواشى وما تغله الأرض التي يزرعها من محاصيل . ولأن اسحق لم يمتلك من الأرض شيئا فقد تعرض للطرد والأذى من جانب سكانها الأصليين :

« وزرع اسحق في تلك الأرض فأصاب في تلك السنة مئة ضعف . . فحسده الفلسطينيون . . وجميع الآبار التي حفرها عبيد ابيه . . ابراهيم . طمها الفلسطينيون وملأوها ترابا . وقال ابيمالك لاسحق اذهب من عندنا لأنك صرت اقوى منا جدا .

فمضى اسحق من هناك ونزل في وادي جرار واقام هناك - تكوين ٢٦ : ١٢ - ١٧ » .

*

وكذلك كان الحال مع يعقوب بن اسحق وحفيد ابراهيم . . فالأسفار تقول انه حدث في بعض الأيام أن دعا اسحق ابنه يعقوب وهو شاب لم يتزوج بعد ، وأوصاه أن يتخذ له زوجة من بنات خاله لابان بالعراق ، ثم دعا له بالبركة والخير وقال له :

« الله القدير يباركك ويجعلك مثمرا . . . ويعطيك بركة ابراهيم لك ولنسلك معك . لترث ارض غربتك التي اعطاها الله لابراهيم .

- تكوين ٢٨ : ٣ - ٤ » .

ومما يجب ملاحظته هو أن اسحق لم يدع في هذا القول بما يفيد تملكه شيئاً في أرض كنعان ، لأن هذا كان واقع الأمر ، على عكس ما تقوله الأسفار بعد ذلك وتنسب لاسحق ملكية الأرض .

*

ثم تتكرر الرواية مرة أخرى ، فنعلم أن يعقوب في ذهابه الى العراق « صادف مكانا وبات هناك لأن الشمس كانت قد غابت . . ورأى حلما وإذا سلم منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء . . وهو ذا الرب واقف عليها فقال أنا الرب اله ابراهيم ابيك واله اسحق .

الأرض التي انت مضطجع عليها اعطيها لك ولنسلك - تكوين ٢٨ : ١١ - ١٣ » .

وكذلك بعد أن عاد يعقوب بازواجه وأولاده من العراق ظهر له الله « وباركه وقال له الله . . لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل يكون اسمك اسرائيل . وقال له الله القدير . اثمر واكثر . .

والأرض التي اعطيت ابراهيم واسحق لك اعطيها . ولنسلك من بعدك - تكوين ٣٥ : ٩ - ١٢ » .

ورغم ذلك فإن الشيء الذي تؤكده الأسفار هو أن يعقوب وبنيه عاشوا في أرض كنعان غرباء مستضعفين لم يمتلكوا فيها شيئاً ، وأن اقامتهم في أى بقعة منها كانت مرتبطة برضاء اهلها وموافقتهم . ويتضح ذلك من قصة اغتصاب دينة ابنة يعقوب . فلقد حدث أن خرجت دينة ذات يوم فرآها « شكيم بن حمور الحوى رئيس الأرض وأخذها واضطجع معها وأذلها . وتعلقت نفسه بدينة . . وأحب الفتاة ولاطف الفتاة .

فكلم . . أباه قائلاً خذ لى هذه الصبية زوجة . . فخرج حمور ابوشكيم الى يعقوب ليتكلم معه . .

فأجاب بنو يعقوب شكيم وحمور أباه بمكر وتكلموا . لأنه قد نجس دينة اختهم فقالوا لهما لانستطيع أن نعطي أختنا لرجل اغلف ان صرتم مثلنا . بختنكم كل ذكر نعطيكم بناتنا .

فحسن كلامهم في عيني حمور وفي عيني شكيم . . فأتى حمور وشكيم ابنه الى باب مدينتهما وكلما اهل مدينتهما قائلين :

هؤلاء القوم مسالمون لنا . فليسكنوا في الأرض ويتجروا فيها وهو ذا الأرض واسعة الطرفين امامهم . نأخذ لنا بناتهم زوجات ونعطيهم بناتنا . . لنصير شعبا واحدا . بختننا كل ذكر كما هم مختونون .

الا تكون موشيهم ومقتناهم وكل بهائم لنا .

فسمع لعمور وشكيم ابنه جميع الخارجين من باب المدينة - تكوين
٣٣ : ١٨ - ٢٠ » .

*

ولم يحدث ان امتلك يعقوب شيئاً في أرض كنعان سوى قطعة أرض
صغيرة اشتراها بماله الخاص ، لينصب فيها خيمته ويقيم عليها مذبحاً لله :

« أتى يعقوب سالماً الى مدينة شكيم التي في أرض كنعان .. وابتاع
قطعة الحقل التي نصب فيها خيمته من يد بنى حمور ابى شكيم بمئة قسيطة
واقام هناك مذبحاً ودعاها ايل اله اسرائيل - تكوين ٣٣ : ١٨ - ٢٠ » .

ولقد كانت تلك كل علاقة يعقوب بالأرض حتى رحل عنها بقبيلته
الصغيرة الى مصر أيام سلطان ابنه يوسف ، الى ان توفاه الله ودفن في مغارة
المكفيلة بأرض كنعان ، تنفيذاً لوصية قد أوصى بنيه بها :

« وفعل له بنوه وهكذا كما اوصاهم . حمله بنوه الى أرض كنعان
ودفنوه في مغارة حقل المكفيلة التي اشتراها ابراهيم مع الحقل ملك قبر من
عفرون الحثي .. ثم رجع يوسف الى مصر هو واخوته - تكوين ٥٠ : ١٢ -
١٤ » .

نتائج محددة :

ونصل من ذلك كله الى نتائج محده منها :

١ - أن ابراهيم لم يتلق وعداً بتملك أرض كنعان ، وأن ما نجده
في أسفار العهد القديم هو من صنع الكتبة الاسرائيليين الذين لم يراعوا
الدقة فيما خلفوه من كتابات . إذ أن الواقع التاريخي ينفي حدوث تلك
الملكية لابراهيم في أى وقت من الأوقات ، الأمر الذى يفرض على أصحاب
العقائد السماوية رفض حدوث أى وعد الهى لابراهيم بتملك الأرض ، إذ
لو كان حدث ذلك الوعد لكان واجب التحقيق .

٢ - أو أن ابراهيم تلقى وعداً بتملك الأرض ولكن مفهوم تلك الملكية
يجب أن يخرج عن الاطار المادى لتملك الأشياء . ولكى لا يتعارض ماتقوله
الأسفار المقدسة مع الحقيقة فانه يجب تأويلها بأن ملكية أرض كنعان
لا تعنى سوى اتخاذها مهوى تتعلق به القلوب ، ومزارا تحج اليه النفوس ،
باعتبارها بقعة مقدسة شهدت تجليات الهية ، ونزل فيها الوحي الى رجال
الله القديسين من عبيده الأنبياء والصالحين .

٣ - وفي جميع الحالات والتأويلات فان كل ما يتعلق بالوعد الالهي لابراهيم مشروط بصدق العقيدة وصالح العمل . بحيث اذا امتنع ذلك الشرط امتنع تحقيق الوعد بمفاهيمه المادية والروحية على السواء . ويتضح ذلك تماما من قول الله لابراهيم :

« سر امامى وكن كاملا . فاجعل عهدى بينى وبينك »

العرب والاسرائيليون في أسفار العهد القديم

رأينا فيما سبق أن نسل ابراهيم ينحصر في أربعة فروع تأتي من نسائه الكثيرات وهم :

اسماعيل بن هاجر وهو بكر أبيه وله حق البكورية ، كما رأينا سلفا ، واسحق بن سارة ، وابناء قطورة ، وبنو السرارى اللاتي كن لابراهيم .

وبعد أن نقرر أنه لايمكن اسقاط حق أى من هؤلاء في المشاركة فيما يكون لابراهيم ، فانا نجد في الأسفار المقدسة ما يقص علينا أخبار فرعين متميزين من نسل ابراهيم هما : الاسماعيليون والاسرائيليون . ولسوف نعرض بايجاز الصورة العامة لكل منهما .

*

الاسماعيليون :

رغم أن اخبار اسماعيل مقتضية في أسفار العهد القديم ، فان اخبار ذريته كثيرة تملأ تلك الأسفار ويضرب بها المثل في الحكمة والفهم والثروة والتجارة والقوة .

ولقد انجب اسماعيل اثني عشر رئيسا - أو اثني عشر أميرا حسب نسخة الملك جيمس الانجليزية - استقروا في مدنهم وحصونهم ، هم وذرياتهم على مساحة واسعة تمتد شمالا من مصر الى العراق ، وتشمل في جنوبها اغلب شبة الجزيرة العربية :

« وهذه أسماء بنى اسماعيل بأسمائهم حسب مواليدهم . نبايوت بكر اسماعيل وقيدار وادبئيل ومبسام . ومشماع ودومة ومسا . وحدار وتيما ويطور ونافيش وقدمه .

هؤلاء بنو اسماعيل وهذه أسماؤهم بديارهم وحصونهم . اثنا عشر رئيسا حسب قبائلهم وهذه سنو حياة اسماعيل مئة وسبع وثلاثون سنة وأسلم روحه انضم إلى قومه . وسكنوا من حويلة إلى شور التي أمام مصر حينما تجيء نحو آشور - تكوين ٢٥ : ١٣ - ١٨ .

*

والاسماعيليون هم الذين اشتروا يوسف عندما كان أخوته يتآمرون عليه لقتله ، وهم الذين جاءوا بيوسف إلى مصر حيث كان له فيما بعد شأن عظيم استفاد منه الإسرائيليون كثيرا . وفي ذلك تقول الأسفار أن أخوة يوسف « أخذوه وطرحوه في البئر .. ثم جلسوا ليأكلوا طعاما فرفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلة اسماعيليين مقلبة من جلعاد وجمالهم حاملة كثيرا وبلسانا ولاذنا ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر . فقال يهوذا لأخوته .. تعالوا فنبيعه للاسماعيليين ..

وأجتاز رجال مديانين فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للاسماعيليين بعشرين من الفضة فأتوا بيوسف إلى مصر .. وأما المديانين فباعوه في مصر إلى فوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط - تكوين ٣٧ : ٢٤ - ٣٦ .

لكن كاتب السفر يعود بعد ذلك ليقول ان الاسماعيليين هم الذين باعوه لفوطيفار :

« وأما يوسف فانزل إلى مصر واشتراه فوطيفار خصي فرعون .. من يد الاسماعيليين الذين أنزلوه إلى هناك - تكوين ٣٩ : ١ . »

*

ويضرب سليمان المثل بجمال مساكن قي دار أبناء اسماعيل فيقول :
« أنا سوداء وجميلة يا بنات اورشليم كخيام قي دار - نشيد الانشاد ١ : ٥ . »

*

وفي مرثاة لحزقيال على مدينة صور نجده يذكر فضل التجار العرب من الاسماعيليين - أبناء قي دار - في تنشيط ثرواتها : « العرب وكل رؤساء قي دار هم تجار يدك بالخرفان والكباش والاعتدة في هذه كانوا تجارك . تجار شبا ورعمة هم تجارك بأفخر كل أنواع الطيب وبكل حجر كريم والذهب أقاموا أسواقك - حزقيال ٢٧ : ٢١ - ٢٢ . »

*

وعرف عن الاسماعيليين وفرة غناهم وكثرة ذهبهم . ففي احدي الحروب التي انقض فيها الاسرائيليون على المديانيين ، طلب منهم قائدهم الغنائم التي اخذوها فكانت مقادير كبيرة من حلى الذهب . « وقال لهم جدعون اطلب مذكم طلبة ان تعطوني كل واحد اقراط غنيمته لانه كان لهم اقراط ذهب لانهم اسماعيليون .

فقالوا اننا نعطي وفرشوا رداء وطرخوا عليه كل واحد اقراط غنيمته وكان وزن اقراط الذهب التي طلب الفا وسبع مئة شاقل ذهباً ما عدا الاهله والحلق وأثواب الأرجوان التي على ملوك مديان وماعدا القلائد التي في اعناق جمالهم - قضاة ٨ : ٢٤ - ٢٦ » .

وجدير بالذكر انه من هذه الفقرات وأمثالها - كما رأينا في قصة بيع يوسف منذ قليل - قرر الباحثون أن المديانيين والاسماعيليين شعب عربي واحد .



ويهتف اشعياء في نبوءاته باسم نبي عربي يظهر في العرب الاسماعيليين - أبناء قيدار - الذين استوطنوا البرية - بلاد العرب (اشعياء ٢١) .
وينهض الله عزيمته فيجعله رجل حرب مغوار ، يهزم به الكافر والكافرين ، ويخزي به المشركين من عبدة الأصنام والتماثيل .

والنبي شريعة جديدة تنتظرها أمم الأرض ، ومن تعاليمه يقيم المؤمنون لله صلوات وتسابيحاً جديدة ، ويفد الحجيج الى بلاد العرب الفقيرة ليذكروا اسم الله فوق رؤوس الجبال ، ويفتح الله بهذا النبي على العرب الممالك والأمصار ، ويسيرهم في طرق خير لم يعرفوها من قبل ، ويخرجهم من الظلمات الى النور ، ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً .

ثم هو أولاً وأخيراً عبد الله ومختاره ومصطفاه :

« هوذا عبدي الذي أعضده ، مختاري الذي سرت به نفسي وضمت روعي عليه فيخرج الحق للأمم ..

لا يسكل ولا ينكسر حتى يوضع الحق في الأرض وتنتظر الجزائر شريعته ..

إنا الرب قد دعوتك بالبر فأمسك بيدك واحفظك عهداً للشعب ونورا للأمم لتفتح عيون العمى ، لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن الجالسين في الظلمة ..

غنوا للرب اغنية جديدة تسبيحه من اقصى الأرض ايها المنحدرون في البحر وملؤه والجزائر وسكانها .

لترفع البرية ومدنها صوتها ، الديار التي سكنها قي دار . لتترنم سكان
مسالع من رؤوس الجبال ليهتفوا . ليعطوا للرب مجدا ويخبروا بتسبيحه في
الجزائر .

الرب كالجبار يخرج . كرجل حروب . ينهض غيرته . يهتف
ويصرخ ويقوى على أعدائه ..

اسير العمى في طرق لم يعرفوها .. اجعل الظلمة امامهم نورا
والموجات مستقيمة . يخزي خزيا المتكلمون على المنحوتات القائلون
للمسبوكات اتن آلهتنا ..

الرب قد سر من اجل بره . يعظم الشريعة ويكرمها .. - اشعياء
٤٢ : « .

*

ويجب ان يكون معلوما ان « رجل الحرب » صفة من صفات القوة
والجلال التي يدعى بها الله في الصلوات والتضرعات ، كما قال موسى في
تسبيحه :

« هذا الهى فأمجده . اله ابي فارفعه . الرب رجل الحرب . الرب
اسمه - خروج ١٥ : ٢ - ٣ » .

و « رجل الحرب » يختلف تماما عن « رجل الدماء » اذ ان الاخير
يعنى رجل الشر والمظالم والظفيان .

*

ولقد ظهر في قبيلة مسا - الأمير السابع من ابناء اسماعيل - حكماء
مثل أجور ولوئيل الذين حفظت حكمتهم ووحيمهم في سفر الأمثال :

« كلام أجور ابن متقية مسا . وحى هذا الرجل الى اثيينيل ..
كل كلمة من الله نقية .. لاتزد على كلماته لئلا يوبخك فتكذب ..
اثنين سألت منك فلا تمنعهما عنى قبل ان أموت ابعده عنى الباطل
والكذب - امثال ٣٠ » .

« كلام لموئيل ملك مسا . عظمته انه أمه ..
ليس للملوك أن يشربوا خمرا ولا للعظماء المسكر . لئلا يشربوا أو
ينسوا المفروض ويغيروا حجة كل بنى المدلة .

افتح فمك لأجل الأخرس في دعوى كل يتيم . افتح فمك . اقض
بالعدل وحام عن الفقير المسكين - امثال ٣١ » .

*

ان هذه هي الصورة العامة للاسماعيليين في أسفار العهد القديم .
وهي صورة طيبة ولاشك .

الاسرائيليون :

لانجد ذكرا لقبيلة اسرائيل قبل ان يظهر فيهم موسى . فقد كان ابوهم اسرائيل كما يقول عن نفسه - « ارامياتائها » ، وكانت اسرائيل غنما متبددة . وحتى بعد ان بدأ يتطور الكيان الاسرائيلي على يد موسى فقد بقيت تلك هي الصورة العامة لاسرائيل على مر العصور - غنما متبددة - ولم يحدث تغيير لذلك سوى بضع عشرات من السنين ايام داود وسليمان حين بدأ هناك نوع من الاستقرار . ولا يهمننا ان نعرف موضعهم بين الشعوب بقدر ما تهمننا معرفة موقفهم امام الله ، نظرا لارتباط هذا الموقف بعهد الله لابراهيم وذريته ، وعلاقة ذلك العهد بأرض الموعد . ونجد في اسفار العهد القديم تقريرا مفصلا عن موقف اسرائيل امام الله ، سوف نعرض بايجاز صورا منه على فترات متباعدة تفصل بين كل فترة وأخرى بضع قرون .



اسرائيل على عهد موسى (حوالي عام ١٢٩٠ - ١٢٥٠ ق.م) :

تعرض موسى كثيرا للمواقف الحرجة بل والخطرة امام الله بسبب سلوك بني اسرائيل . ولولا تضرعات موسى وصلواته الى ربه لكان الوجود الاسرائيلي ذكرى عابرة في التاريخ .

« قال الرب لموسى اذهب انزل لانه قد فسد شعبك الذي اصعدته من ارض مصر . زاغوا سريعا عن الطريق الذي اوصيتهم به صنعوا لهم عجلا مسبوكا وسجدوا له وذبحوا له وقالوا هذه آلهتك يا اسرائيل التي اصعدتك من ارض مصر .

وقال الرب لموسى رأيت هذا الشعب واذا هو شعب صلب الرقبة . فالآن اتركني ليحمرى غضبى عليهم وافنيهم ..

فتضرع موسى امام الرب الهه وقال لماذا يارب يحمرى غضبك على شعبك الذي اخرجته من ارض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة لماذا يتكلم المصريون قائلين اخرجهم بخبث ليقتلهم في الجبال ويفنيهم عن وجه الأرض . لرجع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك ..

فندم الرب على الشر الذي قال انه يفعله بشعبه - خروج ٣٢ : ٧ -

١٤ « .



واستمر ذلك هو موقف اسرائيل حتى نهاية عهد موسى . وهو موقف الشعب المتمرد على موسى وحركته التحريرية ، لدرجة التفكير في ثورة مضادة تخلع موسى من قيادة الاسرائيليين ، وتعود بهم الى مصر - ارض ذلهم وعبوديتهم - حيث هناك الشعب والمرعى الوفير :

« واللفيف الذى فى وسطهم اشتهى شهوة . فعاد بنو اسرائيل ايضا وبكوا وقالوا من يطعمنا لحما . قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله فى مصر مجاناً والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم . والآن قد يبست أنفسنا . ليس شئ غير أن اعيننا الى هذا المن - عدد ١١ : ٤ - ٦ »



« وقال الرب لموسى حتى متى يهيننى هذا الشعب وحتى متى لا يصدقوننى بجميع الآيات التى عملت فى وسطهم انى اضربهم بالوباء وايبدهم .

فقال موسى .. الرب طويل الروح كثير الاحسان يفر الذنب والسينة لكنه لا يبرىء بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء الى الجيل الثالث والرابع - عدد ١٤ : ١ - ١٨ » .



اسرائيل حتى عهد داود وسليمان (حوالى ١٠٠٠ - ٩٢٥ ق م .) :
« جربوا وعصوا الله العلى وشهاداته لم يحفظوا بل ارتدوا وغدروا مثل آبائهم . انحرفوا كقوس مخطئة . اغاظوه بمرتفعاتهم واغاروه بتمائثهم .

سمع الله فغضب وردد اسرائيل جدا ورفض مسكن شيلو الخيمة التى نصبها بين الناس وسلم للسبى عزه وجلاله ليد العدو . ودفع الى السيف شعبه وغضب على ميراثه . مختاروه اكلتهم النار وعذاراه لم يحمدن . كهنته سقطوا بالسيف وارانته لم يبكين - مزمو ٧٨ » .



« أخطانا مع آبائنا ، اسأنا وأذنبننا . آباؤنا فى مصر لم يفهموا عجائبك ثم يذكروا كثرة مراحمك اختلطوا بالأمم وتعلموا اعمالهم وعبدوا اصنامهم فصارت لهم شركا .. وتنجسوا بأعمالهم وزنوا بأفعالهم .

فحمى غضب الرب على شعبه وكره ميراثه واسلمهم ليد الأمم وتسلط عليهم مبغضوهم وضغطهم اعداؤهم فذلوا تحت يدهم .

مرات كثيرة انقذهم اما هم فعصوه بمشورتهم وانحطوا بأنهم -
مزمور ١٠٦ . »

*

اسرائيل على عهد نحميا وعزرا (حوالى عام ٤٥٨ - ٤٤٥ ق م .) :

قال عزرا فى صلته : « اللهم انى اخجل واخزى من أن ارفع يا الهى
وجهى نحوك لأن ذنوبنا قد كثرت فوق رؤسنا وآثامنا تعاظمت الى السماء .
منذ أيام آبائنا نحن فى اثم عظيم الى هذا اليوم .

ولأجل ذنوبنا قد دفعنا نحن ومثوكننا وكهنتنا ليد ملوك الأراضى
للسيف والسبى والنهب وخزى الوجوه كهذا اليوم . .

والآن فماذا نقول يا الهنا بعد هذا لأننا قد تركنا وصاياك . .

وبعد كل ما جاء علينا لأجل اعمالنا الرديئة وآثامنا العظيمة . لأنك
قد جازيتنا يا الهنا اقل من اثمنا وأعطيتنا نجاه كهذه . أفنعود ونتعدى
وصاياك . .

أيها الرب اله اسرائيل أنت بار لأننا بقينا ناجين كهذا اليوم . هنا نحن
امامك فى آثامنا لأنه ليس لنا ان نقف امامك من أجل هذا - عزرا : ٩ . »

*

وقال الكهنة فى صلته عن بنى اسرائيل : « عصوا وتمردوا عليك
وطرحوا شريعتك وراء ظهورهم وقتلوا انبيائك الذين اشهدوا عليهم
ليردوهم اليك وعملوا اهانة عظيمة . فدفعتهم ليد مضايقيهم فضايقوهم
وفى وقت ضيقهم صرخوا اليك وأنت من السماء سمعت وحسب مراحمك
الكثيرة أعطيتهم مخلصين خلصوهم من يد مضايقيهم ولكن لما استراحوا
رجعوا الى عمل الشر قدامك فتركهم بيد اعدائهم فتسلطوا عليهم ثم رجعوا
وصرخوا اليك وأنت من السماء سمعت وانقذتهم حسب مراحمك الكثيرة
واشهدت عليهم لتردهم الى شريعتك . واما هم فبغوا ولم يسمعوا
لوصاياك واخطأوا ضد احكامك . . واعطوا كتفا معاندة وصلبوا رقابهم
ولم يسمعوا فاحتملتهم سنين كثيرة واشهدت عليهم بروحك عن يد انبيائك
فلم يصغوا فدفعتهم ليد شعوب الأراضى - نحميا ٩ : ٢٦ - ٣٠ . »

اسرائيل أيام يحيى والمسيح (حوالى عام ٣٠ م .) :

« فى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز فى برية اليهودية . فلما
راى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون الى معموديته قال لهم :
يا اولاد الافاعى من اراكم ان تهربوا من الغضب الآتى . فاصنعوا اثمارة
تليق بالتوبة . ولا تفتكروا ان تقولوا فى انفسكم لنا ابراهيم ابا . لأنى
اقول لكم ان الله قادر ان يقيم من هذه الحجاره اولادا لابراهيم .

والآن قد وضعت الفأس على اصل الشجر . فكل شجرة لاتصنع
ثمرا جيدا تقطع وتلقى في النار - متى ٣ : ١ - ١٠ » .

✱

لقد كان شغل الاسرائيليين الشاغل على مر العصور هو تعلقهم باسم
ابراهيم ، واستعلائهم بسبب ذلك عن بقية خلق الله . وفي محاوراتهم
الكثيرة مع المسيح افهمهم خطأ تلك النظرية العنصرية ، وانهم قد يكونون
اولادا لابراهيم بالجسد لكن اعمالهم وشروطهم تجعلهم في ميزان الحق ابناء
للسيطان . وعندئذ لن يفنى عنهم ابراهيم من الله شيئا ، وتؤول بذلك
امورهم الى الخزي واليوار :

« قال يسوع لليهود الذين آمنو به انكم ان ثبتتم في كلامي فبالحقيقة
تكونون تلاميذي - وتعرفون الحق والحق يحرككم .

اجابوه اننا ذرية ابراهيم ولم نستعبد لاحد قط .. اجابهم يسوع
.. انا عالم انكم ذرية ابراهيم لكنكم تطلبون ان تقتلوني لان كلامي لاموضع
له فيكم .. انتم تعملون ما رأيتم عند ابيكم - اجابوا وقالوا له ابونا هو
ابراهيم . قال لهم يسوع لو كنتم اولاد ابراهيم لكنتم تعملون اعمال
ابراهيم . ولكنكم الآن تطلبون ان تقتلوني وانا انسان قد كلمكم بالحق
الذي سمعته من الله هذا لم يعمله ابراهيم . انتم تعملون اعمال ابيكم .
فقالوا له اننا لم نولد من زنا . لنا اب واحد وهو الله .

فقال لهم يسوع .. انتم من اب هو ابليس وشهوات ابيكم تريدون
ان تعملوا . ذاك كان قتالا للناس من البدء ولم يثبت في الحق ..
فاجاب اليهود وقالوا له السنا نقول حسنا انك سامري وبك شيطان
- يوحنا ٨ : ٣١ - ٤٨ » .

✱

واستمرت الأمور تسير على هذا المنوال من كبرياء عن الحق وجود
به ، ولذلك لم يجد المسيح بدا من ان يسوق اليهم نذيره الاخير ، ويصب
عليهم اللعنات ، ويفتح لهم ابواب الخراب .

« ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون لانكم تشبهون قبورا
مبيضة تظهر من خارج جميلة وهى من داخل مملوءة عظام اموات وكل
نجاسة . هكذا انتم ايضا من خارج تظهرون للناس ابرارا ولكنكم من داخل
مشحونون رياء وانما .

ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون لانكم تبنون قبور الانبياء
وتزينون مدافن الصديقين وتقولون لو كنا في ايام آباينا لما شاركنا في دم
الانبياء . فانتم تشهدون على انفسكم انكم ابناء قتلة الانبياء فاملوا نتم
مكيال آباءكم .

ايها الحيات اولاد الافاعي كيف تهربون من دينونة جهنم ..

يا اورشليم يا قاتلة الانبياء وراجمة المرسلين اليهاكم مرة اردت أن

اجمع اولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحها ولم تريدوا .
هوذا بيتكم يترك لكم خرابا ..

ثم خرج يسوع ومضى من الهيكل - متى ٢٣ : ٢٧ - ٢٨ ، ٢٤ : ١ .



مما سبق نجد أن الأسفار المقدسة تقرر ان الصورة العامة للاسرائيليين على مدى القرون الطويلة ليست وللأسف الشديد - سوى صورة شعب صلب الرقبة ، ناكراً للجميل ، كثيراً ما سفك دماء الأبرياء والمستضعفين ، وسلك الكثيرون منهم سلوك « الحيات اولاد الافاعي » .

لقد حرص الاسرائيليون على مر العصور ، على ترديد القول بانتسابهم لابراهيم ، طمعا في امتلاك أرض كنعان تحقيقاً لعهد الهى صدر من الله لابراهيم وذريته .

ويهمنا الآن أن نعرف ما اذا كان عطاء الله للاسرائيليين متوقفاً فقط على اعتبارهم ذرية ابراهيم ، أم أن ذلك العطاء وتحقيق العهد من جانب الله - بامتلاك أرض كنعان مثلاً - مرتبط أولاً وقبل كل شيء بتحقيق الاسرائيليين لالتزاماتهم التى تضمنها ذلك العهد ، والتى تتلخص فى ضرورة صيروتهم طائفة دينية ، تؤمن بالله ورسله ، وتحفظ الشريعة ، وتعمل الصالحات .

ان هذا هو ما نستبينه من دراستنا لما تذكره - بل وتجمع عليه - الكتب المقدسة عند اصحاب العقائد السماوية ، من اليهود والمسيحيين والمسلمين - عن عهد الله للاسرائيليين .



عهد الله وميثاقه مع بني اسرائيل

أمر الله موسى أن يعلم بني اسرائيل - وهم لم يزالوا بعد تحت نير العبودية في مصر - أن تحقيق العهد الالهى لابراهيم وذريته متوقف على ايمانهم بالله ، وما يترتب على ذلك الايمان من طهر في العقيدة والسلوك .

« كلم الله موسى وقال له انا الرب . وانا ظهرت لابراهيم واسحق ويعقوب بأنى الاله القادر على كل شىء . وأما باسمى يهوه فلم أعرف عندهم . وأيضا أقمت معهم عهدى أن أعطيهم أرض كنعان أرض غربتهم التى تغربوا فيها . وانا أيضا قد سمعت آئين بني اسرائيل الذين يستعبدهم المصريين وتذكرت عهدى لذلك قل لبني اسرائيل انا الرب وانا اخرجكم من تحت اثقال المصريين وانقذكم من عبوديتهم . . واتخذكم لى شعبا وأكون لكم الها . . وادخلكم الى الأرض التى رفعت يدي أن اعطيها لابراهيم واسحق ويعقوب . . فكلم موسى هكذا بني اسرائيل ولكن لم يسمعوا لموسى من صغر النفس ومن العبودية القاسية - خروج ٦ : ٢ - ٩ » .



وعقب خروج بني اسرائيل من مصر تلقى موسى الوصايا العشر ، وكان ذلك هو العهد الالهى لموسى وبني اسرائيل ، وميثاقه الذى واثقهم به .

« قال الرب لموسى أكتب لنفسك هذه الكلمات . لأننى بحسب هذه الكلمات قطعت عهدا معك ومع اسرائيل . وكان هناك عند الرب أربعين نهارا وأربعين ليلة لم يأكل خبزا ولم يشرب ماء . فكتب على اللوحين كلمات العهد : الكلمات العشر - خروج ٣٤ : ٢٧ - ٢٨ » .

« ثم تكلم الله بجميع هذه الكلمات قائلا :

انا الرب الهك الذى اخرجك من أرض مصر من بيت العبودية . لا يكن لك آلهة أخرى أمامى .

لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما فى السماء من فوق ومما فى الأرض من تحت . . . لا تسجد لهن ولا تعبدهن . لأنى انا الرب الرب الهك اله غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى ، وأصنع احسانا الى الوف من محبى وحافظى وصاياى .

لا تتنطق باسم الرب باطلا . .

اذكر يوم السبت لتقدسه . . لأن فى ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها واستراح فى اليوم السابع . .

أكرم أباك وأمك ..

لا تقتل ..

لا تزن ..

لا تسرق ..

لا تشهد على قريبك شهادة زور ..

لا تشته بيت قريبك ..

لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره
ولا شيئاً مما لقريبك - خروج ٢٠ : ١ - ١٧ » .

*

وتبين التوراة - بما لا يدع مجالاً للشك أو الانحراف في التأويل -
أن تحقيق عهد الله لبني اسرائيل متوقف فقط على تحقيق عهدهم معه -
سبحانه .

أما في حالة نقضهم العهد ونكثهم الميثاق فانهم يتعرضون لأشد
الضربات ، ومن بينها اقتلاعهم من أرض كنعان وتشريدهم بين الأمم أذلة
صاغرين ، بل وتحميل الذرية الاسرائيلية خطايا آبائهم السابقين ومعاقتهم
عليها - دون أدنى اعتبار لكونهم ذرية ابراهيم .

« اذا سلكتم في فرائضى وحفظتم وصاياى وعملتهم بها : أعطى مطركم
في حينه وتعطى الأرض غلتها .. فتأكلون خبزكم للشبع وتسكنون في
أرضكم آمنين . وأجعل سلاماً في الأرض فتنامون وليس من يزعجكم ..
والتفت اليكم وأثمركم وأكثركم وأفى ميثاقى معكم .. وأسير بينكم وأكون
لكم الها وأنتم تكونون لى شعباً ..

لكن أن لم تسمعوا لى ولم تعملوا كل هذه الوصايا . وان رفضتم
فرائضى وكرهت انفسكم أحكامى فما عملتم كل وصاياى بل نكثتم ميثاقى
فانى أعمل هذه بكم :

أسلط عليكم رعياً .. وأجعل وجهى ضدكم .. أصير سماءكم
كالنحاس . وأرضكم كالحديد فتفرغ باطلا قوتكم وأرضكم ..

أجلب عليكم سيفاً ينتقم نعمة الميثاق .. اذريكم بين الأمم وأجرد
وراءكم السيف .. والباقون منكم ألقى الجبانة في قلوبهم في أراضي أعدائهم
.. فتهلكون بين الشعوب وتأكلكم أرض أعدائكم . والباقون منكم يفنون
بذنوبهم في أراضي أعدائكم . وايضاً بذنوب آبائهم معهم يفنون - لاويين ٢٦ :
٣ - ٣٩ » .

*

- وكما رأينا منذ قليل فلقد كانت صحيحة يوحنا المعمدان في بنى اسرائيل أن يطرحوا جانبا عقيدة العنصرية والاستعلاء على بنى البشر ممن خلقهم الله ، اعتمادا على بنوة جسدية لابراهيم وبنيه ، وذلك في قوله لهم :

« لا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا ابراهيم ابا لاني أقول لكم أن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة اولادا لابراهيم » .

- كذلك أنكر المسيح على الظلمة من بنى اسرائيل القول ببنوتهم لابراهيم ، فبصرف النظر عن حقيقة تلك البنوة جسدا ، الا أنهم في ميزان الحق قد أحالتهم خطاياهم الى أبناء للشيطان .

« قال لهم يسوع : لو كنتم اولاد ابراهيم لكنتم تعملون أعمال ابراهيم .. أنتم من أب هو ابليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا ذلك كان قتالا للناس من البدء ولم يثبت في الحق لأنه ليس فيه حق » .

- وبين المسيح أن طريق الخلاص وميراث ملكوت الله ليس حكر اعلى بنى اسرائيل باعتبارهم ذرية ابراهيم واسحق ويعقوب ، ولكنه بميزان الحق والعدل - ميزان الله - يرفض أهل الظلم والخطيئة ، ومنهم الظالمين من ذرية ابراهيم ، ثم يقبل بعد ذلك كل من عداهم من الصالحين .

« قال له واحد : يا سيد . اقليل هم الذين يخلصون . فقال لهم . اجتهدوا أن تدخلوا من الباب الضيق . فاني أقول لكم أن كثيرين سيطلبون أن يدخلوا ولا يقدرن .. »

حينئذ تبدئون تقولون أكلنا قدامك وشربنا وعلمت في شوارعنا . فيقول أقول لكم لأعرفكم من أين أنتم . تباعدوا عنى يا جميع فاعلى الظلم . هناك يكون البكاء وصرير الأسنان متى رأيتم ابراهيم واسحق ويعقوب وجميع الأنبياء في ملكوت الله وأنتم مطروحون خارجا . ويأتون من المشارق ومن المغرب ومن الشمال ومن الجنوب ويتكئون في ملكوت الله .
- لوقا ١٣ : ٢٣ - ٢٩ »



— وبين القرآن أن عهد الله لابراهيم وذريته لا ينال خيره الظالمين منهم .

« واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتهمهن ، قال انى جاعلك للناس اماما ، قال ومن ذريتى ، قال لا ينال عهدى الظالمين » (البقرة : ١٢٤) .

— وكان عهد الله لبني اسرائيل وتحقيق ما فيه من خيرات ، مرتبط اولا واخيرا بصدق وفائهم به :

« ولقد اخذ الله ميثاق بنى اسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا وقال الله انى معكم لئن اقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزتموهم واقرضتم الله قرضا حسنا ، لا كفرن عنكم سيئاتكم ولادخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل » . (المائدة : ١٢)

« لقد اخذنا ميثاق بنى اسرائيل وارسلنا اليهم رسلا ، كلما جاءهم رسول بما لا تهوى انفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون . وحسبوا ألا تكون فتنة فهموا وصموا ، ثم تاب الله عليهم ، ثم عموا وصموا كثير منهم ، والله بصير بما يعملون » . (المائدة : ٧٠ ، ٧١)



— وبدهى أن من ينكث العهد العظيم — عهد الله — لابد أن تصيبه اللعنة والبوار ، فهذا ما تقرره الكتب المقدسة ، وتتفق عليه كل الاتفاق .

« الكلام الذى صار الى ارميا من قبل الرب قائلا : اسمعوا كلام هذا العهد وكلموا رجال يهوذا وسكان اورشليم . فتقول لهم هكذا قال الرب اله اسرائيل .

ملعون الانسان الذى لا يسمع كلام هذا العهد الذى أمرت به آباءكم يوم أخرجتهم من أرض مصر . . قائلا اسمعوا صوتى واعملوا به حسب كل ما أمركم به فتكونون لى شعبا وأنا اكون لكم الها . لاقيم الحلف الذى حلفت لابائكم أن اعطيهم أرضا تفيض لبنا وعسلا كهذا اليوم ، فأجبت وقلت آمين يا رب .

فقال الرب لى . . انى اشهدت على آباءكم اشهادا يوم أصعدتكم من ارض مصر الى هذا اليوم مبكرا ومشهدلا قائلنا اسمعوا صوتى . فلم يسمعوا ولم يميلوا أذنه بل سلكوا كل واحد فى عناد قلبه الشرير . فغضب عليهم كل كلام هذا العهد الذى امرتهم أن يصنعوه ولم يصنعوه . .

قد نقض بيت اسرائيل وبيت يهوذا عهدى الذى قطعتة مع آباءهم . لذلك هكذا قال الرب . هانذا جالب عليهم شرا لا يستطيعون أن يخرجوا منه ويصرخون الى فلا أسمع لهم - أرميا ١١ : ١ - ١١ » .

« فيما نقضهم ميشاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ، ولا تزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم ، فاعف عنهم واصفح ، ان الله يحب المحسنين » .
(المائدة : ١٣)

*

ومن اتفق عليه والمقرر - نصا وعقلا - أن اللعنة حين تنزل بالاسرائيليين فانها لاتلحق الا بالظالمين منهم ، وهى تفرق بين خيارهم وشرارهم ، اذ أنهم ليسوا فى ميزان الحق سواء .

« ليسوا سواء ، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات ، وأولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ، والله بالمتقين » . (آل عمران : ١١٣ - ١١٥)

بعد هذا الذى رأيناه ، نستطيع أن نقرر بحق أن بنوة الاسرائيليين لابراهيم ليست صكا يتم بموجبه تحقيق العهد الالهى لابراهيم وذريته ، وأن تلك البنوة لم تكن - ولن تكون - عاصما لهم فى يوم من الأيام عن انزال العقاب الالهى بهم جزاء جرائمهم وخطاياهم .

وعلى ذلك فان أى قول بأن « اليهود بسبب آباءهم بقوا أعزاء عند الله (٦) هو قول مردود ليس له من نصوص الكتب المقدسة وتأويلاتها أى مرتكز أو دليل .

(٦) انظر ما يقال عن « موضوع تبرئة اليهود من دم المسيح » - الفصل السادس - من هذا الكتاب .

كذلك فان القول بحقوق دينية للاسرائيليين في فلسطين ، حفظها لهم عهد الله لابراهيم وبنيه السابقين ، انما هو كذب على الحق ، ومغالطة كبرى ، وأسطورة لا تتردد الا بين الجهلة أو المتجهلين .

وبعد - لئن كان لأحد أن يتذرع بنسبه لابراهيم طمعا في تملك ارض فلسطين ، فان هذا النفر لا يمكن أن يكون من الاسرائيليين لما سبق بيانه ، ولاكثر من سبب من الاسباب . ومن بين هذه الاسباب :

١ - ان عهد الله لابراهيم مشروط : « سر امامى وكن كاملا فاجعل عهدى بينى وبينك » . ولا يمكن لعاقل أن يعتبر « القتلة أولاد الأفاعى » من الكاملين ، ولا يمكن لأحد أن يدعى أن يهود اليوم خير من آبائهم وخاصة بعد أن نزع المسيح منهم ملكوت الله وجردهم من كل ميزة تفرّدوا بها في سالف الأيام وذلك في قوله لهم : ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل اثمارة .

٢ - وان أولاد ابراهيم الذين ينالهم الوعد الالهى هم نسل كثير « كنجوم السماء وكالرمل الذى على شاطئ البحر » . لكننا نجد الفرع الاسرائيلى من ذرية ابراهيم قد عاش طيلة حياته قليلا محدودا ، ليس له في الكثرة العددية أدنى نصيب . واذن لا يحق لهذا الفرع الضئيل أن يحتكر ميراث ابراهيم أو يحاول التفرد به .

٢ - ولقد نص الوعد الالهى - كما نقرأه في الأسفار - على تملك نسل ابراهيم لأرض كنعان زمنا طويلا ، بولغ فيه كل المبالغة حتى امتد الى « الأبد » .

ولا يجد المرء صعوبة في التدليل على أن الكتبة الاسرائيليين لم يراعوا الدقة في كتاباتهم واستخدموا لفظ «الأبد» كيفما اتفق ، وهو الأمر الذى خلف كثيرا من الفوضى والتناقضات .

ومن أمثلة ذلك ما سبقت الإشارة اليه في أخبار « راعوث الموابية » التى ولدت « عوبيد وعوبيد ولديسى ويسى ولد داود » .

وإذا طبقنا ما نقوله التوراة عن سلالة الموابيين من أنه « لا يدخل عمونى ولا موابى في جماعة الرب حتى الجيل العاشر لا يدخل منهم أحد في جماعة الرب الى الأبد » لوجدنا أن داود الذى يأتى في الجيل الثالث لرعاوث الموابية يجب أن يخرج من جماعة الرب، بل وسليمان ابنه كذلك. وبذلك طرد الكتبة الاسرائيليون كبار أنبيائهم من جماعة الرب ، بسبب نظرتهم العنصرية الضيقة الى الناس : هذا موابى وذاك عمونى .. وآخر عربى ورابع كوشى ... الخ .

وإذا صرفنا النظر عما فى القول بأبدية تملك الأرض من أخطاء ، ونظرنا الى الاسرائيليين باعتبارهم - جدلا - يمثلون سلالة خاصة تنحدر من نسل ابراهيم - لوجدنا أن الواقع التاريخى يؤكد تحقق الوعد الالهى فى تملك العرب الاسماعيليين لأرض كنعان - بل وللمنطقة الكبيرة التى تمتد من النيل الى الفرات - أكثر من تحققه فى الاسرائيليين .

فقد امتلك العرب أرض كنعان وماجاورها ، واستوطنوها قرونا طويلة وصبغوها بصبغة عربية لانزال تمتد راسخة للأقدام الى اليوم ، على حين لم يزد نصيب الاسرائيليين من ذلك عن حكم بعض أجزاء من فلسطين لبضع عشرات من السنين . ثم تلى ذلك عهد من الفوضى والانحلال وهذه سرعان ما انتهت بانهيار الكيان الاسرائيلى ومحو آثاره من تلك الأرض - والتاريخ شاهد على ذلك .

ويمكننا القيام بعملية مسح سريع للتاريخ الاسرائيلى بفلسطين ، لتبين منه حقيقة علاقة الاسرائيليين بها ، والصور المختلفة التى ظهرت بها تلك العلاقة .

الفصل الثالث

التاريخ الإسرائيلي بفلسطين

التاريخ الاسرائيلي بفلسطين

مقدمة :

يقول جيمس باركس في كتابه : تاريخ الشعب اليهودي ، « لا يمكن القول بأن تاريخ اليهود هو تاريخ عنصر من العناصر البشرية ، ذلك أن اليهود لم يكونوا من أصل نقي منذ بدء تاريخهم ، كما أنهم في شتاتهم بين الأمم اكتسبوا منها كثيرا من الخواص الجسمانية والنفسية والذهنية . ومن الخطأ الاعتقاد بأنهم لم يقبلوا متهودين من عقائد وأجناس أخرى .

ولقد كانت المجموعات المختلفة من اليهود - في الواقع - أجزاء من مختلف الحضارات والثقافات » . (١) .

وينقسم التاريخ الاسرائيلي بفلسطين الى المراحل الآتية :

١ - اسرائيل تحت قيادة موسى ويشوع :

أخرج موسى بنى اسرائيل من مصر وعبر بهم سيناء في طريقه الى فلسطين ، حتى يجد لهم بين ربوعها مكانا آمنا ينعمون فيه بحرية العقيدة ، فيعبدون الاله الواحد ، اله آبائهم ابراهيم واسحق ويعقوب .

لكن ما أن عرف الاسرائيليون أن عليهم اقتحام فلسطين بالقوة حتى تدمروا على الله وعلى نبيه ، فسخط الله عليهم وشردهم في البرية أربعين عاما يتيهون بين الفيافي والقفار ، حتى يفنى ذلك الجيل المتعاص :

« وكلم الرب موسى وهارون قائلا حتى متى أغفر لهذه الجماعة الشريرة والتدمرة على . قد سمعت تدمر بنى اسرائيل الذي يتدمرونه على . قل لهم لأفعلن بكم كما تكلمتم في أذني . في هذا القفر تسقط جثثكم . . لن تدخلوا الأرض التي رفعت يدي لأسكنكم فيها ماعدا كالب بن يفته ويشوع بن نون . وأما اطفالكم الذين قلتم يكونون غنيمة فاني سأدخلهم فيعرفون الأرض التي احتقرتموها . . تحملون ذنوبكم أربعين سنة فتعرفون ابتعادى . انا الرب قد تكلمت لأفعلن هذا بكل هذه الجماعة الشريرة المتففة على - عدد ١٤ : ٢٦ - ٣٥ » .

(١) المرجع ١٩ ص ٧ .

بل أن موسى نفسه قد حرمت عليه أرض فلسطين فلم يحفظ منها ولو بموطيء قدم . وكان في يوم وفاته أن قال له الله : « اصعد الى جبل عباريم .. الذى فى أرض موآب .. وانظر أرض كنعان .. من قبالتها ولكنك لاتدخل الى هناك - تثنيه ٣٢ : ٤٩-٥٢ » .

✱

« وكان بعد موت موسى عبد الرب أن الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلاً . موسى عبدى قد مات فالآن قم اعبر هذا الأردن أنت، وكل الشعب الى الأرض .. تشجع جدا لكى تتحفظ للعمل حسب كل الشريعة التى أمرك بها موسى عبدى .. لاترهب ولا ترتعب - يشوع ١ : ٩-١٠ » .

ولقد استطاع يشوع أن يقود القبائل الاسرائيلية ويقتحم بها بعض الأجزاء الشرقية والجنوبية من فلسطين ويستولى على بعض المدن مثل اريحا وعائى .

وتقول الأسفار أن عملية الغزو المسلح هذه على يد يشوع فد صاحبها معجزات حين استخدم «تابوت عهد الرب» وفق طقوس خاصة .

« قال يشوع للشعب تقدسوا لأن الرب يعمل غدا فى وسطكم عجائب . وقال يشوع للكهنة احملوا تابوت العهد واعبروا أمام الشعب - يشوع ٣ : ٥ - ٦ » .

✱

وكان من عادة الاسرائيليين حين يقتحمون احدى المدن ان يوقعوا بها القتل والتخريب ويسوقوا الموت لكل نفس حية حتى البهائم والاطفال .

فعلوا ذلك باريحا فقد « صعد الشعب الى المدينة كل رجل مع وجهه واخذوا المدينة وحرموا كل ما فى المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف .. واحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها انما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها فى خزانة بيت الرب ..

وحلف يشوع فى ذلك الوقت قائلاً ملعون قدام الرب الرجل الذى يقوم ويبنى هذه المدينة اريحا - يشوع ٦ : ٢٠ - ٢٦ » .

✱

وبالمثل فعل الاسرائيليون بعائى :

« وكان لما انتهى اسرائيل من قتل جميع سكان عاى فى الحقل ..
بعد السيف حتى فتوا ان جميع اسرائيل رجع الى عاى وضربوها بحد
السيف . فكان جميع الذين سقطوا فى ذلك اليوم من رجال ونساء اثنى
عشر الفا جميع اهل عاى .. »

لكن البهائم وغنيمة تلك المدينة نهبا اسرائيل لانفسهم حسب قول
الرب الذى امر به يشوع واحرق يشوع عاى وجعلها تلالا ابديا خرابا الى
هذا اليوم .

وملك عاى علقه على الخشبة الى وقت المساء . وعند غروب
الشمس امر يشوع فانزلوا جثته عن الخشبة وطرحوها عند مدخل باب
المدينة - يشوع ٨ : ٢٤ - ٢٩ » .

*

وفعل الاسرائيليون نفس الشئ بكل اعدائهم الذين تمكنوا منهم :

« وكان لما اخرجوا اولئك الملوك الى يشوع دعا كل رجال اسرائيل
وقال لقواد رجال الحرب الذين ساروا معه تقدموا وضعوا ارجلكم على
اعناق هؤلاء الملوك فتقدموا ووضعوا ارجلهم على اعناقهم . فقال لهم
يشوع لاتخافوا ولا ترتعبوا . تشددوا وتشجعوا . لانه هكذا يفعل الرب
بجميع اعدائكم الذين تحاربونهم . »

وضربهم يشوع بعد ذلك وقتلهم وعلقهم على خمس خشب ..
واخذ يشوع مقيده فى ذلك اليوم وضربها بحد السيف وحرم ملكها
هو وكل نفس بها . لم يبق شاردا وفعل بملك مقيدة كما فعل بملك
اريجا ..

ثم اجتاز يشوع من مقيدة وكل اسرائيل معه الى لبنة .. فضربها
بحد السيف وكل نفس بها لم يبق بها شاردا وفعل بملكها كما فعل بملك
اريجا ..

ثم اجتاز يشوع وكل اسرائيل معه من لبنة الى لخيخ ونزل عليها
وحاربها .. وضربها بحد السيف وكل نفس بها حسب كل ما فعل بلبنة .
... ..

فضرب يشوع كل أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكل ملوكها لم يبق شاردا بل حرم كل نسمة كما أمر الرب اله اسرائيل - يشوع ١٠ : ٢٤ - ٤٠ .



لكن كثيرا من المدن الهامة استعصت على الاسرائيليين ومن بينها مدينة ييوس التي استولى عليها داود بعد ذلك بنحو مائتين وخمسين عاما واتخذها عاصمة له :

« اما اليبوسيون الساكنون في اورشليم فلم تقدر بنو يهوذا على طردهم فسكن اليبوسيون مع بنى يهوذا في اورشليم الى هذا اليوم - يشوع ١٥ : ٦٣ » .

لكننا نقرأ بعد ذلك في الأسفار أن مدينة ييوس كانت غريبة تماما بالنسبة للاسرائيليين ، ولم تكن لهم فيها موضع قدم الى ان جاء داود :

« وفيما هم عند ييوس .. قال الغلام لسيدة تعال نمل الى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها .. فقال له سيده لانميل الى مدينة غريبة حيث ليس أحد من بنى اسرائيل هنا . نبيت في جبعة أو الرامة - قضاة ١٩ : ١١ - ١٣ » .



وعلى كل فان علاقة الاسرائيليين بأرض فلسطين ايام يشوع لم تتعد قيامهم بعملية تخلل لبعض اجزائها ، وتمكنهم من العيش وسط شعوبها . وكان على الاسرائيليين بعد يشوع ان يستمروا في أعمال الحرب ضد الشعوب الفلسطينية حتى ترسخ اقدامهم وينجز كل سبط من اسباط اسرائيل مهمة الغزو التي حددها يشوع بالقرعة لكل منهم .



وكان قبل موت يشوع ان دعا « جميع اسرائيل وشيوخه ورؤساءه وقضاته وعرفاءه وقال لهم . انتم قد رأيتم كل ما عمل الرب الهكم بجمع اولئك الشعوب من اجلكم لأن الرب الهكم هو المحارب عنكم .

وانظروا قد قسمت لكم بالقرعة هؤلاء الشعوب الباقين ملكا حسب

الرب الهكم هو ينفيههم من امامكم ويطردهم من قدامكم فتملكون ارضهم كما كلمكم الرب الهكم فتشددوا جدا لتحفظوا وتعملوا كل المكتوب في سفر شريعة موسى ..

ولكن اذا رجعتم ولصقتم ببقية هؤلاء الشعوب اولئك الباقيين معكم وصاهرتموهم ودخلتم اليهم وهم اليكم . فاعلموا يقينا ان الرب الهكم لا يعود يطرد اولئك الشعوب من امامكم فيكونون لكم فحاً وشركاً وسوطاً .. حتى تبيدوا عن تلك الأرض الصالحة .

لم تسقط كلمة واحدة من جميع الكلام الصالح الذي تكلم به الرب عنكم .

ويكون كما انه اتى عليكم كل الكلام الصالح الذي تكلم به الرب الهكم عنكم كذلك يجلب عليكم الرب كل الكلام الرديء حتى يبيدكم عن هذه الأرض الصالحة .. حينما تتعدون عهد الرب الهكم الذي امركم به وتسيرون وتعبدون آلهة أخرى - يشوع ٢٣ « .

وتبرز هنا نقطتان هامتان :

الأولى - أن إقامة الاسرائيليين بفلسطين مرتبطة منذ بدئها بصدق العقيدة وحسن السلوك حتى اذا ما نقضوا العهد ، وانحرفوا عن الصراط المستقيم ، انزل الله بهم غضبه ، واقتلعهم من الأرض وجعلهم هزواً بين الشعوب ومثلاً سيئاً .

الثانية - انه بصرف النظر عما يقال في حقيقة مفهوم الوعد الالهي لابراهيم ، وفي أبنائه الذين يحق لهم اقتسام ميراثه في كل صورته الروحية والمادية - وحتى لو سلمنا جدلاً - ان أولئك الأبناء هم بنو اسرائيل وحدهم واسقطنا من عداهم من ذرية ابراهيم ، لوجدنا من كلام يشوع ان الوعد الالهي قد تحقق في أيامه وانتهى الأمر :

« لم تسقط كلمة واحدة من جميع الكلام الصالح الذي تكلم به الرب عنكم . الكل صار لكم » وما على الاسرائيليين منذ أيام يشوع حتى أيام المسيح الا ان يعلموا - كما قال لهم يسوع :

« بالكيل الذي تكيلون يكال لكم » أو كما قال لهم يشوع : كما أنه أتى عليكم الكلام الصالح .. وهكذا يجلب عليكم الرب كل الكلام الرديء حتى يبيدكم عن هذه الأرض الصالحة حينما تتعدون عهد الرب الهكم « .

ثم جاء المسيح وكان بينهم وبينه ما كان وقد عرفنا - مما سبق - نذيره اليهم بنزع ملكوت الله منهم واعطائه لأمة تعمل اثمارة ، فلم يبق لهم بعد ذلك أن ينتظروا تحقيق وعود .

٢ - عصر القضاة :

يتمد هذا العصر بعد يشوع الى ما يزيد على مائتى عام ولقد عاش فيه الاسرائيليون بين الشعوب الفلسطينية بكيان ممزق ، كثيرا ما تعرض للقهر والعبودية واكثر من هذا أنهم انتكسوا في عقيدتهم ، فرجعوا عن التوحيد - الذى كان كل ميزتهم أيام موسى - الى عبادة الأصنام وقبيح العادات . ولقد ظهر فيهم رعاة لهم عرفوا باسم القضاة - حاولوا ردهم عن طرق الضلال والضياع ، الا ان جهودهم ذهبت سدى .

ويلخص سفر القضاة حال الاسرائيليين في تلك الفترة فيقول :
« فعل بنو اسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم وتركوا الرب اله آبائهم الذى اخرجهم من ارض مصر وساروا وراء آلهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها واغاظوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروث فحمى غضب الرب على اسرائيل فدفعهم بأيدي ناهيين ناهيهم وباعهم بيد اعدائهم حولهم ولم يقدروا بعد على الوقوف امام اعدائهم فضايق بهم الأمر جدا .
وأقام الرب قضاة فخلصوهم من يد ناهيهم ولقضاتهم ايضا لم يسمعوا بل زنوا وراء آلهة أخرى ..

وحينما اقام الرب لهم قضاة كان الرب مع القاضى وخلصهم من يد اعدائهم كل ايام القاضى وعند موت القاضى كانوا يرجعون ويفسدون اكثر من ابائهم .. لم يكفوا عن افعالهم وطريقهم القاسية فحمى غضب الرب على اسرائيل وقال من اجل ان هذا الشعب قد تعدوا عهدى فانا ايضا لا اعود اطردهم من ايمانهم من الأمم الذين تركهم يشوع عند موته .
- قضاة ٢ : ١١ - ٢١ » .



ولقد بلغت الفترة التى عاشها الاسرائيليون فى ذل واستعباد ما يزيد على السبعين عاما :

« سكن بنو اسرائيل فى وسط الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين واتخذوا بناتهم لانفسهم نساء واعطوا بناتهم لبنينهم وعبدوا آلهتهم ..

فحمى غضب الرب على اسرائيل فباعهم بيد كوشان .. فعبد اسرائيل كوشان رشعتايم ثمانى سنين - قضاة ٣ : ٥ - ٨ » .

« وعبد بنو اسرائيل عجلون ملك مواب ثمانى عشر سنة - قضاة ٣ : ١٤ » .

« وعاد بنو اسرائيل يعملون الشر .. فباعهم الرب بيد يابين ملك كنعان .. وكان له تسع مئة مركبة من حديد وهو ضايق بنى اسرائيل بشدة عشرين سنة - قضاة ١ : ٣ » .

« وعمل بنو اسرائيل الشر في عيني الرب فدفعهم الرب ليد مديان سبع سنين .

فاعتزت يد مديان على اسرائيل . بسبب المديانيين عمل بنو اسرائيل لانفسهم الكهوف التي في الجبال والمغائر والحصون .

واذا زرع اسرائيل كان يصعد المديانيون والعمالقة وبنو المشرق . . وينزلون عليهم ويتلفون غلة الأرض . . ولا يتركون لاسرائيل قوت الحياة ولا عنما ولا بقرا ولا حميرا لانهم كانوا يصعدون بمواشيهم وخيامهم ويجيئون كالجراد في الكثرة وليس لهم ولجمالهم عدد . . فذل اسرائيل جدا من قبل المديانيين - قضاة ٦ : ١ - ٦ .

وعاد بنو اسرائيل يعملون الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم والعشتاروث وآلهة آرام وآلهة صيدون وآلهة موآب وآلهة بنى عمون وآلهة الفلسطينيين وتركوا الرب ولم يعبدوه .

فحمى غضب الرب على اسرائيل وباعهم بيد الفلسطينيين وبيد بنى عمون . فحطموها واراضوا بنى اسرائيل في تلك السنة ثمانى عشرة سنة جميع بنى اسرائيل الذين في عبر الأردن في أرض الاموريين الذين في جلعاد . . فتضايق اسرائيل جدا - قضاة ١٠ : ٦ - ٩ .

*

هذا - ولقد اشتهر من بين قضااتهم : دبورة (امرأة نبية - قضاة ٤ : ٤) ، وجدعون ، ويفتاح الجلعادي (وهو ابن امرأة زانية - قضاة ١٠ : ١) ، وشمشون (صاحب دليلة) ، وصموئيل النبى .

٣ - عصر الملوك :

شاؤل : عاش الاسرائيليون عنما متبذدة ، ولم تستطع عوامل الخطر وانعدام الامن التي احاطت بهم من كل جانب أن توحد صفوفهم وبلغ بهم الانحلال والتردى غايته ، حتى ان حادثة زنى بسرية احدهم تتسبب في حرب طاحنة بين سبط بنيامين وبقية اسباط اسرائيل ، يسقط فيها من كلا الجانبين - حسب الاعداد التي تذكرها الأسفار - مايزيد على الأربعين ألف رجل !

ونلخص القصة بلغة الأسفار فنقول :

« كان رجل لاوى . . اتخذ له امرأة سرية من بيت لحم يهوذا . فزنت عليه سريته وذهبت من عنده الى بيت ابيها . . فقام رجلها وسار وراءها ليطيب قلبها ويردها ومعه غلامه وحماران . فأدخلته بيت ابيها . فلما رآها ابو الفتاة فرح بلقائه .

ثم بكر .. في اليوم الخامس للذهاب هو وسريته وغلामه .. فعبروا وذهبوا وغابت لهم الشمس عند جبعة التي لبنيامين . فمالوا الى هناك لكي يدخلوا ويبيتوا .. في ساحة المدينة .. واذا برجل شيخ جاء من شغله من الحقل .. فقال .. السلام لك .. لاتبيت في الساحة . وجاء به الى بيته .. وفيما هم يطيبون قلوبهم اذا برجال المدينة رجال بنى بليعال فحاطوا بالبيت .. وكلموا الشيخ قائلين اخرج الرجل الذي دخل بيتك فنعرفه (نضاجمه) . فخرج اليهم صاحب البيت وقال لهم بعدما دخل هذا الرجل بيتي لاتفعلوا هذه القباحة . هوذا ابنتى العذراء وسريته دعونى اخرجهما فاذلوهما واقبلوا بهما ما يحسن في اعينكم واما هذا الرجل فلا تفعلوا به هذا الامر القبيح . فلم يرد الرجال ان يسمعو له . فامسك الرجل سريته واخرجها اليهم خارجا فعرفوها (زنوا بها) وتعللوا بها الليل كله الى الصباح وعند طلوع الفجر اطلقوها .

فجاءت المرأة عند اقبال الصباح وسقطت عند باب بيت الرجل حيث سيدها هناك الى الضوء . فقام سيدها في الصباح وفتح ابواب البيت وخرج للذهاب في طريقه واذا بالمرأة سريته ساقطة على باب البيت ويداها على العتبة . فقال لها قومي نذهب . فلم يكن محيب فأخذها على الحمار .. ودخل بيته وأخذ السكين وامسك سريته وقطعها مع عظامها الى اثنتى عشرة قطعة وارسلها الى جميع تخوم اسرائيل - قضاة ١٩ » .

« وارسل اسباط اسرائيل رجالا الى جميع اسباط بنيامين قائلين ماهذا الشر الذى صار فيكم . فالآن سلموا القوم بنى بليعال الذين في جبعة لكي نقتلهم .. فلم يرد بنو بنيامين ان يسمعو لصوت اخواتهم بنى اسرائيل .

فاجتمع بنو بنيامين .. لكي يخرجوا لمحاربة بنى اسرائيل - قضاة ٢٠ : ١٢ - ١٤ »

*

وقتل الآلاف في تلك الحرب من كلا الجانبين :

« خرج بنو بنيامين من جبعة واهلكوا من اسرائيل في ذلك اليوم اثنين وعشرين الف رجل .. وخرج بنيامين للقائهم .. في اليوم الثانى واهلك من بنى اسرائيل ايضا ثمانية عشر الف رجل .. وصعد بنو اسرائيل على بنى بنيامين .. واهلك بنو اسرائيل من بنيامين في ذلك اليوم خمسة وعشرين الف رجل ومائة رجل .. ورجعوا امام بنى اسرائيل في طريق البرية ولكن القتال ادركهم .. فسقط من بنيامين ثمانية عشر الف رجل فداروا وهربوا الى البرية .. فالتفتوا منهم في السكك خمسة آلاف . وقتلوا منهم الفى رجل .. ورجع رجال بنى اسرائيل الى بنى بنيامين وضربوهم بحد السيف من المدينة بأسرها حتى البهائم حتى كل ما وجد وايضا جميع المدن التى وجدت احرقوها بالنار - قضاة ٢٠ . »

وازداد الأمر سوءاً وهدد بنيامين بالانقراض حين قرر بقية أسباط إسرائيل الا يزوجوهم « وحلفوا .. قائلين لا يسلم احد منا ابنته لبنيامين امرأة » .

وبعد أن هدأت نفوس بقية أسباط إسرائيل تفتقت اذهان شيوخهم عن حيلة يستطيعون بها الاحتفاظ بنسل لبنيامين في الوقت الذي ييرون بقسهم ، وكان ذلك بدعوة رجال بنيامين الى اختطاف الكنعانيات والزواج بهن :

« فقال شيوخ الجماعة .. قد انقطعت النساء من بنيامين . وقالوا ميراث نجاة لبنيامين ولا يمحي سبط من إسرائيل ونحن لانقدر أن نعطيهم نساء من بناتنا .

ثم قالوا هوذا عيد الرب في شيلوه .. امضوا واكنموا في الكروم .. فاذا خرجت بنات شيلوه ليدرن في الرقص فأخرجوا أنتم من الكروم واخطفوا لأنفسكم كل واحد امراته من بنات شيلوه .. ففعل هكذا بنو بنيامين واتخذوا نساء حسب عددهم من الراقصات اللواتي اختطفوهن . في تلك الأيام لم يكن ملك في إسرائيل - كل واحد عمل ما حسن في عينية - قضاة ٢١ » .



ومنذ أمد بعيد امتلأت أرض فلسطين وما حولها بالممالك ، من قبل أن يكون للاسرائيليين فيها موطن قدم . فلقد عرف هذا منذ عهد ابراهيم . وعرف الاسرائيليون ذلك عن كذب حين بدأ احتكاكهم بتلك الممالك أيام موسى ، الذي جاء بعد ابراهيم بنحو ٤٠٠ عام .

ففي أثناء تجوالهم في الصحراء بقيادة موسى « ارسل موسى رسلا من قادش الى ملك ادوم . هكذا يقول أخوك إسرائيل فقد عرفت كل المشقة التي اصابتنا . أن آباءنا انحدروا الى مصر وأقمنا في مصر أياما كثيرة واساء المصريون الينا .. دعنا نمر في أرضك لانمر في حقل ولا في كرم ولا نشرب ماء بئر . في طريق الملك نمشي لانميل يمينا ولا يسارا حتى نتجاوز تخومك .

فقال له ادوم لاتمر بي لئلا أخرج للقائك بالسيف ..

فقال له بنو إسرائيل في السكة نصعد واذا شربنا أنا ومواشي من مائك ادفع ثمنه . لا شيء أمر برجلى فقط .

فقال لانمر . وخرج ادوم للقائه بشعب غفير وييد شديدة وأبى ادوم ان يسمح لاسرائيل بالمرور في تخومه فتحول اسرائيل عنه .

ولما سمع الكنعاني ملك عراد الساكن في الجنوب ان اسرائيل جاء في طريق اتاريم حارب اسرائيل وسبى منهم سبيا - عدد ٢٠ : ١٤ - ٢١ ، ٢١ : ١ .

*

ولقد كانت المملكة عبارة عن شعب يسكن رقعة من الأرض ، يقيم بها المدن والحصون . ويقوم على رأسه ملك يتولى القيادة وشؤون الحكم في الحرب والسلم . ولذلك كثرت الممالك حتى ان يشوع - خليفة موسى - استطاع ان يحارب واحدا وثلاثين ملكا ، ينتمى مواطنهم الى ستة شعوب :

« وهؤلاء هم ملوك الأرض الذين ضربهم يشوع ..

الحيثيون والأموريون والكنعانيون والفرزيون والحييون واليبوسيون ، ملك اريحا واحد . ملك عاي التي بجانب بيت ايل واحد . ملك اورشليم واحد .. ملك مجدو واحد . ملك قادش واحد

جميع الملوك واحد وثلاثون - يشوع ١٢ : ٧ - ٢٤ » .

*

ولقد نظر الاسرائيليون حولهم فوجدوا ان الشعوب الفلسطينية قد سبقتهم في تنصيب الملوك واقامة الممالك ، واستطاعت بذلك ان تجمع شملها ، وتحافظ على كيائها . وهنا تطلعت نفوس الاسرائيليين الى شيء من ذلك .

« فاجتمع كل شيوخ اسرائيل وجاءوا الى صموئيل الى الرامة . وقالوا له هوذا انت شخت وابناك لم يسيرا في طريقك (وكان صموئيل قد عينهما قاضيين) فالآن اجعل لنا ملكا يقضى لنا كسائر الشعوب . فساء الأمر في عيني صموئيل » .

ورغم ما قد يبدو لأول وهلة من صواب فكرة الملك والمملكة ، الا انها كانت في الواقع نكسة اصابت الاسرائيليين ، لانهم اختطوا لانفسهم طريقا محفوفا بالمخاطر .

فعندما « صلى صموئيل الى الرب : فقال الرب لصموئيل اسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون لك . لانهم لم يرفضوك بل اياى رفضوا حتى لا أملك عليهم .. ولكن اشهدن عليهم وأخبرهم بقضاء الملك الذى يملك عليهم .

فكلم صموئيل الشعب .. وقال هذا يكون قضاء الملك الذى يملك عليكم يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه لمراكبه وفرسانه فيركضون أمام مراكبه . ويجعل لنفسه رؤساء ألوف ورؤساء خماسين فيحرقون حرثه ويحصدون حصاده .. ويأخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات . ويأخذ حقولكم وكرومكم وزيتونكم .. ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشبانكم الحسان وحميركم يستعملهم لشغله .. وأنت تكونون له عبيدا . فتصرخون فى ذلك اليوم من وجه ملككم الذى اخترتموه لأنفسكم فلا يستجيب لكم الرب .

فأبى الشعب ان يسمعوا لصوت صموئيل وقالوا لا بل يكون علينا ملك ..

فقال الرب لصموئيل اسمع لصوتهم وملك عليهم ملكا - صموئيل الأول ٨ .



واختار صموئيل رجلا من اقل عشائر الاسرائيليين ومسحه ملكا عليهم ، وقد قوبل ذلك من أول يوم بالهزؤ والسخرية :

« والرب كشف اذن صموئيل قبل مجيء شاول بيوم قائلا . غدا فى مثل الآن ارسل اليك رجلا من ارض بنيامين فامسحه رئيسا لشعبى اسرائيل .

فتقدم شاول الى صموئيل .. وقال اين بيت الرائى ..

فأجاب صموئيل شاول وقال انا الرائى . اصعد امامى الى المرتفعة فتأكلا معى اليوم ..

فأجاب شاول وقال اما انا بنيامينى من اصغر اسباط اسرائيل وعشيرتى اصغر كل عشائر اسباط بنيامين . فلماذا تكلمنى بمثل هذا الكلام ..

فأخذ صموئيل قنينة الدهن وصب على رأسه وقبله وقال اليس لأن الرب قد مسحك على ميراثه رئيسا ..

وكان عندما ادار كتفه لكى يذهب من عند صموئيل ان الله اعطاه قلبا آخر .. واذا بزمرة من الانبياء لقيته فحل عليه روح الله فتنبأ فى وسطهم . ولما رآه جميع الذين عرفوه منذ امس وما قبله أنه يتنبأ مع الانبياء قال الشعب الواحد لصاحبه ماذا صار لابن قيس . أشاول أيضا بين

الانبياء .. ولذلك ذهب مثلاً اشاول ايضا بين الانبياء - صموئيل الاول . « ١٠ : ٦ » .

*

وما لبث الاسرائيليون ان اكتشفوا من اول يوم انهم قد ضلوا بطلبهم اقامة مملكة له :

« وقال جميع الشعب لصموئيل صل عن عبيدك الى الرب الهك حتى لانموت لانا قد اضعنا الى جميع خطايانا شرا بطلبنا لانفسنا ملكا - صموئيل الاول ١٢ : ١٩ » .

*

وكان من عادة شاول ، حين ينزل عليه الوحي ، ان يتجرد من ملابسه :

« ارسل شاول رسلاً لآخذ داود ولما راوا جماعة الانبياء يتنبأون وصموئيل واقفا رئيساً عليهم كان روح الله على رسل شاول فتنبأواهم ايضا . واخبروا شاول .. فذهب الى هناك فكان عليه ايضا روح الله فكان يذهب ويتنبأ حتى جاء الى نايوت في الرامة .

فخلع هو ايضا ثيابه وتنبأ هو ايضا امام صموئيل وانطرح عريانا ذلك النهار كله وكل الليل . لذلك يقولون اشاول ايضا بين الانبياء - صموئيل الاول ١٩ : ٢٠ - ٢٤ » .

*

ولكن سرعان ما قضى على ملك شاول بعد ان رفضه الله بسبب خطيئة اكتسبها . وعندئذ فارقه روح الله وحل عليه روح شرير كان لا يهدأ الا اذا عملت له حفلة موسيقية تخصص فيها أحد خدمه ، وهو داود :

« قال صموئيل لشاول قد انحمت . لم تحفظ وصية الرب الهك التي امرك بها لانه الآن كان الرب قد ثبت مملكتك على اسرائيل الى الابد . واما الآن فمملكتك لاتقوم - صموئيل الاول ١٣ : ١٣ - ١٤ » .

« وكان كلام الرب الى صموئيل قائلاً . ندمت على اني قد جعلت شاول ملكاً لانه رجع من ورائي ولم يقيم كلامي - صموئيل الاول ١٥ : ١٠ » .

*

« وذهب روح الرب من عند شاول وبغته روح رديء من قبل الرب .. فأرسل شاول رسلاً الى يسي يقول ارسل داود ابنك الذي مع الغنم .. فجاء داود الى شاول ووقف امامه فاجبه جدا وكان له حامل سلاح ..

١
وكان عندما جاء الروح (الردىء) من قبل الله على شاول أن داود
أخذ العود وضرب بيده فكان يرتاح شاول ويطيب ويذهب عنه الروح
الردىء - صموئيل الأول ١٦ : ١٤ - ٢٣ » .

*

وعرف عن شاول بداءة لسانه ، فكان حين يوبخ ابنه يتعرض بالسفه
لعورة أمه :

« فحمى غضب شاول على يوناثان (ابنه) وقال له يا ابن المتعوجة
التمردة اما علمت أنك قد اخترت ابن يسي لخزيك وخزى عورة أمك -
صموئيل الأول ٢٠ : ٣٠ » .

*

ثم اصيب شاول بنوبات من الجنون كانت تعتره كلما باغته الروح
المشريع :

« وكان في الغد أن الروح الردىء من قبل الله اقتحم شاول وجن
في وسط البيت - صموئيل الأول ١٨ : ١٠ » .

*

ولم يكن شاول - أول ملك في اسرائيل - يملك على شعب مستقر
في أرض ذات حدود ، بل كان كل نصيبه من ذلك مجرد اسم فقط .
فقد كان الاسرائيليون يعيشون جماعات متناثرة بين شعوب فلسطين التي كثيرا
ما قاتلتهم وانتصرت عليهم :

« وتجمع الفلسطينيون لمحاربة اسرائيل . ثلاثون ألف مركبة وستة
آلاف فارس وشعب كالرمل الذي على شاطئ البحر في الكثرة . . ولما
راى رجال اسرائيل انهم في ضنك . لأن الشعب تضايق . اختبأ الشعب
في المغاير والغياض والصخور والبروج والآبار . وبعض العبرانيين عبروا
الأردن الى أرض جاد وجمعاد - صموئيل الأول ١٣ : ٥ - ٧ » .

*

ولم يكن ضعف الاسرائيليين وهزيمتهم يرجع الى تفوق اعدائهم كما
ونوعا ، بقدر ما كان يرجع الى تخلف نوعية الاسرائيليين فنيا ، لدرجة
انهم حتى ذلك الحين لم يوجد بينهم أى صانع يستطيع صنع اسلحتهم
وعدتهم ، أو حتى شحذها ، بل كانوا يلجئون في ذلك العمل الى اعدائهم :

« خرج المخربون من محلة الفلسطينيين في ثلاثة فرق . . ولم يوجد
صانع في كل أرض اسرائيل لأن الفلسطينيين قالوا لتلاميهم العبرانيون سيفا
أو رمحا . بل كان ينزل كل اسرائيل الى الفلسطينيين لكي يحدكل واحد سكوته
ومنجله وفأسه ومعوله ، وعندما كلت حدود السكك والمناجل والمثلثات
الأسنان والفؤوس ولترويس المناسيس .

وكان في يوم الحرب أنه لم يوجد سيف ولا رمح بيد جميع الشعب الذي مع شاول ومع يوناتان - صموئيل الأول ١٣ : ١٧ - ٢٢ » .

*

وفي أحد المعارك بين الفلسطينيين والاسرائيليين قتل شاول وثلاثة من أبنائه ، وقطعت رأسه ، ومثل بجثته أسوأ تمثيل :

« وحارب الفلسطينيون اسرائيل فهرب رجال اسرائيل من امام الفلسطينيين وسقطوا قتلى في جبل جلبوع .

فشد الفلسطينيون وراء شاول وبنيه وضرب الفلسطينيون .. أبناء شاول واشتدت الحرب على شاول .. فمات شاول وبنوه الثلاثة وحامل سلاحه وجميع رجاله في ذلك اليوم معا .

ولما رأى رجال اسرائيل الذين في عبر الوادي والذين في عبر الأردن ان رجال اسرائيل قد هربوا وأن شاول وبنيه قد ماتوا وتركوا المدن وهربوا فاتى الفلسطينيون وسكنوا بها .

وفي الغد لما جاء الفلسطينيون ليعروا القتلى وجدوا شاول وبنيه الثلاثة .

فقطعوا رأسه .. وأرسلوا الى أرض الفلسطينيين في كل جهة لأجل التبشير في بيت اصنامهم وفي الشعب .. وسمروا جسده على سور بيت شان - صموئيل الأول ٣١ » .

داود : مسح صموئيل داود بن يسي خلفا لشاول ، وقد تم ذلك بناء على أمر الهى :

« قال الرب لصموئيل .. املا قرنك دهنا وتعال أرسلك الى يسي .. لانى قد رايت لى في بنيه ملكا ..

فأخذ صموئيل قرن دهن مسح في وسط اخوته . وحل روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعدا - صموئيل الأول ١٦ » .

*

كان داود كريما مع سيده وملكه شاول رغم أن الأخير كان يجد في الطلب لقتله بعد أن حقد عليه بسبب التفاف الاسرائيليين حوله - وفي احد المطاردات تمكن داود من شاول الا أنه لم يقتله توقيرا له بصصفته مسيحا من قبل الله :

« أخذ شاول ثلاثة آلاف رجل .. وذهب يطلب داود ورجاله .. وكان هناك كهف فدخل شاول .. فقال رجال داود له هو ذا اليوم الذى قال لك عنه الرب هأنذا أدفع عدوك ليديك فتفعل به ما يحسن في عينيك .. فقال لرجاله حاشا لى من قبل الرب أن أعمل هذا الأمر بسيدى بمسيح الرب فأمد يدي اليه لأنه مسيح الرب - صموئيل الأول ٢٤ : ٢ - ٦ » .

*

وتفتق ذهن شاول عن حيلة مأكرة يقتل بها داود ، وذلك بتزويجه إحدى بناته في نظير مهر يعرض داود للمخاطر ، ألا وهو قتل ١٠٠ من الفلسطينيين وقطع أعضاء ذكورتهم والأتيان بغلفها للملك .

ومن العجيب والغريب أن تذكر الأسفار أن داود رحب بالفكرة وأتم التنفيذ وجاء بصيد ثمين هو ٢٠٠ غلقة من الفلسطينيين مهرا لزوجته :

« وميكال ابنة شاول أحببت داود فأخبروا شاول فحسن الأمر في عينيه . وقال شاول أعطيه اياها فتكون له شركا وتكون يد الفلسطينيين عليه ..

وأمر شاول عبده . تكلموا مع داود سرا قائلين هوذا قد سربك الملك .. فالآن صاهر الملك فتكلم عبيد شاول في أذنى داود بهذا الكلام .

فقال داود هل هو مستخف في أعينكم مصاهرة الملك وأنا رجل مسكين وحقير ..

فقال شاول هكذا تقولون لداود ليست مسرة الملك بالمهر بل بمئة غلقة من الفلسطينيين للانتقام من أعداء الملك ..

فأخبر عبده داود بهذا الكلام فحسن الكلام في عينى داود أن يصاهر الملك .

ولم تكمل الأيام حتى قام داود وذهب هو ورجاله وقتل من الفلسطينيين مئتي رجل وأتى داود بغلفهم .. لمصاهرة الملك .

فأعطاه شاول ميكال ابنته امرأة - صموئيل الأول ١٨ : ٢٠ - ٢٧ .

قد يسمع الانسان عن بعض القبائل التي توصف بالتخلف والهمجية ، أنه حين يرغب احد الشبان في الزواج فان عليه أن يذهب الى الغابة ويقتل احد السباع ثم يأتي بجلده أو ذيله ويقدمه مهرا لعروسه .

أما ان يقتل داود - مسيح الله - مئتي رجل ويأتي بغلفهم مهرا لابنة شاول - مسيح الله كذلك - فان هذه فعلة لايمكن أن تمر دون تأمل وتفكير يقطع يقينا بسقم خيال كتبة الأسفار المقدسة .

*

واستمر شاول في محاولاته لقتل داود والتخلص منه ، ولذلك لم يجد الأخير بدا من الهرب . بعيدا عن سطوة عدوه . ولم يجد له من ملجأ يحتمى به هو وأتباعه الا بين الفلسطينيين أعداء الاسرائيليين ، حيث بقى داود عندهم لاجئا لأكثر من عام :

« وقال داود في قلبه انى سأهلك يوما بيد شاول فلا شيء خير لى من أن أفلت الى أرض الفلسطينيين فيأاس شاول منى فلا يفتش على بعد . .

فقام داود وعبر هو والست مئة رجل الذين معه الى أخيش بن معوك ملك جت . . وأقام داود . . هو ورجاله كل واحد وبيته ، داود وامراتاه . . فأخبر شاول أن داود قد هرب الى جت فلم يعد أيضا يفتش عليه . .

وكان عدد الأيام التي سكن فيها داود في بلاد الفلسطينيين سنة وأربعة أشهر . - صموئيل الأول ٢٧ : ١-٧ « .

*

وفي تلك الفترة تذكر لنا الأسفار أن دواود ورجاله كانوا يعيشون على السطو على الشعوب والقبائل المجاورة أصحاب الأرض الأصليين ، فيغزونها بعنف وقسوة ، ويقتلون كل نفس حية حتى لايبقى من يخبر بمذابحهم :

« وصعد داود ورجاله وغزوا الحشوريين والجزيريين والعمالقة لأن هؤلاء من قديم سكان الأرض وضرب داود الأرض ولم يبق رجلا ولا امرأة وأخذ غنما وبقرا وحميرا وجمالا وثيابا وجاء الى أخيش . . لم يستبق داود رجلا ولا امرأة حتى يأتي الى جت اذ قال لئلا يخبروا عنا قائلين هكذا فعل داود .

وهكذا عادته كل أيام اقامته في بلاد الفلسطينيين

- صموئيل الاول ٢٧ : ٨-١١ « .

*

ويؤكدُ كنبه الأسفار أن هذه كانت عادة داود دائما حتى من قبل أن يتحول الى لاجيء في بلاد الفلسطينيين ، فقد اعتاد على فرض الاتاوة على الناس ، واغتصاب اموالهم و ثرواتهم بالقوة ثم استباحة دمائهم ان ابدوا شيئا من التبرم والضيق بأعمال العصابات التي مارسها هو ورجاله ، وقصة نابال خير شاهد على ذلك .

وتتلخص القصة في أن داود طمع في شيء من خبز نابال وذبائحه في نظير أنه لم يسلب شيئا من ممتلكاته من قبل ، فأرسل غلمانا ليستجده، لكن نابال رفض ذلك لأنه لم تكن له سابق معرفة أو علاقة بداود . فما كان من داود الا أن خرج على رأس جيش من ٤٠٠ محارب يطلب قتل نابال وأهله .

ولما علمت زوجته أسرعت بهدية ترد بها غضب داود . وبعد فترة قصيرة مات نابال فأسرع داود الى أرملة الجميلة ابيجايل وضمها اليه زوجة . وفي هذا تقول الأسفار :

« كان رجل في معون وأملاكه في الكرمل وكان الرجل عظيما جدا وله ثلاثة آلاف من الغنم والوف من الماعز وكان يجز غنمه في الكرمل . واسم الرجل نابال واسم امراته ابيجايل . وكانت المرأة جيدة الفهم وجميلة الصورة ..

فسمع داود .. أن نابال يجز غنمه . فأرسل .. عشرة غلمان وقال .. ادخلوا الى نابال واسألوا باسمي عن سلامته . وقولوا هكنا حبييت وأنت سالم وبيتك سالم وكل مالك سالم .. حين كان رعائك معنا لم نؤذهم ولم يفقد لهم شيء .. فليجد الغلمان نعمة في عينيك لأننا قد جئنا في يوم طيب فاعط ما وجدته يدك لعبيدك ولابنك داود . فجاء الغلمان وكلموا نابال .. فأجاب نابال .. وقال من هو داود .. قد أكثر اليوم العبيد (الشحاذون) الذين يفحصون كل واحد من أمام سيده آخذ خبزي ومائى وذبيحي الذى ذبحت لجازى وأعطيه لقوم لا أعلم من أين هم . فتحول غلمان داود الى طريقهم وأخبروه حسب كل هذا الكلام .

فقال داود لرجاله ليتقلد كل واحد منكم سيفه .. وتقلد داود أيضا سيفه . وصعد وراء داود نحو أربع مئة رجل ..

فأخبر ابيجايل امرأة نابال غلاما من الغلمان قائلا .. انظرى ماذا تعملين لأن الشر قد أعد على سيدنا وعلى بيته ..

فبادرت ابيجائل وأخذت مئتي رغيف خبز وزقى خمر وخمسة خرفان وخمس كيلات من الفريك ومئتي عنقود من الزبيب ومئتي قرص من التين ووضعتها على الحميم .. وفيما هي راكبة على الحمار .. اذا بداود ورجاله منحدرين ..

وقال داود انما باطلا حفظت كل مال هذا في البرية .. هكذا يصنع الله لأعداء داود .. ان أبقيت من كل ماله الى ضوء الصباح بائلا بحائط .

ولما رأت ابيجائل داود أسرعت .. وسقطت على وجهها وسجدت الى الأرض . وسقطت على رجليه وقالت على أنا ياسيدي هذا الذنب .. لم أر غلمان سيدي الذين أرسلتهم .. والآن هذه البركة (الهدية) التي أتت بها جاريتك الى سيدي فلتعط للغلمان السائرين وراء سيدي واصفح عن ذنب أمتك ..

فقال داود لأبيجائل . مبارك الرب اله اسرائيل الذي أرسلك هذا اليوم لاستقبالي .. لأنك منعتني من اتيان الدماء وانتقام يدي لنفسى .. انك لولم تبادري وتأتى لاستقبالي لما أبقى لنابال الى ضوء الصباح بائلا بحائط .

فأخذ داود من يدها ما أنت به اليه وقال لها اصعدى بسلام الى بيتك ..

وبعد عشرة أيام ضرب الرب نابال فمات .. فأرسل داود وتكلم مع ابيجائل ليأخذها له امرأة .. وقامت ابيجائل وركبت الحمار .. وسارت وراء رسل داود وصارت له امرأة - صموئيل الأول ٢٥ » .



وقد لطح كتبة الاسفار تاريخ داود بيقع سوداء كبيرة ترجع بحسب زعمهم - الى سلوكه وسياسته التي أقامها على مبدأ لا أخلاقي يقضى بأن « الغاية تبرر الوسيلة » بصرف النظر عما وراء ذلك . فلكي يحافظ داود على حياته فانه كان على استعداد تام للحرب في صفوف الفلسطينيين هو ورجاله كجنود مرتزقة ضد بني جلدته من الاسرائيليين . ولما استنكر رؤساء الفلسطينيين ذلك بغضا منهم له بسبب عداوته القديمة ، كان داود يتوسل الى أحد ملوكهم - وهو أخيش ملك جت الذي عاش في كنفه - ان يخرج معه للحرب ويعده بالنصر على أعدائه الاسرائيليين ويقول له : « ستعلم ما يفعل عندك .. ماذا وجدت في عندك من يوم صرت أمامك الى اليوم حتى لا آتى واحارب أعداء سيدي الملك » .

وفي هذا تقول الأسفار :

« جمع الفلسطينيون جميع جيوشهم الى افيق . وكان الاسرائيليون نازلين على العين في يزرعيل . وعبر أقطاب الفلسطينيين مئات والوفا وعبر داود ورجاله في الساقة مع أخيش (ملك جت) .

فقال رؤساء الفلسطينين ما هؤلاء العبرانيون . فقال أخيش لرؤساء الفلسطينين اليس هذا داود عبد شاول ملك اسرائيل الذي كان معى هذه الأيام أو هذه السنين ولم أجد فيه شيئاً من يوم نزوله الى هذا اليوم .

وسخط عليه رؤساء الفلسطينين (وقالوا له) .. أرجع الرجل .. فلا ينزل معنا الى الحرب ..

فدعا أخيش داود وقال له .. انك أنت مستقيم وخروجك ودخولك معى في الجيش صالح في عيني لاني لم أجد فيك شراً من يوم جئت الى اليوم وأما في اعين الأقطاب فلست بصالح . فالآن اذهب وارجع بسلام ..

فقال داود لاخيش فماذا عملت وماذا وجدت في عبدك من يوم صرت امامك الى اليوم حتى لا آتى وأحارب أعداء سيدى الملك (من الاسرائيليين) .

فأجاب أخيش وقال لداود علمت أنك صالح في عيني كملك الله . الا ان رؤساء الفلسطينين قالوا لا يصعد معنا الى الحرب . والآن فبكر صباحاً مع عبيد سيدك .. فذهبوا .

فبكر داود هو ورجاله لكي يذهبوا صباحاً ويرجعوا الى أرض الفلسطينين (ملجأهم) .

وأما الفلسطينيون فصعدوا الى يزرعيل (لمحاربة الاسرائيليين) - صموئيل الأول ٢٩ « .



وتظهر لنا الأسفار داود في صورة الرجل الذى لا يترفع عن فعل أى شىء يرى فيه انقاذاً لحياته ودفعاً لخطر يتهدهه ، فلقد تظاهر بالجنون امام أخيش ملك جت - قبل أن يقيم عنده لاجئاً - وصار يسيل لعابه ويأتى بحركات المخبولين ، حتى يقبلوه بينهم كإنسان ضعيف لا يخشى بأسه:

« وقام داود وهرب في ذلك اليوم من أمام شاول وجاء الى أخيش ملك جت فقال عبيد أخيش له اليس هذا داود ملك الأرض .. فوضع داود هذا الكلام في قلبه وخاف جداً من أخيش ملك جت .

فغير عقله في أعينهم وتظاهر بالجنون بين أيديهم وأخذ يخرش على مصاريع الباب ويسيل ريقه على لحيته .

فقال أخيش لعبيده هو ذا ترون الرجل مجنونا فلماذا تأتون به الى .
العلی محتاج الى مجانين حتى ايتتم بهذا ليتجنن على . اهذا يدخل بيتي .
صموئيل الاول ٢١ : ١٥-١٠ . «

*

هذا ، وبعد أن قتل شاول قام سبط يهوذا الذين ينتمى اليهم داود بمسحه ملكا عليهم :

« وأتى رجال يهوذا ومسحوا هناك داود ملكا على بيت يهوذا .
صموئيل الثاني ٢ : ٤ » .

لكن قائد جيش شاول سارع فأخذ ابن ملكه السابق ونصبه ملكا على بقية أسباط اسرائيل .

« أما ابنير .. رئيس شاول فأخذ ايشبوشث بن شاول .. وجعله ملكا .. على كل اسرائيل .. وملك سنتين وأما بيت يهوذا فانما اتبعوا داود . وكانت المدة التي ملك فيها داود في حبرون على بيت يهوذا سبع سنين وستة أشهر ..

وكانت الحرب طويلة بين بيت شاول وبيت داود - صموئيل الثاني ٢ : ٨-١١ ، ٣ : ١ » .

*

ولم يكن ايشبوشث ابن شاول رجلا يحسن السياسة ، فقد عنف ابنير قائد الجيش بسبب سرية لأبيه طمع فيها . وعندئذ قرر ابنير أن ينتقم لنفسه بضم أسباط اسرائيل تحت لواء داود وعزل ابن شاول من مملكته . ولقد استطاع ابنير أن يفعل ذلك ويثبت مملكة داود بسبب امرأة :

« وكان في وقوع الحرب بين بيت شاول وبيت داود أن ابنير تشدد لأجل بيت شاول وكانت لشاول سرية اسمها رصفة .. فقال ايشبوشث لابنير لماذا دخلت الى سرية أبي . فاغتاظ ابنير جدا من كلام ايشبوشث وقال .. اصنع معروفا مع بيت شاول أريك مع اخوته ومع أصحابه ولم أسلمك ليد داود وتطالبني اليوم باثم المرأة ..

كما حلف الرب لداود وكذلك اصنع له . لنقل المملكة من بيت شاول
واقامة كرسي داود على اسرائيل ويهوذا - صموئيل الثاني ٣ : ٦-١١ «

*

ومن عجب انه بعد ان قرر ابنير العمل في صف داود وأرسل يخبره
بذلك ، رحب داود على الفور الا انه اشترط على ابنير الا يريه وجهه الا بعد
أن يرد عليه زوجته السابقة ميكال ابنة شاول ، كما رد اليه أسباط
اسرائيل . وكانت ميكال قد احتجزها أبوها شاول من داود ، وزوجها
لرجل آخر . ولقد رجعت ميكال الى داود وزوجها ويبكى حبه المفتصب:

« أرسل ابنير من فوره رسلا الى داود قائلا . . اقطع عهدك معي
وهو ذا يدي معك لرد جميع اسرائيل اليك . فقال حقا . أنا أقطع معك
عهدا الا اني اطلب منك أمرا واحدا وهو ان لاترى وجهي مالم تأت أولا
بميكال بنت شاول حين تأتي لترى وجهي وأرسل داود رسلا الى
ايشبوشث بن شاول يقول اعطني امرأتى ميكال التي خطبتها لنفسى بمئة
غلفة من الفلسطينيين .

فأرسل ايشبوشث واخذها من عند رجلها . . وكان رجلها يسير معها
ويبكي وراءها فقال له ابنير . . ارجع فرجع - صموئيل الثاني ٣ : ١٢-١٦ «

*

وأخيرا بعد أن تم القضاء على ابن شاول خلا الجو لداود بعض الوقت
فجاء اليه جميع أسباط اسرائيل . . ومسحوا داود على اسرائيل . كان
« داود ابن ثلاثين سنة حين ملك ، وملك أربعين سنة . في حبرون ملك على
يهوذا سبع سنين وستة أشهر . وفي اورشليم ملك ثلاثا وثلاثين سنة
على جميع اسرائيل ويهوذا - صموئيل الثاني ٥ : ١-٥ « .

*

ولقد أنفق داود سنوات حكمه في صراع مستمر في الداخل والخارج .
ولعل أقسى ماتعرض له هو تلك الثورة المسلحة التي قادها ضده ابنه
ابشالوم بعد أن استطاع جمع الكثيرين من الاسرائيليين حوله . ولقد
كانت حربا مريرة بين الأب وابنه حيث سار كل منهما على رأس جيش
لمحاربة الآخر . وقد اضطر داود للهرب هو ورجاله من اورشليم الى الأردن .
ودخل ابشالوم اورشليم منتصرا ، وهناك زنى بعشرة من سراى أبيه
مبالغة في اذلاله . ولم تهدأ تلك الثورة الشعبية ضد داود الا بعد مصرع
ابنه ابشالوم :

« لم يكن في اسرائيل رجل جميل وممدوح جدا كابشالوم .. عند حلقه رأسه اذ كان يحلقها في آخر كل سنة .. كان يزن شعر رأسه مئتي شاقل ..

وكان بعد ذلك ان ابشالوم اتخذ مركبة وخيلا وخمسين رجلا يجرن قدامه .

وكان ابشالوم يبكر ويقف بجانب طريق الباب وكل صاحب دعوى ات الى الملك لأجل الحكم كان ابشالوم يدعوه اليه ويقول .. امورك سالحة ومستقيمة ولكن ليس من يسمع لك من قبل الملك . ثم يقول ابشالوم من يجعلنى قاضيا في الأرض فيأتى الى كل انسان له خصومة ودعوى فأنصفه .

كان اذا تقدم أحد ليسجد له يمد يده ويمسكه ويقبله .

وكان ابشالوم يفعل مثل هذا الأمر لجميع اسرائيل .. فاسترق ابشالوم قلوب جميع رجال اسرائيل .. وارسل ابشالوم جواسيس في جميع أسباط اسرائيل قائلا اذا سمعتم صوت البوق فقولوا قد ملك ابشالوم في حبرون ..

وكانت الفتنة شديدة وكان الشعب لا يزال يتزايد مع ابشالوم .

فأتى مخبر الى داود قائلا ان قلوب رجال اسرائيل صارت وراء ابشالوم .

فقال داود لجميع عبده الذين معه في اورشليم قوموا بنا نهرب لانه ليس لنا نجاة من وجه ابشالوم . أسرعوا للذهاب لئلا يبادر ويدركنا وينزل بنا الشر ويضرب المدينة بحد السيف ..

فخرج الملك وجميع بيته ورائه . وترك الملك عشر نساء سرارى لحفظ البيت ..

وكانت جميع الأرض تبكى بصوت عظيم وجميع الشعب يعبرون وعبر الملك .. نحو طريق البرية ..

وأما داود فصعد .. باكيا ورأسه مغطى ويمشى حافيا وجميع الشعب الذين معه ..

وأما بشالوم وجميع الشعب ورجال اسرائيل فأتوا الى اورشليم .. فنصبوا لابشالوم الخيمة على السطح ودخل ابشالوم الى سرارى أبيه أمام جميع اسرائيل ..

وقال اخيتوفل لابشالوم دعنى انتخب اننى عشر الف رجل واقوم
واسمى وراء داود هذه الليلة . فاتى عليه وهو متعب ومرتضى اليدين
فأزعجه فيهرب كل الشعب الذى معه وأضرب الملك وحده وأرد جميع
الشعب اليك .. فحسن الأمر فى عينى ابشالوم وأعين جميع شيوخ
اسرائيل ..

وأحصى داود الشعب الذى معه .. وأرسل داود ثلثا بيد يواب
وثلثا بيد أبيشاى .. وثلثا بيد اتاى الجتى . وقال الملك للشعب انى انا
ايضا أخرج معكم .

فقال الشعب لا تخرج .. الاصلح أن تكون لنا نجدة من المدينة .
فقال لهم الملك ما يحسن فى أعينكم افعله .

وخرج الشعب (اتباع داود) الى الحقل للقاء اسرائيل وكان القتال
فى وعر أفرائيم . فانكسر هناك شعب اسرائيل امام عبيد داود وكانت هناك
مقتلة عظيمة فى ذلك اليوم قتل عشرون الفا . وكان القتال هناك منتشرا
على وجه كل الأرض ..

وكان ابشالوم راكبا على بغل فدخل البغل تحت اغصان البطمه
العظيمة الملتفة فتعلق رأسه بالبطمه وعلق بين السماء والأرض .. فأخذوا
ابشالوم وطرحوه فى الوعر فى الجب العظيم وأقاموا عليه رجمة .. من
الحجارة . وهرب كل اسرائيل كل واحد الى خيمته .

- صموئيل الثانى ١٤ : ٢٥ - ١٨ : ١٧ «

*

وما كاد داود يأخذ طريقه عائدا الى اورشليم بعد القضاء على ثورة
ابنه ، حتى ظهر له ثائر آخر يدعى شبع بن بكرى ، الذى استطاع أن يجمع
حوله كل الاسرائيليين عدا سبسط يهوذا . لكنه قتل أخيرا وعاد الملك
لداود :

« واتفق هناك رجل لثيم اسمه شبع بن بكرى رجل بنيامينى فضرب
بالبوق وقال ليس لنا قسم فى داود .. كل رجل الى خيمته يا اسرائيل .

فصعد كل رجال اسرائيل من وراء داود الى وراء شبع بن بكرى .
وأما رجال يهوذا فلأزموا ملكهم من الأردن الى اورشليم .

وجاء داود الى بيته فى اورشليم . وأخذ الملك النساء السرارى
العشر اللواتى تركهن لحفظ البيت وجعلهن تحت حجز وكان يعولهن ولكن
لم يدخل اليهن .

فقال داود لأبيشاي الآن يسئ الينا شبع بن بكرى أكثر من
إبشالوم . فخذ أنت عبيد سيدك واتبعه لئلا يجد لنفسه مدنا حصينة
وينفلت من أعيننا . فخرج وراءه .. الجلادون والسعاة .. وجاءوا
وحاصروه في آبل بيت معكة وأقاموا مترسة حول المدينة ..

فقامت امرأة حكيمة من المدينة .. فتقدم اليها .. يوأب .. وقال
.. ان رجلا .. اسمه شبع بن بكرى رفع يده على الملك داود . سلموه
وحده فأنصرف عن المدينة .

فقال المرأة ليوأب هو ذا رأسه يلقي اليك من السور .. فقطعوا
رأس شبع بن بكرى وألقوه الى يوأب فضرب بالبوق فأنصرفوا عن المدينة
كل واحد الى خيمته - صموئيل الثاني ٢٠ .

*

وبجانب الاضطرابات الداخلية فقد كانت حروب داود مستمرة مع
الشعوب الفلسطينية ومن جاورها ، وكثيرا ما تعرض فيها داود للقتل :

« وكانت أيضا حرب بين الفلسطينيين واسرائيل فانحدر داود
وعبيده معه وحاربوا الفلسطينيين فأعيا داود ويشبى بنوب الذى ..
وزن رمحه ثلاث مئة شاقل نحاس ..

افتكر أن يقتل داود ، فأجده ابيشاي بن صرويه فضرب الفلسطيني
وقتله ..

ثم بعد ذلك كانت أيضا حرب في جوب مع الفلسطينيين .. وكانت
أيضا حرب في جت - صموئيل الثاني ٢١ : ١٥ - ٢٠ .

*

وتصور لنا الأسفار داود عنيفا في حروبه ، يريق الكثير من الدماء
دون مبرر ، وينكل بأعدائه وينزل بهم صنوفا من العذاب . وكان يعامل
الأسرى معاملة وحشية فأحيانا يأمرهم فينبطحون أرضا ثم يقسم الموت
بينهم ، اذ يأخذ جبلا يقيس بطوله مرتين عدد الذين أراد لهم الموت ، ثم
يقيس بطوله مرة لمن قرر لهم الحياة ، عبيد له .

وكثيرا ما كان داود يعذب اسراه بتقطيع بعضهم اربا بالمناشير والنوارج
ويحرق البعض الآخر في الافران من الاجر :

« وضرب الموآبيين وقاسهم بالحبل اضجعهم على الارض فقاس ..
بحبلين للقتل وبحبل للاستحياء . وصار الموآبيون عبيدا لداود .

— صموئيل الثاني ٨ : ٢ » .

« جمع داود كل الشعب وذهب الى ربة وحاربها وأخذها . وأخذ تاج
ملكهم عن رأسه .. وأخرج غنيمة المدينة كثيرة جدا .

وأخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد
وفؤوس حديد وأمرهم في أتون الاجر .

وهكذا صنع بجميع مدن بني عمون — صموئيل الثاني ١٢ : ٢٩ —
٣١ » .



ولهذا عرف داود في زمنه وبين عشيرته من الاسرائيليين أنه رجل دماء ،
ففى أثناء ثورة ابشالوم خرج عليه رجل « من عشيرة بيت شاول اسمه
شمعى بن جيرا يسب .. ويرشق بالحجارة داود وجميع عبيد الملك ..

وكان يقول في سبه : اخرج اخرج يارجل الدماء ..

وقد رد الرب عليك كل دماء بيت شاول الذى ملكت عوضا عنه وقد
دفع الرب الملكة ليد ابشالوم ابنتك وها أنت واقع بشرك لأنك رجل دماء .

فقال ابيشاى ابن صروية للملك لماذا يسب هذا الكلب الميت سيدي
الملك .. فقال الملك .. دعوه يسب لأن الرب قال له سب داود ..

وقال داود لابيشاى ولجميع عبيده هوذا ابني الذى خرج من أحشائي
يطلب نفسى (للقتل) فكم بالحرى الآن بنيامينى . دعوه يسب لأن الرب قال
له — صموئيل الثاني ١٦ : ٥ — ١١ » .



ثم كانت بقعة سوداء كبيرة الصقها كتية الأسفار بتاريخ داود حين ذكروا
قصة غرامه بزوجة احد جنوده وقد رآها تستحم عارية ، فاستدعاها الى
بيته وزنى بها . ولقد حبلت المرأة من داود فأسرع يستدعى زوجها من
الحرب لعله يأتيها فتضيع بذلك معالم الجريمة . لكن الجندي الشهم رفض
النزول الى بيته تضامنا مع رفاقه جنود الجيش الذين يعانون مشاق
الحرب ولم يكن في هذا ما يوقظ ضمير داود عن غيه ، بل ان الأمر ازداد
سوءا وتعاضمت الخطيئة حين قرر داود قتل الزوج ، فأرسل معه كتابا
الى قائد الجيش يتأمر فيه على رجله المخلص ويطلب التخلص منه .

ولقد نفذ القائد أوامر سيده ، وقتل الجندي ، فأرسل داود وضم المرأة التي زنى بها الى نسائه . ومن عجب أن يذكر كتابة الأسفار أن هذه الزوجة هي التي ولدت لداود بعد ذلك ابنه سليمان حكيم زمانه :

« وكان عند تمام السنة .. أن داود أرسل يوأب وعبيده معه وجميع اسرائيل فأخبروا بنى عمون وحاصروا ربة وأما داود فأقام في اورشليم . وكان في وقت المساء أن داود .. تمشى على سطح بيت الملك فرأى .. امرأة تستحم . وكانت المرأة جميلة المنظر جدا ..

فأرسل داود رسلا عن المرأة فقال واحد اليست هذه بتشبع .. امرأة أوريا الحثي فأرسل داود رسلا وأخذها فدخلت اليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها ..

وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود ..

فأرسل داود الى يوأب يقول أرسل الى اوريا الحثي .. فأتى اوريا اليه فسأل داود عن سلامة يوأب وسلامة الشعب ونجاح الحرب .

وقال داود لأوريا انزل الى بيتك واغسل رجلك . فخرج اوريا .. ولم ينزل الى بيته . فأخبروا داود .. فقال داود لأوريا اما جئت من السفر . فلماذا لم تنزل الى بيتك .

فقال اوريا لداود ان التابوت واسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام وسيدى يوأب وعبيد سيدى (الملك) نازلون على وجه الصحراء وأنا آتى الى بيتى لاكل واشرب واضطجع مع امرأتى . وحياتك وحياء نفسك لا أفعل هذا الأمر ..

ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره .

وفي الصباح كتب داود مكتوباً الى يوأب وأرسله بيد اوريا ! وكتب في المكتوب يقول اجعلوا اوريا في وجه الحرب الشديدة . وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت .

وكان في محاصرة يوأب المدينة انه جعل اوريا في الموضع الذى علم ان رجال البأس فيه ومات اوريا .. فذهب الرسول .. وأخبر داود .. فقال داود للرسول هكذا تقول ليوأب . لايسؤ في عينيك هذا الأمر لأن السيف يأكل هذا وذاك ..

فلما سمعت امرأة اوريا انه قد مات .. ندمت بعلمها . ولما مضت المناحه أرسل داود وضمها الى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابناً (ثمره زناه السابق) .

وأما الأمر الذى فعله داود فقبح في عينى الرب - صموئيل الثانى .

« ١١ »

وكان لابد من عقاب لتلك الجريمة الشنعاء ، بل انها في الواقع مجموعة
«مترابكة من الجرائم تشتمل على :

الغدر والتآمر والقتل والخسة والزنى ... الخ .

وجاء النذير لداود على لسان ناثان النبي يقول :

« هكذا قال الرب .. أنا مسحتك ملكا على اسرائيل وانقلدتك من يد
شاول واعطيتك بيت سيدك ونساء سيدك في حضنك .

لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر في عينيه . قد قتلت اوريا الحثي
بالسيف واخذت امراته لك امرأة واياه قتلت بسيف بنى عمون .

الآن لا يفارق السيف بيتك الى الابد وأخذ نساءك امام عينيك
واعطيهن لقريبك فيضطجع مع نسائك في عين هذه الشمس .

فقال داود لناثان قد اخطأت الى الرب . فقال ناثان لداود الرب
ايضا قد نقل عنك خطيتك .. لامتوت . غير أن .. الابن المولود لك (ثمرة
الزنا) يموت .. وضرب الرب الولد الذي ولدته امرأة اوريا لداود فقتل .
فسأل داود الله من أجل الصبي وصام .. ودخل مضطجعا على الأرض ..
وكان في اليوم السابع ان الولد مات ..

وعزى داود بثشبع امراته ودخل اليها واضطجع معها فولدت ابنا
فدعاها اسمه سليمان والرب احبه - صموئيل الثاني ١٢ : ٧ - ٢٤ » .

لقد جرت عادة المؤمنين حين يكسبون خطايا أن يصيهم الندم ووخز
الضمير ، ويودوا لو محيت خطاياهم من كل ذكرى ، وتباعدت بها المسافات
والأبعاد . أما ان يحرض داود على استبقاء ابن الزنى ليحمل عارا ليس من
صنعه ، ويعيش ذكرى حية لخطيئة ابيه ، فذلك مالا يفعله عامة الناس ،
صغيرهم وكبيرهم فما بالنا بداود مسيح الله الذي حل عليه « روح الرب »
منذ مسحه صموئيل حتى أواخر ايامه ، وهو الذي تذكر له الأسفار :

« وحى داود بن يسى وحى الرجل القائم في العلا مسيح اله يعقوب
ومرزم اسرائيل الحلو . روح الرب تكلم بى وكلمته على لساني . قال اله
اسرائيل ... صموئيل الثاني ٢٣ : ١ : ٣ » .



ان ما تذكره الأسفار عما فعله داود في كبره لم يفعله ابنه امنون في
شبابه حين عشق اخته تamar واحتال عليها حتى اغتصبها وهى بعد عذراء ،
ثم ما لبث ان ابغضها وكره رؤية وجهها .

فقد « احصر امنون للسقم من أجل ثامار اخته لانها كانت عذراء وعسر
في عيني امنون أن يفعل لها شيئا . (٣) وكان لامنون صاحب اسمه يوناداب
.. وكان يوناداب رجلا حكيما . فقال له لماذا يا ابن الملك انت ضعيف هكذا
.. اما تخبرني . فقال له امنون اني احب ثامار .. فقال يوناداب اضطجع
على سريرك وتمارض واذا جاء أبوك ليرك فقل له دع ثامار اختي فتأتي
وتطعمني .. فأكل من يدها .

فاضطجع امنون وتمارض فجاء الملك ليراه . فقال امنون للملك دع
ثامار اختي فتأتي ...

فأرسل داود الى ثامار .. فذهبت ثامار الى بيت امنون أخيها وهو
مضطجع ..

وقال امنون اخرجوا كل انسان عنى فخرج كل انسان عنه . ثم قال
امنون لثامار ايتي بالطعام .. فأنت به امنون أخاها الى المخدع .. فأمسكها
وقال لها تعالي اضطجعي معي يا اختي .

فقال له لا يا أخى لاتدلىني .. لاتعمل هذه القباحة اما انا فإني اذهب
بعارى واما أنت فتكون كواحد من السفهاء ..

والآن كلم الملك لانه لايمنعنى منك . (٤)

فلم يشأ أن يسمع لصوتها بل تمكن منها وقهرها واضطجع معها .

ثم ابغضها امنون بغضة شديدة جدا حتى ان البغضة التى ابغضها
اياها كانت اشد من المحبة التى احبها اياها . وقال لها امنون قومي انطلقى
.. بل دعا غلامه الذى يخدمه وقال اطرد هذه عنى خارجا واقفل
الباب وراءها - صموئيل الثانى ١٣ « .

✱

وفي اواخر ايام داود ضعف جسمه ، واصابته رعشة من البرد ، فلم
يجدوا شيئا يجلب له الدفء غير فتاة جميلة تكون له حاضنة ، تنام في
حضنه فتبعث الدفء في اوصاله المرتعشة .:

(٣) يبدو أن كاتب السفر قصد ان يقول أنه لو كانت ثامار المرأة لاستطاع
أخوها أن يقيم معها علاقة جنسية مستترة لكن عذريتها حالت دون ذلك .

(٤) ان هذه الفقرة تستوقف النظر اذ انها تنبئ بامكانية زواج الاخ
بأخته بنت أبيه ، وهو الأمر الذى حرّمته شريعة موسى تحريما قاطعا وجعلت
عقوبته الموت على رؤوس الأشهاد (لاويين ٢٠ : ١٧) .

« وشاح الملك داود وتقدم في الأيام وكانوا يد ثرونه بالثياب فلم يذفا .
فقال له عبده ليفتشوا لسيدنا الملك على فتاة عذراء فلتقف امام الملك
ولتكن له حاضنة ولتضطجع في حضنك فيذفا سيدنا الملك .

ففتشوا على فتاة جميلة في جميع تخوم اسرائيل فوجدوا ايشح
الشونمية فجاءوا بها الى الملك وكانت الفتاه جميلة جدا فكانت حاضنة الملك
وكانت تخدمه ولكن الملك لم يعرفها (يعبث بها) . - الملوك الاول : ١ : ١)
- « ٤ » .

*

واخيرا مات دواود ودفن في التراب كما يموت ويدفن كل الناس .

سليمان : انجب داود من نساائه الكثيرات عددا من الأولاد والبنات
منهم «بكره امنون من اخينوعم اليزرعيلية . وثانية كيلاب من ابيجايل امرأة
نابال الكرملى . والثالث ايشالوم ابن معكة بنت تلماي ملك جشور . والرابع
ادونيا ابن حجيث . والخامس شفتيا ابن ابيصال . والسادس يثر عام من
عجلة امرأة داود .

هؤلاء ولدوا لداود في حبرون .

ولم يكن لميكال بنت شالوم ولد الى يوم موتها - صموئيل الثانى
٣ : ٢ - ٥ ، ٦ : ٢٣ » .

ثم تزوج داود من بثشبع امرأة اوريا الحثى التى ولدت له سليمان .
ويبدو ان بثشبع كان لها منزلة خاصة في قلب داود منذ عرفها لأول
مرة حتى نهاية حياته . ولقد كانت بثشبع تعلم ذلك ، ولهذا استطاعت ان
تحصل من داود على وعد بتوريث الملكة لابنها سليمان ، واقضاء من بقى
حيا من أخوته الآخرين عن الحكم . ولقد وثق داود وعده لبثشبع بقسم
غليظ .

لكن ادونيا انتهز فرصة ضعف أبيه في ايامه الأخيرة ، وأعلن توليه
الملكة . وهنا تحركت بثشبع ومن شبايعها من الحاقدين على ادونيا ،
واستطاعت انتزاع الملكة لابنها سليمان :

« ثم ان ادونيا ابن حجيث ترفع قائلا انا املك . وعد لنفسه عجلات
وفرسانا وخمسين رجلا يجرون امامه .

ولم يفضبه ابوه قط قائلا لماذا فعلت هكذا .

وهو ايضا جميل الصورة جدا وقد ولدته امه بعد ايشالوم (الذى
قتل في ثورته ضد أبيه) :

« فذبح أدونيا غنما وبقرا ومعلوفات .. ودعا جميع اخوته بنى الملك وجميع رجال يهوذا عبيد الملك . واما ناتان النبي وبنايا هو والجبارة وسليمان أخوه فلم يدعهم .

فكلم ناتان بثشبع . أم سليمان قائلا اما سمعت ان ادونيا ابن حجيث قد ملك .. تعالى أشير عليك مشورة فتنجى نفسك ونفس ابنك سليمان .. أدخلى الى الملك داود وقولى له اما حلفت انت ياسيدى الملك لأمتك قائلا أن سليمان ابنك يملك بعدى وهو يجلس على كرسى فلماذا ملك أدونيا . وفيما أنت متكلمة هناك مع الملك أدخل انا وراءك وأكمل كلامك . فدخلت بثشبع .. الى المخدع وكان الملك قد شاخ جدا وكانت ايششج الشونمية تخدم الملك فخرت بثشبع وسجدت للملك .. فقالت له .. وبينما هى متكلمة .. اذا ناتان النبي داخل وقال ناتان ياسيدى الملك أنت قلت ان ادونيا يملك بعدى .. لانه نزل اليوم وذبح ثيرانا .. ودعا جميع بنى الملك ورؤساء الجيش وابطانار الكاهن وهاهم يأكلون ويشربون امامه .. واما انا عبدك وصادوق الكاهن .. وسليمان عبدك فلم يدعنا .

فأجاب الملك وقال ادع لى بثشبع . فدخلت .. فحلف الملك وقال .. كما حلفت لك بالرب اله اسرائيل قائلا ان سليمان ابنك يملك بعدى .. كذلك افعل هذا اليوم - الملوك الأول ١ : ٥ - ٣٠ .

وهكذا تحولت وراثة المملكة لصالح سليمان .

*

وقيل أن يموت داود فانه قرب ابنه سليمان منه ، وأسر اليه بعض الوصايا ، منها ما هو خير ويتعلق بحفظ شريعة موسى والاستقامة مع الله ، ومنها ما دون ذلك كالتحريض على مواصلة الانتقام من اعدائه الذين سبوا له بعض المتاعب فى حياته مثل شمعى بن جيرا ، الذى سبه ذات يوم بأنه رجل دماء ، رغم ما بدأ فى ذلك الوقت من تسامح داود معه :

« ولما قربت ايام وفاة داود اوصى سليمان ابنه قائلا .. احفظ شعائر الرب الهك اذ تسير فى طريقه وتحفظ فرائضه ووصايا واحكامه وشهاداته كما هو مكتوب فى شريعة موسى لكى تفلح فى كل ما تفعل وحيثما توجهت ..

هوذا معك شمعى بن جيرا البنيامينى .. وهو لعننى لعنة شديدة يوم انطلقت الى محانيم وقد نزل للقائى الى الأردن فحلفت له بالرب قائلا انى لا أميتك بالسيف .

والآن فلا تبرره لأنك انت رجل حكيم فاعلم ما تفعل به واحذر شيبته بالدم الى الهاوية - الملوك الأول ٢ : ١ - ٩ .

*

ولهذا بدأ سليمان حكمه بالانتقام من أعدائه ، وأولهم أخوه الأكبر أدونيا ومن شايهه مثل يواب قائد الجيش وابطائار الكاهن وغيرهم . ولقد حدث ان طلب أدونيا من بثشبع أم سليمان أن تتوسط له لدى ابنها الملك كي يزوجه احدى السراى الجميلات ، فكان رد سليمان على ذلك قتل أدونيا ومن معه :

« وجاء أدونيا .. بثشبع أم سليمان : فقالت للسلام جئت . فقال للسلام . ثم قال . لى معك كلمة : فقالت تكلم . فقال انت تعلمين ان الملك كان لى وقد جعل جميع اسرائيل وجوهم نحوى لأمك فدار الملك وصار لآخى لأنه من قبل الرب صار له .

الآن اسألك سؤالاً واحد فلا تردنى فيه .. قولى لسليمان الملك لأنه لا يردك أن يعطينى ابيشج الشونمية امرأة .. فقالت بثشبع حسنا . انا اتكلم عنك الى الملك .

فدخلت بثشبع الى الملك .. وقالت انما اسألك سؤالاً واحداً صغيراً . لا تردنى .. فقال لها الملك اسألى يا أمى لأنى لا أردك . فقالت (له) فأجاب الملك سليمان وقال لأمه ولماذا انت تسألين ابيشج الشونمية لأدونيا . فاسألى له الملك لأنه أخى الأكبر منى ؛ .. وحلف سليمان الملك بالرب قائلاً .. انه اليوم يقتل أدونيا .. فبطش به فمات .

— الملوك الأول ٢ : ١٣ - ٢٥ » .



وبعد ان استقرت الأمور لسليمان بدأ يهتم بالعمارة والتشييد ، فأقام بيتاً للرب وقصوراً لنسائه ، واستعان فى ذلك بالعمال المهرة من لبنان لعدم وجود أى من أمثالهم بين الاسرائيليين .

واقضى ذلك العمل تسخير الآلاف من البشر لمدة ٢٠ عاماً :

« ارسل سليمان الى حيرام (ملك صور) يقول . أنت تعلم داود أبى أنه لم يستطع أن يبنى بيتاً لاسم الرب الهه بسبب الحروب التى أحاطت به .. والآن فقد أراحنى الرب الهى من كل الجهات .. وهأنذا قائم على بناء بيت لاسم الرب الهى ..

والآن فأمر أن يقطعوا لى أرزا من لبنان يكون عبيدى مع عبيدك وأجرة عبيدك أعطيك أياها حسب كل ماتقول لأنك تعلم أنه ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب مثل الصيدونيين . وسخر الملك سليمان من جميع اسرائيل وكانت السخر ثلاثين الف رجل ..

وكان لسليمان سبعون الفا يحملون احمالا وثمانون الفا يقطعون في
الجبل - الملوك الأول ٥ .

« وبعد نهاية عشرين سنة بعد ما بنى سليمان البيتين بيت الرب وبيت
الملك . . أعطى حينئذ الملك سليمان حيرام عشرين مدينة في ارض الجليل
فخرج حيرام من صور ليرى المدن التي اعطاه اياها سليمان فلم تحسن في
عينيه - الملوك الأول ٩ : ١٠ - ١٢ » .



ولقد بلغ ضلال كتبة الأسفار مداه حين يذكرون عن سليمان أنه في
نهاية عهده قد ضل ضلالا بلغ به حد الكفر ، اذ كان يبني النصب للمعبودات
الوثنية ويقدم لها القرابين ، أرضاء لنسائه الكثيرات اللاتي وصل عددهن
١٠٠٠ امرأة :

« وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون (زوجته)
موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات . من الأمم الذين قال
عنهم الرب لبنى اسرائيل لاتدخلوا اليهم وهم لايدخلون اليكم لانهم يميلون
قلوبكم وراء آلهتهم . فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة .

وكانت له سبع مئة من النساء والسيدات وثلاث مئة من السراري
فأملت نساؤه قلبه . وكان في زمان شيخوخة سليمان ان نساءه املن قلبه
وراء آلهة اخرى ولم يكن قلبه كاملا مع الرب الهه كقلب داود ابيه .

فذهب سليمان وراء عشستورث الالهة الصيدونيين وملكوم رجس
العمونيين . وعمل سليمان الشر في عينى الرب ولم يتبع الرب تماما كداود
ابيه .

حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين على الجبل الذى
تجاه اورشليم ، ولمولك رجس بنى عمون . وهكذا فعل لجميع نسائه
الغربيات اللواتى كن يقدن ويذبحن لآلهتهن - الملوك الأول ١١ : ١ - ٨ » .



ونتيجة لذلك الكفر المفترى على سليمان فقد استحق غضب الله
وعقابه ، فبدأت ضده الثورات والقلاقل تمهيدا لتمزيق المملكة وبعثرتها :
« فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب اله اسرائيل الذى

ترأى له مرتين (حين جاءه الوحي) واوصاه في هذا الامر أن لا يتبع آلهة
أخرى فلم يحفظ ما أوصى به الرب .

فقال الرب لسليمان من أجل أن ذلك عندك ولم تحفظ عهدي وفرائضي
التي أوصيتك بها فاني أمزق المملكة عنك تمزيقا وأعطيها لعبدك ..

وأقام الرب خصما لسليمان هدد الأدمي ..

وأقام الله له خصما آخر رزون بن اليداع ..

ويربعام بن ناباط .. عبد لسليمان .. رفع يده على الملك - الملوك

الاول ١١ » .

*

وهكذا نجد أن المملكة الصغيرة التي اقامها الاسرائيليون في أجزاء من
فلسطين والتي لم تضم اليها في يوم من الأيام السهل الساحلي الممتد حول
غزة وعسقلون وأشدود ويافا - سرعان ما بدأت في التمزق والانهار ، ولما
تعمر أكثر من بضع عشرات من السنين .

٤ - السبي والضياع :

يقول باركس : « ان القبائل الاسرائيلية لم تستطيع أن تقيم فيما بينها
وحدة سياسية لها قيمة - في أي يوم من الأيام - الا اذا كانت قد أفلتت من
قبضة كل من مصر والعراق القديم .

بعد مرور الألف الثاني من قبل الميلاد كانت كل من هاتين الامبراطوريتين
تعانى الضعف وعندئذ ظهر شاول ثم تبعه داود حيث استولى على مساحة
من الأرض ، وأقام جيشا ، ونظم ادارة .

ولقد كانت المملكة التي اقامها داود قصيرة العمر ، فقد انقسمت
بمجرد موت ابنه سليمان الى قسمين : أحدهما - المملكة الجنوبية أو مملكة
يهودا ، وقد اتخذت اورشليم التي استولى عليها داود من اليبوسيين -
عاصمة لها ، وانتسب اليها اليهود فيما بعد . والثانية - المملكة الشمالية
أو مملكة اسرائيل ، وقد صارت السامرة عاصمة لها ، وانتسب اليها
السامريون .

ولقد كان من النادر وجود صفاء بين هاتين الولايتين الصغيرتين ، بل
كانتا غالبا في عداء سافر .

وعلى أى حال فقد استطاعتا البقاء فترة من الزمن ، لسبب واحد فقط ، وهو أن أى من الامبراطوريات القديمة لم ترغب في مد حدودها على حسابها . (٥)

*

ورغم أن الاسرائيليين كانوا يعلمون من شريعة موسى وأقوال من جاء بعده من الأنبياء ، أن وجودهم في فلسطين مرتبط أساسا بسلامة العقيدة وحسن السلوك ، إلا أن تلكما المملكتين الصغيرتين سارتا من أول يوم في طريق الكفر والوثنية .

فقد ملك يربعام - عبد سليمان - على مملكة اسرائيل التي ضمت عشرة اسباط ، وكانت هي الأعز نفرا والأكثر مساحة ، فما كان منه إلا أن استغل رغبة الاسرائيليين الدفينة في عبادة العجول والذهب « وعمل عجلي ذهب وقال لهم .. هوذا آلهتك يا اسرائيل الذين اصعدوك من أرض مصر . ووضع واحدا في بيت ايل وجعل الآخر في دان ..

والزمان الذي ملك فيه يربعام هو اثنتان وعشرون سنة - الملوك الاول ١٢ : ٢٨ ، ١٤ : ٣٠ .

أما رحبعام - ابن سليمان - فقد ملك على سبطين فقط في مملكة يهوذا التي كانت ضعيفة العدد ضئيلة المساحة ، وتردى هو الآخر وشعبه في متهاتات الكفر والضلال :

« وكان رحبعام ابن احدى وأربعين سنة حين ملك وملك سبعة عشر سنة .. وعمل يهوذا .. الشر في عيني الرب وأغاروه اكثر من جميع ما عمل آباؤهم بخطاياهم التي اخطأوا بها .. فعلوا كل أرجاس الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى اسرائيل - الملوك الاول ١٤ : ٢١ - ٢٤ .

*

وتؤكد الأسفار رأى الباحثين - ومنهم باركس - في أن الصورة التي كان يظهر بها الوجود الاسرائيلي منذ قدم الى فلسطين ، قد ارتبطت على مر العصور بالحالة في كل من مصر والعراق القديم ، وبالعلاقات بينهما . كذلك كانت عوامل الحقد والبغضاء بين المملكتين سببا في التعجيل بنهايتهما .

ففي عهد تجهلات بلاسر الثالث (٧٤٥ - ٧٢٧ ق . م) بدأت الامبراطورية الاشورية في توسيع حدودها . وما أن جاء عام ٧٣٨ ق . م حتى كان منحيم حاكم اسرائيل يدفع الجزية لملك اشور ، ويستغل عمالته للأشوريين في تثبيت سلطانه :

« ملك منحيم بن جادى على اسرائيل فى السامرة عشر سنين .. فجاء فول ملك آشور على الأرض فأعطى منحيم لفلو ألف وزنة من الفضة لتكون يداه معه ليثبت المملكة فى يده - الملوك الثانى ١٥ : ١٧ - ١٩ » .

وبعد موت منحيم ملك ابنه فقيحا عوضا عنه لمدة عامين ، الى أن قتله أحد رجاله ويدعى فقح ابن رمليا ، وملك على اسرائيل بدلا منه . « وفى أيام فقح ملك اسرائيل جاء تغلث فلاسر ملك آشور وأخذ عيون وأبل بيت معكة ويانوح وقادش وحاصور وجلعاد والجيليل وكل أرض نفتالى وسباهم الى آشور . - الملوك الثانى ١٥ : ٢٩ » .

*

وفى ذلك الوقت تحول العداء بين المملكتين الى حرب سافرة خرج فيها ملك اسرائيل مع حليفه ملك ارام لمحاربة ملك يهوذا :

« حينئذ صعّد رصين ملك ارام وققح بن رمليا ملك اسرائيل الى اورشليم للمحاربة فحاربوا آحاز (ملك يهوذا) ولم يقدرُوا أن يغلبوه . فى ذلك الوقت أرجع رصين ملك ارام ايلة للاراميين وطرد اليهود من ايلة وجاء الاراميون الى ايلة واقاموا هناك الى هذا اليوم - الملوك الثانى ١٦ : ٥ - ٦ » .

وازاء ذلك الموقف فقد سارع ملك يهوذا الى ملك آشور يستنجد به ، على ملك اسرائيل وحليفه ملك ارام بعد أن تعهد بدفع الجزية للأشوريين من ذهب الهيكل وفضته ، وجعل نفسه عبدا للملكهم :

« أرسل آحاز رسلا الى تغلث فلاسر ملك آشور قائلا أنا عبدك وابنك . اصعد وخلصنى من يد ملك ارام ومن يد ملك اسرائيل القائمين على .

فأخذ آحاز الفضة والذهب الموجودة فى بيت الرب وفى خزائن بيت الملك وأرسلها الى ملك آشور هدية . فسمع له ملك آشور - الملوك الثانى ١٦ : ٧ - ٩ » .

*

ولقد حاول هوشع - آخر ملوك اسرائيل - التمرد على سلطان آشور بمساعدة ملك مصر الا أن مؤامرتة لم تفلح ، ودفع هو وشعبه الثمن غاليا :

« ملك هوشع بن ايلة فى السامرة على اسرائيل تسع سنين .. وصعد عليه شلمناسر ملك آشور (فى ذلك الوقت) فصار له هوشع عبدا ودفع له جزية .

وجد ملك آشور في هوشع خيانة لانه ارسل رسلا الى سوا ملك مصر
ولم يؤد جزية الى ملك آشور حسب كل سنة فقبض عليه ملك آشور واوثقه
في السجن .

وصعد ملك آشور على كل الارض وصعد الى السامرة وحاصرها ثلاث
سنين .

*

واخيرا جاء الطوفان البشرى الذى اجتاح مملكة اسرائيل ايام سرجون
الثانى (٧٢٢ - ٧٠٥ ق . م) وسبى كل شعبها الى آشور حيث ذابوا في
غيرهم من الشعوب :

« في السنة التاسعة لهوشع اخذ ملك آشور السامرة وسبى اسرائيل
الى آشور واسكنهم في حلب وخابور نهر جوزان وفي مدن مادي .

وكان ان بنى اسرائيل اخطأوا الى الرب الههم .. فغضب الرب جدا
على اسرائيل ونحاهم من امامه ولم يبق الا سبط يهوذا وحده ..

فسبى اسرائيل من ارضه الى آشور الى هذا اليوم - الملوك الثانى
« ١٧ » .

*

وهكذا كان عام ٧٢١ ق . م حاسما في التاريخ الاسرائيلى ، اذ فيه
انقطع خبر عشرة من اسباط اسرائيل (اكثر من ٨٥٪ منهم) ، وتحولوا
الى ذكره عابرة او غابرة في التاريخ .

لقد كانت تلك هى النهاية التى تذكرها الاسفار عن ضياع مملكة
اسرائيل . واما مملكة يهوذا - فرغم انها استطاعت ان تقاوم عوامل فنائها
فترة من الزمن بعد انتهاء مملكة اسرائيل ، الا ان ذلك لم يغير من مصيرها
المنتظر شيئا - فقد انتهت هى الأخرى الى سبى وضياع .

ولما كانت اورشليم عاصمة ليهوذا ، وبها الهيكل - بيت الرب - الذى
بناه سليمان فلسوف نذكر بشيء من التفصيل بعض ما تعرضت له يهوذا
وعاصمتها وهيكلها من أحداث .

ففى بداية عهدها الأنفصالي - ايام رحبعام بن سليمان أول ملك فيها -
تعرضت لغزو المصريين :

« فى السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشق ملك مصر (من
الأسرة ٢٢) الى اورشليم . وأخذ خزائن بيت الرب بيت الملك وأخذ كل
شئ وأخذ جميع أتراس الذهب التى عملها سليمان . فعمل الملك رحبعام
عوضا عنها أتراس نحاس - الملوك الأول ١٤ : ٢٥ - ٢٧ » .

*

كذلك كان العداء سافرا بين المملكتين وكانت الحرب بينهما ساخنة منذ أول يوم :

« وكانت حرب بين رحبعام (ملك يهوذا) ويربعام - الملوك الثاني ١٥ : ٦ - ٧ » .

وفي الحرب بين المملكتين كانت كل منهما تلجأ الى حليف قوى - غريب عن الاسرائيليين - تستعديه على أختها ، بعد أن تقدم له الهدايا مشفوعة بمراسم الذلة والخضوع .

فحين تعرضت يهوذا للغزو من جانب اسرائيل ، أسرع آسا حاكم الاولى الى ملك الأراميين يستنجد به ويفريه بالذهب والفضة للوقوف بجانبه :

« وكانت الحرب بين آسا (ملك يهوذا) ويعشا ملك اسرائيل كل أيامهما . وصعد بعشا ملك اسرائيل على يهوذا وبنى الرامة لكي لا يدع احدا يخرج أو يدخل الى آسا ..

وأخذ آسا جميع الفضة والذهب الباقية في خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك ودفعها ليد عبيده وأرسلهم الملك آسا الى بنهدد .. ملك أرام الساكن في دمشق قائلا ..

هوذا قد أرسلت اليك هدية من فضة وذهب فتعال انقض عهدك مع بعشا ملك اسرائيل فيصعد عنى .

فسمع بنهدد للملك آسا وأرسل رؤساء الجيوش التي له على مدن اسرائيل وضرب عيون ودان وآبل بيت معكة وكل كنزوت مع كل أرض نفتالي .

ولما سمع بعشا كف عن بناء الرامة وأقام في ترصة - الملوك الأول ١٥ : ١٦ - ٢١ » .

*

وفي جميع تلك الحروب كانت اورشليم والهيكل ، والذهب - الذي يبدو أن معينه لم يكن لينضب - هم الضحية أمام الغزاة الغالبين :

« صعد حزائيل ملك أرام وحارب جت وأخذها . ثم حول حزائيل وجهه ليصعد الى اورشليم فأخذ يهوآش ملك يهوذا جميع الأقداس التي قدسها .. آباه ملوك يهوذا وأقداسه وكل الذهب الموجود في خزائن بيت الرب وبيت الملك وأرسلها الى حزائيل ملك أرام فصعد عن اورشليم - الملوك الثاني ١٣ : ١٧ - ١٨ » .

*

وفي تحد من يهوذا لاسرائيل ، ما لبث ان تحول الى مواجهة ساخنة كانت نتيجتها ان هزمت فيها الأولى وجلبت الخراب على اورشليم :

« ارسل امصيا (ملك يهوذا) رسلا الى يهوآش . . ملك اسرائيل قائلا هل نترأء مواجهة . . فصعد يهوآش ملك اسرائيل وتراءيا مواجهة هو وامصيا ملك يهوذا . . فانهزم يهوذا امام اسرائيل وهربوا كل واحد الى خيمته .

وأما امصيا ملك يهوذا . . فامسكه يهوآش ملك اسرائيل في بيت شمس وجاء الى اورشليم وهدم سور اورشليم . . وأخذ كل الذهب والفضة وجميع الآنية الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك والرهناء ورجع الى السامرة - الملوك الثاني ١٤ : ٨ - ١٤ » .



وفي عهد سنحاريب ملك اشور (٧٠٥ - ٦٨١ ق . م .) حاول حزقيا ملك يهوذا التمرد على سلطان اشور بالتحالف مع اعداء الاشوريين ، ولكنه جلب الخراب على مملكته اذ اجتاحتها جيوش الاشوريين وحاصرت اورشليم حتى اضطر حزقيا الى دفع فدية حرب من ذهب الهيكل وفضته :

« ملك حزقيا . . ملك يهوذا . . وعصى على ملك شور ولم يتعبد له .

وفي السنة الرابعة عشر للملك حزقيا صعد سنحاريب ملك اشور على جميع مدن يهوذا الحصينة وارسل حزقيا ملك يهوذا الى ملك اشور . . يقول قد اخطأت . ارجع عني ومهما جعلت على حملته .

فوضع ملك اشور على حزقيا . . ثلاث مئة وزنة من الفضة وثلاثين وزنة من الذهب .

فدفع حزقيا جميع الفضة الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك .

في ذلك الزمان قشر حزقيا الذهب عن ابواب هيكل الرب والدعائم التي كان قد غشاها . . ودفعه لملك اشور - الملوك الثاني ١٨ : ١ - ١٦ » .



ولقد كانت تجربة منسى بن حزقيا اقسى من تجربة ابيه ، فقد اقتاده الاشوريون بالسلاسل الى بابل :

« لكن منسى اضل يهوذا وسكان اورشليم .. »

فجلب الرب عليهم رؤساء الجند الذين لملك اشور فأخذوا منسى
بخزامة وقيدوه بسلاسل نحاس وذهبو به الى بابل - اخبار الأيام الثاني
٣٣ : ٩ - ١١ » .

✱

وأخيرا تلقت يهوذا الضربات الثقيلة : ضربة من مصر أعجزتها
أولا ، ثم ضربة من العراق قضت عليها نهائيا ، ووضعت بذلك خاتمة تعسة
للملكة التي اشترك في اقامتها شاول وداود وسليمان .

ففى عهد يوشيا ملك يهوذا « صعد فرعون نخوملك مصر على ملك اشور
الى نهر الفرات فصعد الملك يوشيا للقائه فقتله فى مجدو حين رآه .

وأركبه عبيده ميتا من مجدو وجاءوا به الى اورشليم فأخذ شعب
الأرض يهوآحاز بن يوشيا ومسحوه وملكوه عوضا عن أبيه .. وملك ثلاثة
اشهر فى اورشليم .. واسره فرعون نخو فى ربله فى أرض حماة لثلا يملك فى
اورشليم .

وغرم الأرض بمئة وزنة من الفضة ووزنة من الذهب
وملك فرعون نخو الياقيم بين يوشيا عوضا عن .. أبيه وغير اسمه
الى يهوياقيم وأخذ يهوآحاز وجاء الى مصر فمات هناك .
ودفع يهوياقيم الفضة والذهب لفرعون الا أنه قوم الأرض .
لدفع الفضة بأمر فرعون ..

فطالب شعب الأرض بالفضة والذهب ليدفع لفرعون نخو - الملوك
الثانى ٢٣ : ٢٩ - ٣٥ » .

✱

وفى عهد نبوخذ ناصر (٦٠٥ - ٥٦٢ ق . م) ملك بابل ، خضعت له
يهوذا ، وكان ملكها « يهوياقيم عبدا ثلاث سنين ثم عاد فتمرد عليه . فأرسل
الرب عليه غزاة الكدانيين وغزاة الأراميين وغزاة بنى عمون وأرسلهم على
يهوذا ليبيدها » . وقد حوصرت اورشليم ثم سقطت فى عام ٥٩٦ ق . م ويرى
البعض ان يهوياقيم مات فى هذه الاثناء ميتة طبيعية ، بينما يرى آخرون أنه
ذبح والقيت جثته خارج الاسوار . وقد خلفه ابنه يهوياكين ولم يدم حكمه
اكثر من ثلاثة اشهر :

« في ذلك الزمان صعد عبيد نبوخذ ناصر ملك بابل الى اورشليم فدخلت المدينة تحت الحصار وجاء نبوخذ ناصر ملك بابل على المدينة وكان عبيده يحاصرونها فخرج يهوياكين ملك يهوذا الى ملك بابل هو وأمه وعبيده ورؤساءه وخصيانه وأخذة ملك بابل . وأخرج من هناك جميع خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وكسر كل آنية الذهب التي عملها سليمان . . وسبى كل اورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس عشرة آلاف سبى وجميع الصناع والأقيان لم يبق أحدا الا مساكين شعب الأرض وسبى يهوياكين الى بابل وأم الملك ونساء الملك وخصيانه واقوياء الأرض سباهم من اورشليم الى بابل . .

وملك ملك بابل متنياعمه عوضا عنه وغير اسمه الى صدقيا . . وعمل الشر في عيني الرب . . وتمرد على ملك بابل - الملوك الثاني ٢٤ » .

« وفي السنة التاسعة للملكه جاء نبوخذ ناصر ملك بابل وهو وكل جيشه على اورشليم ونزل عليها وبنى عليها ابراجا حولها . ودخلت المدينة تحت الحصار الى السنة الحادية عشر للملك صدقيا . . واشتد الجوع في المدينة ولم يكن خبز لشعب الأرض .

فتفرت المدينة وهرب جميع رجال القتال ليلا . . . وكان الكلدانيون حول المدينة مستديرين فتبعت جيوش الكلدانيين الملك فادركوه في بريا اريحا وتفرقت جميع جيوشه عنه .

فأخذوا الملك واصعدوه الى ملك بابل الى ربله وكلموه بالقضاء عليه . وقتلوا بنى صدقيا أمام عينيه وقلعوا عيني صدقيا وقيدوه بسلسلتين من نحاس وجاءوا به الى بابل » .

كانت هذه هي المرحلة الاولى للسبى البابلى الذي اكتمل بعد ذلك حين « جاء بنوزرادان رئيس الشرط عبد ملك بابل الى اورشليم وأحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت اورشليم وكل بيوت العظماء احرقها بالنار وجميع اسوار اورشليم مستديرا هدمها كل جيوش الكلدانيين . . . وبقية الشعب الذين بقوا في المدينة والهاربون الذي هربوا الى ملك بابل وبقية الجمهور . . . لكن رئيس الشرط ابقى مساكين الأرض كرامين وفلاحين .

فسبى يهوذا من ارضه واما الشعب الذى بقى في أرض يهوذا الذين أبقاهم نبوخذ نصر ملك بابل فوكل عليهم جدليا بن اخيقام ، وهو اليهودى العميل الذى لما قابله بقية من رؤساء جيش يهوذا « حلف جدليا لهم ولرجالهم وقال لاتخافوا من عبيد الكلدانيين اسكوا الأرض وتعبدوا لملك بابل فيكون لكم خير » .

لكنه قتل « وايضا اليهود والكلدانيين الذين معه في المصفاة فقام جميع الشعب من الصغير الى الكبير ورؤساء الجيش وجاءوا الى مصر لانهم خافوا من الكلدانيين - الملوك الثاني ٢٥ » .

*

وهكذا انقرضت مملكة يهودا في حوالى عام ٥٨٦ ق . م . وأخذ شعبها سبايا الى أرض بابل .

وقد فر من بقى منهم الى مصر هربا من بطش الكلدانيين واستقبلتهم مص كعادتها مع كل اللاجئين اليها - بالترحاب وانزلتهم في تانيس ومنف واسوان . وكان النبو ارميا من بين المهاجرين الى مصر .

ولا غرابة في ذلك فلقد كانت مصر دائما هى خير مأوى لليهود كما اعترف بذلك كثير منهم ، ومن بينهم الكاتب اليهودى هيو شونفيلد الذى يقول: « من قديم الزمن ، كانت مصر هى الملجأ لليهود الهاريين من الاضطرابات السياسية فى فلسطين ، فاليها هرب الكثيرون من خراب اورشليم على يد البابليين فى القرن السادس قبل الميلاد ، وهو الحادث الذى تعرض له اليهود مرة ثانية عام ٧٠ م (عندما خربها الرومان على يد تيطس) فنعلم من المؤرخ (اليهودى) يوسفوس ان اللاجئين اليهود تدفقوا على مصر مرة ثانية ابان تلك الكارثة وبينهم نحو ٦٠٠ من الشيوخ (الغيورين) ، ويمكننا القول بأن عددا من النذيرين ، وصلوا الى الاسكندرية واقاموا لهم طائفة هناك . » (٦) .

٤ - حركة عزرا للاصلاح الدينى :

« فى عام ٥٤٨ ق . م . سمح كورش الفارسى قاهر بابل ، للشعوب التى سببت فى الامبراطورية البابلية بالعودة الى وطنها .

ولقد كان الغرض الذى من اجله عاد يهود السبى من بابل دينيا صرفا .

وفى عام ٥١٥ ق . م جدد الهيكل وأعيد افتتاحه ، ولكن يبدو ان الكهنة والشعب قد انغمسوا سريعا فى عاداتهم القديمة ، حتى كان القرن الخامس ق . م . حين عاد الرجلان (نحميا وعزرا) ، واللذان كان عملهما متميزا . وان كنا لانعرف من الذى رجع أولا ، بيد أنه من المرجح أن يكون نحميا . لقد كان نحميا موظفا فى البلاط الفارسى ، فجدد اسوار اورشليم ومبانيها ، ثم تبعه عزرا الذى حمل معه مرسوما من ملك فارس يخوله سلطة على الذين يعتنقون اليهودية فى ولاية يهوذا وما حولها . ولقد كان لعزرا ثلاثة اهداف :

(١) المرجع رقم ٢٢ - ص ٢٤٩

الأول - تجديد العهد بين الشعب واليه ، مثل العهد الذي تلقاه آباؤهم في سيناء ولذلك فقد احضر معه نسخة مراجعة من التوراة ، قرئت في مسامع الشعب ، وترجمت الى الأرامية التي حلت محل العبرية بعد أن فقد اللسان العبري بين الاسرائيليين .

والثاني - تطهير الشعب من خطاياها التي كانت سببا في عقابه وسببه . وشمل ذلك أيضا تطهير الهيكل وطقوس العبادة مما علق بها ، فقد ملأ سليمان الهيكل بمعبودات الوثنيين ارضاء لزوجاته . ولقد كانت اباحية تلك الزوجات الكافرات تعنى السماح بالدعارة بين كلا الجنسين ، وواد البنين ، وممارسة كل طقوس الأخصاب التي تخصصت فيها الشعوب المجاورة .

والثالث - جعل الشعب يمارس عقيدته في حياته اليومية .

لقد حول عزرا خبرات السبى في بابل الى ثورة دينية نشطة ، ورغم انه اهتم كثيرا بالهيكل والكهانة ، الا أن شغله الشاغل كان حياة الشعب ، وتغليظها بالعقيدة الدينية « . (٧)

« والحق اننا لانعرف الا القليل عن نوع الحكومة في ولاية يهوذا . فقد كان نحميا حاكما عينه الفرس . وكان لديه تفويضا له قوة النفاذ ، لكن عزرا لم يكن من الحكام .

ومن المصادر اليهودية يمكن القول بأن قيادة الأمة قد آلت الى طبقة من كبار الكهنة وهم جمع صغير من العائلات الثرية « . (٨)

« حتى اذا كان عام ٣٢٢ ق . م مر الاسكندرية بولاية يهوذا - او مقاطعة اليهودية في طريقه الى مصر ، وكان مروره بداية عصر لها ، فبعد موته عام ٣٢٣ ق . م . اقتسم قواده الامبراطورية وخضعت يهوذا للبطالسة الذين حكموا مصر . واستمرت تبعية يهوذا لحكام مصر نحو قرن . وفي هذه الاثناء غرقت الطبقة الثرية من اليهود فيما يعرف بالهللينية - وهى الثقافة والحضارة ونظام الحياة الاغريقية - هذا بينما بقى غالبية الشعب اليهودى مخلصين لعقيدتهم .

وعند نهاية القرن الثالث ق . م ادار حكام سوريا اعينهم نحو الجنوب وقام انتيوخس الكبير (٢٢٣ - ١٨٧ ق . م) بهزيمة بطليموس الرابع (٢٠٣ - ١٨١ ق . م) في معركتين عامى ٢٠٠ ، ١٩٨ ق . م . لكن قوة روما منعته أن يجنى ثمار نصره كاملا واضطرته الى دفع ضريبة كبيرة حتى يحتفظ بعرشه ، فدفع الجزية بعد نهب ثروات المعابد والهيكل ومن بينها هيكل اورشليم .

(٧) المرجع ١٩ - ص ١٣ - ١٥

(٨) المرجع ١٩ - ص ١٧

ولقد رحب الحزب الهليني من اليهود بذلك الأمر الذي أغضب عامة الشعب ، وجعله يثير الشغب والقتال لمدة نصف قرن حتى استقر انتيوخس ابيفانس (١٧٥ - ١٦٣ ق . م) الى قرار نهائي وهو انه لكي يستتب السلام فلا بد من محو اليهودية كعقيدة ، وفرض الحياة الهلينية على كل الشعب .

ولقد بلغ الفساد بعائلات كبار الكهنة حدا كبيرا لدرجة انهم اصبحوا على استعداد لقبول ذلك ، بل انهم شاركوا في نهب عوائد الهيكل واثرواته .



٥ - ثورة المكابيين الدينية :

« رغم أن ضباط انتيوخس تمكنوا من تدنيس الهيكل بقرايين لحم الخنزير الا أن كثيرا من عامة الشعب رفضوا ذلك وقبلوا حكم الإعدام . وعندما وصل الضباط الى إحدى المدن ليجبروا الشعب على تقديم الذبائح النجسة ، فان الكاهن المحلي متاثياس . قتل كلا من الموظف السوري واليهودي الذي كان يجهز القربان ، وبصيحة حرب لجأ هو وأولاده الخمسة الى التلال المجاورة ومعهم بعض الرجال والسلاح ، ثم رفعوا راية العصيان عام ١٦٧ ق . م ضد مطالب حكام سوريا . وفي السنة التالية مات متاثياس ، وانتقلت القيادة الى ابنه يهوذا ، الذي عرف باسمه ، المكابي ، - أي المطرقة - ومنه عرف الثائرون باسم المكابيين .

ولا شك أن أهمية هذه الحركة ترجع الى كونها حركة شعبية قامت على معتقدات دينية ، أكثر من انها سمحت باستقلال يهوذا بعض الوقت .

ان أرض يهوذا من النوع الذي يمكن من شن حرب العصابات بنجاح ، ذلك أن وديانها العميقة وشعابها الضيقة وجوانبها الشرقية القاحلة من جبال وصحارى كل ذلك يمكن قوة صغيرة ثائرة من إيقاف وصد قوات أكبر منها في العدد والعدة . ولهذا استطاع يهوذا المكابي هزيمة القوات السورية التي ارسلت ضده ، وحصل على الحرية الدينية عام ١٦٢ ق . م وعندئذ فكر في الاستقلال السياسي ، الا أنه لم يتخير الوقت المناسب . فقد كان حكام سوريا أقوياء ، بينما أصاب الضعف تنظيمه الداخلي بسبب انصراف الشعب عنه بعد أن حصل على الحرية الدينية وسئم الحرب . وفي إحدى المعارك قتل يهوذا المكابي عام ١٦٠ ق . م . وتولى القيادة بعده اخوه يوناثان واستمرت حرب العصابات .

وفي عام ١٥٧ ق . م ساد السلام ولكن تحت حماية السوريين الذين حصل يونانان منهم على اعتباره ملكا صغيرا ضمن الممتلكات السورية .
والأهم من ذلك أن آخر رؤساء الكهنة من الهلينيين مات عام ١٥٤ ق.م ،
وعندئذ استطاع يونانان أن يحصل من حكام سوريا لنفسه على لقب رئيس الكهنة عام ١٥٢ ق . م رغم أنه لم يكن من البيوت التي اختصت بالكهانة .

ولقد قتل يونانان عام ١٤٣ ق . م في مؤامرة وخلفه أخ آخر هو سمعان ، الذي استطاع أن يجعل الكهانة وراثية في بيته لكنه قتل كذلك مع ولدين له عام ١٤٣ ق . م ، وخلفه ابنه الثالث يوحنا هركانوس .

ولقد كان هركانوس الأول (١٣٤ - ١٠٤ ق . م) قانعا بالقابه وعمل خلال ثلاثين عاما من حكمه على مد حدوده . وفي عام ١٢٨ ق . م تركه حكام سوريا يحقق طموحه باستخدام جيش من المرتزقة ، فاستولى على السامرة وخربها ، وهدم هيكلها المقام على جبل جرزيم ، ومد حدوده الجنوبية الى أدوم وأجبر شعبها على اعتناق اليهودية ، كما أجبر الذكور على الختان .

ولقد كان سلوكه مع الأدوميين بالإضافة الى عوامل أخرى سببا في الصراع الذي قام بينه وبين الفريسيين الذين سبق أن ساندوا المكابيين في أول ثورتهم ، لكنهم مالبتوا ان انصرفوا عنهم عندما تحولت غايات المكابيين من المجال الديني الى المجال لسياسي .

وبعد موت هركانوس تولى أحد ابنائه ويدعى ارستوبولس واستمر في سياسة أبيه من اجبار الناس على الختان ، ولكنه توفي في نفس العام ، فقامت ارملته سالومي بفك أسر اخيه ياناي الذي كان قد اودعه السجن ، ثم تزوجته وجعلته رئيسا للكهنة وملكاً على الولاية .

لقد جاء المكابيون الى السلطة عندما ركبوا موجة الحماس الديني التي اجتاحت الشعب ، لكن هذا الحماس مالبت أن تضاعل بالتدرج حتى تحول الى حقد وكرهية ، حين رأى الشعب أن المنصب المقدس لرئيس الكهنة أصبح يتولاه اشخاص غير جديرين به ، ولا يختلفون كثيرا عن افراد تلك الطبقة الهلينية من اليهود الذين سبق ان ثار الشعب ضددهم ايام متاثياس .

ولقد كان من بين اعداء ياناي في الخارج العرب الانباط في شرق الأردن بينما كان الفريسيون اعداؤه في الداخل ، ولهذا طلب من زوجته قبل موته ان تقيم سلاما مع الفريسيين . ولقد فعلت ذلك واستطاعت ان تحكم لمدة نحو عشر سنوات (٧٦ - ٦٧ ق . م) بينما تمتع ابنها هركانوس الثاني

بلقب رئيس الكهنة . وبعد موتها فان ابنها الأصغر ارستوبولس بدأ حرباً أهلية ضد أخيه ، وتبع ذلك فترة من الاضطراب التام حيث كان هركانوس يجد في طلب المعونة من انتيباس ابن حاكم ادوم ، وكان هذا الرجل ذابطوح وشخصية قوية ولكن قبل ان يقدم الأخير معونته ، ظهرت روما على المسرح حين غزت سوريا ، وتدخلت في النزاع ففضى القائد الروماني بومبي لصالح هركانوس ، بيد انه لم يمنحه الا لقب رئيس الكهنة فقط ، بينما منح انتيباس لقب حاكم اليهودية .

ولقد سبب ارستوبولس بعض الاضطرابات حتى مات مسموما عام ٤٩ ق . م . وفعل ابنه انتيوخس مثله فاعدمه الرومان عام ٣٧ ق . م بسبب توأطئه مع الفرس وقبوله منهم لقب الملك . ولقد عاش هركانوس الثانى حتى عام ٣٠ ق . م رغم انه فقد وظيفته عام ٤٠ ق . م ومنذ ذلك الحين صار لقب رئيس الكهنة يمنح فقط للحاكم الفعلى لليهودية .

وأخيرا فقد انتقل الحكم السياسى الى عائلة انتيباس (الادومى) الذى عينه قيصر حاكما على اليهودية عام ٤٧ ق . م وفى نفس الوقت عين ابنه هيرودس - الكبير - حاكما على الجليل ثم اضيفت اليه السامرة فيما بعد . وكانت زوجة انتيباس اميرة من العرب الانباط ، ولقد ورث عنها - هيرودس - كثيرا من الثراء . وفى عام ٤٠ ق . م تسلم هيرودس لقب الملك . ونظرا لان نصفه ادومى ونصفه عربى فلم يتقبله الرعايا اليهود بارتياح رغم انه اظهر عبقرية فى الحكم والادارة .

وقد اعاد هيرودس بناء الهيكل ببذخ ملحوظ ، وبنى قيصرية التى جعلت قصر للحاكم الرومانى فيما بعد ، كذلك فانه اعاد بناء السامرة وسماها سبسطيا تكريما للامبراطور . وقد توفى عام ٤ ق . م ومنحه التاريخ لقب ، الكبير .

ولقد صدق القيصر على ماكان قد اقترحه هيرودس قبل وفاته من تولى اولاده من بعده ، فعين اكبرهم ارخيلالوس حاكما على اليهودية ، وعين هيرودس انتيباس حاكما على الجليل وبيريا ، وعين هيرودس فيليبس على أرض الامم .

ولقد بقى الاخيرين فى منصبيهما حتى وفاتهما ، الا ان ارخيلالوس لطخ حكمه بكثير من الدماء مما اضطر قيصر الى نفيه الى فينا عام ٦ ميلادية .»



٦ - الشتات الطويل :

« رجعت اليهودية والسامرة وأدوم الى أيدي الحكام الرومان ، وكفت اورشليم عن أن تكون عاصمة للاقليم (فلسطين) الذي صار يحكم من قصر هيرودس في قيصرية .

لقد تتابع الحكام الرومان على فلسطين وكان همهم استتباب الأمن والنظام الذي كان يتعرض للاضطراب . فلقد احتكر الرومان اليهود لشكهم وحيرتهم ، ووجد اليهود أن الرومان يحقرون عقيدتهم باستمرار ، وبدأت حوادث الاثارة والشغب ومن بينها السطو على أحد صفار الموظفين بجوار احدى القرى فما كان من الرومان الا ان عاقبوا القرية بأكملها . وفي اثناء ذلك مزق احد الجنود صفحة من التوراة وعندئذ انقلب حادث الأمن هذا الى غضبية دينية .

ولقد أرسلت روما الحكام الواحد تلو الآخر حتى كان جسيوس فلورس الذي اثار قسوته وجشعه كل يهودى . ولم تكن استجابته ازاء ذلك الا مزيدا من القسوة والعنف وفي مدة حكمه (٦٤ - ٦٦ م) ذهب بالشعب الى نقطة اللاعودة . فاستولى المتطرفون من اليهود على الهيكل ، واوقفوا الذبائح اليومية التي كانت تقدم باسم الامبراطور .

وعندما فشلت قوات الحاكم في استعادة النظام ، فان مبعوث روما في سوريا تحرك جنوبا بجيش قوامه ٣٠ الف مقاتل . وبعد نجاح اولى في الجليل بدء الزحف جنوبا الا ان الشتاء اتعبه فاضطر للانسحاب بعد ان هزم في الوديان الضيقة بين اورشليم والسهل الساحلى . وفي فبراير ٦٧ جاء الى اليهودية جندى خبير في شخص فسبا شيان واستمر لمدة عام ييسط نفوذ روما على الاقليم ، وكان على وشك الزحف على اورشليم في صيف ٦٨ الا ان انتحار الامبراطور نيرون شغله بأمور اخرى فقد حاول اربعة من القواد تولى السلطة في روما ، ولكن في يونيه ٦٩ ظهر واضحا ان فسبا شيان قد لقي القبول وصار هو الامبراطور . ولهذا ترك الحرب ضد اليهودية وعهد بذلك الى ابنه تيطس الذي قضى بقية العام في تجنيد ٦٥ الف مقاتل . وفي ١٠ مايو ٧٠ حوصرت اورشليم ، ووقف تيطس امام حوائط الهيكل ووجه نداء الى الثوار يدعوهم الى الاستسلام ، ولكنهم رفضوا . ومع ذلك فقد حاول انقاذ الهيكل من التدمير الا ان جهوده ذهبت سدى ، وفي ٢٩ أغسطس تم تدميره بعد أن التهمته النيران .

ولقد بقيت بعض جيوب المقاومة بين الخرائب والاطلال حتى ٢٦ سبتمبر . وأخيرا استسلمت اورشليم كلها بعد حصار دام ١٣٩ يوما .

وفي ١٦ أبريل ٧٣ قضى على آخر الثوار حين استسلمت آخر ثلاث قلاع كانت بأيديهم . ولقد بيع آلاف اليهود عبدا في الامبراطورية الرومانية بينما هرب من استطاع منهم الى اماكن متفرقة .

وقرب نهاية عهد الامبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧ م) قام باحدى الغزوات في اجزاء من الامبراطورية الفارسية . وعندما عبر الفرات ، فان يهود بابل وقد اثارهم رؤية جيوش الرومان فانهم ثاروا خلفه يريدون الانتقام لهدم الهيكل وخراب اورشليم ، كما دعوا طوائف اخرى غيرهم الى الثورة ضد الرومان . ومضى وقت طويل قبل ان يعود الهدوء .

ولما خلف هادريان (١١٧ - ١٣٨ م) تراجان فانه اثار اليهود في انحاء الامبراطورية ، حين اقام معبدا رومانيا للاله جوبيتر على انقاض الهيكل . وبدأت القلاقل من جديد .

واخيرا اقتنع الامبراطور ان دين اليهودية هو عدوه الاخير ، وان الاقلية اليهودية هي مصدر القلاقل والاضطراب . ولذلك قرر محو اليهودية كعقيدة ، وابطل الختان وممارسة أى من الشعائر الدينية .

وكانت النتيجة الطبيعية هي زيادة القلاقل ، وقاد الربيون الثورة كخلفاء للفريسيين . وقد قيل ان شيخهم المعمر اكيبا الذي ناهز التسعين عاما في ذلك الوقت كان المحرك الحقيقي لتلك الثورة التي تولى قيادتها العسكرية باركوشبا الذي دعى المسيح المنتظر . وازدادت ثورة الشعب الا ان مقاومته كانت يائسة .

وكما حدث في الماضي فان طبيعة الاقليم ساعدت في الفترة الاولى على تحقيق بعض الانتصارات المتوالية على القوات الرومانية ، الا ان الثوار اجبروا في النهاية على الحصار داخل قلعة بيثار في جنوب اورشليم لمدة عامين .

وعندما قضى عليهم نهائيا ، فان كلمتى : اليهودية ، واورشليم ، قد محيتا تماما من القاموس الرومانى واعيد تسمية الاقليم باسم فلسطين ، واقامت عاصمته ايليا كابيتالينا على انقاض اورشليم وحرم دخولها على اليهود « (٩) » .



ذلك هو التاريخ الاسرائيلي بفلسطين ، وتلك هي خطوته الدقيقة .
والحق ان الانسان ليعجب حين يجد الاسرائيليين يتكلمون عن مملكتهم
القديمة في فلسطين أى مملكته هذه .. بل أى ممالك وملوك كانوا؟! ..
لقد تكلمت الأسفار عن مملكة الاسرائيليين وملوكهم ، فعرفنا من المآسى
والمخازى ما يندى له الجبين ..

فلقد كانت مملكة : فوضى واضطراب - قتل ودماء وغدر ومظالم -
جنس وتهتك ورديلة - وأسوأ من ذلك كله ما اصطفت به في أغلب عهدها
من وثنية وكفر وانحطاط في العقيدة ...

ولقد ظهر امامنا الملوك الاسرائيليون - وخاصة القدامى منهم الذين
اسسوا المملكة وتلقوا وحى الله - وهم على هيئة : قادة عصابات وقطاع طرق
- أهل نزوة وسكر وعريضة - عملاء ومأجورين - معتوهين ومجانين - بل
وكفرة مرتدين ... و ... و ... وماذا تقدم مملكة الفوضى والاضطراب
لركب الانسانية السائر عبر التاريخ في طريق التقدم والحضارة ؟
اسألوهم ان كانوا ينطقون !

لقد جعل الاسرائيليون انفسهم عبئا على الانسانية ، بسبب
ما يمثله الفكر الاسرائيلي من استعلاء وتعصب وانفلاق . ونتج عن ذلك
ما جلبوه على انفسهم ، بل وعلى غيرهم ، من المآسى والكوارث .



لقد تكفل الفيلسوف والمؤرخ الفرنسى جوستاف لوبون برسم الصورة
العامة للاسرائيليين وتاريخهم بفلسطين ، وذلك في الفصل الذى اختصهم
في كتابه : « الحضارات الأولى » حين قال : (١٠)

« لم يجاوز قدماء الاسرائيليين اطوار الحضارة السفلى التى لا تكاد
تميز من طور الوحشية ، وعندما خرج هؤلاء البدويون الذين لا اثر للثقافة
فيهم من باديتهم ليستقروا بفلسطين وجدوا انفسهم امام أمم قوية متمدنة
منذ زمن طويل ، فكان امرهم كأمر جميع العروق الدنيا التى تكون في احوال
مماثلة ، فلم يقتبسوا من تلك الامم العليا سوى أحسن ما في حضارتها ، أى
لم يقتبسوا غير عيوبها وعاداتها الضارية ودعاتها وخرافاتنا ، فقبروا لجميع
آلهة آسية ، قربوا لعشترت ولبعل ولولوك من القرابين ما هو أكثر جدا
مما قربوه لاله قبيلتهم ..

(١٠) في الفقرات المقتطعة من هذا المرجع اضطرت أسفا لاستبدال كلمة
« اليهودى أو اليهود » بكلمة الاسرائيلي أو الاسرائيليين أو بنى اسرائيل ،
وذلك حتى لا نخلط بين اليهودى الأوروبى أو الأمريكى أو الافريقى الذى اتخذ
هو - أو آباؤه - اليهودية عقيدة ، وبين اليهودى القديم الذى ربط
علاقته بالعقيدة بنسبه الجسدى باسرائيل وبنيه .

وكانوا يعبدون عجولا معدنية ، وكانوا يضعون ابناءهم في زرعان محمرة من نار مولك ، وكانوا يحملون نساءهم على البغاء المقدس في المشارف .

واثبت الاسرائيليون عجزهم التام العجيب عن الاتيان بأدنى تقدم في الحضارة التي اقتبسوا احط عناصرها .

والاسرائيليون بعد ان جمعوا ثروات وفق غرائزهم التجارية القوية لم يجدوا بينهم بنائين ومتفنين قادرين على شيد مبان وقصور فاضطروا الى الاستعانة على ذلك بحيرانهم الفنيقيين على الخصوص ، كما تدل عليه التوراة .

والاسرائيليون قد اقتصرت معارفهم على تربية السوائم وعلى فلاح الارض وعلى التجارة بوجه خاص . وما كان فلاح الاسرائيليين ليدوم غير هنيهة مع ذلك ، فقد اسفرت غرائزهم في النهب والسلب ، وقد اسفر تعصبهم عن عدم احتمال جميع حيرانهم لهم ، فلم يشق على هؤلاء الجيران ان يستعبدوهم .

واذا كان بنوا اسرائيل متمردين على الفنون تمردا مطلقا ، ولم يكن لهم غير ميل هزيل الى حياة المدن ، فأنهم لم يقيموا معابد وقصور الا عن غرور . والذي كان بنوا اسرائيل يفضلونه بعد الذبح والتقتيل هو السكن تحت شجر العنب والتين ، على حسب تعبيرهم .

وكان بنو اسرائيل اقل من امة حتى زمن شاول ، كانوا اخلاطا من عصابات جامحة تقوم حياتها على الغزو والفتح وانتهاب القرى الصغيرة حيث تقضى عيشا رغيدا دفعة واحدة في بضعة ايام ، فاذا مضت هذه الايام القليلة عادت الى حياة التيه واللبؤس . .

وهناك عدد غير قليل من الاقوام الصغيرة كالادوميين والعمونيين والاسماعيليين يرجعون اصلهم الى ابراهيم ، ويزعم العبريون أنهم وحدهم ذرية ابراهيم الشرعيين مع اعترافهم بقرابة الآخرين لهم . .

وقد ظل الاسرائيليون حتى آخر مرحلة من تاريخهم في أدنى درجة من الحضارة قرييين من دور التوحش الخالص .

ولم يجاوز الاسرائيليون طبائع امم الزراع والرعاة الا قليلا جدا ، وخضع الاسرائيليون لنظام رعائي ، ولم يكادوا يدخلون دائرة التطور الاجتماعي . .

وإذا لم تخرج الصناعة في بلاد اليهودية عن أدنى الأطوار البدائية ، أمكننا أن نبصر من ذلك حال الفنون في تلك البلاد ، أو عدم وجود هذه الفنون فيها على الأصح ، لما كان من عدم وجود أى شيء يتجلى فيه ذلك هنا لك .

ولاتجد شعبا عطل من الذوق الفنى كما عطل بنى اسرائيل .

اذن لا ينبغي أن نتحدث عن وجود شيء من فن النحت أو التصوير لدى بنى اسرائيل ، وقل مثل هذا عن فن البناء عندهم ، فانظر الى هيكلهم المشهور (هيكل سليمان) الذى نشر حوله الكثير من الأبحاث المملة تجده بناء أقيم على الطراز الأشورى المصرى من قبل بنائين من الأجانب كما تدل عليه التوأرة . ولم تكن قصور ذلك الملك غير نسخ دنيئة من القصور المصرية أو الأشورية .

ولم يمارس العبريون من الفنون الجميلة سوى الموسيقى التى هى فن جميع الشعوب البدائية ، وكانوا شديدى الحب لها فيمزجون بها ملاذهم وتماريناتهم العسكرية واعيادهم الدينية .

وعلى ما كان من ممارسة بنى اسرائيل للحرب باستمرار ، لم تصبح الحرب فناولا علما عندهم ، فكانت تعوزهم التعبئة . وما كان ليكتب لهم فوز الا بضرب من الصولة المشابهة لفارة البدويين المعاصرين . وبنو اسرائيل اذ كانوا جنباء خوفا بطبيعتهم لم يبدوا مرهوبين الا بما كان يحاول القاؤه زعمائهم فيهم من حماسة مؤقتة .

جاء فى سفر الملوك : « فسمع شاول وجميع اسرائيل كلام الفلسطينيين (جليات) هذا فارتا عوا جدا » .

ولما سار جدعون الى المديانيين خاطب جنوده بقوله : « من كان خائفا مرتعدا فليرجع وينصرف ، فتركه من هؤلاء اثنان وعشرون ألفا من اثنين وثلاثين ألفا ليعودوا الى منازلهم . »

ويعرف جميع قراء التوأرة وحشية الاسرائيليين التى لا أثر للرحمة فيها ، وما على القارئ ، ليقنع بذلك ، الا أن يتصفح نصوص سفر الملوك التى تدلنا على أن داود كان يأمر بحرق جميع المغلوبين وسلخ جلودهم ونشرهم بالمنشار .

وكان الذبح المنظم بالجملة يعقب كل فتح مهما قل . وكان الأهالى الاصليون يوقفون فيحكم عليهم بالقتل دفعة واحدة فيبادون باسم يهوه .

وسفاح ذوى القربى ، الزنا بالأخت والزنا بالأم ، واللواط (زنا الذكر بالذكر) والمساحقة (زنا الأنثى بالأنثى) ومواقعة البهائم من أكثر الآثام التى كانت شائعة بين ذلك الشعب . .

وأريد لدى بنى اسرائيل ، كما عند كل شعب ذى غلمة ، خلط افطع الملاذ بالطقوس المقدسة وموافقة الشريعة على هذه الملاذ ، فعدت ضروب البغاء تكريما لعششروت ، وعد الانهماك فى السكر على بسط الأزهار وتحت ظلال شجر الزيتون فى الليلالى الرطبية نوعا من العبادة التى لم تفتأ تمارس آنئذ فى فلسطين على الرغم من غضب الأنبياء . .

والنظافة هى الترف الأول الذى حاول المششترعون نشره بين بنى اسرائيل فلاقوا كبير اذى فى الوصول الى ذلك . والنظافة كانت امرا ضروريا لذلك الشعب الوخيم اكثر مما لى شعب آخر ، وذلك لكيلا تقرضه القروح والجرب والقوباء والجذام . وآية تراث بنى اسرائيل المستقلة عن مواعيد يهوه المشكوك فيها هى الدم الفاسد الذى من شأنه أن يستربنو اسرائيل بالأمراض الجلدية على الدوام .

واذا أريد تلخيص مزاج بنى اسرائيل النفسى فى بضع كلمات كما يستنبط من اسفارهم ، وجد انه ظل على الدوام قريبا جدا من حال اشد الشعوب بدائية .

فقد كان الاسرائيليون عنندا مندفعين غفلا سدجا جفاة كالوحوش والاطفال ، وكانوا مع ذلك عاطلين فى كل وقت من الفنون التى يتجلى فيها سحر صبا الناس والشعوب .

واذا أريد وصف المجتمع الاسرائيلى من ناحية النظم أمكن تلخيصه فى كلمتين وهما : نظام رعائى مع طبائع المدن الآسيوية الهرمة وذوقها وعبوبها وخرافاتا .

ويعرب حزقيال عن ذلك الرأى فى الاصحاح السادس عشر حين يذكر ظهور الشعب الاسرائيلى الحقىر وأوائله الهزيلة وما عقب استقراره بفلسطين من الحميا ، فيقول مخاطبا تلك الأمة العاقبة قائلا باسم يهوه :

« وفى جميع ارجاسك وفواحشك لم تذكرى أيام صباك . . . واذ كنت لم تشبى زنت مع بنى آشور ولم تشبى . . فلذلك أقضى عليك بما يقضى على الفاسقات وسافكات الدماء وأجعلك قتيل حنق وغيره . » (١١)

(١١) اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى - جوستاف لوبون - نقله الى العربية عادل زعيتر - الناشر عيسى الحلبي - القاهرة - ١٩٧٠ - ص ٢٠-٥٨

فلسطين عريضة

فلسطين عريّة

مقدمة :

بعد أن خرج موسى ببني اسرائيل من مصر ، وطوف بهم في سيناء ، بدأ يستعد للزحف على فلسطين محاولا غزوها بالقوة حتى يهيىء للاسرائيليين مكانا بين سكانها الأصليين ، من أجل ذلك ارسل موسى الرسل ليتجسسوا الأرض وقال لهم :

« انظروا الأرض ما هي والشعب الساكن فيها اقوى هو ام ضعيف . قليل ام كثير . وكيف هي الأرض التي هو ساكن فيها أجيدة أم ردية . وما هي المدن التي هو ساكن فيها أمخيمات أم حصون . وكيف هي الأرض أسمينة أم هزيلة . أفيها شجر أم لا ؟ » .

ولقد ذهب الجواسيس لأداء مهمتهم وعادوا يقدمون الى موسى تقريرا يقولون فيه : « قد ذهبنا الى الأرض التي ارسلتنا اليها وحقا انها تفيض لبنا وعسلا وهذا ثمرها . غير أن الشعب الساكن في الأرض معترز والمدن حصينة عظيمة جدا .

وايضا قد رأينا بني عنات هناك . العمالقة ساكنون في أرض الجنوب والحيثيون واليبوسيون والأموريون ساكنون في الجبل والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب الأردن ..

جميع الشعب الذي رأينا فيها اناس طوال القامة . وقد رأينا هناك الجبابرة بنى عناق من الجبابرة فكنا في أعيننا كالجراد وهكذا كنا في أعينهم - عدد ١٣ » .

ولقد كان لهذا التقرير وقع الصاعقة على رؤوس الاسرائيليين لدرجة انهم فكروا في خلع موسى من قيادتهم واحلال رئيس آخر يرجع بهم في سلام الى مصر بعيدا عن مخاطر الحرب وأهوالها . وفي ذلك الموقف « رفعت كل الجماعة صوتها وصرخت وبكى الشعب تلك الليلة . وتدمر على موسى وعلى هارون جميع بنى اسرائيل .

وقال لهما كل الجماعة ليتنا متنا في أرض مصر أو ليتنا متنا في هذا القفر . ولماذا اتى بنا الرب الى هذه الأرض لتسقط بالسيف . تصير نساؤنا واطفاننا غنيمة اليس خير لنا أن نرجع الى مصر .

فقال بعضهم لبعض نقيم رئيسا ونرجع الى مصر - عدد ١٤ : ا-٤ » .

*

ونريد الآن أن نعرف من هم سكان فلسطين الأصليون من الشعوب التي سمّتها الأسفار : العمالقة والأموريون والكنعانيون ...

ولهذا سوف نقوم بجولة بين شعوب الشرق الأوسط القديم . نستكشف فيها أصل هذه الشعوب وحركتها مع التاريخ .

* * *

الساميون :

يقول موسكاتى : « لقد استخدم لفظ ، الساميين ، لأول مرة في أوروبا عام ١٧٨١ حين كتب شليزر يقول :

« من البحر المتوسط الى نهر الفرات ، ومن وادى الرافدين الى الجزيرة العربية سادت - كما هو معروف جيدا - لغة واحدة . وعلى هذا فالسومريون والبابليون والعبرانيون والعرب كانوا شعبا واحدا . ولقد تكلم الفينيقيون كذلك هذه اللغة التي أسمياها اللغة السامية » (١) .

ويقول موسكاتى : « لا بد أن شليزر أخذ هذا الاسم من الاصحاح العاشر لسفر التكوين الذى يتكلم عن نوح وابناؤه : سام وحام ويافت . ومن سلالة سام تأتى الشور وارانم وعابر . وفيهم تذكر التوراة أنهم اسلاف الاشوريين والاراميين والعبرانيين . ومن هنا جاء لفظ الساميين ، لهذه الشعوب ، ولفظ ، السامية ، للغاتهم » (٢) .

لكن فيليب حتى وآخرون يقولون : « ان التفسير التقليدى والمألوف الذى يذهب الى أن الساميين قد انحدروا من كبير أبناء نوح - سام - لا تؤيده الأبحاث العلمية الحديثة » (٣) .

*

Sabatino Moscati : THE SEMITES IN ANCIENT (١)
HISTORY .

ص ١٥ - المرجع رقم (١٧) .

(٢) المرجع ١٧ - ص ١٥ .

(٣) تاريخ العرب - للدكتور فيليب حتى وآخرين - ص ٨ المرجع

رقم (٣) .

الساميون عرب :

يوضح موسكاتى نظريته في الساميين فيقول : « اذا أخذنا بالتعريف الحديث لكلمة الشعب لوجدنا انه مجموعة من الناس قد تتكون من عناصر واجناس مختلفة لكنها تتجانس فيما بينها وتكون شخصية لها خصائصها المميزة بسبب : الموقع الجغرافي واللغة والعوامل التاريخية والثقافية .

فاذا طبقنا هذا المقياس - للشعب - على الشعوب المتكلمة باللغات السامية فانا نجد أن العامل الأول وهو الموقع الجغرافي قد تحقق فعلا حيث سكنت هذه الشعوب منطقة سامية واحدة تمتد من شبه الجزيرة العربية جنوبا الى وادي الرافدين وسوريا شمالا . ذلك ان مجموعات الشعوب التي سكنت هذه المنطقة موزعة حسب مناطق اقامتها كالاتى :

البابليون والاشوريين في بلاد الرافدين ، والاراميون والعبريون وغيرهم في سوريا ثم العرب في شبه الجزيرة العربية .

هذا مع العلم بأن الاحباش في اثيوبيا يعتبرون نتيجة لاحدى حركات الهجرة اليها من شاطئ الجنوب العربى .

وبالنسبة للعامل الثانى وهو اللغة ، فرغم تعدد اللهجات السامية الا انها جميعا متقاربة بدرجة كبيرة .

واذا نظرنا الى الحركة التاريخية لشعوب هذه المنطقة وعلاقتها ببعضها اى الى العامل الثالث نجد انها تسير في اتجاه واحد يتكرر على مر العصور، وهو حركة هجرة من قلب شبه الجزيرة العربية الى المناطق المجاورة .

وعلى ذلك فان الساميين هم سكان شبه الجزيرة العربية في اول عصور التاريخ ، وقد عاشوا في تجانس لغوى واجتماعى وعنصرى « وكانوا بدوا رحلا وجهتهم الطبيعية البحث عن ارض خصبة لرعيهم . وقد دفعهم ذلك طوال احقاب مختلفة للهجرة الى الوديان الخصبة : شرقا الى وادي الرافدين وغربا الى الشام . على أن خصائص الساميين كشعب - باعتبار العوامل الجغرافية واللغوية والتاريخية - انما تنطبق تماما على بدو شبه الجزيرة العربية الذين لا يزالون يحتفظون بجميع خصائصهم السامية الاصلية نقية ، حيث عزلتهم الصحراء وحفظت عنصرهم ولفتهم . فاللغة العربية على سبيل المثال تعتبر احسن نموذج اصلى للغات السامية » (٤) .

*

ويتفق فيليب حتى مع موسكاتى فيما انتهى اليه من أن الراى الراجح هو أن شبه الجزيرة العربية تعتبر مهد الجنس السامى ، فهو يقول بعد استعراض هجرات الساميين من شبه الجزيرة الى وادى الرافدين وسوريا ، انه : « بمقارنة تاريخ الهجرات المذكورة آنفا ودراستها ، بدت لبعض علماء السامية الفكرة التى تقول بأن شبه الجزيرة العربية كانت على مدى احقاب متعاقبة تبلغ الواحدة منها الف عام تقريبا ، تزدهم بالسكان كخزان هائل امتلا فلم يجد محيصا عن افاضة ما زاد عن سعته .

ويجب أن نلاحظ بشأن هذه الهجرات ، أنه فى كل حالة تقريبا ، كانت اللغة السامية اقوى على البقاء ، وكان هذا عاملا بعيد الأثر » (٥) .

*

كذلك يتفق فيليب حتى مع موسكاتى فيما ذكره عن اللغة العربية ، اذ يقول :

« ان العرب بين الشعين الباين اللذين يمثلان الجنس السامى قد احتفظوا اكثر من اليهود بالميزات الطبيعية والخاصيات العقلية لهذا الجنس . واما لغتهم (العربية) فعلى الرغم من انها احدث اللغات السامية ادابا ، فانها قد احتفظت بخصائص اللسان السامى الاصلى ، بما فى ذلك التصريف ، اكثر مما احتفظت العبرية وأخواتها من اللغات السامية الأخرى . ومن هنا كانت اللغة العربية احسن مدخل لدراسة اللغات السامية .

كذلك بلغت الديانة السامية كمالها الطبيعى فى الاسلام .

ولقد اصبحت لفظة ، سامى ، فى أوروبا وأمريكا تعنى ، يهودى ، قبل أى شىء آخر ولعل مصدر ذلك هو كثرة انتشار اليهود فى هاتين القارتين » (٦) .

*

ولاشك أن القول الشائع باعتبار أن لفظ الساميين يعنى اليهود ، انما يدل على جهل فاضح ، فلو تصورنا أن اليهود وهم اصحاب العقيدة اليهودية ، يمثلون فى نفس الوقت شعبا واحدا متجانسا نقيًا - وهو فرض تلفظه الحقائق العلمية والتاريخية - لماعنى ذلك اكثر من اعتبارهم احد الفروع الضئيلة للعرق السامى - وهو العرق الذى نشأ أصلا فى شبه الجزيرة العربية ثم انتشر منها ، ويحق له بعد ذلك أن يحمل اسم موطنه فيعرف بالعرق العربى القديم ويعرف الساميون بأنهم العرب القدماء .

الساميون في العراق القديم

الأكديون :

« يبدأ التاريخ المكتوب لأول شعب مستقر في الجزء الجنوبي من العراق وهم السومريون حوالي عام ٢٦٠٠ ق . م وقد تعايشت معهم شعوب أخرى ، منهم الساميون الذين تركزوا في منطقة اقتراب نهري دجلة والفرات حول مدن اكشك وكيش قرب المكان اقيمت عليه مدينة بابل فيما بعد .

ويرجح ان يكون قدوم هؤلاء السومريون الى العراق واستقرارهم في دلتا الرافدين قد حدث حوالي عام ٤٠٠٠ ق . م . نتيجة لهجرة من القوقاز أو من الجبال الشرقية . وقد صحبهم فيها العيلاميون الذين دخلوا معهم بعد ذلك في صراع طويل .

وحوالي عام ٢٣٥٠ ق . م . قام في بلاد الرافدين اول عرش سامي تعرفه من مصادر مباشرة وهو عرش الاكديين الذي اسسه سرجون العظيم واسبس عاصمته اكد .

ويقال ان هذا العمل جاء نتيجة لغزو سامي مباشر من الخارج ، بينما الرأي الراجح هو ان سرجون بعد ان حصل على وظيفة في خدمة اورزبابا ملك كيش ، استطاع ان يخلعه عن العرش ويملك بدلا منه . ثم اخذ على عاتقه اخضاع المنطقة السومرية .

وقد اسس بذلك اول امبراطورية في وادي الرافدين ، وتغلب لذلك العنصر السامي واللغة السامية التي انتشرت طوال فترة العرش الاكدي حوالي قرنين من الزمان (من ٢٣٥٠ - ٢١٥٠ ق . م .) حتى شملت العراق القديم كله .

لكن هذا العرش السامي تعرض لغزو الجوتيين وهم شعب من القوافز ، وقد استمر ذلك اكثر من قرن . وفي اثنائه انتعشت المدن واللغة «السومرية» .



الأموريون :

« ثم تعرضت الحدود الغربية للبلاد لضغط مستمر من اعراب شبه الجزيرة العربية ، تكلمت عنهم آثار الملوك وسموا بالأموريين أى « الغربيين » وقد يعنى ذلك اسم قبيلة أو مجموعة قبائل سامية غربية تخلفت العراق . ثم نتج عن هذا الضغط والتداخل تأسيس عدة مدن وولايات يغلب عليها العنصر السامى » (٧) .

« وكان من اهم هذه المدن ايسن التى اسسها الحاكم الاكدي لمدينة مارى ، وكذلك لارسه التى حكمها احد الأموريين » .

وفى الفترة ما بين ٢١٠٠ - ١٨٠٠ ق . م . كانت اغلب دويلات هذه المدن تحت حكم الأموريين وحوالى ١٨٣٠ ق . م . صارت مدينة بابل مركزا لدولة أمورية « وكذلك مدينة اشور التى احتلها الأموريون حوالى عام ١٧٥٠ ق . م .

وقد استطاع الأموريون أن يخلفوا الاكديين فى الأجزاء الشمالية الغربية من العراق القديم كما تبين ذلك وثائق مدينة مارى التى اكتشفت فى الفترة ٣٥ - ١٩٣٨ » (٨) .

✱

الآراميون :

« كذلك كان للآراميين ضلع فى تاريخ العراق القديم كما تبين ذلك الوثائق التاريخية فقد ورد اسم ، آرام ، ليدل على مدينة أو ولاية فى احد نقوش الملك نارام سن الذى يرجع تاريخه الى القرن الثالث والعشرين ق . م .

كذلك ذكرت بعض اللوحات التى يرجع تاريخها الى حوالى ٢٠٠٠ ق . م . اسم مدينة أودويلة آرام ، وأنها تقع قرب اشنونه على الجرف الجنوبي لنهر دجلة .

(٧) المرجع ١٧ - ص ٤٨-٥٤

(٨) المرجع ١٩ - ص ١٥٢

ويرجح أن هؤلاء الآراميين كانوا عربا رحلا ، تخللوا العراق القديم وأقاموا به مدنا ودويلات . وقد استطاعوا أن ينصهروا مع السكان الأصليين كعادتهم حتى كان عام ٦٢٦ ق . م حين استطاع قائد كلداني من أصل آرامي أن يستولى على الحكم ويعيد للساميين ما بدأه سرجون منذ أكثر من ألف عام .

وجدير بالذكر أن الآراميين غزوا سوريا كما غزوا العراق في نفس الفترة من التاريخ « (٩) » .

*

« وعلى ذلك يكون التكوين العام لاستيطان الساميين بلاد الرافدين مبنيا على عدة هجرات للشعوب السامية التي خرجت من شبه الجزيرة العربية . وقد حدثت تلك الهجرات في أزمان متفاوتة يفصل بعضها البعض مآت السنين .

فحوالي ٢٥٠٠ ق م ظهر الآكديون ، ثم الأموريون في حوالي ٢٠٠٠ ق م ثم الآراميون في حوالي ١٢٠٠ ق م ، وفي كل مرة كان يصحب هذا الغزو السامي استيلاء على السلطة « (١٠) » .

الساميون في سوريا الكبرى

الكنعانيون :

« الرأي الراجح هو أن بدأ ظهور الساميين في سوريا الكبرى كان حوالي عام ٣٠٠٠ ق م . وقد سُمي الغزاة بالكنعانيين . وتشير كلمة ، كنعان ، كما ظهرت في المراجع الأولى - إلى المنطقة الساحلية التي سميت فيما بعد « فينيقيا » ، حسبما تبينه الدراسة اللغوية .

فاللفظ الآكدي لكلمة كنعان ، يعنى الأرجوان ، تماما كالمعنى الذي تعطيه الكلمة الإغريقية ، فينيك ، والتي اشتق منها الاسم : فينيقيا . فلقد كانت صناعة صبغة الأرجوان واحدة من أهم الصناعات التي تميزت بها هذه المنطقة .

ويقول موسكاتي : أن كلمة ، كنعان ، التي كثر ترددها في أسفار العهد القديم ، قد استخدمت لتدل على معنيين مختلفين : الأول - المنطقة الساحلية وسكانها ، وهي تعنى تقريبا فينيقيا وسكانها الفينيقيين .

(٩) المرجع ١٧ - ص ٦٩

(١٠) المرجع ١٧ - ص ٧٣ .

أما الثاني فهو بوجه عام المنطقة الواقعة غرب نهر الأردن ومستوطناتها من الشعوب قبل ظهور الاسرائيليين . ولقد صار هذا المعنى هو الأكثر شيوعاً « (١١) » .

*

الأموريون :

« وتشير مراجع ماري الى انه حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م كانت بعض الممالك في الجزء الشمالي من سعوريا ذات طابع مماثل لنظيرتها التي ظهرت في العراق القديم ونسبت الى الغزاة الغربيين أو الأموريين .

ويرجح انتشار هذه الممالك الامورية في الاجزاء الجنوبية من سوريا والتي تشمل فلسطين كما ظهر من تلك المراجع ومن بعض المصادر المصرية القديمة « (١٢) » .

*

الآراميون :

« وكما تخلل الآراميون العراق القديم فانهم تخللوا سوريا كذلك . وازدهر حينئذ عدد من دويلات المدن مثل دمشق وحماه .

وبجانب الآراميين في سوريا وخاصة في جزئها الجنوبي - فلسطين - فقد عاشت مجموعات من الشعوب الأخرى منهم المديانيون ، والأدوميون ، والموآبيون ، والعمونيون وغيرهم .

ولقد كان لهذه الشعوب فضل السبق على الاسرائيليين في المجال السياسي ، اذ استطاعت تلك الشعوب ان تقيم لها ممالك كانت قوة سياسية وتنظيمية قاتلت الاسرائيليين الذين استغرقوا وقتاً طويلاً لكي يوحدوا صفوفهم ويقيموا لهم مملكة . ويجب الاعتراف بأن الضغط الذي عاناه الاسرائيليون من الممالك المجاورة كان أحد الدوافع الرئيسية من أجل اقامة مملكة لهم . « (١٢) » .

*

(١١) المرجع ١٧ - ص ٨٠-٨٣ .

(١٢) المرجع ١٧ - ص ٨٤-٨٥ .

(١٣) المرجع ١٧ - ص ٩٦-٩٧ .

« وعلى ذلك يكون استيطان الساميين في سوريا الكبرى قد تمثل في ثلاث هجرات تفصل كل واحدة عن الأخرى عدة قرون : الأولى - هجرة الكنعانيين حوالي عام ٣٠٠٠ ق.م. والثانية هجرة الأموريين حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م ثم الثالثة هجرة الأراميين وبعض الأقليات الأخرى في حوالي عام ١٢٠٠ ق.م. » (١٤) .

الساميون في شبه الجزيرة العربية

عرفنا مما سبق أن شبه الجزيرة العربية تعتبر مهد الجنس السامي وأنها كانت تمثل خزانا بشريا هائلا يفيض كل بضعة قرون فيلقى الى حدوده البعيدة بمجموعات من المهاجرين أو المستوطنين الجدد . وقد رأينا منهم في العراق القديم الاكديون والأموريون والأراميون . ورأينا منهم في سوريا الكبرى وما حولها الكنعانيون والأموريون والأراميون ، بجانب المديانيين والموآبيين والعمونيين وغيرهم .

على أن هناك شعوبا سامية أخرى بقيت في شبه الجزيرة العربية - الوطن الأم . وتركت آثارا ونقوشا تشير الى بقايا حضارة قديمة . وفي هذا يقول موسكاتي : « ابتداء من حوالي القرن الخامس قبل الميلاد بدأ يظهر على الحوائط الصخرية في شبه الجزيرة العربية آلاف من النقوش هي عبارة عن كتابة للغة الشمال مستخدمة حروف لغة الجنوب العربي ، ذلك أن كلا من اللغة والحروف التي تكتب بها تختلف نوعا من مكان الى آخر ، الا انها تكون بوجه عام وحدة مترابطة .

وتؤكد الاكتشافات الحديثة ذلك وخاصة بعثة ريكنمز ، وتعرف هذه النقوش المنتشرة في وسط شبه الجزيرة العربية وشمالها بالنقوش الثمودية - وذلك نسبة الى قبيلة ثمود التي تكلم عنها انقرآن ، وكما هو مذكور ضمن هذه النقوش ذاتها .

ولقد أدت سعة انتشار النقوش الثمودية في شبه الجزيرة العربية الى قيام حوار بين العلماء عما اذا كانت ثمود قبيلة واحدة أم مجموعة من القبائل تحمل ذلك الاسم وتستخدم تلك اللغة .

وعلى أى حال فإن انتشار النقوش الثمودية على تلك الصورة انما يدل على وجود وحدة ثقافية وفكرية سادت بين قبائل تلك المناطق لفترة من الزمن » (١٥) .

*

ويذكر فيليب حتى ما هو معروف من تقسيم عرب شبه الجزيرة الى فرعين هما :

« أولا - العرب البائدة ، ومنهم عاد وثمود ، وقد ورد ذكرهما في القرآن .
ثانيا - العرب الباقية .

وثمود قوم عرفهم التاريخ فقد ذكرتهم الخطوط الاسفينية في مدونات سرجون الثانى وعرفهم أيضا كتاب اليونان والرومان باسم ثموداي والتحق بجيش بيزنطة في القرن الخامس للميلاد فيلق من الخيالة الثمودية . أما بنو عاد فقبل انهم سكنوا حضرموت القديمة .

ثم يعود النسابون فيقسمون العرب الباقية الى دوحتين مختلفتين : العرب العرباء او العاربة (عرب الجنوب) ، والعرب المستعربة او المتعربة (عرب الشمال) . فالعرباء في رأيهم هم أهل اليمن الذين نسلوا من قحطان ، وهم سكان البلاد الاصليون . أما المستعربة فالحجازيون والنجديون والانباط وأهل تدمر وجميعهم من سلالة عدنان وهو من سلالة اسماعيل » (١٦) .

ويقول سيديو : « استقر بنو قحطان باليمن فاقاموا دولة سبأ ودولة حمير . .

وكان أهل المدن في اليمن يتكلمون بلغة حمير التي تعلمها بنو قحطان من اجدادهم وكان ظهور العرب المستعربة بعد بنى قحطان بزمن طويل .

ومما يروى أنه أوحى الى ابراهيم أن يقيم في مكة معبدا مقدسا ، فقادسورية متمثلا وواصر الله القادر . وهبط الى بلاد العرب حيث بنى الكعبة التي غدت محل تعظيم العرب مدة طويلة . وأوجبت أعمال البيت إقامة الاب ابراهيم بالحجاز عدة سنوات واعانه عليها ابنه اسماعيل .

وإذا عدوت بنى قحطان وبنى اسماعيل وجدت بلاد العرب تشمل في غابر الأزمان على بقية من العروق الفطرية تغشى اخبارها طبقة كثيفة من الغموض .

(١٥) المرجع ١٧ - ص ١٢٥-١٢٦ .

(١٦) المرجع ٣ - ص ٣٩ .

وكل ما يعلم أو يفترض (وهو فرض ضعيف لم يقطع بصحته) هو أن قوم عاد جابوا - غالبين - بقيادة شداد ولقمان بلاد العراق والهند قبل الميلاد بأكثر من ألفى سنة . . واستولوا على مصر في ذلك الحين باسم الرعاة أو الهكسوس . .

ويظهر أن العمالقة الذين يعدون من فصيلة الهكسوس قد انتشروا في العصور الخالية في جميع أجزاء بلاد العرب . . وكانت خاتمة الطواف ان تجمعوا في شمال جزيرة العرب مع الأدوميين والموابيين والعمونيين واستولوا على سهول بلاد الحجر العربية ، وعلى سهول بلاد العرب الصحراوية المجاورة لفلسطين وسورية ودمشق فحاولوا دون دخول العبريين (الاسرائيليين) ارض كنعان « (١٧) .



أسماء شعوب لا يعرف لها أصل

العبريون :

لا يزال العلماء مختلفين حتى الآن في الاصل الذي جاءت منه هذه التسمية ، وكل ما يقال فيها لا يعدو كونه مجرد فروض وتخمينات ، تقوم في أغلبها على ما تذكره أسفار العهد القديم من أحداث وأنساب .

فمن الآراء الشائعة ما يقال أن اللفظ : « عبرى » جاء من « عبر النهر » ، أى انه اشتق أو نسب الى مكان ، اتفق على أنه « عبر نهر الفرات » الموطن الاصلى لابراهيم وآبائه . ويستند أصحاب هذا الرأى على ما يذكره سفر يشوع :

« قال يشوع لجميع الشعب . هكذا قال الرب اله اسرائيل : أبأؤكم سكنوا في عبر النهر منذ الدهر . تارح أبو ابراهيم وأبو ناحور وعبدوا آلهة أخرى .

فأخذت ابراهيم أباكم من عبر النهر وسرت به في كل أرض كنعان واكثرت نسله وأعطيته اسحق . .

(١٧) تاريخ العرب العام - للمستشرق الفرنسى سيديو - المرجع رقم (٢) - ص ٢٣-٣٥ .

فالآن أخشوا الرب واعبدوه . . وانزعوا الآلهة الذين عبدتهم آبؤكم
في عبر النهر وفي مصر واعبدوا الرب - يشوع ٢٤ : ٢-٣ ، ١٤ » .

كذلك يذكر سفر التكوين ابراهيم باسم : « ابرام العبراني »
(تكوين ١٤ : ١٣) .

وبناء على هذا الرأي فان كلمة : عبريين - تعنى سلالة ابراهيم العبراني
الذى جاء من عبر النهر ، كما تعنى سلالة غيره من ذرية تارح ابيه ، وخصص منهم
الموآبيين والعمونيين الذين ينسبون الى لوط حفيد تارح .



وهناك رأى ثان يقول بأن العبريين ينسبون الى عابر الذين ينحدر من
سام بن نوح - وهذا الرأى مبنى على ما يذكره سفر التكوين من أنساب
تقول :

« سام أبو كل بنى عابر .

بنو سام : عيلام وأشور وار فكشاد ولود وأرام .

وبنو أرام : عوص وحول وجائر وماش .

وأرفكشاد ولد شالح ، وشالح ولد عابر .

ولعابر ولد ابنان : اسم الواحد فالج - لأن في أيامه قسمت الأرض ،

واسم أخيه يقطان (يقال أنه قحطان) .

ويقطان ولد : الموداد وشالف وحضرموت ويارج وهودورام واوزال
ودقلة وعوبال وأبيمايل وشبا وأوفير وحويلة ويوباب - تكوين ١٠ : ٢١-٢٩ »

والغريب في هذا الرأى ان ينسب ابراهيم العبراني الى جده الخامس
عابر ، وكان الأولى أن ينسب الى جده الأكبر والثامن سام بن نوح .



ثم هناك رأى ثالث يقول بأن العبريين تعنى بنى اسرائيل الذين عاشوا
عدة قرون تائهين جوالين ، فأبوهم اسرائيل يصف نفسه بأنه كان : «أراميا
قائها » .

وهم قد عبروا بين الشعوب وعبروا الصحارى والوديان والأنهار -
وفي هذا يقول سفر يشوع المشار اليه منذ قليل :

« أقمتهم في القفر اياما كثيرة . ثم أتيت بكم الى أرض الاموريين الساكنين
في عبر الأردن فحاربوكم ودفعتهم بيدكم .. »

ثم عبرتم الأردن وأتيتم الى اريحا .. فالآن اخشوا الرب واعبدوه ..
فأجاب جميع الشعب وقالوا حاشا لنا أن نترك الرب لنعبد آلهة أخرى
.. الرب الهنا هو الذى حفظنا في كل الطرق التى سرنا فيها وفي جميع
الشعوب الذين عبرنا في وسطهم - يشوع ٢٤ : ٧ - ١٧ »

*

ومن الواضح الآن أن الأخذ بأى من الرايين : الأول والثانى - انما
يعنى اشتراك عدد كبير من الشعوب في تلك التسمية التى اختص بها
الاسرائيليون أنفسهم - وهو الشيء الذى لم يوجد ما يؤيده حتى الآن .

ومهما يكن من رأى فقد شاع استخدام كلمة : العبريين لتعنى الاسرائيليين .
- اصطلاحا فقط - بصرف النظر عن امكانية ردها الى اصل مقبول أم لا ،
وان كانت في هذه الحالة تتفق وما انتهى اليه الراى الثالث .

هذا - ولقد اخذت الوثائق والكشوف التاريخية الحديثة
تدعو الى احتمال وجود صلة بين العبريين ومن عرفوا في التاريخ باسم
« العبيريين Apiru او الخبيريين Khapiru » وفي هذا يقول أولسريت :
« لقد لعب هؤلاء العبيرون دورا عجبيا تذكره النقوش الاسفينية المدونة في
القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد ، كذلك تذكره وثائق
الحثيين والعمارنة (بمصر) للقرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل
الميلاد .

فنجدهم في كل من العراق القديم وسوريا جندا مرتزقة لا وطن لهم ،
يغيرون على البلاد ويقع منهم أسرى ، يعتقلون أو يعملون عبيدا في البيوت .
كذلك يرد ذكرهم في فلسطين مكتوبا بالحروف الكنعانية المستخدمة في
أوائل القرن الرابع عشر قبل الميلاد كغزاة مغيرين وثوارا ضد النفوذ
المصرى يتحالفون أحيانا مع الأمراء الكنعانيين .

واليوم أصبحت غالبية العلماء تميل الى القول بأن العبريين هم
العبيرون رغم وجود بعض المعارضة لذلك .. والى أن ينحسم الموقف
نهائيا فاننا مقتنعون بأن العبريين هم العبيرون ، إذ أن ذلك يتمشى مع
تاريخهم التقليدى ويحل كثيرا من المشاكل « (١٨) .

الهكسوس :

يظهر الهكسوس في التاريخ المصرى القديم كحادث عارض غشى ذلك التاريخ بغلالة قاتمة طيلة قرن ونصف من الزمان .

يقول هاريسون : « ما أن ضعفت القوة السياسية المصرية للدولة الوسطى ابان حكم الاسرتين الثالثة عشر والرابعة عشر حتى استطاعت بعض العناصر الأجنبية أن تفزوا مصر وتستولى على الحكم .

تلك العناصر هى ما تعرف في التاريخ القديم باسم : الهكسوس وأغلب الظن أنهم شعب خليط من عناصر سامية أسيوية أو سامية غربية ، كما تدل على ذلك أسماء أفرادها مثل يعقوب وغيره ، وهى أسماء كنعانية .

ولقد تم احتلالهم مصر على مراحل : « اذ يبدو أن مجموعة متقدمة منهم احتلت منطقة الدلتا حوالى ١٧١٥ ق.م. ثم تبعها الحشود الباقية حوالى عام ١٦٨٠ ق.م. حيث قضت على كل أثر للمقاومة المصرية .

ولقد كان تفوقهم الحربى يرجع غالباً الى استخدام العربة الحديدية التى يجرها الحصان وكذلك الى استخدام الأقواس الأسيوية كسلاح للقتال .

ولقد اقام الهكسوس ابان احتلالهم لمصر عدداً من دويلات المدن في أرض كنعان ، وبنوا حصونا في اريحا وشكيم (نابلس) وغيرها .

ومع نمو التجارة في فلسطين وسوريا فقد نمت كذلك طبقة من النبلاء الذين احتكروا الثروة وساهموا في تطوير الحركات الثقافية والفنية .

ولقد تمتع الهكسوس بنفوذ قوى في منطقة الشرق الأوسط ، كما تدل على ذلك الآثار المسجلة لبعض حكامهم الأقوياء - مثل خيانا - التى وجدت في أقطار متباعدة مثل كريت والعراق القديم .

ولقد اختار الهكسوس افاريس ذات الموقع الاستراتيجى في دلتا النيل وجعلوها عاصمة حكموا منها مصر زهاء ١٥٠ عاماً . وقد اكتشفت أخيراً قلاعها الضخمة ، ووجد أنها تتمشى في نمطها مع طريقة الهكسوس في بناء الحصون الدفاعية .

ومن الأشياء الهامة بالنسبة لهذه الحقبة من التاريخ هو اكتشاف عمود أثري يرجع الى حوالي عام ١٣٢٠ ق.م. وقد أقيم بناء على أوامر فرعون مصر رمسيس الثاني ، وذلك تخليداً لذكرى مرور ٤٠٠ عام على تأسيس افاريس ، وهذا يعنى ان بدء حكم الهكسوس لمصر كان في حوالي عام ١٧٢٠ ق.م.

وموقع افاريس في مصر حالياً هو مدينة « سان الحجر » (بمحافظة الشرقية) ، وقد عرفت هذه المدينة باسم « افاريس » فيما قبل عام ١٥٠٠ ق.م. ، ثم « بيت رمسيس » فيما بين ١٣٠٠ - ١١٠٠ ق.م. ، ثم باسم تانيس بعد ١١٠٠ ق.م.

هذا ويذكر سفر العدد - من الكتاب المقدس - مدينة افاريس باسم صوعن (عدد ١٣ : ٢٢)

ويستطرد هاريسون فيقول : « ان الربط بين حبرون وصوعن الذي يورده سفر العدد ، يعطينا انطباعاً بأن بعض العبريين كانوا يساهمون في مشاريع الهكسوس ، وانهم كانوا بمصر عندما أسست افاريس .

وثمة صلة أخرى بين العبريين ومصر يتحدث عنها سفر التكوين (١٥ : ١٣) ، وتخص باستعباد نسل ابراهيم (من الاسرائيليين) في مصر لمدة ٤٠٠ عام .

فاذا ربطنا بين ذلك وبين ما ورد في سفر العدد ، صار من المؤكد وجود صلة بين زمن رحلات الآباء (ابراهيم ويعقوب) وفترة سلطان افاريس .

وحيث ان المصريين كانوا دائماً يناصبون العناصر التي اغتصبت أرضهم العدا ، فان قصة وصول يوسف الى مركز القوة لا يمكن حدوثها الا في فترة حكم الهكسوس .

كذلك تبين قصة يوسف ان أرض جاسان (التي سكنها الاسرائيليون بمصر) كانت قرب عاصمة حكم المصريين ، وان العبرانيين كانت لهم قدم في البلاط الملكي . وثمة مظهر آخر من مظاهر الصلة بين هجرة آباء اسرائيل الى مصر وفترة حكم افاريس هو ما تذكره قصة يوسف عن قيامه بشراء الأرض لفرعون مصر أيام المجاعة . ولقد كان من شأن هذا الاجراء أن قضى على طبقة الاقطاعيين والنبلاء وخلق طبقة جديدة من عبيد الأرض . وهذا يماثل حالة الاضطراب الاجتماعى الذى كان سائدة بفسطين أيام حكم الهكسوس .

وفي ضوء ما تقدم فإنه يمكن القول بأن دخول يعقوب وذريته الى مصر حدث حوالي عام ١٧٠٠ ق.م. أيام حكم أولئك الأجانب الساميين .

لكن قبضة الهكسوس على مصر ما لبثت أن أصابها الضعف وخاصة في مصر العليا حين ثار سيكنتر أمير طيبة ضد أبوفيس حاكم أفاريس في حوالي عام ١٦٠٠ ق.م.

ولقد استمرت مقاومة المصريين لحكم الهكسوس وخاصة تحت قيادة أحمس ، وما أن حل عام ١٥٦٠ ق.م. حتى كانت عاصمة حكمهم قد خربت وفي العشر سنوات التالية لذلك تم طرد الفزاة المكروهين من منطقة الدلتا ، حتى اضطروا في النهاية للانسحاب الى أرض كنعان .

ولقد بدأ أحمس الأول ما يعرف في التاريخ المصري القديم بعهد ، الدولة الحديثة ، والذي يعتبر من أهم عهود التاريخ المصري على الإطلاق وقد استمر من ١٥٧٠ - ١١٥٠ ق.م.

وتشير مخلفات الملكة حتشبسوت الى اصلاحاتها التي حاولت القيام بها بعد طرد الهكسوس فتقول : « ولقد أعدت بناء ما خرب وأكملت ما كان ناقصا ، حيث كان الاسيويون في أفاريس الوجه البحري وكان البرابرة في وسطهم » .

وقد أعاد سيتي الأول بناء أفاريس ، وفي عهد الأسرة التاسعة عشر نقل رمسيس الثاني عاصمة ملكه من طيبة الى أفاريس ،، (١٩) .



مما سبق يتبين أن غزو الهكسوس لمصر بدأ باحتلال الدلتا حوالي عام ١٧١٥ ق.م. وقد أقاموا فيها عاصمة حكمهم أفاريس . ثم كانت هجرة إسرائيل وبنيه الى مصر حوالي عام ١٧٠٠ ق.م. أي أثناء حكم الهكسوس الذين تم احتلالهم لمصر حوالي عام ١٦٨٠ ق.م.

وكان الاسرائيليون قد استقروا آنذاك حول العاصمة أفاريس . ومما يلفت النظر في هذا المقام ما يقصه القرآن من انباء الحكم في مصر أيام يوسف بن يعقوب ، فنعلم أن حاكمها قد لقب (بالملك) ولم يعرف باسم « فرعون » وهو اللقب الذي ذكره القرآن مرارا لحاكم مصر أيام موسى ، حيث كان هذا اللقب خاصا بالملوك المصريين - مما يؤيد القول بأن مصر في ذلك الحين كانت تخضع لحكم أجنبي مثل حكم الهكسوس الذين جعلوا من أنفسهم ملوكا :

« قال الملك اتوني به استخلصه لنفسى فلما كلمه قال انك اليوم
لدينا مكين امين . قال اجبني على خزائن الارض انى حفيظ عليهم »
(يوسف : ٥٤ ، ٥٥) .

ولقد استمرت اقامة الاسرائيليين في مصر طيبة طوال فترة حكم الهكسوس ،
ولكن لما قضى على ذلك الحكم الغازي وتولى الحكم في عهد الدولة المصرية
الحديثة فراعين مصريين ، بدأ نجم الاسرائيليين في الأفول ، وتحول فيما
بعد الى اضطهاد بلغ مداه في عهد أحد الفراعين - ويرجح أنه منبتاح بن
رمسيس الثانى - الى أن أخرجهم الله من مصر على يد نبيه موسى .

*

هذا - ولم تكن مصر هى البلد الوحيد من بلدان الشرق الأوسط
الذى تعرض لغزو الهكسوس ، فقد سيطروا كذلك على سوريا وجزئها
الجنوبى فلسطين . كذلك تعرض العراق القديم لغزو أجنبي في ذات الفترة
من التاريخ وأن كانت العناصر التى قامت به ليست من أصول سامية
كالهكسوس ولكنها على الأرجح عناصر قوقازية احتلت شمال بابل حوالى
منتصف القرن السادس عشر قبل الميلاد ثم بسطت نفوذها على جنوب
العراق ، واستمرت تحكم نحو ٤٥٠ عاما .

ولقد نتج عن حالة الاضطراب السياسى هذه التى عمت بلدان الشرق
الأوسط في تلك الحقبة من الزمن ، أن توقفت كتابة تاريخ الحضارة في كل
من مصر والعراق ، وساد الظلام التاريخى لبضعة قرون وفي هذا يقول
أولبريت :

« لقد توقف تسجيل التاريخ في كل من مصر وبابل بعد أن كان تياره
يجرى متدفقا طيلة اثنا عشر قرنا من الزمان أو يزيد .. وقد وجد أن
النقوش المصرية التى كانت تستخدم في تدوين التاريخ قد توقفت منذ
عام ١٥٨٠ ق.م. كذلك فإن النقوش البابلية توقفت تماما بعد سقوط بابل
عام ١٥٣٠ ق.م. واستمر ذلك حتى حوالى عام ١٤٠٠ ق.م .

وأما النقوش الإشورية فانها قد توقفت منذ عام ١٧٢٠ ق.م. ولم
تبدأ الا حوالى عام ١٥٠٠ ق.م. هذا بالاضافة الى عدم وجود مدونات
لامبراطورية الحيثيين القديمة . و خلاصة القول هنا أن كارثة ما قد حلت
بتلك الامبراطوريات القديمة ، واوقفت كتابة التاريخ بتسجيل النقوش
والآثار » . (٢٠)

(٢٠) المرجع ٢٠ - ص ٢٠١ .

وإذا أخذنا في الاعتبار ما يذكره التاريخ عن قوم عاد الجبارين الذين سكنوا شبه الجزيرة العربية ، وقال عنهم سيديو أنهم غزوا مصر باسم الهكسوس ، وغزوا كذلك الحبشة والعراق والهند حوالى الألف الثانى قبل الميلاد ، صار من الأرجح أن تكون الكارثة التى حلت بامبراطوريات الشرق القديمة - التى أشار إليها أولبريت - قد أسهمت فيها عاد بنصيب كبير .

*

ويذكر لنا القرآن من أخبار عاد وثمود ما نعلم منه أنهم شعوب اشتهرت بالقوة وشدة البطش ، وكانت لهم حملات حربية حالفهم فيها النصر . ولقد أصابوا حظا من العلم فأقاموا المصانع وشيدوا المدن العظيمة ، وبنوا القصور وعاشوا فى رغد من العيش .

ولقد أرسل الله اليهم رسلا يذرونهم عاقبة الكفر والطغيان فما استجابوا لهم ، بل ما زادهم ذلك الا غرورا . وعندئذ جاءهم العذاب الاليم :

((كذبت عاد المرسلين اذ قال لهم اخوهم هود الا تتقون . انى لكم رسول امين . فاتقوا الله واطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ان اجرى الا على رب العالمين . اتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . واذا بطشتم بطشتهم جبارين . فاتقوا الله واطيعون . واتقوا الذى امدكم بما تعلمون . امدكم بأنعام وبنين . وجنات وعيون . انى اخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين . ان هذا الا خلق الأولين وما نحن بمعتدين . فكذبوه فأهلكناهم ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وان ربك لهو العزيز الرحيم)) (الشعراء ١٢٣ - ١٤٠) .

((والى ثمود اخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره . واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتتحنون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين .)) (الأعراف : ٧٣ - ٧٤)

والحق ان قصة عاد وثمود هى قصة أغلب أمم الأرض حين تنال حظا من العلم وجانبا من القوة ، فيدفعها ذلك الى التكبر والغرور ، وتقيم لها آلهة باطل تعبدها ، ليس من الضرورى أن تكون مجسدة قد صنعت من حجارة ومسبوكات كما تفعل الأمم البدائية - بل انها غالبا ما تكون آلهة مستترة ، تعرف بين الناس بأسمائها وجبروتها ، ويكون لها منهم دعائها ومبشروها .

وفي عصرنا هذا تعرف آلهة بأسماء شتى منها : الهوى - المال - الجنس - السيطرة أو البنى ، وتكون النتيجة الحتمية لعبادتها والفرق في هيتنقتها ، هي التحطيم والانهياد للأفراد والجماعات ، شعوبا ودولا على السواء .

والآن ونحن نأتى الى نهاية هذا الفصل فانا نقف قليلا لثلقظ انفاستنا بعد هذه الجولة الخاطفة التى القينا فيها نظرات سريعة على شعوب الشرق الأوسط القديم وحركتها منذ فجر التاريخ ، ثم بعد ذلك نستجمع خلاصة القول فى هذا الموضوع فنقول :

ان شبه الجزيرة العربية هى الوطن الأم الذى غدى منطقة الشرق الأوسط بالقوى البشرية على مر العصور . وبصرف النظر عما يثار من جدل حول صحة الانساب التى يذكرها سفر التكوين عن سمام بن نوح وذريته ، فلا شك ان شعوب شبه الجزيرة العربية - سواء منها ما استقر فيها أو ما كانت تقذف به بين الحين والحين الى حدودها الشمالية ، الشرقية والغربية مثل : القحطانيين ، عاد العمالقة ، ثمود ، الاكديين ، الكنعانيين ، الفينيقيين ، الاموريين ، الاراميين ، المديانيين ، الموآبيين ، العمونيين ...

كل هذه شعوب عربية . . .

وما دامت الجزيرة العربية تعتبر فى رأى العلماء هى مهد الجنس السامى ، فالأولى ان يقال ان الساميين عرب بدلا من القول بأن العرب ساميون .

وبدهى ان منطقة الشرق الأوسط التى اتسعت لهذه الشعوب واصطبغت بصفتها ، انما هى منطقة عربية خالصة ، لا تظهر فيها العناصر الغربية الا على الصورة التى تظهر بها النباتات الطفيلية وسط المساحات الواسعة من الحقول الزراعية .

وما دام الأمر كذلك - وانه كذلك - فلا مفر من التسليم بأن فلسطين عربية من قبل أن يظهر فيها الاسرائيليون ومن بعد أن ظهروا على أرضها ثم طردوا منها .

وما الاسرائيليون فى حقيقتهم منذ عرف لهم اسم - الا شعب سامى مخلط ، يقول فيه وحى الله على لسان حزقيال النبى :

« هكذا قال السيد الرب لاورشليم : أبوك أمورى وأمك حثية -
حزقيال ١٦ : ٣ » .

وما الدور الذى لعبه الاسرائيليون على مسرح فلسطين بأكثر أهمية
من الدور الذى يلعبه أحد الممثلين على مسرح يقدم مسلسلات تاريخية ،
حتى ولو كان ذلك الممثل بطل المسرحية . ففي جميع الأحوال لا يحق لهذا
الممثل ان يطالب بامتلاك المسرح واغتصاب ايراداته . فما بالنا اذا كان هذا
الممثل قد أقصى عن المسرح منذ زمن بعيد ، ولم تبق له من علاقة به سوى
ذكرى تعلق بالخيال .

* * *

لقد جرت مناظرة بين أرنولد توينبى المؤرخ الانجليزى وياكوف
هرتزوج سفير اسرائيل فى كندا حول موضوع : العلاقات العربية
الاسرائيلية وسياسة اسرائيل بالنسبة للاجئين العرب . (٢١) .

وكان من بين ما أثير فى تلك المناظرة ما تدعيه اسرائيل من حق تاريخى
فى فلسطين ، وهى الدعوى التى عرف عن توينبى وغيره من المتخصصين فى
مثل تلك الدراسات - رفضها بالحجج والأسانيد ، وتقرير بطلانها .
قال السفير :

« سيدى الأستاذ : لنعد الى مسألة الارتباطات التاريخية التى كنت
أشير اليها . لقد رددت الصحف قولك : ان ليس لاسرائيل حق تاريخى -
فهل أورد بعض حقائق تتعلق بهذا الأمر . أولا - ان الاقامة اليهودية فى
أرض اسرائيل (فلسطين) لم تنقطع طوال التاريخ بل كانت اقامة متصلة .
الأمر الثانى - ان العودة لاسرائيل أمر جوهرى فى عقيدتنا الدينية وفى
صلواتنا وأعيادنا وفى كل وجه من وجوه آمالنا القومية ..

وقد رد عليه الأستاذ توينبى فقال :

« لقد أثار السفير نقطة تتعلق بحق اليهود فى فلسطين .. ولكن
الآن ماذا عن هذا المطلب اليهودى ؟

(٢١) عقدت هذه المناظرة فى قاعة هيلل بمونتريال بكندا يوم الثلاثاء
٣١ يناير ١٩٦١ وطبعت بمطبعة أطلس بالقاهرة - ص ٢٥ - ٢٧ .

هناك شيء في القانون ، بل أعتقد في كل أشكال القانون ، يقول
يسقط الحق نتيجة التقادم . فإذا أخذنا مثلا عام ١٣٥ الميلادي باعتباره
التاريخ الذي قام فيه الرومان بطرد الجانب الأكبر من سكان فلسطين
اليهود - فإذا أخذنا هذا التاريخ وقلنا أن سقوط الحق لا ينطبق حتى على
هؤلاء الذين غادروا البلاد في ذلك التاريخ ، ماذا يحدث بالنسبة لمدينة
كمونتريال ؟ لقد كان هنود اليجونكويين يسكنونها منذ ثلاثمائة أو أربعمائة
سنة على الأكثر . فهل يقال كذلك بضرورة عودة مونتريال اليهم ؟ وبعودة
لأنجلترا لأهل ويلز ؟ » .

وهنا رد السفير بما يتفق وما تدعيه اسرائيل - بصرف النظر عما
يصيب العالم من فوضى واضطراب نتيجة تطبيق المقاييس الاسرائيلية -
لقال :

« نعم » .

ولقد عجب الأستاذ توينبي لهذه الاجابة ، فقال مستنكرا :

« احقا ؟ » .

اذن فعليك أن ترحل خمسين مليوناً من الانجليز ، وتجعل منهم
« جنين » .



ان العرب لو قبلوا المنطق الاسرائيلي الذي يدعى حقوقا تاريخية
فتمجت عن اقامة او حكم تم في غابر الأزمان - لكان عليهم أن يطالبوا بأراضي
كثيرة من دول العالم ومنها اسبانيا وأجزاء من فرنسا وإيطاليا . . . الخ .

فلقد استوطن العرب اسبانيا وحكموها أكثر من سبعمائة عام ،
واقاموا بها حضارة سجلها التاريخ ، واعترف بدورها في حفظ التراث
الانساني ، وفي ارساء قواعد العلوم الحديثة وتطويرها ، وهو الأمر الذي
أشعل بعد ذلك ما يعرف في التاريخ المعاصر باسم الثورة العلمية .

فبعد أن انقضت - الى غير رجعة - قرون الظلام والتعصب ، نجد
كثيراً من أهل العلم والفضل من غير العرب ، يشيدون بالحضارة العربية
ويعددون مآثرها على العالم .

وإذا كان العالم المتحضر اليوم على استعداد لقبول المنطق الاسرائيلى الذى يقوم على ادعاء حقوق تاريخية يبرر بها احتلاله العسكرى لأرض فلسطين العربية ، فما على العالم الا ان يقارن بين وجود الشعب الاسرائيلى فى فلسطين - كما رأيناه فى الفصل السابق - وبين وجود الشعب العربى فى اسبانيا وجنوب أوروبا ، وحضارته التى نشرها فى الشرق والغرب - كما سنرى فى الفصل القادم - ثم يحكم العقل والضمير ليقرر : أى من الشعبين أحق بالعودة للاقامة فى الأرض التى استوطنها وحكمها قديما آباؤهم وأجداده .

كل ذلك بالاضافة الى ضرورة مراعاة عوامل أخرى - غير الوجود الحضارى - مثل : عدالة تطبيق مبدأ « سقوط الحق بالتقادم » ، والتأكد من شخصية مدعى الميراث بوصفهم ينحدرون فعلا من أصلاب أجدادهم الأصليين .

ان كل هذه المبادئ العادلة ليست قطعا فى جانب الاسرائيليين .



الحضارة العربية

الحضارة العربية

مقدمة :

طلع العرب على العالم بحضارة ازدهرت عدة قرون ، فتمكنوا خلال ازدهارها من بسط نفوذهم على مناطق كثيرة تمتد من أقصى الشرق الى أقصى الغرب .

ثم أصاب العرب ما أصاب غيرهم من أصحاب الحضارات السابقة ، حين تكالبت عليهم عوامل الضعف والانحلال في الداخل ، وتمكنت عوامل الفرقة والتناحر من تقويض بناء وحدتهم الداخلي ، وعندئذ تمكن منهم الأعداء المتربصون بالخارج .

ولم يكن ذلك كل ما أصاب العرب ، فهو قليل اذا ما قورن بما أصاب حضارتهم . فقد عمد الكثيرون الى طمس معالمها ، وتجريدها من كل مزينة ، ونشر المزاعم الباطلة والأراجيف حولها ، والأدهى من ذلك والامر أن تعرضت مآثر الحضارة العربية للنهب والسطو ، فانتسخت زورا الى غيرهم ، واكتملت بذلك أو كادت أن تكتمل عملية طمس المعالم لذلك الوجه العربي المشرق .

لكن العالم لم يعدم على مر السنين من يحيا فيه من اهل العلم والفضل ، فيردون الحق الضائع الى أهله ، ويشهدون بالمآثر والفضائل التي غيرهم ولو كان ذلك الغير ممن لا يشاء كونهم الوطن أو الجنس أو الفكر .

وكذلك وجدت الحضارة العربية من يعترف بها ويفضلها على العالم ، ويعمل جاهدا لكشف مآثرها وبيان خطورة أمرها .

والحق أن خطورة الحضارة العربية لا ترجع الى كونها قد استمرت عدة قرون قريبة العهد من عصرنا الحالي ، بقدر ما ترجع الى ارسائها أغلب القواعد والعمد التي يقوم عليها البناء الشامخ للحضارة الحديثة .

ونريد في هذا الفصل أن نعرف شيئا عن الحضارة العربية ومآثرها ، معتمدين - كما هي العادة - على مصادر غير عربية ، اجتمع لأصحابها من كريم خصال العلم والفضل ، ما يجعل لهم القول الفصل في هذا المقام .

الصورة العامة للحضارة العربية ومحاولات طمسها :

يقول المستشرق الفرنسي سيديو : « لقد قصد نسيان العرب ، وإنكار ما كان لهم من تأثير في الحضارة الحديثة ، دام دوام القرون الوسطى .. واليوم ترى اسم العرب يمحي حتى تحت اسم الشرقيين .. والترك ، وحتى تحت اسم الهنود . وهو اذا ما ذكر فلالهانة والازدراء .

ان الخلفاء كانوا في القرن التاسع من الميلاد سادة امبراطورية واسعة رائعة .. تقضى بالعجب ، وان خلفاء بغداد كانوا يرسلون وفودا وهدايا الى الامبراطور شارلمان والى عاهل الصين وانهم كانوا مثال العظمة الحقيقية بنظمهم الصالحة ، وعنايتهم بالآداب والعلوم . وان ما شيد من المدارس في ارجاء دولتهم كان يوقد مصباح الحضارة .. ناشرا آثار الفن العربى الرائعة في كل مكان ، عاملا على تجديد الدم في عروق العالم الهرم .

ولم يكن دون ذلك في تقدم العلوم تأثير مدرسة بغداد ، التى كانت متوسطة بين مدرسة الاسكندرية والمدرسة الحديثة ، فهيات لهذه المدرسة الحديثة اكتشافاتها .

ونحن مدينون للعرب فى الحقل العلمى ، ونعترف مع ذلك بان مترجمينا كانوا يتلهون بتشويه ما يقتبسونه من التعابير تشويها غريبا الى الغاية ، فينم ما اتخذ من الاصطلاحات على الجهل والارتباك ..

افليس من الفضائح الا يكون لدينا نبذ من فلكى العرب فى القرن العاشر ومن جاء بعدهم والا نستطيع ان نظفر بنسخة كاملة من كل ما افوه ؟

وانكى من ذلك الا نعرف بالضبط ، ماذا تحتويه النشرات المبعثرة فى بعض مكتبات اوروبا ، ومن المحزن الا تلاقى الجهود التى تبذل لتحقيق هذه الامانى غير تشجيع قليل . وذلك فى هذا الزمن الذى غيرت المؤلفات الحديثة فيه ما عد ثابتا من المذاهب والعقائد تغييرا اساسيا .

فلقد حل الوقت الذى توجه فيه الانظار الى تاريخ تلك الأمة التى كانت مجهولة الامر فى زاوية من آسسه ، فارتقت الى اعلى مقام فطبق اسمها آفاق الدنيا مدة سبعة قرون .

ولا يزال العرب محافظين على طبائع اسلافهم .. وهم على ما يظهر ذوو فتوة خالدة ، يقدرون على القيام بجميل الأعمال عندما يؤمنون بمبدأ جديد . وهم أحرار ، كرام ، شم الأنوف ، غضاب ، مقادير . والعربى نشيط ويعود نشاطه الى وجوب كسب عيشه بنفسه ، وهو صبور .. ومحب للحرية . والحرية هى الأمر الوحيد الذى اتفق له أن يتمتع به وهو محارب ، ويحارب حاقدا على كل من يحاول استعباده ..

ونرى العرب متمائلين في أمور العزة والشرف ، لتمائل أحوالهم ومشاعرهم « (١) »
حقا لقد « كان العرب وحدهم حاملين لواء الحضارة في القرون الوسطى ، فدحروا بربرية أوربه التي زلزلتها غارات قبائل الشمال ، وسار العرب الى منابع فلسفة اليونان الخالدة ، فلم يقفوا عندما اكتسبوه من كنوز المعرفة ، بل وسعوه ، وفتحوا أبوابا جديدة لدرس الطبيعة .

قال دوهومبلد في كتابه « الكون » : كان العرب مستعدين بما يقضى بالعجب ، ليمثلوا دور الوسيط ويؤثروا في الأمم القاطنة فيما بين نهر الفرات ونهر الوادى الكبير ، وفي القسم الجنوبى من أفريقية الوسطى . والعرب كانوا ذوى نشاط منقطع النظر ، وهذا النشاط هو آية دور ممتاز في تاريخ الدنيا .

والعرب على عكس بنى اسرائيل ذوى التعصب وعدم التسامح ، كانوا راغبين في مصاهرة الأمم المغلوبة ، من غير جحود بخلقهم القومى ، وذكريات وطنهم الاصلى » .

والعرب « لم يألوا جهدا في انماء جميع فروع المعارف البشرية في زمن اهملت أوربة فيه العلوم والآداب على العموم ، وفيما كان شارلمان يحاول احياء الدوق العلمى الأدبى على غير جدوى ، كان الخلفاء (العباسيون) يدنون منهم اعلم علماء الاقطار التى جمعوها تحت سلطانهم ، أمرين بترجمة أهم الكتب من اليونانية ، مقيمين اوسع المباني لتكون مكتبات غنية ومدارس عامة ، فأكب الناس فضلا عن دراسة القرآن وتفسيره ، على دراسة كتب أرسطو ، وبقراط ، وجالينوس ، وديسقوريدس ، واقليدس ، وارشميدس ، وأبولونيوس ، وبطليموس .. وغيرهم ، التى نقل العرب كثيرا منها الينا رأسا قبل أن نجد اصولها اليونانية . وأقام الخلفاء مجامع للموضوعات التى لا يقدر على معالجتها سوى الاساتذة الماهرين ، وشيدوا تلك المدرسة المشهورة التى تم على يدها أجمل آثار علم الفلك في القرون الوسطى .

ولا نرى أن نسهب في بيان درجة الكمال التى انتهت اليها الفنون الميكانيكية في ذلك الدور فيكفى لتمثلها أن نرجع البصر الى الساعة المائية التى أرسلها هارون الرشيد الى شارلمان فوصل اليها وصفها ، والهدايا التى قدمت الى عاهل الصين ، فهى تغنيننا عما جاء في كتب المؤرخين من تفاصيل جميع العجائب المماثلة التى اشتمل عليها قصر الخلفاء ببغداد » .

« ويجب أن نعترف بأننا لم نبحث في معظم كتب العرب الموجودة في مكتباتنا (الأوربية) فضلا عن عدم حيازتنا لجميع مؤلفات مشاهير العلماء . . . ويكفى أن تلقى نظرة على مؤلفات مونتوكلا ، وديريبلو ، وادوارد برناديه لنندرك أننا لم نبين سوى جزء زهيد الى الغاية من أعمال العرب ، باستنادنا الى الوثائق الثابتة .

وقد استند الى جهلنا ما في الشرق من المخطوطات المهمة في الادعاء بأن العرب لم يكادوا يرتقون الى مستوى النظريات اليونانية . وزعم مثل هذا لا يقف امام سلطان النقد .

ونحن اذ نرى شسوق العرب الى العلم قد حفزهم الى النهوض بمختلف فروع المعارف البشرية ، طلبا للحقيقة وحدها ، لا يسعنا سوى الاعجاب المطلق بجهود الشعب العربي الذي ادى بمثاله النبيل الى بعث الآداب والفنون في أوربه » . (٢)



وتقول الباحثة الالمانية الدكتورة سيجريد هونكه في مقدمة كتابها : (٣)
« شمس الله على الغرب » :

« من خطئ الراى ان ننظر الى أوربا على أنها هي فقط العالم الحديث، ومن الحماسة أن نقول ان تاريخ أوربا هو تاريخ هذا العالم . وذلك لأنه مما لا شك فيه أن سائر القارات التى يتكون منها عالمنا هذا ، ساهمت وتناهم في تكييف الأحداث العالمية التى تخضع لها شعوب العمورة . .

أما اليوم فقد شاء الله أن تزول هذه الغشاوة عن أعيننا ، وأن يتسع صدرنا للحقيقة ، فلا نغمط الشعوب الأخرى التى ساهمت في ايقاظ الوعى الإنسانى ، وبعث ثقافة إنسانية رفيعة أثرت وتوثر حتى يومنا هذا ، لا فى أوربا فقط بل فى مختلف أرجاء العالم المتحضر . وشاء الله ان يظهر من الأوربيين من يجروء وينادى بهذه الحقيقة ، فلا نغمط العرب حقهم فى أنهم حملوا رسالة عالمية ، وأدوا خدمة إنسانية للثقافة البشرية قديما وحديثا ان هذا النفر من الأوربيين المنصفين ، لا يابيه من تحدى أولئك التعصبيين الذين أعماهم تعصيمهم . . فحاولوا جهد طاقتهم طمس معالم هذه الحضارة العربية ، أو التقليل من شأنها .

(٢) المرجع ٢ - ص ٣٨٣ - ٣٨٧ ، ٤٠٢ - ٤٠٣

(٣) ترجمه وحققه الدكتور فؤاد حسنين على ، ونشر بالعربية تحت

اسم : « فضل العرب على أوربا » - المرجع رقم ٦

ان اوريا تدين للعرب وللحضارة العربية ، وان الدين الذي في عنق اوريا وسائر القارات الأخرى للعرب كبيرا جدا . وكان يجب على اوريا أن تعترف بهذا الصنيع من زمن بعيد لكن التعصب .. أعمى عيوننا وترك عليها غشاوة ، حتى أننا نقرأ ثمانية وتسعين كتابا من مائة ، فلا نجد فيها اشارة لفضل العرب وما أسسده الينا من علم ومعرفة اللهم الا هذه الاشارة العابرة الى أن دور العرب لا يتعدى دور ساعي البريد الذي نقل اليهم التراث اليوناني . اما العربي فلم يأت بجديد ولم يحقق رسالة .

ان النهضة العلمية الحديثة كشفت الفطاء عن حضارات الشرق القديم .. وأن هذا الشرق العربي القديم هو وطن الوحي ومبعث الفنون والعلوم والآداب . واذا ما انتقل الباحث الى بيزنطة لينفذ منها الى المسيحية في العصور الوسطى فالعصور الحديثة ، ازداد شكه في اليونان والرومان ، وأيقن أن اوريا بأثينا وروما لا تستحق كل هذه العناية وأن ما يحاول المفرضون خلعه عليها ، ما هو الا سراب لا يقوى على البقاء أمام شمس الشرق العربي .

انها سبة أن يعلم أهل العلم من الأوربيين ان العرب أصحاب نهضة علمية لم تعرفها الانسانية من قبل وان هذه النهضة فاقت كثيرا ما تركه اليونان أو الرومان ، ولا يقررون هذا .

ان العرب ظلوا ثمانية قرون طوال يشعون عنى العالم علما وفنا وأدبا وحضارة ، كما أخذوا بيد اوريا وأخرجوها من الظلمات الى النور ونشروا لواء المدنية أنى ذهبوا في اقاصى البلاد ودانيتها ، سواء في آسيا أو أفريقيا أو اوريا ، ثم تنكر اوريا على العرب الاعتراف بهذا الفضل ؛

ان المذاهب الانسانية الحديثة اصبحت غير مذاهب العصور الوسطى ، وشعرا والأوربي اليوم محاولة فهم عدو الأمس وتحويله الى صديق ، وذلك بالاعتراف له بمكانته العالمية ، وما أسداه للأوربيين وغيرهم من معرفة ، والأيسعى الأوربي جاهدا الى طمس هذه المكائنة واخفاء معالمها ..

ثم لا يفوتنا أن نذكر أن هؤلاء العرب ، والذين ذكرهم هيروdot ، والذين بسطوا سلطانهم على شعوب كثيرة مهدوا للمغلوبين للاندماج في المجتمع العربي لفة وأدبا وعلما ودينا . وأصبح الخلق العربي والطبيعة العربية والثقافة العربية والعقيدة الاسلامية مثلا يحتذى .. ان هذا الكتاب يهدف .. الى تقديم شكر كان يجب ان يقدم الى العرب منذ عصور قديمة فالألمان يدينون للعرب بالشئ الكثير .



الفتوحات العربية :

يقول فيليب حتى « كانت الحادثتان الخطيرتان في اواخر العصور القديمة هما : الهجرات الجرمانية التي أسفرت عن تقويض الامبراطورية الرومانية العريقة ، والفتوحات العربية التي دكت صروح الدولة الفارسية الى الأساس ، وزعزت أركان الامبراطورية البيزنطية .

فلو قام في الثلث الأول من القرن السابع الميلادي أحد ، وتكهن بأن دولة خاملة الذكر وضعيفة الجانب ، تخرج من مجاهل جزيرة العرب ، ثم تنقض على الدولتين العظيمنتين المعروفتين فتقوض الدولة الواحدة - دولة آل ساسان - وتظفر بأملأها ، ثم تقطع من ولايات الثانية - بيزنطة - أزهى مقاطعاتها ، نقول لو صدرت مثل هذه النبوءة من فم انسان في ذلك العصر لحكم عليه بالجنون .

والواقع أن هذا ما حدث فعلا . فبعد الرسول تغيرت طبيعة بلاد العرب الجذباء ، وأخذت تنشئ رجالا أبطالا ، ينذر وجود من يشاركهم في أى صقع كان ، فكان أعجوبة حلت فيها . فالحملات العسكرية التي قام بها خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وسعد بن أبى وقاص فانحين بها العراق ، وفارس ، وسورية ، ومصر ، هى من أعظم الحملات التي يرويها تاريخ الحروب المدون ، وقد كشفت عن نبوغ قوادها وتفوقهم في أساليب القتال ، وخلدت أسماءهم مع أسماء نابليون ، وهانيبال ، ويوليوس قيصر ، والاسكندر . (٤)

« ان عظمة الجيش العربى لم تقم على قوة السلاح او جودة التنظيم ، بل كانت ثمرة القوة المعنوية الروحية ، التي كان الايمان والدين قد عززها في نفسه » . (٥)

ولقد « كان سكان الشام وفلسطين - وهم ساميون - وسكان مصر . . يعتبرون العرب الفاتحين قوما من بنى جنسهم ، تربطهم بهم ما لا يربطهم بأولئك الحكام الأجانب الغاصبين فالفتوحات الاسلامية من هذه الوجهة ، هى عند التحقيق انقلاب اجتماعى سياسى ، استرد به الشرق الأدنى مجده السامى الغابر ، وجاء الاسلام مهيبا بالشرق الى النهوض من كبوته ، بعد ألف سنة اجتاحتها فيها سطوة الغريب ولنذكر ان الجزية التي فرضها الفاتحون العرب على أبناء البلدان المنسلخة عن فارس وبيزنطة - كانت أقل مما كان يفرض عليهم في ظل الحكومات السابقة .

(٤) المرجع ٣ - ص ١٩٣

(٥) المرجع ٣ - ص ٢٣١

لقد انفتح امام الأمم المغلوبة باب الحرية ، فصاروا يمارسون عقائد
أديانهم دون ازعاج «

« انفتحت امام الغزاة سهول العراق الخصبة . . وقد رحب الفلاحون
الاراميون بالفاتحين ترحيبا لا يقل عن ترحيب الفلاحين السوريين وذلك
لأسباب متشابهة ، اذ كان العراقيون الساميون يحسبون أسيادهم
الايرائيين اجانب ممقوتين ، ويرون الفاتحين أقرباء لهم . ولم يطب العيش
لأهل العراق وهم نصارى اذ ذاك في ظل الفرس وهم أتباع زرادشت « .

*

« ولم تجب الجزية الا على الرجال الأصحاء العقلاء فلم توضع على
امراة ، أو صبي ، ولا مجنون ولا عبد ولا سابل أو سائل ، ولا راهب أو
شيخ .

وقد وجبت الجزية على جميع الذميين ولما كانت أحكام الشريعة
المحمدية لا تسرى عليهم ، فقد فوض الى رؤسائهم الروحانيين أمر الاشراف
على قضاياهم ، حسبما تفرضه شرائع أديانهم . تلك حال خاصة بهم ،
وفيها شيء من مزايا الاستقلال الذاتي في الأحوال الشخصية . ولقد سلم
سلاطين الترك لأهل الذمة بأصول هذا الوضع الخاص « . (٦)

*

وإذا كانت الحرية هي المطالب الذى جاهد الانسان من أجله على مدى
الايام فان حرية الفكر والعقيدة كانت دائما فى القمة التى سعى جاهدا
للوصول إليها ، كى ينعم فوق ربها بتفتح العقل وانطلاق الفكر ، وراحة
الضمير . وفى هذا السبيل احتملت المشاق ، وبذلت التضحيات ، وأريق
الدماء وازهقت الأرواح .

ولقد اشتهر العرب بتسامحهم الدينى فى زمن كان أصحاب العقيدة
الواحدة يذيقون أبناء عقيدتهم من صنوف الأذى والعذاب ما تقشعر لذكره
الأبدان ، بل ان هذا الاضطهاد الدينى لا يزال يمارس تحت سمع العالم
وبصره حتى اليوم .

يقول سيدىو فى فتح القدس على عهد الخليفة العادل عمر بن الخطاب
« رضى صفرونيوس (البطريرك) بتسليمها على أن يتسلمها الخليفة
بنفسه . ويجيب عمر البطريرك الى طلبه ويبدى عمر فى تلك الرحلة من
البساطة والكرم الشيء الكثير . وينال سكان ايلياء حرية الضمير كاملة ،
وتحترم كنائسهم ، وتفرض عليهم جزية فقط « . (٧)

(٦) المرجع ٣ - ص ١٩٤ ، ٢١٠ ، ٢٢٩

(٧) المرجع ٢ - ص ١٤٠

وتقول « وثيقة الأمان » التى بعث بها عمر الى البطريرك صفرونيوس عام ٦٣٧ م :

« أما بعد ، فهذا عهد منى أنا عمر بن الخطاب أعطى للشيخ الوقور بطريرك الأمة الملكية صفرونيوس على جبل الزيتون بمقام القدس الشريف ، فى الاشتغال على الرعايا والقسسوس والرهبان والرهبات ، حيث كانوا وأين وجدوا ، وأن يكون عليهم الأمان لأن الذمى اذا حفظ أحكام الذمة وجب له الامان والصون منا نحن المؤمنين والى من يتولى بعدنا ولتقطع عنهم اسباب جوانحهم . . وليكن الأمان عليهم وعلى كنائسهم ودياناتهم وكافة زياراتهم ، لانهم أعطوا من حضرة النبى الكريم . . وأمر بالنظر اليهم ، والامان عليهم ، كذلك نحن المؤمنين نحسن اليهم ويكونون معافين من الجزية والغفر والموجب ، ومسلمين من كافة البلايا فى البر والبحر . . وكل مؤمن ومؤمنة يحفظ ما أمرنا به ، سلطانا أم حاكما أم واليا يجرى حكمه فى الأرض ، غنى أم فقير من المسلمين المؤمنين والمؤمنات . . وكل من قرأ مرسومنا من المؤمنين ، وخالفه من الآن الى يوم الدين ، فليكن لعهد الله ناكثا ، ولرسوله الحبيب باغضا » . (٨)

ويلفت النظر ما يختم به عمر ذلك العهد العمري ، من تشديده النكير على كل من يأتى بعده ويحاول أن ينتقص شيئا من حقوق اهل الذمة ، فيمنع بذلك الوفاء بالعهد المقطوع لهم .



ولقد استمرت هذه الروح العربية سائدة قرون عديدة . وفى عصر الدولة العباسية « كان من الأمور التى اضطجح عليها ، أنه اذا ما اجتمع ارباب عشر أسر من النصارى ، أو اليهود ، أو المجوس أمكنهم أن يقيموا كنيسة ، وأنه يمكن كل رجل أن يمارس المناصب العامة من أى ديانة كان » . (٩)

ولم يكن الشئ الذى بهر الانظار فى أمر الفتوحات العربية : هو ذلك الزحف الخاطف الذى حطم به المجهدون من أبناء الصحراء جيوش امبراطوريات تفوقهم عددا وتنظيما وتسليحا وامكانيات فأتيتوا للعالم أهمية الايمان فى صنع المعجزات ، وهو الدور الذى فشل فيه الاسرائيليون من قبل حين عجزوا عن تمكين موضع قدم لهم فى إقليم صغير مثل فلسطين ، ونبههم موسى صانع المعجزات المادية لم يزل حيا فى ذلك الوقت بين ظهرانيهم .

(٨) المرجع ١١ - ص ١٩

(٩) المرجع ٢ - ص ٢١٢ .

كذلك لم ترجع خطورة الفتوحات العربية الى ما قدمته للشعوب المغلوبة - واغلبها يشـشارك العرب جنسهم - بتخليصها من ظلم حكامها الغرباء واضطهاداتهم ، لم يكن هذا ولا ذاك فقط - بل ان عوامل الاتارة والتقدير في امر الفتوحات العربية ، انما ترجع بجانب ما سبق الى تلك الروح الجديدة التي اشركت على العالم ، فخلقت فيه - من بين ما خلقت - طفرة علمية جبارة ، يعجب لها العلماء المحايدون - من غير العرب - ويقولون فيها :

« ان هذه الطفرة العلمية الجبارة التي نهض بها ابناء الصحراء من العدم ، من أعجب النهضات العلمية الحقيقية في تاريخ العقل البشرى . فسيادة ابناء الصحراء التي فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة ، وحيدة في نوعها . وان الانسان ليقف حائرا امام هذه المعجزة العقلية الجبارة ، هذه المعجزة العربية التي لا نظير لها والتي يحار الانسان في تعليلها .

اذ كيف من المستطاع ان شعبا لم يسبق له ان لعب دورا سياسيا او ثقافيا من قبل ، يظهر بفتة الى الوجود ويسمع العالم صوته ويملى عليه ارادته .. ان هذه المنزلة التي بلغها العرب ابناء الصحراء لم تبلغها شعوب اخرى كانت احسن حالا وارفع مكانة .

ان بيزنطة الوريثة الغنية لا للشرق القديم فحسب بل للثقافة اليونانية ايضا ، لم تنتج شيئا وظلت حتى اليوم عاقرا ..

اما الشعب الذي خلف الثقافة القديمة ، وحمل لواء النهضة العلمية الفكرية في العالم ، فهو شعب صحراوي ، خرج من الصحراء وبسرعة البرق قبض على صولجان السيادة الثقافية في العالم . وظل ابناء الصحراء حاملين لهذا الصولجان دون منازع مدة لا تقل عن ثمانية قرون كما ان هذه الثقافة العربية قد تفتحت وازدهرت واينعت اكثر من الثقافة اليونانية ..

ففي اواخر القرن السابع الميلادي كانت السيادة العربية قد بلغت شمال افريقيا وامتدت حتى المحيط الاطلسي . وفي عام ٧١١ م بينما كان العلم الاسلامي ينتشر شرقا مرفرا حتى الهند انقض المحاربون المسلمون على دولة القوط الغربية في اسبانيا ، واستولوا عليها بالرغم من قلة عدد المسلمين وعددهم بالنسبة لاعدائهم ..

وفي عام ٧٣٢ فقط استطاع شارل مارتيل أن يقف أمام هذه الجحافل المتدفقة ودارت عن تور وبواتيه معركة ، وأثناء الليل عاد المسلمون أدراجهم ومعهم جثة قائدهم عبد الرحمن الذي سقط قتيلًا ، وتحصنوا عند ناربون ، حتى اضطر شارل مارتيل بعد اثني عشر عاما أن يشتبك مع المسلمين عند أفينيوس ونيميس ، دون أن ينجح في إجلائهم عن دولته ، وذلك لأنهم كانوا في إقليم بروفينس وغرب الألب وإقليم أوكيتانيا ، أى فى البلاد التى نجد فيها فيما بعد ، حقلًا خصيبًا للثقافة العربية ، ولمدة قرن من الزمان .

وحتى فى منتصف القرن العاشر نجد المسلمين يستجيبون لنداء الملك هوجو ملك اللومبارد ، ويتقدمون فى البلاد فيبلغون أنجادين ، حيث نجد بونتريزينا وبونس سارسينا ، أى قنطرة المسلمين ، التى ما زالت الى اليوم قائمة تحمل ذكرى أولئك الأجانب العظام .

ثم نجد العرب يتغلغلون فى إيطاليا ولمدة قرنين وبقوة ونجاح ، وقد بدت وكأن روما الأم لا بد وأن تشاطر أسبانيا الهزيمة والضياع ، فمن صقلية اندفع العرب حتى استولوا على إقليم أبوليا وكالبريا ، واستطاعوا تهديد روما والبندقية المنيعه ، وكان هذا الزحف العربى استجابة لرغبة نابولى .

وقد ظل العرب حتى عام ٩١٥ يتناوبون السيادة على جنوب إيطاليا، بل وجميع الجزر الواقعة فى غرب البحر الأبيض المتوسط ، هذا البحر الذى أصبح بحرا عربيا ، اللهم الا الجزء الشرقى الذى كان خاضعا لميزنطة ..

ان هذه الفتوحات العربية كانت غريبة فى نوعها حقا .. كم هذه الشعوب التى عرفها التاريخ وقفت من المغلوبين المهزومين والذين يدينون بدين او أكثر يخالف دين المنتصرين ، موقف العرب المتسم بالانسانية والتسامح ؟ واذا أضفنا الى هذا الموقف الكريم الذى وقفه العرب والاسلام من الشعوب التى انضوت تحت رايتهم هذه المثابرة على نشر الثقافة العربية الاسلامية وهى ثقافة تختلف فى جوهرها عن الطلاء الهللىنى او القشور الرومانية ، ازددنا تقديرا واعجابا بالعرب ..

ان الشعوب صاحبة الثقافات القديمة قد هرمت وتجمدت مياه

الحياة في شرايينها حتى أصبح من الضروري فناؤها ففي القرنين الثالث والرابع الميلادى أخذت تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وتتلشى من على مسرح الحياة تدريجيا . .

وكاننى بالعباية الالهية قد ارادت لهذا التراث الانسانى الحياة ، فبعثت ابناء الصحراء وقد عبرت قلوبهم بايمان الاسلام ودعوته الجديدة ، فتسارعوا الى تلك الحضارات العقلية فانقذوها مما يتهددها ، وبعثوها بعنا جديدا فتيا . ولولا هذا الفتح الجديدة لظلت الثقافة القديمة دفينة ميتة ، يخيم عليها سكون القبر ووحشته الى حين « . (١٠) .



على ضوء هذا نستطيع ان نقول : حقا ، لقد كانت الفتوحات العربية فتحا علميا حضاريا ، وكانت - بكل أبعادها - معجزة لمن يطلب المعجزات .



العرب في اسبانيا :

يصف سيديو حال اسبانيا قبل الفتح العربى فيقول : « كانت عناصر الضعف تبدو فى صميم نظام المجتمع المقسوم الى طبقات متعادية ، فضلا عن عطله من الروح العسكرية . وكانت مدونة القوانين التى ألقت فى مجامع الاساقفة بطئيطة خليطا عجيبا من قوانين الرومان وعادات الجرمان » .

ولكن بعد أن استبدلت اسبانيا حكامها القوط بالعرب « لم تلبث أن عادت اليها نضارتها القديمة . ولم تزد الجزية التى فرضها العرب على اسبانية عن الضريبة السنوية التى كانت تدفعها الى القوط .

والعرب كانوا يظهرون معتدلين عند النصر . . فلم يحاربوا بمثل ما كان يحارب به الهون النورمان من الاندفاع والهمجية » .

ولقد « احترمت جميع الشروط التى وضعت وقت الفتح احترامما كليا ، فسلمت الأسلحة والخيول ، ومنح من يودون الرحيل حق مغادرة البلاد . . ووعد من يبقون فى البلاد بالمحافظة على أملاكهم وقضاتهم

وقوانينهم وكنائسهم . . والزموا بدفع خراج لا يزيد عن عشر المحصول . .
واحفظ الفاتحون لأنفسهم بالأراضي المهجورة » . (١١)

« ومن أسبانيا الواقعة في غرب القارة الأوربية، زحفت العروبة على كل
أوربا ، ومن اجزاء القارة البيضاء من استنكر هذا الزحف ، ومنها من أعجب
به ، لكن على كل حال وقفت أوربا من زحف الثقافة العربية موقفا سلبيا » (١٢)

*

وترى سيجريد ان هناك « ظاهرة عجيبة حقا تستحق التفكير اكثر من
سائر الافتراضات والعجائب التي جاءت بها الثقافة العربية ، وهذا يبدو
فيه شيء من التناقض . فأخصب البقاع حضارة وثقافة ومدنية هي تلك
التي كانت فيها قليلة جدا ، وذلك لندرة وجود العنصر العربي ، وحيث لم
تقم من قبل حضارة هامة . ان الحضارة الطارئة في الاقطار الأخرى التي
تشبه اسبانيا تماما ، وذلك مثل صقلية ومصر وسوريا والعراق ويران ،
حيث نجد شعوبها مثقفة ثقافة رفيعة تلعب دورا هاما في الثقافة البشرية
مثل الهلينية والبيزنطية واليونانية والفارسية والهندية حيث تفاعلت مع
الثقافة العربية .

اما في بلاد المغرب البربرية وفي اسبانيا حيث كانت الدولة القوطية
العربية وريثة الاستغلال الروماني والاستعباد والمرض الزمن الذي أصابه
البلاد من جراء الاستعمار الروماني والذي خلف طبقة من رجال الدين
المتعصبين ، فهنا لا يوجد شيء وتنعلم كل مقومات الحضارة . وعندما جاء
الفاتحون أخذت الموجات العربية تفد من بلاد العرب ومن سوريا وليس
حولهم من شعوب قد يقتبسون منها شيئا ما .

فهذه الثقافة الرفيعة العالية التي بلغها العرب في اسبانيا هي خير
ما يدحض الادعاءات القائلة بأن العرب قد اخدوا الحضارات البائدة واعادوها
ثانية وأنهم مقلدون فقط ولم يأتوا بجديد . ففي اسبانيا لم توجد حضارة
يقال ان العرب اقتبسوها وتعلموها وقلدوها ، والحقيقة التي يجب
الاعتراف بها ان جمال الثقافة الاندلسية لم يكن فارسيا أو يونانيا ، بل
كان عربيا فقط وعندما اختفى العرب من اسبانيا ، انحطت البلاد وتدهورت
حضارتهم وخيم عليها الموت ولم تنتج شيئا .

(١١) المرجع ٢ - ص ١٨٢ - ١٨٨

(١٢) المرجع ٦ - ص ٣٥٨ - ٣٥٩

ففي اسبانيا ظل حكم العرب ثمانية قرون كانت ازهى واغنى العصور،
ومن خير ما عرف على يد البيوت الحاكمة وهى عريقة قديمة .

وما هى فترة ثمانية قرون ؟ انها قصر الا انها غنية جدا بالاحداث
التاريخية انها فترة تساوى تلك التى تمتد . . منذ مجيء الملك فيليب
الثانى ملك فرنسا حتى الجمهورية الخامسة للجنرال ديغول . .

فهذه الفترة بالضبط عبارة عن ٧٨١ عاما ، ازدهرت وأينعت فيها
الحضارة العربية فى شبه الجزيرة الاوربية .

لكن الغرب لم يعرف شيئا عنها .
والجار الغاضب المكشور عن انيابه ، والذي كان يقيم على الجانب الآخر
من جبال البرانس ظل أصم وأعمى . فقد غشيت عينيه غشاوة بفعل الأنوار
النساطعة والجنة الغناء . . وقد صور هذا الجار الغاضب تلك الجنة بأنها
وطن السحرة وعبدة الشياطين . . لكن هذا الجار فشّل فى سد اذنيه
وأغماض عينيه تماما ، وتأثر تأثرا قويا بحضارة جاره » . (١٣)

*

ان العالة الالمانية تقرر فى هذه الاقوال : ان العنصر العربى عنصر
حضرى بطبعه ترتبط به الحضارة كظله ، فهو يقيمها حيثما يقيم .

*

والعرب حين جاءوا الى اسبانيا « من مصر والشام وفارس التى هى
بلاد زراعية ، كانوا . . ذوى مواهب تجارية وكانوا ذوى ميول الى الصناعة
وفق شريعة النبى التى تأمر بالعدل . . فأدخلوا الى اسبانيا أساليب زراعية
قائمة على الترصّد والتجربة ، واحيا مواتها ، وعمرّوا مدنها الخالية ،
ورينوّا جديدها بأفخم المباني ، ووصلوا بينها بمختلف العلائق التجارية ،
فعدت اسبانية التى استثمرت وحرر فدادوها (القوى العاملة بها) اكثر
بقاع اوريه سكانا وعمرانا » (١٤) .

« وبينما كان ظلم القوة مطبقا فى اوريه . . كان عرب اسبانية يدركون
أهمال السلم ، ويحترمون آثار الذكاء مع المحافظة على نشاطهم الخلقى الذى
نجم عن تعود المارك . واذا كان العرب قد زاولوا العلوم والفنون ، لم
يكونوا فى ذلك كالفرنّج الذين اطاعوا شرلمان المسيطر ، بل مارسوها وفق
سجيتهم ، فلم يفعل الخلفاء غير مواراة الرأى العام ، وما اتاه الخلفاء من
حث على الآداب والتجارة والصناعة . . قوبل بالشكر من قوم كانوا مقدرين
لهذه المقومات » .

(١٣) المرجع ٦ - ص ٣٨٩ - ٣٩٠

(١٤) المرجع ٢ - ص ١٨٩ ، ٢٩٣

« لقد كان العرب أرقى .. أخلاقا وعلما وصناعة .. وكان من العبث أن يبحث لدى غيرهم عن مثل ما في سجيبتهم وطبائعهم من الكرم والوفاء وحب الخير . ومما أدى الى عظمة العرب في اسبانية ما بلغته الآداب والعلوم والفنون من التقدم العظيم في ابان دولتهم ، وكنت ترى حب الثقافة عاما في جميع الطبقات .. وكنت ترى انصاف القضاة بغزارة العلم انصافا جاليا لاحترام الناس احكامهم ، وكنت ترى تنافسا كريما حافظا ..

وبلغ العرب درجة رفيعة من الكمال في فن الغناء والموسيقى والرقص ولا يزال الناس يدرسون طراز مبانيهم الخاص فيعجبون بزخارفها » . (١٥)

« وشملت العلوم انظار العرب أيضا فكان يعلم في المدارس علم الفلك والجغرافيا والمنطق والطب والنجوم والفيزياء والكيمياء والتاريخ الطبيعي . وكانت مكتبات العرب حافلة بنسخ من مؤلفات علماء اليونان وفلاسفة الاسكندرية . وزاول العرب العلوم الرياضية والجبر والهندسة بنجاح وكان جربرت الشهير الذي اصبح بابا في اواخر القرن العاشر باسم سلفستر الثاني ، قد تلقى في الأندلس من المعارف ما بهر به معاصريه ، فاتهموه بالسحر .

وما ابداه العرب من النشاط في حقل الصناعة اعظم من ذلك فالعرب بعد أن وجدوا المناجم التي كان الرومان والفينيقيون يستخرجون منها معادنهم ، بادروا الى استثمارها ، ثم فتحوا مناجم أخرى .. ولا مرأى في الخدم الزراعية التي اسدى بها العرب الى اسبانية فما قاموا به اعمال الري في سهل بلنسية .. وفي سهل غرناطة .. أدى الى اعظم درجات الخصب ..

ويجب الا يحكم على حالة الاندلس ايام سلطان العرب بحالتها الحاضرة فقد كان عدد سكانها يزيد كثيرا على عددهم في أيامنا ، وكان في القسم الاسباني الذي ملكه العرب ست مدن عظيمة وثمانون مدينة ثانوية، وثلاثمائة من الدرجة الثالثة ، ومالا يحصى من الضياع والقرى والكفور .

وكان يعد في قرطبة وحدها مئتا ألف بيت ، وستمائة مسجد وخمسون مستشفى وثمانون مدرسة عامة ، وتسعمائة حمام شعبي ، وكان عدد سكان قرطبة مليون شخص .

ويظل الانسان دهشا تجاه الثروات التي بذلها العرب في شيد مبانيهم وفي اعيادهم العامة . ولا يكفى الوصف لبيان النفائس ، والنشوة الشاملة التي كانت تسود قرطبة في اعيادها ، فقد كانت تنار بأسرها ، وكانت تنشر طرقها وكنت تسمع الحان الموسيقى تملأ الفضاء في متزهاتها وأماكنها العامة ، وكنت ترى أهلها يرقصون فرحين ..

اذن كان عرب الأندلس على رأس الأمم المتمدنة في القرن الحادي عشر... اذن كان عرب الأندلس أفضل من جميع أمم أوربة في ذلك الدور . (١٦)

العرب في صقلية :

حكم العرب صقلية زهاء ثلاثة قرون . « ولقد اغنى العرب تلك الأراضي الفقيرة بحقول القطن وقصب السكر ، كما توجوا البلاد بتاج من القلاع الحصينة والقصور الشامخة والمساجد التي تعتبر آية في الفن والجمال .

وكان بها الفلاسفة والأطباء والطبائعيون والرياضيون ، يتعاونون جميعهم في نشر العلم والثقافة ورفع مستوى الشعب . هنا الف المؤلفون كتبهم ودونوها على ورق أبيض ناعم ، وهذا هو أول ورق جاء أوربا قبل ان تعرفه من قبل عن طريق اسبانيا بزمن بعيد .. وهكذا نجد جزيرة صقلية تصبح للعرب وطنا ثابتا » . (١٧) .

ولقد كان « ما فرضه العرب على اهل صقلية من الضرائب اقل من مما كانوا يعطونه ، وأكثر منه انتظاما . وكانت الضريبة اذا ما وضعت لم تبدل باستمرار ، خلافا لما كان يستفيد منه وزراء قياصرة الروم وحدهم ، وقل مثل ذلك عن ادارة العرب العادلة الرشيدة ، فقد ترك لاهل صقلية حق اختيار نواب منهم ، لتعرف مصالحهم ، ولتتفاهموا هم وقواد العرب » .

« واذا عدت نعم الادارة الجديدة التي امتع العرب بها سكان صقلية ، وجدت هؤلاء الأهلين مدينين للعرب أيضا باصلاح الزراعة ، والفنون ، والصناعة . فكان من نتائج الفتح العربي تحريك الهمم في حقل النشاط الوطني ..

(١٦) المرجع ٢ - ص ٣١٤ - ٣١٨ .

(١٧) المرجع ٦ - ص ٢٠٩ .

وما تم في صقلية من تحسين العرب لأساليب الزراعة عظيم جدا ،
وما أخذته صقلية عن العرب من نظام الأنابيب المعقوفة المشهور ، لا تزال
تعمل به ، وما نالته التجارة والصناعة من تقدم ، كبير للغاية .

وفي الأنباء الموثوق بها ، ان حياكة النسيج الحريرية انتشرت في اوربه
في القرن الثاني عشر بواسطة صقلية ، وان مصادر صقلية الطبيعية استثمرت
فاستخرج منها الحديد والفضة ، والنحاس والكبريت والملح المعدني . .

تلك حال العرب الذين ينعتهم مؤرخونا (الأوربيون) بالبرابرة ،
فيصفونهم بأسوأ صورة ، فبينما هم يتهمون بأكل لحوم البشر ، كانوا
يحبون معهم الثراء والحضارة « (١٨) .



لكي الشيء المثير في دور العرب في صقلية ، هو استمرار نفوذهم
الحضارى فيها زمنا طويلا بعد أن اقصاهم الغزاة النورمانيون بعيدا عن
الحكم . ولم يتعرض العرب وحضارتهم في صقلية لمثل ماتعرضوا له في
اسبانيا بعد ذلك بأربعة قرون حيث دمرت حضارتهم ، واحرقت مكتباتهم ،
وعانوا الكثير من القتل والتنكيل . فلقد عرف النورمانيون كيف « يقابلون
التسامح العربى بتسامح آخر وفتوة سمحاء وهذه الصفات رفعت من قدر
النورمانيين ، وميزتهم على سائر الفاتحين المسيحيين . كما أن هذه الاخلاق
وتلك المعاملة هى التى جعلت من دولتهم دولة ممتازة ، كما انه لم تزدهر
في أوربا ازدهار الدولة النورمانية دولة أخرى » .

« وقد أعاد التاريخ نفسه بعد قرن من الزمان ، فحيث كنا نجد العرب
المنتصرين يؤمنون خصومهم المهزومين . . على أموالهم وأرواحهم وممتلكاتهم
وعقائدهم ، كذلك صنع روجر الأول (الأمير النورمانى فاتح صقلية) ، فقد
أمن المسلمين من رعاياه على اراضيهم وأرواحهم وممتلكاتهم وعقائدهم ،
ولو أن فارقا وقع بين العصرين ، أعنى عصر انتصارات العرب ، وعصر
انتصارات النورمان ، وهذا الفارق هو أن المهزومين الآن (العرب) لا يحاولون
تقليد المنتصرين في حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، بل العكس هو الصحيح ،
فالآن نجد المنتصرين المسيحيين هم الذين يقلدون المسلمين ، ويحاولون
الاندماج فيهم وائتلافهم . . فالمسلمون انتصروا أو انهزموا ، هم المثل الأعلى
الذى يحتذى . »

« وفي أيام حكم روجر الثانى كانت وظيفة امير البحر هى اعلى وظيفة فى الدولة ، كما أن شاغلها كان موضع ثقة الملك ، وأول من تقلد وظيفة الاميرالية - هذه الوظيفة التى هى أصلا وظيفة عربية لم يكن أحد رجال البحر الاقدمين الذين خدموا فى الاسطول النورمانى ، بل كان أول امير البحر للاسطول المسيحى عربيا .

ويدين روجر الثانى للعرب الذين مكنوه فى الأرض وهو أصغر ملوك اوربا ، ان يصير أغنى الجميع . فالعرب هم المهرة فى زراعة الأرض ، ونشاطهم الصناعى ، ونظامهم المثالى فى الاقتصاد والضرائب ، قد أخذه عنهم كما أخذ عنهم الادارة والتشريع » . (١٩) .

ولقد اراد روجر الثانى عمل خريطة جغرافية تبين البلاد ومواقعها ، فاستدعى الى بلاطه « اشهر جغرافى العرب فى عصره ، الا وهو الادريسى .. لقد درس الادريسى فى قرطبة وقام برحلات طويلة بين آسيا والشواطىء المغربية لانجلترا ، ثم تحول جنوبا حتى بلغ جنوب افريقيا ، وقضى خمسة عشر عاما فى بالرمو ، يعد أرقامه وخرائطه وملاحظاته العديدة ..

وفى اوائل عام ١١٤٥ م كمل هذا المؤلف العلمى العظيم ، وقد خلف لنا بطليموس العرب سبعين خريطة .. لكن احسن واشهر خريطة وصلتنا هى تلك التى تركها لنا الادريسى ، وأعنى الخريطة الكبرى للعالم ، وهى محفورة على كرة من الفضة قطرها متران ، وتزن ثقل رجلين مكتملين » .

لقد ظل القوم فى اوربا « زمنا طويلا لاعلم لهم بالجغرافيا .. وخرائط الادريسى التى رسم عليها الأرض على هيئة كرة ، بالرغم من أنه لم يكن من المستطاع حسب التجارب الشخصية او غير الشخصية أو الحسابات الرياضية تدعيم هذا الراى القائل بكروية الأرض . فالذى كان معروفا فى كثير من الاديرة حسب رواية الكتاب المقدس ، أن خريطة العالم عبارة عن قطعة من الأرض تحيط بها المياه ، وفى وسطها تقع الجنة . وليس بطليموس ، بل جغرافيو العرب فى القصر الملكى بصقلية هم اولئك العرب الذين علموا اوربا ، وخريطة الادريسى .. هى أول مجهود علمى شخصى » . (٢٠)

(١٩) المرجع ٦ - ص ٣١٢ - ٣١٧ .

(٢٠) المرجع ٦ - ص ٣١٩ ، ٣٢٤ .

أثر العرب في المجالات العلمية :

لا نستطيع هنا أن نقتفى آثار العرب في مختلف المجالات العلمية التي أسهموا فيها ، فذلك عمل فوق الجهد ، وفوق طاقة هذا الفصل - فصل الحضارة العربية - الذي هو أحد فصول هذا الكتاب .

ورغم أن هذا الموضوع على سعته لا يزال بكرا - ويحتاج الى مجهودات الكثيرين من الأفراد والهيئات التي تهتم بحفظ التراث الإنساني وتقييمه - إلا أننا نستطيع أن نلم بشيء مما حققه العرب في بعض المجالات العلمية التي أسهموا فيها بنصيب كبير . ولقد اخترت منها ما يرتبط بعصرنا الحالي - عصر الذرة والفضاء - والذي ترجع اغلب انجازاته الى ما تحقق من تقدم في مختلف العلوم الرياضية والطبيعية والكيميائية ونحوها ، والتي نتعرض لها بايجاز شديد في هذا المقام . (٢١) .

*

أثر العرب في العلوم الرياضية :

لقد نبغ العرب في الرياضيات ، ، فكان الخوارزمي أول من جعل الحساب علما قابلا للتطبيق العملي ، وهو الذي علم أوربا طريقة الأعداد الجديدة وكتابتها من اليمين الى اليسار - كما يكتب العرب لغتهم - وأهمية استخدام الصفر وخاصة في تبسيطه لعمليات الجمع والطرح .

والخوارزمي هو صاحب الفضل الأكبر على علم الجبر الذي خلق منه العرب علما مستقلا بفضل مؤلفات ودراسات أبو كامل والبيروني وابن سينا والكراديسي وغيرهم - تلك المؤلفات التي نقل عنها كل من : ليوناردو فون بيزا ما خطه عن المعادلات التربيعية والتكعيبية ، وكذلك الجراف فون ايرشتين الألماني زعيم طائفة الدومنيكان رسائله التي علمت أوربا حساب العرب جبرهم .

وفي عام ١٨٤٥ أثبت الفرنسي رينان أن علم اللوغريتمات ينتسب الى اسم العالم العربي : الخوارزمي .

كذلك نهض العرب بحساب المثلثات ، فكان الفلكي القباني أول من استبدل الأقواس بالأوتار واستخدام تعبير : جيب/تمام الجيب الذي لم يعرفه الاغريق من قبل ، وكان الفلكي جابر الذي برع في علم المثلثات الكروية واستنبط من القوانين ما ساعد على حل المثلث والتقدم في علم الفلك .

*

ان علماء الغرب يعترفون بأن أوروبا قد بنت صرحها العلمى « على
المجهودات العربية ، فمن الفلكيين العرب أخذت أوروبا الحساب المعروف
باسم الطريقة الستينية ، وهو النظام القائم على اتخاذ الوحدة ستين
قسما .. والعرب فقط هم الذين استكملوا الحساب الستينى ، وبذلك
أصبح حساب الفلكيين .

والعرب أيضا هم الذين سبقوا أوروبا بنحو سبعمائة عام قبل انجلترا
والمانيا الى ايجاد الحساب الخلافي (التفاضلى) ، وصاحبها الفضل في
ايجاده الطبيب الفيلسوف ابن سينا (٨٩٠ - ١٠٣٨) واللاهوتى الفزالى
(١٠٥٣ - ١١١١) .. لقد اضاف ابن سينا عن طريق بحوثه العلمية التى
لم يسبقه اليها أحد الكثير من النظريات الطبيعية كذلك عالج اللانهائى ..
في الطبيعة والرياضة ، ولا شك أن أوروبا لم تنتبه الى مثل هذه النظريات
الخاصة باللانهائى .. الا في القرن السابع عشر الميلادى بفضل أمثال
نيوتن ، وليبنيتز ..

فالعرب بأعدادهم وآلاتهم وحساباتهم وجبرهم ونظرياتهم حول المثلثات
الكروية وعلوم البصريات وغيرها نهضوا بأوروبا ودفعوها الى الحركة العلمية
دفعاً ومن ثم استقلت ، واكتشفت واخترت وتسلمت زعامة العلوم
الطبيعية « (٢٢) .

أثر العرب في العلوم الطبيعية والفلكية :

لقد « اتفق للعلوم الطبيعية عند العرب مثل ما اتفق للعلوم الرياضية
من الرقى . ويرى همبولد وجوب عد العرب مؤسسين حقيقيين للعلوم
الطبيعية بالمعنى الحديث . »

واشتهرت مدرسة بغداد « بالروح العلمية التى كانت سائدة لأعمالها ،
فكانت مبادئ أساتذتها تقوم على الانتقال من المعلوم الى المجهول ، وعلى
ملاحظة الحوادث ملاحظة وثيقة لمجازة المعلولات الى العلل ، وعلى عدم
التسليم الى ما لا يستند الى التجربة .

وكان العرب في القرن التاسع أصحابا لهذا المنهج الخصيب فأضحى
بعد زمن طويل أداة بيد علماء الزمن الحديث للوصول الى أجمل
اكتشافاتهم . « (٢٣) .

(٢٢) المرجع ٦ - ص ١١٩-١٢١ .

(٢٣) المرجع ٢ ص ٣٩٢ .

ذلك ما كان من طريقة العرب العلمية التي آتت ثمارها وحققته اعظم
النتائج على أيديهم وأيدي من جاء بعدهم من علماء العالم .

*

« أما الأهمية والنتائج التي بلغها وتوصل إليها العلماء العرب في
الطبيعة والفلك فكانت مضرب الأمثال . فعلماء الفلك في بغداد ، كما يقول
الفرنسي سديلوت ، بلغوا في أواخر القرن العاشر مرتبة من العلم ليس
بعدها من مزيد ، فلقد أدركوا ما كان يجب على العالم ادراكه قبل العدسات
والمنظار ..

ومن أشهر علماء العرب الذين دفعوا الحركة العلمية في أوروبا إلى
الأمام وطوروها ، هو العالم العربي الفرغاني ، وكلا معاصرا لبي موسى
الذين كانوا يعملون في بغداد . لقد قاس الفرغاني خطوط طول الأرض
وأدرك وكان أول من أدرك ، أن فلك الشمس كسائر أفلاك الكواكب يتحرك
مع مرور الزمن إلى الوراء ، فكتاب الفرغاني في أصول علم النجوم
قد ترجم في العصور الوسطى في أوروبا اللاتينية ونشره ميلنجتون عام ١٥٣٧م ،
وكانت هذه المخطوطة من مخلفات رجيو مونتانوس في نورمبرج .

ومن بين العلماء المشهورين الذين تالوا نجمهم في الفلك ثابت بن قرة
تلميذ محمد بن موسى ، فقد حسب ثابت هذا ارتفاع الشمس وطول
السنة الشمسية .

وغير ثابت بن قرة ، نجد البتاني (٨٨٧ - ٩٦٨ م) وقد ذاع صيته
في أوروبا في العصور الوسطى إبان حركة إحياء العلوم ، وقد بلغ ما بلغ من
توفيق عن طريق دقته الحسابية لمعرفة التفاوت بين خطوط الطول للسنتين
المدارية والفلكية ..

أما المقدمة الفلكية لزيجه المشهور فقد ترجمها رجيو مونتانوس إلى
اللاتينية وزودها بشرح ، وفي عام ١٥٣٧م نشرها في نورمبرج مع كتاب
الفرغاني ، فعرفت في أوروبا . وفي عام ١٦٤٥ ظهرت طبعة جديدة في بولونيا
مستقلة وعنوانها اللاتيني : كتاب محمد البتاني في الفلك مع تعليقات يوحنا
رجيو مونتانوس . وقد اهتم كوبرنيكوس بالعلماء العرب وحتى حوالي
عام ١٨٠٠م نجد الفرنسي لا بلاس يستفيد من كتب ابن يونس القاهري
في دراساته وأبحاثه .

*

والحسن بين الهيثم (٩٦٥-١٠٣٨ م) هو الذى أثر فى أوربا تأثيرا بعيدا وعرفته تحت اسم ، الحسن ، ففضله على الفلك يتجلى فى اكتشافه ان جميع الأجرام السماوية ومن بينها النجوم الثابتة ترسل نورها ، عددا القمر الذى يستمد نوره من الشمس . فقد قال كل من اقليدس وبطليموس ان العين ترسل « أشعة بصرية » على الأشياء المراد رؤيتها فأعلن ابن الهيثم خطأ هذا الرأى وقال ان العين لا ترسل شعاعا ، وان هذا الشعاع ليس هو الذى يسبب الرؤية ، والعكس هو الصحيح فان الجسم المرئى هو الذى يرسل أشعة الى العين وان عدسة العين هى التى تحوله (الى صورة) .

وابن الهيثم هو وأمثاله من العلماء العرب هم مؤسسو الأبحاث التجريبية ، وليس روجر بيكون أو باكو فون فرولام ، أو ليوناردو دى فينشى ، أو جليلي ، فالعرب سبقوهم وبلغوا بأبحاثهم التجريبية المستوى الرفيع ..

كيف يقع خسوف القمر اذا كان القمر جسما غير مضيء ، وأنه يستقبل ضوءه من الشمس ؟ فمثل هذا السؤال الفلكى دفع ابن الهيثم الى خلق نظرية خاصة بتكوين الظل عن طريق أجسام نورانية .

وأول تجربة قام بها هى الخاصة بجهاز يشبه تقريبا آلة التصوير وبها ثقب ، وكانت هذه الآلة ما هى الا النموذج الأول لآلة التصوير . وقد أثبت بن الهيثم عن طريق هذا الجهاز استقامة خطوط الضوء ، ولم يكذب صدق عينيه عندما شاهد العالم وقد أصبح أسفله أعلاه بمجرد وضع الصورة وضعا عكسيا .

ان التجارب التى توصل بمقتضاها ابن الهيثم الى هذا الفتح العلمى الجديد ، هى بعينها التى اهتمت بها ليوناردو دى فينشى فيما بعد . لقد وجد ابن الهيثم تعليلا لكسر الأشعاعات عندما تمر خلال وسيط مثل الهواء والماء ، واعتمادا على هذه الظواهر . . استطاع ابن الهيثم معرفة ارتفاع الطبقة الهوائية المحيطة بالكرة الأرضية . والشئ الجدير بالذكر حقا هو ان ابن الهيثم توصل الى معرفة ارتفاع هذه الطبقة تماما ، وانها خمسة عشر كيلومترا .

وذهب ابن الهيثم بعيدا فطبق معلوماته على أجهزة البصريات ، كما فحص أثر الحرق وتكبير المرئيات لا عن طريق المرآة المقعرة فقط ، بل عن طريق الزجاج الحارق والعدسة ، وبذلك استطاع ابن الهيثم عمل أول نظارة للقراءة .

أما اثر هذا العربي العبقري على أوروبا والأوربيين فعظيم جدا ،
فنظرياته في الطبيعة البصرية ما زالت مهيمنة حتى اليوم على أوروبا . فعلى
أبحاث ابن الهيثم الخاصة بالبصريات تعتمد الأبحاث الحديثة منذ ظهور
الانجليزى روجر بيكون حتى البولندى فيتليو . ويدعى الايطاليون أن ليوناردو
دى فينشى هو مخترع الصورة والمضخة والمخرطة وأول طائرة ، والواقع
أن جميع هذه المخترعات تعتمد على أبحاث واختراعات الحسن بن الهيثم
كما تؤيد ذلك الأدلة الكثيرة الموجودة بين أيدينا . ففي ألمانيا عندما بحث يوحنا
كبلر في حوالى القرن السادس عشر ، القوانين التى اعتمد عليها جليلي في
عمل منظاره الذى شاهد به نجوما لم تر من قبل ، أدرك أن خلف هذه
الأبحاث يقف الحسن بن الهيثم . فحتى يومنا هذا تعرف المسألة المعقدة
المتصلة بالالام بالطبيعة والرياضة معا ، والتي حلها بن الهيثم عن طريق
معادلة من الدرجة الرابعة ، وقد اظهرت هذه المسألة نبوغه الرياضى في
الجبر ، إذ حسب النقطة الموجودة في مرآة مقعرة وعلى بعد خاص منها
جسم يعكس على صورة خاصة حسابا صحيحا ، باسم : مسألة
الحسن « . (٢٤) .

ولقد « شغلت هذه المسألة أذهان كثيرين من مهندسى الزمن الحاضر
مثل : سلوز ، وهويجن ، وباردو وسيمبسون فحلها هذا الأخير حلا
هندسيا فقط » . (٢٥) .



« ونجد الزركلى (١٠٢٨ - ١٠٨٧ م) يسجل في طليطلة ما لا يقل عن
أربعمائة واثنيتين ملاحظة فهو يقرر أن بعد الشمس عن الأرض يتغير
حسب تقدم الليل والنهار الى الاعتدالين أو المدار الشمسى ، وأن هذا
البعد يتوافق تماما مع الاعتدالين . وقد نجح الزركلى كذلك في حساب
زمن ودقة الاعتدالين وكان توفيقه في هذا الحساب عظيما جدا . أما الكتاب
الفلكى الذى وضعه الزركلى فقد ترجمه الى اللاتينية جرهرد فون كريمونا ،
وقد ذكره عام ١٥٣٠ كوبر نيكوس مع البتانى في كتابه المشهور :

De revolutionibus orbium coelestium

والفلكى الطليطلى الشهر الذى تتلمذت عليه أوروبا وعرفته تحت اسم

Arzachel هو الزركلى . .

(٢٤) المرجع ٦ - ص ١٠٥-١١١ .

(٢٥) المرجع ٢ - ص ٤٢٢ .

ان أوربا لم تلتفت « الى ملاحظات العرب المتعلقة بالبقع الشمسية والتي تنبتهت اليها أوربا عام ١٩١٠ م فقط ، وما يقال عن البقع الشمسية يقال أيضا عن ذبذبة محور الكرة الأرضية ، ولو أن الناس لايشعرون بها نظرا لكبر الأرض .

ومن الجدير بالذكر أيضا أن أوربا لم تلتفت الى رأى البيرونى (٩٧٣-١٠٤٨ م) الذى نادى به حوالى عام ١٠٠٠ م وهو الخاص باعتبار الشمس هى مركز الكون من وجهة النظر الفلكية « (٢٦) . لقد عرف العرب أن « دراسة الفلك ضرورية ، فالله جل جلاله حض الانسان على التأمل فى السماء والنظر اليها (٢٧) . فباسم الله درست حركات النجوم ، وباسمه تعالى يبدأ كل بحث علمى ، وهذه هى الميزة التى تجلى بها العرب وامتازوا بها على أوربا ..

وهذا هو المستوى العلمى الرفيع الذى حفظهم من التدهور والسقوط
ومننا طويلا . « (٢٨) .

أثر العرب فى العلوم الطبية والكيميائية :

لقد نهض العرب بالطب نهضة جبارة ، وفى الوقت الذى كان هذا العلم عند غير العرب لايعدو أن يكون ضروبا من الشعوذة والدجل ، نجد العرب قد اعتبروه علما يقوم على البحث والدراسة والتجربة .

ف عندما ظهر الطاعون فى أوربا فى القرن الرابع عشر ، أعلن استاذ فى « جامعة مونبيليه عام ١٣٤٨ م ان مصدر تكاثر هذا المرض ، نظرة المرضى ،

(٢٦) المرجع ٦ ص ١١١-١١٤ .

(٢٧) « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ » (الأعراف : ١٨٥) .

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ، وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » (يونس : ١٠١) .

(٢٨) المرجع ٦ - ص ١٢٣ .

لذلك نصح الطبيب أو القسيس أن يطالب المريض باغماض عينيه أو تغطية وجهه بملاءة من الكتان ، وبذلك يستطيع المعالج لمس المريض وفحصه دون خوف أو خجل .

وفي سويسرا وجنوب فرنسا نجد الشعب يتهم اليهود بأنهم سبب انتشار الوباء واستشرائه لذلك هاجم القوم اليهود وأحرقوهم ..

وفي ناربون وكراسون اندفعت جموع الشعب وهاجمت الانجليز أعداء المملكة فقطعوهم وأشعلوا فيهم النيران . واعتقد آخرون في الوباء وظهوره بأنه أقبل دخانا خانقا من السماء .. وقال آخرون أن سببه التقاء المشتري بزحل والمريخ في ٢٠ مارس ١٣٤٥ .. وفي مقدمة الذين نادوا بهذا الرأي الطبيب البلجيكي سيمون دي كوفينو (٢٩) .

وفي تلك اللحظة يعود عربى بالأمن الضائع الذى فارق الأوربيين وانطلق الى السماء من الأرض ، وذلك باتخاذ الاحتياطات الضرورية القريبة المنال . ففي عام ١٣٤٨ م وهو عام الطاعون نجد السياسى والمؤرخ والطبيب .. المعروف بابن الخطيب (١٣١٣-١٣٧٤ م) يطلع على العالم المعذب برسائله فى الطاعون وأسبابه وعلاجه والوقاية منه ، ووجوب الاحتياطات

(٢٩) قد يعجب انسان القرن العشرين لما كان يدور بمخيلة أهل القرون الوسطى عن الأمراض وعلاجها ، ولكن العجب قد تخف حدته حين نقرأ هذا الخبر الذى اذاعته وكالات الأنباء من هولندا ، بتاريخ ١٩٧١/٣/٢١ تحت عنوان : قرية هولندية ترفض تطعيم أطفالها ضد الشلل لأنه مخالف للدين . وجاء فيه : « انتشر مرض شلل الأطفال فى قرية ستانورست الهولندية بشكل وبائى . وبلغت عدد الحالات منذ بداية هذا الشهر ٣٤ طفلا مات منهم ٣ حتى اليوم ، وذلك بسبب رفض السكان تطعيم أبنائهم لاعتقادهم بأن ذلك مخالف للدين ، ويلبس سكان هذه القرية السواد دائما حسب المبادئ الدينية التى كانت تحكم البلاد فى القرن التاسع عشر » . (ى.ب.أ - نقلا عن جريدة الأهرام الصادرة بتاريخ ١٩٧١/٣/٢٢) .

من العدوى الناتجة عن لمس المريض أو الاختلاط به .. وابن الخطيب يحذر من ويلاتها ويقول بوجود الابتعاد عن المرضى وعن ملامستهم أو الاقتراب من ملابسهم » .

*

« وهناك فرع آخر من فروع الطب يقوم دليلا على بعد العرب عن الانحرافات والالتواءات الأوربية ، وهذا الفن هو الجراحة . فالجراحة تدين للعروبة في تطورها وتقدمها السريع بعد أن كانت مهنة من المهن الحقيرة ..

ففى عام ١١٦٣ م منع تدريس الجراحة في مدارس الطب - بأوربا - كما أن الجراحة اعتبرت مهنة مشينة تدنس شرف وكرامة الطبيب الذى يمارسها ، بخلاف العرب الذين أقبلوا عليها وألوهوا عنايتهم فأصبحت علما من أجل العلوم وأشرفها ، بل وأصبحت الفن الطبى الوحيد الذى يتطلب اليقظة والانتباه وسرعة الإدراك وسلامة الطبيب وقواه » (٣٠) .

*

وماذا عن المستشفيات .. ؟

لقد كانت المستشفيات فى أوربا شبه معدومة وهى اذا ماجدت فانها « خالية من الأطباء ، و فقط فى عام ١٥٠٠م عين لأول مرة فى مستشفى ستراسبورج طبيب مقيم ، وكان هذا بعد ثمانية قرون من تشييد الخليفة الأموى الوليد للمستشفى العربى ، والذى عين له عددا كبيرا من الأطباء المختصين فى مختلف الأمراض ، وبعد ستراسبورج نجد فى مستشفى ليزج عام ١٥١٧ ثم مستشفى أوتيل ديه فى باريس عام ١٥٣٦ » .

ولقد كان هذا المستشفى الأخير من أحسن المستشفيات الأوربية فى ذلك الوقت ، وكما تصفه المراجع « كانت أرضه مرصوفة بالطوب المغطى بالقش وعليه يتراحم المرضى .. أقدام هؤلاء الى جانب رؤوس أولئك ، والأطفال الى جانب الشيوخ ، والنساء بجوار الرجال ، وأصحاب الأمراض المعدية مع غيرهم جنباً الى جنب . كما نجد النساء وقد جاءهن المخاض ، وأطفالا من الفص يتلون ، ومصابين بالحمى يهدون ، ومرضى السيل يسعلون ، وآخرون بالأمراض الجلدية ينهشون . » (٣١)

(٣٠) المرجع ٦ - ص ١٩١-١٩٣ ، ٢٢٧

(٣١) المرجع ٦ - ص ٢٢٩ ، ١٤٠ .

لكننا نجد العرب قد عرفوا - منذ أكثر من ١٠٠٠ عام - أن المستشفى دار علاج يحتاج فيها المريض الى الكثير من الطالب حتى يبرأ من مرضه ، وانها مدرسة لا بد أن يمارس فيها طالب الطب تدريبه العملي بجانب ما حصل من علوم نظرية فيكتسب بذلك المهارات المطلوبة . من أجل ذلك انتشرت المستشفيات في الدولة العربية من أقصى الشرق الى أقصى الغرب وأحسن اختيار مواقعها ومبانيها واعتمد الكثير من الأموال للصرف عليها ، وأحسن اختيار الأطباء والعاملين بها ، ولا عجب اذا وجدنا من مستشفيات العرب في القرن العاشر ما يضارع مستشفيات القرن العشرين .

« ففي قرطبة نجد في منتصف القرن العاشر خمسين مستشفى ، أما في بغداد فقد فاقت غيرها واشتهرت بمستشفياتها منذ عهد هارون الرشيد فمواقع المستشفيات قد أحسن اختيارها صحيا ، كما زودت جميع غرفها ومحال الغسل بها بالمياه الجارية .

وكانت المستشفيات مزودة ببعض قاعات النوم والحمامات المفتوحة للجميع . ومن أشهر المستشفيات ، المستشفى الكبير المعروف باسم المنصوري أو دار الشفاء . »

« وكان كبير الأطباء هو المسئول عن سائر أطباء المستشفى ، وهو يختار عادة من بين زملائه الأطباء حسب مواهبه وكفاءته وقدرته . وقبل أن يختار الرازي مثلا رئيسا للأطباء أثبت أولا تفوقه على مئات من الأطباء المتخصصين في مختلف الأمراض . وكان عدد أطباء المستشفى الذي يديره أربعة وعشرين طبيبا منهم الجراحين والكحالين والطبائعين والمجبرين ، وكان كل طبيب يشرف على قسم خاص كما كانوا يتناوبون الخدمة . »

« أما المستشفيات الكبرى فقد كانت في نفس الوقت هي المدارس العليا للطب ، فالواد التي علمها بوقراط وجالنيوس وكبار العلماء العرب كان يتلقاها الأطباء الناشئون في المحاضرات العامة تحت عقود المساجد وفي المدارس الطبية الخاصة التي كان يديرها الأطباء ، وكذلك في المستشفيات والعيادات .

وحول الأسرة البيضاء كان الطبيب يطبق النظرى على العملى كما كان يستطيع فحص الجسد وتشريحه وفهمه . . وكان الطلبة يرافقون الأستاذ عند زيارته للمرضى ويدرسون عمليا مختلف الحالات عندما يفحصها الأستاذ ويشخص المرض ويصف العلاج ، بل وكثيرا ما كانوا يسمعون المناقشة التي تدور بين رئيس الأطباء وزميل له . .

هكذا كان يتكون الأطباء العرب ، ومثل هذا النظام لم يعرفه العالم من قبل ، اللهم الا في العصر الحديث فقط وقد بلغ حرص الدولة .. على المصلحة العامة انها لم تكن تسمح لطبيب بمزاولة ما تخصص فيه من طب الا بعد ان يؤدي امتحانا نظريا وعمليا ، وتمنحه الدولة اجازة ينص فيها على مادة تخصصه .

ولمعرفة مدى انتشار مهنة الطب وقتذاك يكفي ان نذكر ان عدد اطباء بغداد الذين كانوا يعملون خارج الحكومة بلغ نحو تسعمائة طبيب ... في الوقت الذي لم يكن فيه في كل حوض نهر الراين طبيب واحد .. . أما مجالس الأطباء التي كانت تعقد لمدارسة الحالات الصعبة .. فقد كانت ضمانا آخر لتجنب الوقوع في الأخطاء الفنية .

وعند اجراء العمليات الجراحية الكبرى يساعد الطبيب زميله .. فتجد احد الأطباء يقوم بعملية التخدير وذلك بواسطة قطعة من الاسفنج مبللة بالحشيش أو زهرة البسلة ومن ثم يضعها أمام أنف المريض لتخديره ، ثم هناك طبيب ثان يراقب نبض المريض وثالث يجرى العملية بكل عناية ودقة وحذر .. أما المساعد فعليه ان يحجز الجلد بجراحة صغيرة دقيقة .

وبعد ذلك عملية الخياطة بأعصاب قطة .. هكذا كان يعلم على ابن العباس .

ويذهب على بن العباس بعيدا ويقرر أن الطب قد لا يفيد في حالة السرطان ، فهو يطالب الجراح انتزاعه من العضو المصاب ، وذلك بإزالة كل ماحول السرطان حتى لا يتبقى جذور المرض في الجسم ، ثم بعد العملية يجب وضع قطعة من القماش مبللة بالنبيذ لتجنب حدوث تلويث ولقفل الجرح . لذلك يجب مراعاة العناية الكاملة عند اجراء مثل هذه العملية ، فالعناية لا تقتصر على العضو المريض بل تمتد الى سائر أجزاء الجسم (٣٢)

*

لا شك ان هذه المدرسة الطبية العربية العظيمة قد قامت على اكتاف عابرة من أبنائها العرب ، ولا شك ان تقدمها وامكانياتها كانت هي الوسائل التي خلقت أجيالا من عابرة هذا العلم والفن الانساني الجميل .

*

ولقد اشتهر من الأطباء العرب كثيرون منهم : أبو بكر محمد بن زكريا الرازي ، وتعرفه أوروبا باسم Rhasis وقد نرح الى بغداد عام ٣٨٠م ليدرس الطب حتى نبغ فيه وقد اختير من بين مائة طبيب كانوا قد تقدموا لشغل وظيفة كبير أطباء بالمستشفى الكبير بعاصمة العباسيين .

« ان كفاءة الرازى الطبية لا تعادلها كفاءة طبيب آخر منذ عهد جالينوس ، وكان الرازى اول كيميائى استخدم هذا العلم فى خدمة الطب . . وينصح الرازى الطبيب المعالج بأنه اذا كان الدواء المطلوب جديدا فتجب تجربته - قبل استعماله - فى الحيوانات لمعرفة اثره ومفعوله الكيماوى فى أعضاء جسم الانسان .

وخلف الرازى كتبا قيمة منها : « كتاب الحاوى » او الجامع الخاص بصناعة الطب وهو يعرف فى أوروبا باسم Continens - وهو موسوعة تقع فى نحو ثلاثين مجلدا تعالج الموضوعات الطبية المختلفة من عهد بوقراط حتى عصر جمعه . .

وكان هذا الكتاب الواحد يكون مكتبة كلية طب جامعة باريس - قبل ستة قرون - وكان الباريسيون يقدرون حقا قيمة الكتاب . . حتى أنهم اقاموا له نصبا تذكاريا فى المدرج الأكبر لكلية الطب . . واليوم لا يزال طلاب مدرسة الطب يشاهدون يوميا صورته وصورة عربى آخر (هو ابن سينا) عندما يجتمعون فى قاعة المحاضرات الكبرى فى شارع سان جرمان دى بريه .

وللرازى كتاب يعرف فى اللاتينية باسم - كتاب الطب المنصورى :

Liber medicinalis ad Almansorem

اما مؤلفه الخاص بعلاج مرض بعينه فله شهرة عظيمة وهذا هو الكتاب المعروف باسم « كتاب الجدري والحصبة » . . مما اضطر علماء القرن الثامن عشر الميلادى الى الاعتراف بأنه خير رسالة كتبت فى هذا الموضوع .

ويجب أن نذكر هنا كتابا صغيرا وضعه الرازى وهو يعتبر حجة فى مادته وقد طبع فى أوروبا فى الفترة الممتدة بين عامى ١٤٩٨-١٨٦٦ ، أربعين مرة ، والى هذا المؤلف ترجع هذه البحوث الخاصة بالنقرس والحصوة وأمراض المثانة والكلى وأمراض الأطفال . .

وقد ترك الرازى أكثر من مائتين وثلاثين مؤلفا ورسالة وهذه المؤلفات لا تعالج الطب أو الكيمياء فقط بل تناولت الدين والفلسفة والفلك والطبيعة والرياضيات « (٣٣) .



أما عن ابن سينا فحدث ولا حرج ...

فقد كان « ابن سينا هو العربي الثاني الذى يطل الى جانب الرازى من قاعة محاضرات كلية طب باريس ، وابن سينا هو أكبر أساتذة الطب ومعلم أوروبا فترة لا تقل عن سبعة قرون ..

وكون السرطان الموضعى عبارة عن مرض بالسرطان للعضو ، فقد لاحظ هذا أولا ابن سينا ، وهو أيضا لاحظ العدوى التى قد تنشأ عن السسل الرئوى ، وعن خطر الأشعاعات الشمسية على المصابين بالسسل ..

لكن جميع وأجود كتب الطب التى وضعها الأطباء العرب بما فيها الكتاب الملكى وسائر مؤلفات اليونان وعلماء الاسكندرية تتضاءل أمام : « قانون ابن سينا » . فقد ترك هذا الكتاب الذى وضعه أمير الأطباء أثرا بعيدا ظل قويا فعلا عدة قرون .. وهو فى تاريخ الطب لا يعادله كتاب ، فقد خصم هذا الكتاب بين دفتيه سائر فروع الطب نظريا وعمليا مع تنوع واضعها .. وخرج الكتاب فى صورة قلما نجد كتابا آخر يدانيه فيها . فقد ذكر مؤرخ الطب سيدهوف حول هذا الكتاب مامعناه : انه انتاج شامل كأنه صب فى بوتقة ، وهو وحيد فى نوعه بين سائر المؤلفات الطبية وفى مختلف العصور .

ولقد كان « قانون ابن سينا » هو المنهل الذى اغترف منه الدارسون ، ففى بولنيا نجد تاديو الديروتى يهتم بالقانون وشرحه ، وقد نجح فى تعاليمه التى أصبحت عقيدة لتلاميذه أجيالا متتابعة ، ومن بينهم أولئك الرسل الذين كرسوا حياتهم للطب ، فكانوا رسله وان تزيوا بأزياء عربية . ولقد قدس أولئك الرسل العلماء العرب والعلم العربى وبخاصة ابن سينا والرازى وظل هذا التقدير قائما حتى القرن السابع عشر . وأصبحت عبارة : روح ابن سينا Anima Avicenna من أكبر الألقاب التى يتشرف بحملها الطبيب الأوروبى ..

أما درجة الامتياز التى كان لاينالها الا الفطاحل من الأوربيين فهى :
شعار ابن سينا Avicennista insignis وفى القرن السادس عشر أطلق لفظ : ابن سيني Avicennist على جميع أتباع ابن سينا ..



والجدير بالملاحظة أن تلقى نظرة على الطبقات القديمة للكتب الطبية وأولها ولا شك ، قانون ابن سينا ، فقد ظهر هذا الكتاب في فبراير ١٤٧٣ في ميلانو ، وبعد عامين ظهرت الطبعة الثانية ، بينما ظهر في نفس الوقت « شرح ابن سينا » وقد نشره ذلك الإيطالي وهو الكتاب المعروف باسم « روح ابن سينا » Scie des Ibn Sina . وظهرت طبعة ثالثة للقانون قبل طبع أول رسالة لجالينوس ، ومن ثم أخذت تتوالى الطبقات فظهرت الطبقات الأولى لكتاب المنصور والحاوي للرازي ، ثم الكليات لابن رشد . وهكذا حتى عام ١٥٠٠ ظهرت الطبعة السادسة عشر لكتاب القانون ، بينما لم تظهر لجالينوس الا طبعة أولى في مجلدين . وفي القرن السادس عشر بلغت الطبقات للقانون : العشرين ، ومن ثم أخذت تتوالى حتى منتصف القرن السادس عشر . وهكذا نجد قانون ابن سينا هو أكثر الكتب الطبية دراسة وانتشارا في عالم الطب ، أما طبقات شرحه فلا تحصى « (٣٤) » .

*

وبعد الرازي وابن سينا - نذكر الطبيب العربي ابن النفيس (المولود عام ١٢١٠) ، الذي اكتشف الأخطاء التي ازدحمت بها آراء جالينوس عن الدم والقلب ، فعدلها تعديلا جذريا ، وكان بذلك أول من عرف حقيقة الدورة الدموية ، قبل أن يتكلم عنها وليم هارفي (عام ١٦١٦) بأربعة قرون .

واكتشف ابن رشد أن الإصابة ببعض الأمراض المعدية مثل الجدري تمنح الجسم حصانة ، فكان ذلك أساسا لاستخدام التطعيم كوسيلة لتحصين الجسم ضد تلك الأمراض .

*

ولقد كانت براعة الجراح العربي أبي القاسم (٩٣٦-١٠١٣) تفوق الوصف ، فقد أدخل الى هذا الفن الكثير من الإضافات والابتكارات ، فنشط في التشريح الجسماني وتشريح الحيوانات لاجراء التجارب وعقد المقارنات .

وبرع ابو القاسم في تفتيت حصوة المثانة ، وفي استخراج الحصوة المهبلية ، واستخدم الخفاف لاستخراج الزوائد الأنفية ، وعرف أنماطا مختلفة من الخياطة الجراحية باستخدام امعاء القطط والاوراق ، واستحدث طرقا جديدة في عمليات الولادة وغيرها . ويعتبر كتابه « التصريف » أساسا للجراحة الأوربية .

*

ولقد سطا الكثيرون على مؤلفات العرب ونسبوا اليهم « فينما نجد في عام ١١٢٧ اسطفان يترجم الى اللاتينية الكتاب الكامل في الطب والمعروف باسم : الكتاب الملكي ، الذي ألفه على ابن عباس ، تبين اسطفان حقيقة هذه المادة التي سطا عليها قسطنطين (القرطاجنى الافريقى الذى كان يتزعم نشر الثقافة والعلوم الطبية العربية فى سالرنو) ونسبها الى نفسه . .

وفى صقلية اهتدى المترجم ديمتريوس الى أن كتاب قسطنطين الموسوم باسم : ده أوكوليس De oculis ما هو الا كتاب حنين فى شفاء العيون ، والكتاب المعروف باسم : فيتيكوم Viticum ما هو الا كتاب ابن الجزار المعروف باسم زاد المسافر . أما كتاب الغذاء وكتابا البول والحمى فما هما الا ترجمة من كتب اسحق .

وأما كتاب قسطنطين فى التشريح فهو من تأليف على بن عباس ، وتبين العالم اليوم أن كتابه فى الكيمياء مأخوذ عن الرازى .

وبالرغم من أن الغرب تنكر للعرب ، الا أن المؤلفات العربية وبخاصة ما يختص منها بأمراض العيون ظلت متداولة حتى القرن الثامن عشر . وقد دخل كثير من اختراعات العرب وتجاربهم القيمة الطب الدولى ، بالرغم من إخفاء الأسماء العربية والتغاضى عن ذكر فضل العرب .

لكن من هم الذين لا يزالون يعرفونهم اليوم ؟
ومن يعرف المؤثرات الطبية العربية التى أخذت تلعب دورها فى أوربا منذ عهد قسطنطين الأفريقى ؟ . ومن يعرف حتى اليوم عظمة وخطورة الدور الذى قام به العرب فى سبيل تطور ونشأة الطب فى أوربا ؟» (٣٥)

هذا - ولقد كان تفوق العرب فى الصيدلة والكيمياء مكملا بل وضروريا لتفوقهم الذى أحرزوه فى الطب . وفطن العرب الى أهمية التخصص ففرقوا « بين الذين يعدون الدواء ، وأولئك الذين يأمرؤن باعداده أو بتعبير أدق لقد أوجد العرب الصيدلى ومهنة الصيدلة . .

وقد أسس العرب أول صيدلية عامة فى القرن الثامن الميلادى ، فكان كل مستشفى يحتوى على صيدلية كاملة . . وأوجد العرب أيضا صيدليات محمولة ترافق المستشفيات المحمولة . وكانت الصيدليات وما إليها من

مستشفيات عسكرية محمولة ، خاضعة منذ عهد الخليفة المأمون في القرن التاسع الميلادي للرقابة الحكومية . وكما كان يوجد أيضا نقيب للأطباء كذلك الحال مع الصيدالة ، اذ كانت توجد في كل مدينة نقابة للصيدالة لها نقيب ، وكان يختبر الصيدالة ويمنحهم الشهادات التي تخول لهم حق ممارسة المهنة

ان مراعاة القواعد الصحية والصحة العامة صورة مثالية اتخذتها أوروبا ففي الشرق نجد التعليمات الخاصة بتأسيس المستشفيات وتنظيمها والعناية بها خير ألف مرة من مثيلاتها في أوروبا ..

وقد كان ابن البيطار (١١٩٧-١٢٤٨) نقيبا للصيدالة زمنا طويلا في القاهرة .. وهو أكبر عالم نباتي عربي . وقد ألف كتابه : الجامع ، الذي يحتوي على جميع مواد الصيدلة في عصره .

وأدرك الرازي بعض المتاعب التي يقاسيها المرضى من جراء تجرع الدواء المعروف باسم : رب ، فقد كان رديء الطعم ، لذلك لما حوله الى حبوب كساه بطبقة حلوة من السكر اى جعله ملبسا كما هو الحال اليوم... والى الرازي يرجع الفضل في استخدام عصير الفواكه وطبخه واضافة العسل أو السكر اليه ومواد أخرى ، وصنع منه ملبسا وذلك بصب الخليط بعد طبخه على رخام وتشكيله حسب المطلوب .

أما العادة السائدة اليوم والخاصة بتذهيب أو تفضيض التبايع فانها ترجع في الواقع الى ابن سينا .

*

ولقد خلق العرب الكيمياء التطبيقية التجريبية بمعناها العلمى المعروف لنا ، ومن ثم طوروها - كما يعترف بذلك المؤرخ الانجليزى كستيم حتى بلغت مكانة عالية دفعت الى اكتشاف الكيمياء العضوية وغير العضوية . فعوضا عن تحقيق الأمنية القديمة الخاصة بالحصول على الذهب ، بلغ العرب بالكيمياء مرحلة أخرى مكنتهم بفضل التجارب العلمية التي قاموا بها من تحقيق تراكيب كيماوية جديدة كما توصلوا الى طرق كيماوية حديثة - ففي اواخر القرن التاسع نجد الكيمياء العربية تأخذ في الصعود فتبهر انظار العالم .. وذلك بفضل جابر بن حيان .

« واستطاع جابر ومن جاء بعده الحصول على مركبات عديدة من بينها اكسيد الزئبق والزرنيخ والنوشادر ونترات الفضة ، والشب ، وأملاح النحاس والقلوى الكاوى ..

والى العرب يرجع الفضل في خلق العمليات الكيماوية الأساسية مثل : التبخير ، والتبلور ، والكلسنة ، والترشيح ، والتقطير ، حيث فرقوا بين التقطير المباشر وذلك الذى ينتج عن طريق الرمل أو الماء ..

وقد استخدم العرب الأمبيق لتنظيف الخل وعمل النبيذ .. وأصبح من الميسور تطهير الماء كيماويا واعداده للتجارة واستخدامه للدواء . وبهذه الطريقة كان الرازى أول من استحضر حامض الكبريتيك . ومن السوائل الحامضية المحتوية على مواد نشوية أو سكرية استخرج الكحول ..

وكان الرازى أول من استخدم الكيما لخدمة الطب وهذا ما لجأ اليه فيما بعد برازيليوس .



هذا ولقد ساعد على نشر الصيدلة في أوروبا قرب صقلية منها أولا، وترجمة قسطنطين الأفريقي لكثير من كتب الطب العربية ثانيا . ولم يقف أثر هذه النهضة على صقلية وجنوب ايطاليا ، بل بلغ وادى الرين كما هو ثابت من مؤلفات : هيلد جارد فون رينجن ، وبعد وفاة قسطنطين بزمن قصير ، نجد عميد مدرسة سالرنو ، وهو نيكلوروس بريوزيتوس ، يضع كتابا في المواصفات العلاجية على غرار الكتب العربية ..

ولعل أول كتاب في الصيدلة بالمعنى الحديث هو ذلك الذى صدر لمؤلف تسمى باسم عربى ، وهو طبيب ايطالى كان يدرس الصيدلة في القرن الخامس عشر في مدرسة سالرنو ، فقد تسمى هذا الايطالى باسم : صلاح الدين ، وكان يحترم ويقدر أولئك الذين كانوا يشجعون العلم والعلماء .. فاقترح الاستفادة من تلك الكتب التى لا يستغنى عن اقتنائها صيدلى ، وكان ثلثا عدد هذه الكتب التى يجب أن تتكون منها المكتبة الصيدلية عربيا . ولا عجب في هذا ، فالخمسة المشهورون في العاوم الطبيعية في أوروبا في العصور الوسطى ، كانوا يقومون على اكتاف العرب وهؤلاء الخمسة هم : الفرنسى فنسنت دى بوفيه وقد توفي عام ١٢٦٤ ، والأسبانيان ريموندس للوس (١٢٣٢-١٣١٦) وأرنولد أحد أبناء فيلانويفا (١٢٣٥-١٣١٢) ، ثم الجراف الألماني البرت فون بولشتيدت (١١٩٣-١٢٨٠) وهو يسمى البرتوس مجنوس ، والانجليزى روجريبيكون (١٢١٤-١٢٩٢) - وكانوا جميعهم يدرسون في باريس مؤلفات كبار العلماء العرب .

وقد أقبلوا جميعهم على دراسة الكيما ، وقد أعتهم فكرة البحث عن حجر الحكمة الذى يحول المعادن ذهبا وكذلك أثره في اطالة العمر . وكان العرب هم المرجع الوحيد لهؤلاء الباحثين عن حجر الحكمة ..

اثنان من هؤلاء حرصا على الاستقلال العلمى وحرية البحث ، وهذان الاثنان نظرا الى الصيدلة والكيمياء العربية على أنها مادة حية ، وهذه المادة يجب أن تخضع للبحث والتجارب ، وبذلك فقط يستطيع انقاذ الصيدلة والكيمياء العربية من الضياع . فهذان العالمان المتحرران واللذان سارا في نفس الطريق الذى سبقهما اليه الرازى هما : روجر بيكون ، وأرنولد . . لكن من الناحية العملية لم يتفوق بيكون على زملائه المعاصرين ، ففكرة التجربة أخذها عن العرب ، لكنه أخذها نظريا أكثر منها عمليا . .

ان الأثر المباشر للعرب على أوروبا فى الصيدلة ظل طيلة عصرى الانسانية والنهضة بل ظل تأثيره قائما حتى القرن التاسع عشر . ففى عام ١٧٥٨ أعيد نشر أجزاء من مؤلفات ابن البيطار . وفى عام ١٨٣٠ - استخدمت مراجع عربية كمصادر أساسية للصيدلة والوصفات العلاجية الأوروبية .

وفى عام ١٨٣٢ أعيد نشر كتاب عربى فارسى يرجع الى القرن الثانى عشر ، وقد جمع هذه المخطوطة الأرمنى : مخيثار . .

*

لكن حتى اليوم فكل مستشفى بنظمه ، وكل معمل كىماوى ، وكل صيدلية ، وكل مخزن أدوية ، انما هو نصب تذكارى للعبقريّة العربية .

وكل حبة مسكرة أو مفضضة ، انما هى تذكار صغير من الطبيبين العربيين العظميين ، وأستاذى أوروبا الا وهما : الرازى وابن سينا . (٣٦)

اثر العرب فى الذرة :

رأينا كيف أسهم العرب فى مختلف مجالات العلوم ، وكان اسهامهم فيها فتحا حضاريا . ومع أن القرن العشرين يعتبر بحق عصر الذرة والفضاء ، لما تحقّق فيه حتى الان من انجازات رائعة فى هذين المجالين الخطيرين بفضل علماء الأجيال المعاصرة ، الا أن عرب القرون الوسطى - أصحاب الحضارة العربية - لم يفتهم أن يدلّوا بدلوهم فى مجال الذرة ، فقرروا حقيقتها تقريبا عمليا ، وحددوا بذلك المدخل الوحيد الذى يمكن أن يؤدى الى اقتحام ذلك الطلسم . . . المجهول . . . الرهيب : عالم الذرة .

المجموعة الشمسية :

تتكون المجموعة الشمسية من : الشمس وهى النواة او الام ، ومن عدد آخر من الكواكب أو التوابع السيارية .
والكل يدور ... يتحرك ... فى عمل مستمر لا تعطيل فيه ... كل له فلكه الخاص الذى يسبح فيه .

والشمس - أو النواة - كتلة ملتهبة ، تشع اكواما هائلة من الطاقة ، تنتج من جراء تفاعلات نووية مستمرة ، وتصل الى الأرض فى صور شتى منها : الضوء ، والحرارة ، والاشعاعات المختلفة . وللشمس حركة دورانية حول نفسها ، كما أن لها حركة أخرى فى الفضاء ، اذ تجرى فيه بتوابعها بسرعة رهيبية .

وتبعد الشمس عن الأرض بمقدار ٩٣ مليون ميل ، وتقدر كتلتها بنحو ٣٣٢.٠٠ مرة كتلة الأرض . واذا خرجنا فى رحلة استكشاف للمجموعة الشمسية ، مبتدئين من الشمس - بأفكارنا فقط والا لو اقتربنا منها بأجسامنا فان درجة حرارة سطحها وما ينبعث منها من اشعاعات ، سوف تحيل أجسامنا المادية الى طاقة تتبخر فى الفضاء - لقابلنا الكوكب عطارد ، وهو يبعد عن الشمس بنحو ٣٦ مليون ميل ، ويدور حول الشمس مرة كل ٨٨ يوما ، كما يعتقد ، أن له دورة حول نفسه بحيث يبقى أحد أوجهه مطلا دائما على الشمس .

وبعد عطارد تأتى الزهرة - بجمالها - وتبعد عن الشمس بمقدار ٦٧ مليون ميل ، وتدور حولها مرة كل ٢٢٤ يوم .

ثم نجد امنا الأرض - التى عرفنا بعدها عن الشمس - وهى تدور حول نفسها مرة كل يوم ، كما تدور حول الشمس مرة كل عام أو كل ٣٦٥ ١/٤ يوم . وللأرض تابع صغير ، جميل على البعد فقط بيد أنه عكس ذلك من قرب « كأنه المرجون القديم » ، ويعتقد أنه ابنها - وهو القمر - وهو يبعد عنها بمقدار ٢٤٠ ألف ميل ، ويدور حولها مرة كل شهر قمرى ، ثم يتبع الأرض فى حركتها حول الشمس .

وبعد الأرض تأتى بقية كواكب المجموعة الشمسية ، وهى المريخ ، والمشتري ، وزحل ، ويورانوس ، ونبتون ، وبلوتو . وأبعاد هذه الكواكب عن الشمس ، مقدره بملايين الأميال هى : ١٤١ ، ٤٨٣ ، ٨٨٦ ، ١٧٨٢

٢٧٩٣ في على الترتيب ٣٦٧٥ ، ولهذه الكواكب دوراتها حول الشمس ، التي تزداد فترتها الزمنية كلما بعدنا عن الشمس ، كما أن لبعضها توابع واقمارا .

وتشترك هذه الاجرام المتحركة في أن أفلاك حركتها حول الشمس ، يضاوية الشكل .

ذلك ما يهمننا معرفته عن المجموعة الشمسية وأقدارها وهيكل بنائها



الذرة نظام شمسي :

حقق العلم قدرا كبيرا من معرفة الذرة وعالمها ، فأصبحنا نعلم أن ذرة أى عنصر - من عناصر العالم المادى - تتكون من نواة في الوسط تتركز فيها كتلة الذرة ، يحيط بها جسيمات دقيقة جدا تسبح حولها في أفلاك محددة .

وتتكون النواة من جسيمات مشحونة بشحنة كهربية موجبة تعرف بالبروتونات ، كما توجد بها جسيمات أخرى عديمة الشحنة تعرف بالنيوترونات . وتعرف الجسيمات سالبة الشحنة التى تسبح حول النواة باسم كهارب أو الكترونات . وبجانب حركة الالكترتون حول النواة ، فان له حركة أخرى دورانية حول نفسه . وتتساوى كل من كتلتى البروتون والنيوترون تقريبا ، أما كتلة الالكترتون فتقل كثيرا عن كتلة أى منهما . وقد وجد أن عدد البروتونات يساوى عدد الالكترونات ولذلك فان الذرة متعادلة الشحنة كهريا .

ولما كانت الوحدات التى نستخدمها في حياتنا العادية لتحديد الأوزان والأبعاد ، لاتصلح للتطبيق في عالم الذرة ، فقد استحدثت لها وحدات خاصة بها مثل :

الوزن الذرى - وهو يقدر تقريبا بعدد البروتونات والنيوترونات داخل الذرة ، أى يساوى مجموع العدد الكتلى بنواتها .

العدد الذرى - وهو يساوى عدد الالكترونات السابحة حول النواة .

هذا هو هيكل البناء العام للذرة - أى ذرة - وتلك هى عناصر بناؤه الرئيسية : البروتون والالكترتون والنيوترون .

ولا يختلف أى عنصر عن الآخر - فى خواصه الطبيعية والكيميائية وغيرها - الا فى مقدار عدد وحدات بنائه الداخلى وفى نظام توزيع الكتروناته السابحة فى أفلاكها داخل ما يعرف باسم : مستوى الطاقة أو الغلاف أو السماء .

وتحسب هذه المستويات أو السماوات ابتداء من النواة فخارجا ، بمعنى أن السماء الأولى هى الأقرب الى النواة تليها السماء الثانية ، ثم الثالثة ... وهكذا .

وما يلفت النظر أن عدد هذه السموات التى تتوزع فيها الالكترونات داخل الذرة لايزيد عن سبعة وسبعة فقط .



ولكى تتضح لنا صورة البناء الذرى ، فانا نعرض صورا لتكوين ذرات بعض العناصر المختلفة .

ولنبداً بالايديوجين ، فنجد أن ذرته أبسط أنواع الذرات تركيباً ، إذ تتكون من نواة بها ١ بروتون ويدور حولها ١ إلكترون يسبح فى فلك يضاوى فى السماء الأولى . والوزن الذرى = ١ تقريباً ، والعدد الذرى = ١ .

ثم نتدرج خطوة فنجد الهليوم ، ويوجد بنواته : ٢ بروتون ، و٢ نيوترون ، كما يسبح حولها الكترون فى فلك يضاوى واحد فى السماء الأولى كذلك .

والوزن الذرى للهيليوم = ٣ .٠٠ والعدد الذرى = ٢ .

وإذا تركنا هذه العناصر الخفيفة ، ثم تقدمنا الى العناصر الثقيلة مثل اليورانيوم لوجدنا أن ذرة هذا العنصر تتركب من نواة بها : ٩٢ بروتون ، ١٤٦ نيوترون ويسبح حولها ٩٢ الكترون موزعة كالتالى :

٢ الكترون فى فلك واحد فى السماء الأولى ، ٨ فى أربعة أفلاك فى السماء الثانية ، ١٨ فى تسعة أفلاك فى السماء الثالثة ، ٣٢ فى ستة عشر فلكاً فى السماء الرابعة ، ١٨ فى تسعة أفلاك فى السماء الخامسة ، ١٢ فى ستة أفلاك فى السماء السادسة وأخيراً ٢ الكترون فى فلك واحد يقع فى السماء السابعة وهى الأخيرة .

والوزن الذرى لهذا اليورانيوم = ٢٣٨ ، والعدد الذرى = ٩٢ .
وهكذا ، وهكذا ، حتى نصل الى بقية العناصر الأخرى الثقيلة التى
نعرفها أو التى لانعرفها الآن حتى يكشف لنا العلم عن الجديد منها بين
حين وحين .

وبجانب الجسيمات الذرية الرئيسية وهى : البروتون والنيوترون
والإلكترون ، توجد جسيمات أخرى تظهر فى الطبيعة وفى التحولات النووية ،
ومنها : البوزيترون ، والميزون ، والنيوترينو وغيرها .

ومن ناحية الحجم نجد أن قطر الذرة أكبر من قطر النواة بحوالى
١٠٠ ألف مرة ، أى أن الإلكترونات تسبح فى فراغ هائل حول النواة، ويذكرنا
هذا بالأبعاد السحيقة التى تسبح عندها كواكب المجموعة الشمسية بعيدا
عن الشمس .

وإذا استطعنا أن نحشد - نظريا - ١٠ مليون ذرة متجاورة تقف على
خط مستقيم واحد ، لما زاد طول هذا الخط عن مليمتر واحد .

الذرة ، اذن نظام شمسى . . يتماثل تماما مع نظام المجموعة الشمسية .
ان هذه الحقيقة هى الأساس الذى قامت - وتقوم عليه مختلف
التجارب والتطبيقات فى ميدان العلوم الذرية .

*

نتائج وتطبيقات :

لقد كان ادراك الانسان لحقيقة النظام الشمسى فى الذرة فتحا علميا
بالغ الأهمية ، اذ فتحت أمام العقل البشرى حقيقة العالم المادى، الذى ظهر أنه
عالم واحد رغم الاختلافات التى تتراءى فى الصور والأشكال . وبصرف
النظر عما يعنيه هذا من الناحية الفكرية - من حيث دلالاته على وحدة
الخالق التى يكفيها برهاننا وحدة نظام الخلق - فان النتائج والتطبيقات
قفزت بالانسان قفزات قد تنقله اما الى عالم السعادة والهناء ، واما الى
عالم التدمير والشفاء ، حيث يتحدد هذا أو ذاك بسلوك الانسان وعقائده
وأخلاقياته .

فما دامت العناصر المختلفة لا تخرج عن كونها : بروتونات وإلكترونات
وأيونات مركبة بنظام خاص - فما الذى يمنع تحويل عنصر الى آخر ،
وما الذى يمنع تحويل عناصر متوفرة فى الطبيعة الى عناصر أخرى نادرة ،
بل وما يمنع إيجاد عناصر جديدة ؟ .

لقد جد العلم في هذا السبيل واستطاع أن يعطى نتائج ايجابية ، وكانت الوسيلة الرئيسية الى ذلك هي تعرض الذرة ونواتها الى سبيل من قذائف الجسيمات المختلفة مثل :

البروتون ، والنيوترون ، وأشعة ألفا ، وبيتا ، وجاما وغيرها . وكان من النتائج المتميزة في هذا السبيل مايلي :

تحول النيتروجين الى أوكسوجين ، بعد ضربه بجسيمات ألفا ، والأوكسجين الناتج هو نظير للأوكسوجين الطبيعي ، اذ أن له نفس العدد الذري لكنه يختلف عنه في الوزن الذري .

وتحول الزئبق الى ذهب بعدضربه بالنيوترونات وهذه التجربة معملية فقط ولا تصلح للأغراض التجارية نظرا لتكالييفها الباهظة .

ولقد أمكن جعل العناصر تكتسب خاصية اشعاعية لم تكن لها من قبل مثل : الكربون المشع ، والصوديوم المشع . ولهذه العناصر المشعة تطبيقات واسعة في عالم الطب والحيوان والنبات وغيره .

ثم كان الحدث الكبير في نهاية عام ١٩٣٨ على يد العالم الألماني العظيم أوتوهان اذ انفلقت نواة ذرة اليورانيوم بعد ضربها بالنيوترونات ، ونتج عن ذلك تكوين ذرات العناصر الأخرى بفعل هذا التفاعل المتسلسل لكن الأهم من ذلك هو اختفاء جزء من المادة التي اشتركت في هذا التفاعل حيث حولت الى طاقة كبيرة ، فتحقق بذلك مبدأ علمي هام يقرر أن : المادة والطاقة صورتان لشيء واحد ، وانه يمكن تحويل أحدهما الى الآخر . وعلى ذلك فان الانسان يستطيع أن يحصل على طاقة هائلة من أى نوع من المادة مثل الماء أو التراب أو غيره - بشرط أن يختار الوسائل والظروف المناسبة .

ولقد كان ذلك هو أساس صناعة القنابل الذرية ثم القنابل الهيدروجينية وغيرها .

ولا يعنى تهدم الذرة وانفلاق نواتها أنها لا تستخدم الا في التدمير ، فعلى العكس من ذلك نجد المجال يتسع كثيرا لاستخدام الذرة في الأغراض السلمية حتى التفجيرات الذرية أصبح يستفاد بها في شق المجارى والقنوات وفي أعمال التعدين وغيره .

تاريخ البحث عن حقيقة الذرة :

تكلم الأقدمون في موضوع الذرة ، فعرفوها باسم : الجزء الذي لا يتجزأ أو الجوهر الفرد ، وكانت لهم فيها مقالات مختلفة وفلسفات شتى ، نعرض لشيء منها .

الذرة في تفكير الاغريق (٣٧) :

لأنجد شيئاً يستحق الذكر سوى ما قاله ديمقريطس (٤٧٠-٣٦١ ق.م.) عن وجود ذرات مادية غاية في الدقة كالتى تتطاير في أشعة الشمس وكالذرات الملونة التى تذوب في الماء والذرات الرائحة التى تتصاعد مع الدخان أو الهواء .

ومن مشاهداته في أن الخشب يرشح منه الماء ، وان الضوء يخترق الأجسام الشفافة وان الحرارة تخترق جميع الأجسام - علم ان في كل جسم مساماً خالية يستطيع أى جسم آخر ان ينفذ منها .

وكان يرى ان الوجود الواحد المتجانس مقسم الى عدد غير متناه من الوحدات المتجانسة غير المنقسمة وغير المحسوسة لتناهيها في الدقة ، وهى قديمة من حيث أن الوجود لا يخرج من اللاوجود ، وواحدتها الجوهر الفرد .

ويرى ديمقريطس ان الموجودات تختلف باختلاف الجواهر المؤلفة لها شكلاً ومقداراً ، ثم باختلاف الجواهر المتشابهة الشكل ترتيباً ووضعاً ، بحيث يمكن القول بأن الأشياء هندسة وعدد ، وكل شيء امتداد وحركة حتى النفس البشرية .



الذرة في تفكير الهنود (٣٨) :

منذ حوالى القرن الخامس الميلادى وما بعده ، ظهرت في كثير من المذاهب الفلسفية الهندية نظريات في « الجوهر الفرد » ، تكلمت بها الفرق المختلفة ونذكر منها :

(٣٧) تاريخ الفلسفة اليونانية - يوسف كرم - المرجع رقم ٧ - ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٣٨) مذهب الذرة عند المسلمين - للدكتور س. بينس - المرجع رقم ٨ - ص ١٠٠-١٢٠

فرقة الجانيا : وكانت ترى ان المادة والمكان والزمان تنقسم الى أجزاء لاتتجزأ ، وأن أجزاء المادة يشغل كل منها نقطة من المكان . وهذه الأجزاء لاتتنوع بتنوع العناصر ولكن لها كفيات أهمها أن تكون لدنة او يابسة ، ويحصل اتصال الأجزاء بسبب درجة قوة هذه الكفيات وحسب قواعد معينة .

البوذيون : يقوم المذهب البوذي عموما على انكار الجوهر الفرد ، ولذلك يتصور البوذيون أن « الجزء » يتكون من ثمانية وحدات على الأقل وتسمى هذه الوحدات « دهرما » وهى تدل على أصغر جزء تتألف منه المظاهر المحسوسة للأشياء .

البراهمة : يعتقد البراهمة في الوجود الحقيقى : للجوهر ، والعرض ، والفعل والعدم . وتنقسم الجواهر الى تسعة أنواع ، منها العناصر الخمسة وهى : الأرض ، والماء ، والهواء ، والنار ، والاثير - ثم الزمان والمكان والنفس ، والروح . وتتألف العناصر الأربعة الأولى من أجزاء لاتتجزأ ، وهى غير فانية ، خلافا لكل مايتركب منها ، وهى تتنوع بتنوع العناصر ، ولها كفيات غير فانية أيضا .



الذرة في تفكير العرب (٣٩) :

تكلم الفلاسفة العرب في موضوع الذرة ، واستخدموا لذلك الفاظا منها : الجزء والجوهر . وتنقسم آراؤهم بوجه عام الى مذهبين متباينين :

الأول - ويقول بأن الجسم اذا تعرض للتقسيم فانه لايمكن أن ينقسم الى مالا نهاية بل لابد أن تنتهى العملية الى « شىء » أو « جزء » ولهذا يؤمن أصحاب هذا للمذهب بالوجود الحقيقى للجزء الذى لايتجزأ ويقرون له صفات وخواص تتفق ووجوده .

أما المذهب الثانى - فيقول بأن الجسم هو تكوين من « أجزاء » وما من جزء - مهما صغر - الأوله جزء . وهذا التجزؤ يستمر الى مالا نهاية . وعلى ذلك لايعتقد أصحاب هذا المذهب في الوجود الحقيقى للجوهر الفرد أو الجزء الذى لايتجزأ .

وقد ظهر من أصحاب المذهب الأول - أو مذهب الجزء الذى لايتجزأ - أبو الهذيل العلاف (حوالى ٧٤٨-٨٤١م وهشام الفوطى وقد كان معاصرا لأبى الهذيل ، وابن حزم .

(٣٩) مقالات الاسلاميين لأبى الحسن الأشعري- المرجع رقم ٩ -

ص ٣١٤ - ٣٢١ .

أما أصحاب المذهب الثاني فقد عرف منهم : ابراهيم النظام ،
والكندي والفارابي .

وبناء على ماتم عرضه - حتى الآن - من أقوال تمثل تفكير العرب في
الذرة ، فان أحدا لا يستطيع أن يدعى أن هذه الأقوال والآراء تمثل فتحا
علميا حدد المدخل الوحيد لعالم الذرة - كما سبق أن ذكرنا - إذ أنها
لا تعدو أن تكون فلسفة تتردد بين الظنون والتصورات ، وان كانت قد
تكلمت بوضوح في موضوع التقسيم والانشطار .

الحق أن الفتح العربي في مجال الذرة لم يأت في كلام الفلاسفة ومقالات
علماء الكلام ، لكنه جاء في تقرير واضح لمصادر أخرى سوف نعود للحديث
عنها بعد قليل .

*

الذرة في التفكير العلمي الحديث :

لقد بدأت العلوم الطبيعية والكيميائية تتقدم بخطى واسعة في الدراسات
النظرية والبحوث التطبيقية منذ فجر النهضة الأوروبية الحديثة حتى الآن
وفي مجال الذرة كان جملة الملاحظات والفروض والنتائج التي حققها العلم
على مدى بضعة قرون - تتجمع لتهيء السبيل للاقتراب من حقيقة الذرة .

وفيما يلي عرض مختصر لتطور الفكر العلمي الحديث في الذرة :

تجددت على أيام العالم الطبيعي الانجليزي روبرت بويل (١٦٢٧ -
١٦٩١) والكيميائي الفرنسي لافوازييه (١٧٤٣ - ١٧٩٤) نظرية تكوين المادة
من وحدات أساسية لا تقبل التجزئة - أي نظرية الجوهر الفرد التي تكلم
بها القدامى . وصارت هذه النظرية حقيقة مسلما بها .

ولما ظهرت نظرية دالتن عام ١٨٠٣ ، ثم تعدلت بفرض افوجادرو عام
١٨١١ ، أصبح معروفا أن المادة تتكون من ذرات ، وان اجتماع عنصرين أو
أكثر ليكون مركبا كيميائيا إنما هو في الواقع اتحاد لذرتين أو أكثر تكون
نتيجته الجزيء ، الذي اعتبر وحدة بناء المركب الكيميائي في الجديد .

وفي حوالي ١٨٠٧ فرض برزليوس أن القوى التي تربط ذرة بأخرى
يجب أن تكون ذات طبيعة كهربية ، ولما لاحظ بروت أن الأوزان الذرية
- وخاصة للعناصر الخفيفة - هي مضاعفات للوزن الذري للايدروجين ،
هندئذ افترض في عام ١٨١٥ أن ذرة الايدروجين هي وحدة البناء الذري .
وطى ذلك ذرة الهليوم يجب أن تحتوى على ذرتي ايدروجين ، كما أن

ذرة الاوكسوجين تحتوى على ١٦ ذرة ايدروجين ، وهكذا - ثم جاءت ابحاث فراداي (١٧٩١-١٨٦٧) لتقرر ان الكهرباء تتكون من وحدة بناء هي الذرات الكهربائية ، تناظر ما عرف عن تكوين العنصر المادى من وحدة بناء تسمى الذرة .

وفي عام ١٨٩٧ قام طومسون وغيره باكتشاف الذرات الكهربائية (الالكترونات الطليقة) ، وأمكن بعد ذلك تحديد كتلة الالكترون وشحنته وسرعته .

وبانقضاء القرن التاسع عشر تكن حصيلة العلم فى مجال الذرة هى : معرفة الأوزان الذرية للعناصر المعروفة ، وكذلك تقرير بعض خصائصها الكهربائية ، وانها تحتوى على الكترونات سالبة الشحنة .
أما تركيبها وهيكل بنائها فلم يزل لغزا مبهما يحتاج الى الكثير من الجهود .

وفي مطلع القرن العشرين وجد لينارد (عام ١٩٠٣) ان الالكترونات السريعة تستطيع النفاذ خلال طبقات المادة السمكية فدعاها ذلك الى تقرير أن الحيز الموجود بداخل الذرة لابد أن يكون أغلبه فراغا أجوفا .

وفي عام ١٩١١ أعلن رذرفورد الانجليزى نظريته النووية التى قررها ان : كتلة الذرة وشحنتها الموجبة تتركز فى النواة ، وهذه الأخيرة تحيط بها الالكترونات السالبة .

حتى اذا جاء عام ١٩١٣ نجد العالم الدنمركى نيلزبور قد استطاع أن يطبق النظرية الكمية فى الاشعاع للعالم الالمانى ماكس بلانك على النظرية النووية لرذرفورد ، فوضع بذلك الصورة المعروفة لهيكل بناء الذرة ، وهى أن الذرة تتكون من نواة موجبة تتركز فيها كتلة الذرة ويدور حولها الكترونات سالبة فى مستويات طاقة محددة ، ويستطيع الالكترون السابع حول النواة أن يقفز من مستوى طاقي يبعد عن النواة - مثلا - الى مستوى طاقي آخر أقرب اليها مصحوبا فى ذلك بخروج طاقة على صورة انبعاث ضوئى ، تكن قيمتها وحدات صحيحة من «الكم» يتفق ونظرية ماكس بلانك .

ومنذ ذلك الحين أصبح معروفا أن الذرة نظام شمسى ، يماثل فى تركيبه النظام الشمسى الكونى .

وفي عام ١٩٣٢ أطلق شادويك الانجليزي اسم النيوترون على ذلك الجسيم عديم الشحنة والذي يكافئ في وزنه البروتون . وقد ظهر هذا الجسيم من قبل في التفاعلات النووية في أبحاث ايرين كيري وزوجها جوليو وغيرهما .

لقد عرفنا اذن حقيقة النظام الشمسي في الذرة على يد نيلز بور ، واستقرت معرفة هذه الحقيقة التي يبنى عليها العالم كل أبحاثه وتطبيقاته منذ ذلك الحين حتى الآن .



الفتح العربي في الذرة :

مع مطلع القرن السابع من الميلاد بدأ كل شيء في الجزيرة العربية في التغير : تحول الجاهلون الى علماء ، والمستضعفون الى أقوياء ، والموتى - روحيا - الى أحياء .

لقد كانوا ، كما يصفهم الكتاب المقدس في سفر أشعياء : « شعب منهوب ومسلوب ، وقد اصطيد في الحفر كله ، وفي بيوت الجبوس اختبأوا . صاروا نهبا ولا منقذ ، وسلبا وليس من يقول رد . .

قد ارتدوا الى الوراء . متكلون على المنحوتات . قائلون للمسبوكات أنتن آلهتنا » .

وبعد أن جاءهم الحق ، اذا بأولئك العمى يسرون في طرق لم يعرفوها ، « وفي مسالك لم يدروها وتحول الظلمة امامهم نورا ، والمعوجات مستقيمة » وفي ذلك الجو ظهر رجال مثل عمر بن الخطاب وقد عرف في جاهليته أنه مارس وأد البنات ، وادمان الشراب وعبادة الأوثان ، واذا به - بعد أن عرف الله - يتحول الى ذلك العمر العظيم الذي حكم بالعدل والاخاء الانساني امبراطورية فتية قامت على انقاض امبراطوريتين كبيرتين هما : الامبراطورية الرومانية والامبراطورية الفارسية .

وفي ذلك الجو ، تكلم على ابن ابي طالب في الذرة ، فقرر حقيقتها تقريرا علميا لا يختلف في شيء عما قرره نيلزبور وغيره بعد ذلك بأكثر من ثلاثة عشر قرنا من الزمان .

لقد قال على : « اذا فلتقت الذرة - أي ذرة - تجد في قلبها شمسا » .

ولقد جاء هذا القول في كتاب عن الذرة صدر في أمريكا عام ١٩٤٥ بعنوان ALMIGHTY ATOM للمحرر العلمى لجريدة نيو يورك هيرالد تريبيون (٤٠) ، ويدعى جون أونيل John J. O'Neil . فقد جاء في الصفحة الخامسة منه مايلى :

«The Roman World was intellectually sterile in this field, and added very little to what it received from the Greek civilization .

One of the bright spots, in the Middle Ages, comes from the Mohammedane World. It is a line from the pen of the Mystic, Ali Hassan, son-in-law of Mohammed, who wrote :

Split, whatsoever atom, you will and in ,
Its heart , you will find a sun.

This would appear to indicate, that his mystical vision he had, glimpsed a preview of the modern solar system type of atom» .

ويمكن ترجمة هذا الكلام كالاتى :

« لقد كان العالم الرومانى أجذب عقيما في هذا المجال ، ولم يضيف سوى النذر اليسير لما وصله من حضارة الاغريق .

ان احدى النقط المتلثة في القرون الوسطى ، تاتى من العالم الاسلامى حيث نجد ما سطره قلم الصوفى على - ابو الحسن - صهر محمد ، الذى كتب يقول :

اذا فلقنا الذرة - اى ذرة - تجد في قلبها شمسا .

ان هذا يدل على ان بصيرته الصافية قد استطاعت ان تلمح حقيقة النظام الشمسى الحديث للذرة » .

*

ما كان على بن ابي طالب عالما طبيعيا ولا كيميائيا وما قصد منه او قصد هو ان يكون كذلك . لكن عليا كان رجلا صافى القلب ، تعرض لنبضة الهام من عالم الحقيقة الكامنة وراء الحجب في زمانه فنطق بها لسانه .
لقد قرأ على القرآن وفيه ما يعلم منه ان المادة الجماد زوجية الخلقة ،
رأوا بلغة العلم : موجب وسالب .

« ومن كل شىء خلقنا زوجين ، لعلكم تذكرون » .

(الذاريات : ٤٩)

ذلك اجمال في نظام الخلق ، يتبعه تفصيل بذكر نظام الزوجية في عوالم : الانسان والحيوان والنبات والجماد ..

« سبحان الذى خلق الأزواج كلها

مما تنبت الأرض

ومن أنفسهم

ومما لا يعلمون »

(يس : ٣٦)

وعندما نزل القرآن ، كان عرب الجزيرة العربية يعلمون نظام الزوجية في عالم الانسان والحيوان ، فعلمهم القرآن ان هذا النظام يمتد ليشمل عالم النبات كذلك بالاضافة الى عوالم أخرى يجهلها أولئك البدو ، ولا بد ان يكون منها عالم الجماد .

هل قرأ على ذلك وتدبره ، ثم قرأ تماثل النظام العام في خلق الكون ، كما يفهم من الآية :

« الذى خلق سبع سموات طباقا ، ما ترى فى خلق الرحمن من

تفاوت .. » (الملك : ٣)

ثم استطاع على ان يخرج من حصىلة ذلك كله بهذا القول الذى قرره فيه حقيقة الذرة ؟ لا أدري .. الله أعلم .

لكن الشيء الذى لا يقبل الجدل ، هو ان على بن ابي طالب قرره حقيقة الذرة تقريراً صادقاً ، بصرف النظر عن المصدر الذى علمه ذلك .

... ..

وتمضى قرون ، ثم يطلع علينا متصوف آخر ، فيؤكد مقالة على فى الذرة ويزيدها ايضاحاً . ذلك هو فريد الدين العطار الذى قال :

« الذرة فيها الشمس ... »

وان شققت ذرة وجبت فيها عالماً وكل ذرات العالم فى عمل لا تعطيل

فيه « (٤١)

لقد كان العلماء الطبيعيون والكيميائيون حتى نهاية القرن الثامن عشر في شك من وجود الذرة ، وبأنقضاء القرن التاسع عشر أصبح معلوما أن الذرة ليست شيئا مصمنا بسيطا ولكن بها أشياء (الكترونات) سالبة الشحنة الكهربائية ، ثم حدث التطور الكبير في النصف الأول من القرن العشرين .

لكن العطار سبق أن قرر أن في الذرة عالما ، يناظر في تركيبه النظام الشمسي ، وأنها في عمل مستمر .

*

ونقف الآن لنسأل : هل جاءت حقيقة النظام الشمسي في الذرة ، كنتيجة للبحوث النظرية والتطبيقية لعلماء النهضة الحديثة ، أما أنها حقيقة توصل إليها العلم على هدى أقوال السابقين ؟

لمعرفة الإجابة على هذا السؤال ، فقد أرسلت خطابا في ١٠/٦/١٩٥٣ الى العالم الألماني أوتوهان صاحب انفلاق نواة اليورانيوم - أستوضحه حقيقة الأمر ، فتفضل مشكورا بمناقشة الموضوع مع مساعده الأستاذ الدكتور بيرمان ، وكلفه بالرد على خطابي ، كالآتي :

الأستاذ الدكتور ل. بيرمان

معهد ماكس بلانك للعلوم الطبيعية جوتنجن في ١٥/١٠/١٩٥٣

جوتنجن

.....

لقد طلب مني الأستاذ هان أن أجيب - نيابة عنه - على ما في خطابك المؤرخ ١٠/٦ وعلى أي حال فقد تدارسنا الموضوع سويا قبل رحيله عن جوتنجن بالأمس ، في رحلة طويلة .

وعلى ما يبدو ، فإن فضل اكتشاف النظام الشمسي في الذرة ، يجب أن يرجع في المقام الأول الى نيلزبور ، كما يرجح أن يكون ماحقته سمر فيلد ، هو أهم اضافة لنظرية بور . وبالتأكيد ، فإن بعض الكتاب قد فكروا في هذه المسألة من قبل (ويذكر بور بعضا منهم في بحثه عام ١٩١٣) ، كما أن جزءا من الحقيقة - بالنسبة للنظرية الذرية الحديثة - قد تكون ذكرت هنا أو هناك .

ولكنني أظن أنه من غير العدل مقارنة تلك الافكار والتأملات بأبحاث بور ، التي قدمت لأول مرة الأساس النظري السليم الذي بنيت عليه فيما بعد الدراسات والبحوث الكمية في نظرية الذرة .

.....

(ل. بيرمان)

*

Prof. Dr. L. Biermann
MAX-PLANCK-INSTITUT FÜR PHYSIK
GÖTTINGEN BÖTINGERSTRASSE 4

GÖTTINGEN, den 15.10.57
Tel. 300

Herrn
Ahmad Abdel-Wahab Ali Hassan
Faculty of Engineering
Giza - Cairo
Egypt

Bv/ko

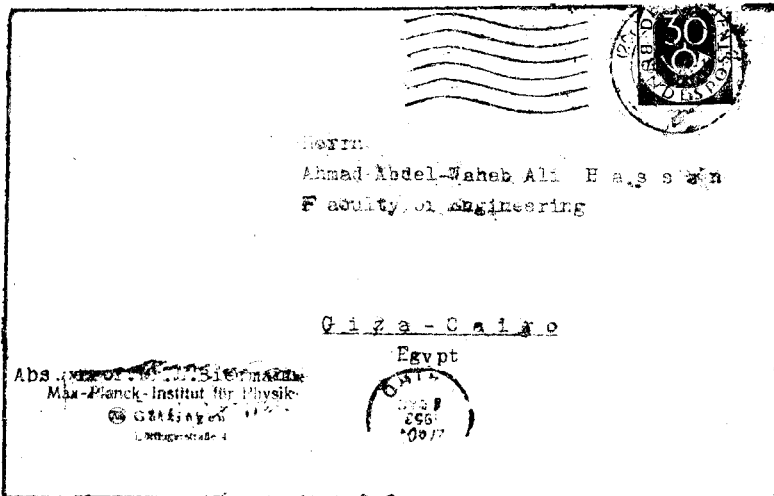
Dear Sir,

Prof. Kahn has asked me to answer on his behalf your letter dated 6.10.; we discussed the subject, however, before he left Göttingen for a longer journey yesterday.

It seems that the credit for the discovery of the atomic model you mention must be given chiefly to Niels Bohr, and the most important immediate extension of Bohr's Theory, is probably that due to Sommerfeld. Certainly other writers have speculated on the problem before (Bohr mentions some of them in his papers of 1913) and part of the truth - in the sense of later theory - may have been said here or there. But I think it would be unjust to compare such speculations to Bohr's work, which gave for the first time a sound theoretical basis for further quantitative work on atomic theory.

Very sincerely
yours

L. Biermann
(L. Biermann)



صورة زكغرافية لخطاب الأستاذ الدكتور ل. بيرمان
(لاحظ الكلمات التي تحتها خط)

وانى أتفق تماما مع الدكتور بيرمان ، فى أن أبحاث بور ومن سبقه
لا يمكن مقارنتها بالأفكار التى تكون قد ذكرت فى حقيقة الذرة - والا لكان
كمن يقارن بين حالتى مريضين ، أصيبا بمرض واحد ، وكانت لهما نفس
الظروف ، ثم تعهدنا أحدهما بعلاج طبى منظم حتى شفى ، أما الآخر فقد
زاره يوما رجل يمارس نوعا من العلاج الروحى الخفى ، واستطاع بلمسة
خاصة أن يشفيه من سقمه .

فرغم أن النتيجة واحدة فى الحالتين ، وهى شفاء المريض ، إلا أن
الوسيلة لتحقيق ذلك اتخذت طريقا مختلفا .

لكن المهم فى هذا الخطاب - الذى يعتبر وثيقة علمية فى تاريخ الذرة -
أنه لا ينفى تأثير بور بتلك الأفكار والتأملات التى سطرها القدامى من غير
العلماء الطبيعيين ، بل على العكس من ذلك ، نجده يقرر شيئا هاما هو :
أن جزءا من حقيقة النظرية الذرية قد يكون ذكر هنا أو هناك ، وليس
هناك ما ينفى استخدام ما ذكر عن تلك الحقيقة ، فى وضع النظرية الذرية
الحديثة فى صورتها المعروفة .

*

لقد سبق أن استنكرت العاملة الألمانية سيجيريد مايدعيه البعض من أن «ليوناردو
دى فينشى هو مخترع الصورة والمضخة والمخرطة وأول طائرة . والواقع
أن جميع هذه المخترعات تعتمد على أبحاث واختراعات الحسن بن الهيثم ،
كما تؤيد ذلك الأدلة الكثيرة» .

وقياسا على ذلك : هل يأتى اليوم الذى يعترف فيه نفر من أهل
العلم والفضل - من غير العرب - بأن مقالة عرب القرون الوسطى فى الذرة
وحقيقتها كانت هى نبضة الإلهام التى أضاءت لعلماء القرن العشرين طريق
الحقيقة فى هذه القضية ، وقادتهم بذلك الى اقتحام عالم الذرة المجهول
العجيب ، من مدخل واحد كتب عليه العرب : اذا فلتت الذرة تجد فى
قلبها شمسا ؟

« عسى أن يكون قريبا » ...

وأخيرا - ومهما يكن من شىء ، فيكفى أن يكون تقرير العرب لحقيقة
الذرة هو ذاته التقرير العلمى لها ، الذى تم على يد العلماء الطبيعيين فى
القرن العشرين ، سواء كان كلام الأولين مصدر الهام للآخرين أم لم يكن .

ويعد - لقد أثر العرب في أوروبا تأثيرا حضاريا في مختلف المجالات، فلم يقتصر على مجالات العلوم التي عرضنا لشيء منها ، بل انه امتد كذلك الى مجالات الفنون والآداب والعلوم الانسانية . واذا كان هذا هو الموقف الحضارى بين العرب وأوروبا ، فكيف يكون ذلك الموقف بين العرب والاسرائيليين ؟ !

ويجب ان نلاحظ أنه لو استرعى انتباهنا نبوغ أحد من اليهود - الذين يحرص الاسرائيليون على احتوائهم - في أى من مجالات العمل الحضارى ، لوجدناه حتما : اما قد تربى على موائد العرب العلمية ان كان من القرون الوسطى أو انه قد تربى على موائد أوروبا الحديثة ، ان كان من الأجيال المعاصرة - تلك هي الحقيقة التي تقرها الاحصائيات .

هذا مع العلم بأن اسهام الفرد في أحد المجالات الحضارية ، لايعنى ذلك مساهمة من الجماعة أو الأمة التي ينتسب اليها ، انما تشارك تلك الأمة في التراث الحضارى للانسانية عندما تقدم أجيالا من العلماء والباحثين وعندما تضرب بسلوكها وأخلاقياتها المثل الطيب في احتضان كافة الجماعات الانسانية الأخرى ، بصرف النظر عن اختلاف العقائد والأجناس واللوان ، فتأخذ من الجميع وتمطى الجميع لكن عطاءها يجب أن يكون أكبر وأثمن من أخذها .

الحق ان الاسرائيليين يظلمون انفسهم كثيرا حين يحاولون وضع انفسهم موضع الند للعرب في الميدان الحضارى .

وبعد - فليسمع كل من يجد عنده بقية من شك فيما ذكرنا عن الحضارة العربية ، قول غير العرب - من العلماء - في العرب وحضارتهم :

لقد « تجلى تأثير العرب في جميع فروع الحضارة الأوربية الحديثة . وتشهد الانتاجات المتنوعة ، والاختراعات المهمة على ما كان يتصف به عرب ذلك الزمن من النشاط العجيب وبما كان لهم من الأثر البالغ في أوربه فجاء هذا مسوغا للرأى القائل : ان العرب سادة لنا .

وما أتى العرب به من المواد التي لا تقدر بثمن عن تاريخ القرون الوسطى ، ومن كتب الرحلات ومعاجم تراجم الأحوال من ناحية ، وما جاء به العرب من صناعة منقطة النظر ، ومن مبان دالة على تفكير عظيم وتنفيذ جسيم ومن اكتشافات مهمة في الفنون من ناحية أخرى ، كلها أمور يجب أن ترفع في أعيننا شأن الأمة العربية التي ازدريناها زمنا طويلا .

والعرب اذا غابوا عن مسرح العالم (اليوم) فان ما ابدعوه من عمل
بجليل لا يزال باقيا .. واضحى برابرة الشمال الذين قضوا على سلطانهم
بمدينين لهم ثقافة .. ومن المحزن ان خلعت جبرية العثمانيين كرداء من
بجليل على الشعوب (العربية) التي دانت لدولتهم « (٤٢) .

الفصل السادس

القضية بين الحق والقوة

القضية بين الحق والقوة

مقدمة :

يتعرض الناس في حياتهم العادية الى منازعات قد تتطور حتى تدفع بهم الى ساحة القضاء ، هناك يحرص كل طرف من الأطراف المتنازعة على اظهار صدق دعواه ، وتأييد ذلك بمختلف الحجج والاسانيد .

وبعد استعراض دعاوى الخصوم ومطالبهم مشفوعة بما يؤيدها من أدلة وبراهين ، يصدر القضاء حكمه مدعيا هو الآخر أن مانطق به هو الحق الذى يرفع ظلما وقع ، ويعيد بذلك الأمور الى نصابها .

وبعد أن تنتهى القضية من طور البحث والتحكيم يأتى طور التنفيذ ، وهو الطور الذى يتطلب قوة مؤثرة ، تؤكد فعالية الحكم ، وتحيله من عبارات صماء على الورق الى واقع متحرك يحس الناس أثره فى استقرار حياتهم بعيدا عن فوضى المظالم ، ومؤكدا بذلك حقوق الانسان .

وعلى المستوى الدولى ، نجد الدول تلجأ فى منازعاتها الى الهيئات الدولية (محكمة العدل الدولية - مؤسسات الأمم المتحدة ...) ويحاول كل طرف فى النزاع ان يتعلق بأذيال الحق ، مدعيا أنه يقف بجانبه . وبعد نظر القضية واستعراض مختلف جوانبها ، يصدر الحكم أو القرار ، حيث يزعم الذين أصدروه أنه الحق الذى تراءى لهم فحكموا به .

ثم يعقب ذلك دور التنفيذ وهو الدور الذى يحتاج الى قوة فعالة ، تلك القوة التى ان تخلفت عن مظاهره الحق ، فقد ضيعته وأضاعت بذلك جوهرا من الجواهر التى ترتبط بها حياة الانسان .

الحق ، اذن ، هو المطلب الذى يتلمسه أطراف النزاع فى كل قضية ويحرص على التعلق به باعتباره المدخل الوحيد لتحقيق مايبتغون اما القوة فهى الوسيلة الضرورية لتثبيت الحق وتأكيد وجوده .

وبالإضافة الى ما ذكر فى أمر الحق ، فان ماتعارف عليه الناس من مبادئ وأخلاقيات ، يقرر أن الحق شئ مطلوب لذاته ، تقدم من أجله التضحيات ويهون فى سبيله كل مرتخص وغال .

واذن فى جوانب كل قضية نجد دائما : الحق أولا ، ثم القوة بعد ذلك ، وبدونهما معا « تكن فتنة فى الارض وفساد كبير » .
وقضية فلسطين ليست خروجا عن هذه القاعدة .

الحق العربي

ان الحق في النزاع العربي الاسرائيلي على أرض فلسطين ، واضح كل الوضوح لا لبس فيه ولا ابهام .

وما من شك في أن الذين يحاولون تعقيد القضية والسير بها في شعاب ومناهات متباعدة ، انما هم الذين يفتقدون الحق ويخشون ظهوره ، ومن أجل ذلك يعملون جاهدين على طمس معالمة واخفاء وجهه ، حتى لا يكتشف أمام الناس ظلمهم ومظالمهم .

ولقد تبين لنا خلال دراستنا هذه - في الفصول السابقة - مجموعة من الحقائق تستشعرها حواسنا ، وتقف واضحة ملء السمع والبصر والفهم ، يعيها تماما كل انسان أوتى أقل القليل من العقل وخاصة التمييز .

ونكتفى من هذه الحقائق بثلاث هي :

١ - ان دعوى الاسرائيليين بحقوق تاريخية في فلسطين ترتبط بما في الأسفار المقدسة انما هو زعم باطل وخرافة ودجل ، ان وجد له متنفسا خارج البيئة الاسرائيلية ، فانما يرجع ذلك الى الجهل بحقائق التاريخ والكتب المقدسة .

وما من مؤمن بالأسفار المقدسة الا ويرفض مزاعم الصهيونية وافترائها على النصوص المقدسة وتسخيرها تسخيرا باطلا لخدمة أغراضها الدنيوية في التسلط والسيطرة .

ولقد اجتمع في بيروت ٤٠٠ مندوب يمثلون طوائف المسيحيين من كاثوليك وأرثوذكس وبروتستانت في ٣٧ دولة في الفترة من ٦-١٠ مايو ١٩٧٠ على هيئة ندوة عرفت باسم « الندوة العالمية للمسيحيين » ، وقد اختتمت الندوة أعمالها باصدار بيان أطلقت عليه اسم « نداء بيروت » .

وقد جاء في هذا النداء : « ان التفسير السياسي الصهيوني لنصوص الكتاب المقدس يتعارض مع المسيحية ، وان هذا التفسير يؤدي الى اضعاف صفة الشرعية - عن طريق الكتاب المقدس - على المظالم الجسيمة التي تعرض لها الشعب الفلسطيني والشعوب العربية ، التي لايسع الضمير العالمي سوى الاحتجاج عليها .

بناء مجتمع انساني علماني ديمقراطي تحترم فيه جميع المعتقدات .
وقد ادان النداء المذابح وعمليات التعذيب وهدم القرى والمنازل
واغتصاب الاراضى وكل الاجراءات التعسفية التي تمارسها اسرائيل في
الارض المحتلة .

ثم دعا المسيحيين في العالم الى مساندة الشعب الفلسطيني في مقاومته
ونضاله ضد اطماع الصهيونية . (١)

٢ - ان قبول العالم للمنطق الاسرائيلي الذي يقوم على اتخاذا
الدعوى بالحقوق التاريخية وسيلة لاغتصاب الاراضى ، انما يعنى فوضى لا
نهاية لها . واذا كان العالم قد اکتوى - ولا زال - خلال تاريخه الطويل ،
بالكثير من الحروب والمآسى نتيجة للتنازع على مناطق وحدود بين عدد
محدود من الدول ، فكم تكون المآسى التي يتعرض لها العالم حين يأخذ
بهذا المنطق الاسرائيلي المخرب ، رغم ما يحق للعرب ان يطالبوا به - عندئذ
- من اراضى واسعة غنية في جنوب اوربا ووسط آسيا .

٣ - ان فلسطين عربية ارضا وشعبا ، من قبل ان يظهر فيها
الاسرائيليون ، ومن بعد ما ظهوروا ثم اختفت آثارهم منها منذ نحو تسعة عشر
قرنا من الزمان . وفلسطين عربية ارضا وشعبا اثناء ذلك ومن بعده ، حتى
جاءها الغزاة الاسرائيليون في القرن العشرين زاعمين انهم سلالة اولئك
الفارين .

وتكفى نظرة على الاحصائيات الرسمية التي سجلتها حكومة الانتداب
البريطاني بفلسطين منذ عام ١٩١٨ حتى قرب نهاية فترة الانتداب في عام
١٩٤٨ (٢) - تلك الاحصائيات التي تقرر بوضوح الصورة العربية لفلسطين:

اليهود		العرب		إجمالي السكان	سنة الإحصاء
النسبة	التعداد	النسبة	التعداد		
٨ ٪	٥٦٠٠٠	٩٢ ٪	٦٤٤٠٠٠	٧٠٠٠٠٠	١٩١٨
١١٫١ ٪	٧٣٨٩٤	٨٧٫٩ ٪	٦٦٣٠١٤	٧٥٧١٨٢	١٩٢٢
١٦٫٨ ٪	١٧٤٦١٠	٨٢٫٢ ٪	٨٥١١١٠	١٠٣٥٨٢١	١٩٣١
٣١٫٣ ٪	٥٥٤٠٠٠	٦٦٫٨ ٪	١١٧٩٠٠٠	١٧٦٥٠٠٠	١٩٤٤

ملحوظة :

بدأت تظهر في الاحصائيات منذ عام ١٩٢٢ أعداد محدودة من غير
العرب واليهود ، وقد اغفلنا ذكرها حيث ان نسبتها لم تزد في أعلى قيمة
لها عن ١٫٩ ٪ .

(١) جريدة الاهرام : ١١ مايو ١٩٧٠ .

(٢) Government of Palestine : A SURVEY OF
PALESTINE, 1945-46, pp. 144-149.

ولقد كانت نسبة توزيع السكان اليهود في المدن عام ١٩٤٦ (٣) كالآتي :

أورشليم ٣٨٪ ، ثم غزة ٢٪ ، عكير ٤٪ ، صفد ١٣٪ ، الناصرة ١٦٪ ، طولكرم ١٧٪ ، الرملة ٢٢٪ ، بيسان ٣٠٪ ، حيفا ٤٧٪ ، يافا ٧١٪ .

وكانت هذه النسبة أقل من ١٪ في كل من : بير سبع ، والخليل .
وبلغت هذه النسبة صفراً في كل من : نابلس ، وجنين ، ورام الله .

كذلك تبين الإحصائيات التي قدمتها حكومة الانتداب البريطاني إلى الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ أن موقف ملكية اليهود للأرض في ذلك الحين كان كالآتي :

اجمالي ما يمتلكه اليهود : ١٤٩١٦٩٩ دونما من مجموع مساحة فلسطين التي تبلغ ٢٦٣٢٣.٢٣ دونما أي لا تتعدى ٥.٦٦٪ من مجموع المساحة ، وهي النسبة التي لم تتعد ٢٪ عام ١٩١٨ ، كذلك كانت نسبة ممتلكات اليهود من الأرض عام ١٩٤٧ في مختلف النواحي كالآتي :

القدس ٢٪ ، الخليل ٤٪ ، غزة ٤٪ ، الجليل ٣٪ وكانت هذه النسبة أقل من ١٪ في كل من نواحي : نابلس وجنين وبير سبع .

وحتى في نواحي : يافا وتل أبيب وحيفا وطبرية ، كانت مساحة ممتلكات اليهود أقل من نظيرتها العربية .

ومما سبق يتضح ضالة الوجود الاسرائيلي - عدداً وممتلكات - حتى عام الغزو المسلح ١٩٤٨ ، وذلك رغم الجهود المستميتة التي بذلتها الصهيونية بمساعدة الاستعمار العالمي لتهجير اليهود ، والاستيلاء على الأرض بمختلف الوسائل ، ومنها قيام حكومة الانتداب البريطاني بسن

Appendix VI to the Report of Sub-Committee 2 to the (٣)
Ad Hoc Comm. on Palestine Question, November 11, 1947,
p. 270. Also, map No. 94-b, U.N. attached as Annex V. to the
report mentioned above.

القوانين الجائرة التي تجبر صغار الملاك على بيعها والتخلص من أعبائها
الضريبية الباهظة .

*

ان قوى البغى والعدوان لم تستطع أن تمحو أثر جريمتها - ولن
تستطيع - فمزال الوجود المادى المحسوس لضحايا تلك الجريمة يؤكد
وقوعها ويحدد الجانى ويبين بوضوح موقع الحق فى هذه القضية .

ان وجود هؤلاء الضحايا من العرب صامتين على هيئة لاجئين يقفون
خلف الأسوار الشائكة يتطلعون بحسرة الى أراضيهم المفتصبة، أو وجودهم
متحركين على هيئة فدائيين يقاتلون لاسترداد وطنهم السليب - ان هذا
الوجود ذاته وعلى الصور التى يراها الناس ، انما هو خير برهان على
مجازاة الاسرائيليين للحق ، وانحصاره بعيدا بعيدا عنهم .

وان كان احد فى شك من امر الحق فى هذه القضية فليسال نفسه
هذا السؤال البسيط :

لو لم يغز الاسرائيليون فلسطين بالقوة ، وقيموا لهم بها وجودا
عسكريا ضاريا تخصص فى سفك الدماء وتخريب الانسان وحرثه ونسله -
هل كانت توجد مشكلة فى هذه الأرض - أرض فلسطين - وفى هذا الجزء
من العالم ، وهو الشرق الاوسط ؟ .

ان الجواب الذى يمثل الجانب الآخر من مطابقة رياضية ، لا بد وأن
يكون بالنفى .

هذا هو لب المشكلة : الوجود العسكرى الاسرائيلى بفلسطين هو
المشكلة ذاتها ، وهو المسؤل عما جلب من مآسى لتلك الأرض ومن عليها .
ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أن الوجود العسكرى الاسرائيلى فى
فلسطين وما يدور فى مخيلته من أحلام وتطلعات الى البغى والسيطرة ،
انما يزيد من رقعة الأرض التى تتعرض وسوف تتعرض - بمن فيها الى
المآسى والآلام ، فلا تقتصر على حدود فلسطين المعروفة بل تمتد الى الأراضى
المجاورة ، ومن يدرى فقد يخرج الصراع عن دائرة الشرق الأوسط فينجر
على العالم كثيرا من الويلات ، ما كان أحراه بتجنبها لو عمل مبكرا على الحد
من سطوة أصحاب العقائد المغلقة المتعصبة ووقف بحزم أمام مطامعهم
وشهواتهم .

ومع كل ذلك ، فلا يزال الاسرائيليون يرددون أن الحق فى جانبهم
وانهم ضحية للظلم والعدوان الذى وقع عليهم من جانب العرب المعتدين !

احرار الحق

حقيقة التحرير :

لقد وقف المسيح يوما يخاطب نفرا من « اليهود الذين آمنوا به » فقال لهم « ان ثبتتم في كلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذي وتعرفون الحق والحق يحرركم » .

وهنا ثارت كبرياؤهم الجريحة وقالوا له « اننا ذرية ابراهيم ولم نستعبد لاحد قط . كيف تقول انت انكم تصيرون احرارا ؟

فقال المسيح : « ان كل من يعمل الخطيئة هو عبد للخطيئة . . .

لو كنتم اولاد ابراهيم لكنتم تعملون أعمال ابراهيم » .

وهنا لم يجد المنطق الاسرائيلي العاجز بدا من اللجوء الى أسلوبه .

المعتاد من الكذب والمهاترات والافتراءات على الحقيقة ، فقال على لسان أولئك اليهود الذين - ويا للعجب - كانوا مؤمنين بالمسيح :

« اننا لم نولد من زنا . لنا أب واحد وهو الله » .

فقال يسوع : « انتم من أب هو ابليس وشهوات ابيكم تريدون ان

تعملوا .

ذاك كان قتالا للناس من البدء ولم يثبت في الحق . .

فأجاب اليهود وقالوا له : السنا نقول انك سامري وبك شيطان . . .

فرفعوا حجارة ليرجموه . أما يسوع فاخفى وخرج من الهيكل » .

ان معرفة الحق والثبات عليه هي التحرير - تحرير النفس وتحرير

الغير . . والانسان الذي يبحث عن حريته هو الذي يبحث عن الحق ، حتى

اذا وجده ، آمن به ودافع عنه وأظهره للناس ، مهما كلفه من ثمن .

لقد عرف الكثيرون جوانب الحق في القضية الفلسطينية ، فآمنوا به

ودافعوا عنه ، رغم ما جلب عليهم ذلك من اضرار ومضايقات ، الحقها بهم

الأخطبوط الصهيوني الذي يتحكم في كثير من دوائر القوة والنفوذ .

لكن هذا هو ثمن الحرية ، حريتهم التي اكتسبوها بعد ان طرحوا عن

انفسهم بعيدا ، اغلال الجبن والجهالة والنفعية ، فكانوا من زمرة الأحرار .

ومن أمثلة أولئك الأحرار كثيرون ، ممن لا يمكن اغفال آرائهم في

القضية الفلسطينية لسببين رئيسيين هما :

١ - انهم لا ينتمون الى أى من طرفى الصراع ، فهم ليسوا من العرب أو من الاسرائيليين .

٢ - انهم بحكم وظائفهم ومناصبهم التى تقلدوها محليا - فى بلادهم - أو دوليا - فى هيئات ومؤسسات الأمم المتحدة - وبحكم خبراتهم التى لا يمكن المراء فيها ، فانهم يعتبرون من أكثر الناس معرفة بمواقع الحق فى القضية الفلسطينية .

وفىما يلى امثلة من آراء هذا الصنف المحايد من الناس ، والخبير بحقائق القضية الفلسطينية .

١ - الكوماندر البحري الأمريكى هتشييسون :

عين هذا الضابط الأمريكى مراقبا عسكريا فى هيئة الرقابة الدولية - التابعة للأمم المتحدة - على فلسطين ، فى أكتوبر ١٩٥١ ، وبعد عام أصبح رئيسا للجنة الهدنة الأردنية الاسرائيلية المشتركة . واستمر يمارس عمله بنزاهة وكفاءة ، شهد بها رؤساؤه حتى استدعى الى وطنه فى نوفمبر ١٩٥٤ .

ولقد كانت فترة السنوات الثلاث التى قضاها فى فلسطين الممزقة ، واحتكاكه اليومي المباشر بعناصر الصراع وأرضه وحوادثه - كل ذلك دفعه لكتابة مذكراته التى سجل فيها حوادث العدوان المتكررة على خطوط الهدنة وخاصة على الجانب الأردنى .

كذلك تعرض هتشييسون لخطر الدعاية الصهيونية ومحاولاتها المستمرة لطمس حقائق القضية الفلسطينية وخاصة عن المجتمع الأمريكى . وقد جمع هتشييسون مذكراته فى كتاب أسماه : « الهدنة الدامية » (٤) .

*

يتكلم هتشييسون فى كتابه عن انطباعاته الميدانية عما حدث فى فلسطين كما عرفها فى وطنه - أمريكا - عن بعد ، قبل أن يتسلم مهمته الجديدة

(٤) نقله الى العربية : محمد محبوب وأحمد نافع - دار المعرفة .

كمراقب عسكري في فلسطين ، فيقول : « كانت معلوماتي في تلك الأيام عن هذه البلاد تتلخص في أنه وقعت هناك في عام ١٩٤٨ حرب قصيرة بين العرب والصهيونيين ، ثم عقدت هدنة كخطوة أولى نحو السلام . .

وأن فلسطين مقسمة الآن بين العرب وإسرائيل ، وأن الدولة الصهيونية الجديدة ترغب في السلام ، بينما يرفض العرب ذلك ، ويعمل الإسرائيليون على حماية وطنهم الجديد ضد أحقاد العرب المتزايدة .

هذه الفكرة التي كانت تراودني - وهي قصة لها جانب واحد - وهي الفكرة التي ما فتئت الصحافة الأمريكية ترددها في مقالاتها وأخبارها .

وفي واشنطن زودتني البحرية بتلخيص للموقف ، وأكدوا لي هنا أن للمشكلة وجهتي نظر ، ولم يكن في ذلك شيء جديد سوى وصف إسرائيل بأنها الدولة الناهضة المناهضة التي يحيط بها العرب وتمتلئ قلوبهم بالبغض والكراهية .

وقد مضى وقت طويل قبل أن أدرك أن أي جماعة من الناس تستطيع أن تعيش وتتقدم إذا أعطيت لها مبالغ ضخمة من الأموال والمعدات ، وأسعدها الحظ بتوفر الخبرة العلمية الغربية لديها . « (٥)



ولكن بعد أن أنهى هتشيون مهمته في فلسطين ، وعاد هو وعائلته إلى أمريكا ، تغيرت نظرتي إلى المشكلة تماما وتحول إلى النقيض . ولذلك كتب يقول : « عندما عدنا إلى أمريكا . . لم تكن في حاجة إلى وقت طويل لكي ندرك أنه بالرغم من أن كثيرا من المقالات المحايدة كانت تظهر في الصحف ، إلا أن الأخبار في مجموعها كانت تصاغ في قالب يتفق مع رغبات أولئك الذين يناصرون تصرفات إسرائيل ويبررونها مهما يكن نوعها وطبيعتها . ويبدو ذلك واضحا عندما أدان مجلس الأمن إسرائيل لهجومها على قطاع غزة في ٢٨ فبراير عام ١٩٥٥ فقد كانت الصورة التي خرجت بها إسرائيل صورة تضيء عليها البراءة بالرغم من أن هذا الحادث قتل فيه ٣٨ شخصا وأصيب ٣١ آخرون بجراح . ومع ذلك فقد كان أغلب الجهد منصرفا إلى تبرير اعتداء إسرائيل أكثر من الاهتمام بقرار الادانة نفسه . .

وهنا نقطة أخرى سببت لنا المزيد من القلق ، وهي أن كثيرا من الأمريكيين الذين يعلمون خفايا شؤون الشرق الأوسط ، اظهروا ترددا في مناقشة هذه الشؤون ، وحبسوا أنفسهم داخل دائرة معلوماتهم .

وقد أوضح الكثيرون منهم أن ذلك يرجع الى أن المنظمات الأهلية والنوادي التي ينتمون اليها تحرمهم فرص التعبير عن آرائهم في مشكلة فلسطين .

وإذا كان ما يقوله هؤلاء المطلعون صحيحا ، فإن الأمر يصبح سخيفا أكثر مما نتصور . فبينما يكون في حكم المحرم على هؤلاء فرصة اظهار حقيقة المشكلة القائمة بين العرب من ناحية واسرائيل والصهيونية من ناحية أخرى ، يتسع المجال أمام هؤلاء الذين درسوا المشكلة من وجهة النظر الاسرائيلية وحدها لاذاعة القصص المفرضة لتشويه الحقائق .

وتبدو خطورة هذا الأمر أكثر وضوحا في أن الرأي العام الأمريكي يوجه سياسته الذين يتولون المناصب الكبرى بطريق الانتخاب ، فاذا ظل الرأي العام بعيدا عن حقائق المشاكل ، فإن الأمل ضئيل في الوصول الى حل عادل لمثل هذه المشكلة .

ان الخوف من التعبير عن الحقائق ، خاصة اذا كان العلم بها مما يعود على بلادنا (أمريكا) بالفائدة ، لم يعد له مكان في مفهومنا ، وهذا هو ما دفعني الى كتابة هذا الكتاب (كتاب : الهدنة الدامية) « (٦) .



• ان الباحث في تاريخ الاسرائيليين - قديمه وحديثه - يستطيع أن يقرر بسهولة أن السلوك الاسرائيلي يخضع دائما لمجموعة من العقائد والأفكار التي اعتنقها الاسرائيليون ، وحكمت تصرفاتهم عبر القرون ، ومن هذه العقائد :

١ - أن الحق في أى قضية هو ما اتفق والزواج الاسرائيلي ، ولو كان العالم كله في واد والاسرائيليون ومزاجهم في واد آخر .

٢ - ومنها : أن الغاية تبرر الوسيلة بصرف النظر عن أى اعتبار

آخر ، وليس هناك ما يمنع من أن يكون الإرهاب من بين هذه الوسائل ان لم يكن هو أفضلها على الإطلاق .

٣ - ومنها أيضا : الحرص على بقاء التوتر بين اليهود وغيرهم من شعوب العالم ، بل واصطناع هذا التوتر اذا لزم الأمر ، بغية استمرار التفوق اليهودي حفاظا على نقاء عنصره وعقيدته من خطر التحلل والذوبان فيما وراء العالم اليهودي - ثم استغلال ما يلحق باليهود من الأذى نتيجة لتفوقهم في استدراج عطف العالم وابتزاز امواله .

وتطبيقا لهذه العقائد الاسرائيلية ، فقد تخصص الاسرائيليون القدامى في قتل أنبياء الله - دعاة الإصلاح - لأن ما جاءوا به من أمور مستقيمة لم يتفق وذلك المزاج الاسرائيلي المروج . وعلى شاكلتهم سار اسرائيليو اليوم ، فقتلوا الكثيرين ممن خالفوهم الرأي ، ومن بينهم الكونت برنادوت وسيط الأمم المتحدة ، لأنه قدما مشروعا ولو أنه يعترف فيه بتقسيم فلسطين - الذي كان تحقيقه من آمال الصهاينة آنذاك - إلا انه اقترح أن تكون صحراء النقب الفاحلة أرضا عربية وأن تكون أرض الجليل اسرائيلية ..



ومع أن الأمم المتحدة هي صانعة اسرائيل ومصدر وجودها ، إلا أن ذلك الوليد المصطنع الشاذ كان أول من تنكر للجميل ، فعق الأمم المتحدة وسخر من قراراتها وقتل رجالها وأنزل بهم المهانة والأذى .

فلقد حدث أن « ادانت لجنة الهدنة اسرائيل لقيامها بمحاولة تهريب كميات من الذخائر الى منطقة هداسا والجامعة العبرية .. فشدد اليهود حملاتهم على الجنرال دي ريدر رئيس لجنة الهدنة الأردنية الاسرائيلية المشتركة (قبل أن يتولاها هتشييسون) ، وشملت الحملة هيئة الرقابة الدولية بأسرها .

ومنذ ذلك الحين لم ينعم الجنرال دي ريدر بساعة سلام أو اطمئنان .

وأخذت الحملة المركزة ضده تشتد يوما بعد يوم حتى أن الموظفين الاسرائيليين أنفسهم من الذين كانوا يخشون نوايا العصابات الارهابية ، طلبوا الى الجنرال دي ريدر أن يوافق على تزويده بحراس خصوصيين عند عبوره بوابة مندلبوم وتجوله في اسرائيل .

ولم تقتصر حملة اخراج دي ريدر على داخل اسرائيل ، بل اوعز الاسرائيليون الى مؤيديهم بالضغط بالضغط على واشنطن وباريس ولندن ، وحتى بروكسل عاصمة بلجيكا. مسقط رأس الجنرال دي ريدر ، للعمل على ابعاده من هيئة الرقابة الدولية .

واخيرا احنت سياسة الأمم المتحدة رأسها في نيويورك ، وهي واقعة دائما تحت تأثير الضغط الصهيوني ، وأمرت بنقل الجنرال دي ريدر الى بعثة الأمم المتحدة في الباكستان . والواقع أن عملية اخراج الجنرال دي ريدر من هيئة الرقابة كلفت الاسرائيليين جهود ثمانية أشهر . وليس هناك من وقف نفسه وجهوده وامكانياته في خدمة قضية السلام كما فعل الجنرال دي ريدر . وقد نجح هذا الرجل خلال هذه الفترة من خدمته في عقد اتفاقية للقادة المحليين بين الاردن واسرائيل ، غير أن اسرائيل هي التي ضربت بهذا الاتفاق عرض الحائط .

كما بذل كل جهد ممكن لضمان الهدوء في المنطقة التي كانت تقع تحت اشرافه ، وحاول انجاح مهمة لجنة الهدنة بقدر المستطاع ، غير أنه شعر في النهاية انه كان يخوض غمار معركة خاسرة .

وفي شهر مايو ١٩٥٣ استقال الجنرال وليم رايلي من منصبه كرئيس لهيئة الرقابة الدولية بفلسطين ، وعين مكانه الجنرال فون بنيكه الدانمركي .

وقد بذل هذان الرجلان أقصى ما أمكنهما من جهود لاقناع اليهود بالكف عن مهاجمة رئيس لجنة الهدنة الأردنية الاسرائيلية - وكان الجنرال دي ريدر في ذلك الوقت - غير أن اليهود استمروا في حملتهم وبأقصى ما يستطيعون من عنف الى أن انتهى عمل دي ريدر كما ذكرنا سابقا « (٧) .



وقد استمرت الحملات الاسرائيلية ترهب مراقبي الأمم المتحدة لعلها تجبرهم على اغماض عيونهم عما ترتكبه اسرائيل من جرائم واعتداءات ، بل ان تلك الحملات امتدت لتطالب بطرد رئيس هيئة الرقابة الدولية نفسه .

فقد « كانت الصحافة الاسرائيلية توجه حملاتها النارية ضد الجنرال

بنيكه كبير مراقبى الهدنة وتدعو الى اخراجه من هيئة الرقابة ، على النحو الذى اخرج به الجنرال دى ريدر ، وذلك لأن الصورة الواقعية التى رسمها بنيكه لمجلس الأمن عن حادث قبية (٨) وضعت اس ائيل فى موقف لا يؤيدها فيه أحد . كما كان الزعماء الاسرائيليون يستهجنون جهوده التى أدت الى وقف محاولات اسرائيل لتحويل مجرى نهر الأردن بحفر قناة فى المنطقة المنزوعة السلاح على الحدود السورية .

ولم يبال الجنرال بنيكه بالخطة التهديدية التى شننها الاسرائيليون عليه ، ولكنه أظهر غضبا شديدا عندما أبلغ أن عليه أن يصطحب حرسا اسرائيليا مسلحا فى تنقلاته داخل اسرائيل . ومعنى هذا أن عليه أن ينتظر ساعة عند بوابة مندليوم قبل أن يسمح له بدخول اسرائيل يرافقه ثلاثة من الحرس المسلح فى تنقلاته العامة والخاصة « (٩) .



ان أحدا من بنى البشر المتحضرين الأحرار لا يوافق البتة على انزال العقاب بأى شعب من الشعوب بسبب الجنس أو اللون أو العقيدة ، وأن العالم المتحضر ليدى كل اضطهاد تلقاه جماعة من الناس بسبب جرائم ارتكبها أفراد تلك الجماعة .

وان العالم ليعلم ويستطيع أن يعلم - كم من المأسى والآلام أنزلها النظام الهتلرى بشعوب أوروبا وبقطاعات كبيرة من الشعب الالمانى نفسه الذى يشترك مع الأوربيين على الأقل فى مسيحيتهم وحضارتهم . ومع ذلك فقد استطاعت الدعاية الصهيونية أن تستأثر بفكر العالم واعيا لما فعله هتلر باليهود وتبالغ فيه أشد المبالغة ، ثم تنحى جانبا ما فعله ببقية الشعوب الأخرى .

ولما كانت عقيدة الاسرائيليين المستترة تقوم دائما على خلق التوتر بين اليهود وغيرهم بقية استغلاله، الا أن المراقبين المحايدىن استطاعوا تلمس تلك العقيدة الشاذة والامساك بها .

وفى هذا يقول هتشيسون : « ان الكثيرين من المعنيين بدراسة المشكلة

(٨) قبية قرية صغيرة هاجمتها قوة من الجنود الاسرائيليين النظاميين وقتلت ٤٢ من الرجال والنساء والأطفال وأصاب ١٥ بجراح .
(٩) المرجع السابق . ص ٥٧ .

العربية الاسرائيلية قد شكوا منذ زمن طويل في أن اسرائيل تنظر الى الحدود المتوترة ، على أنها أعظم طريقة فعالة تتضمن بقاء الهيئات والسلطات الأجنبية أشد ماتكون حرصا على الوفاء بالتزاماتها نحو اسرائيل .

ومما يدعم هذا الرأي ، احجام اسرائيل عن السماح لمراقبي الأمم المتحدة بحرية التنقل ، والغاؤها ثلاث اتفاقيات محلية ، واغتصابها سلطات الأمم المتحدة وحقوقها ، ثم رفضها تقديم تسهيلات ضئيلة على طول الحدود توفر لعدد من الأسر العربية أسباب الحياة دون أن تؤدي الى أية خسارة مادية لاسرائيل .

ولو أن اسرائيل تخلت عن أعمالها الاستفزازية منذ أن وقعت الهدنة، لكان من المحتمل أن يسود السلام فلسطين اليوم ، وكان من الممكن أن يكتشف أساس جديد للتفاهم بين العرب واسرائيل ..

وقد حدث ذات مرة عندما كنا نقوم بتحديد خط الهدنة جنوبى بلدة قثيلية ، أن وجدنا موردا صغيرا للمياه ، وبالرغم من أن الخط على الخريطة الاصليه كانت سعته عشرين ياردة تقريبا اذا طبق على الطبيعة بمقياس الرسم، فقد اتفق أخيرا على أن مورد المياه يقع في داخل اسرائيل بمسافة ثلاث ياردات . وكانت الأرض على الجانب الاسرائيلى من الخط في هذه النقطة مجدبة وغير مزروعة ، وأقرب مزرعة اسرائيلية تبعد ميلا تقريبا الى الغرب، بينما كان الجانب العربى الملاصق للخط يتألف من واد ضيق مزروع ، تستمد منه عدة أسر عربية أسباب الحياة . ومع ذلك فقد كان انتاج هذه البقعة الصغيرة من التربة الصخرية يعتمد على مورد المياه الواقع على بعد ثلاث ياردات في داخل الأراضى الاسرائيلية .

وقد سئل الاسرائيليون عما اذا كانوا يوافقون على تعديل مواصفات الخط بمقدار ثلاث ياردات ، فأجابوا بالنفى .

ولما سئلوا عما اذا كانوا يسمحون للعرب باستخدام الماء ، أجاب الضابط الاسرائيلى المسئول بلا تردد : اذا عبروا الخط فسوف يضربون بالنار .

فاذا كانت اسرائيل ترى فعلا في التوتر الدائم على الحدود ذخيرة تبتاع بها الرعاية العاطفية والكسب الاقتصادى ، أو اذا كانت تستخدم هذا التوتر أساسا لعدوان مقبل ، فان فرصتها للبقاء تكون قد ضاعت منذ أمد طويل . ولن تستطيع اسرائيل أبدا أن تشق طريقها بالوسائل العدوانية لتشغل مكانا دائما في الشرق الاوسط .

ان الدراسة الدقيقة تبين لنا أن مانفخر به إسرائيل من أعماله ، إنما هو في الواقع مصدر القلق . فهناك دولة صغيرة غارقة في السلاح ، قوية في روحها المعنوية ولكنها قصيرة النظر . فإسرائيل دولة فقيرة في الموارد الطبيعية ، وهي اليوم تبنى نظاما اقتصاديا يعتمد كلية على المساعدات الخارجية والمعونة الفنية التي تقدمها الولايات المتحدة خاصة . كما أنها وهي تتعجل نموها كانت بعيدة كل البعد عن الصواب وهي تقيم معيشة فوق مستوى طاقتها وامكانياتها .

ان على دعاة التوسع الذين يبنون آمالهم على بعض هذه الحقائق ، أن يدركوا أن الامكانيات الاقتصادية لأية أمة إنما تزداد بنسبة زوال خلافاتها السياسية مع الدول المجاورة لها .

والواقع أن الولايات المتحدة ورعاياها اليهود ذوي الميول الصهيونية لا يستطيعون مساعدة إسرائيل الى الأبد . وسيأتي يوم يعلقون فيه استمرار المساعدة على قيام السلام في الشرق الأوسط . وقد لا يتمشى هذا الموقف مع مصالح إسرائيل ولكن الأخذ به يقضى على أمل إسرائيل في الحياة .

ولا ينكر أحد فضيلة مساعدة اللاجئين اليهود في جميع أنحاء العالم للحصول على الامن ، ومع ذلك في الوقت الذي نعلم فيه استعدادنا لبذل الملايين في سبيل القضاء على الآلام ، يجب أن نحذر من دفع دولار واحدا نخلق به آلاما جديدة .

والدول التي أيدت قيام دولة إسرائيل رغبة في إيجاد مأوى للاجئين من اليهود ، تدرك الآن (عام ١٩٥٥) أنها عندما فعلت ذلك لم تقلل من عدد المشردين في العالم . فهناك ٩٠٠ ألف لاجيء عربي يعيشون في بؤس ويذكرون تلك الدولة بهذه الحقيقة . وعلى هذه الدول أن تقبل الآن الالتزام باصلاح الموقف ، وذلك بالسماح للاجئين العرب بالعودة الى أوطانهم في الأرض التي تحتلها إسرائيل ، أو أن تطالب إسرائيل بتعويضهم عما فقدوه من ممتلكات « (١٠) .

*

لقد أثبتت حروب العدوان الاسرائيلي المتكررة على الدول العربية وخاصة ما حدث في عامي ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، أن غالبية من اليهود الذين يعيشون في دول أخرى - خلاف دولة إسرائيل - قد جعلوا أنفسهم رعايا إسرائيليين حقيقيين ، مستعدين دائما لعمل كل ما يخدم أهداف إسرائيل ومطامعها التوسعية ، ولو كان ذلك على حساب مصالح الدولة التي ينتمون إليها ، وينعمون بخيراتها ويتمتعون بكافة امكانياتها باعتبارهم مواطنين مخلصين (!) من رعاياها .

لقد سبق أن نبه هتشيوسون - ولما يمضى على قيام اسرائيل اكثر من بضع سنوات - الى المشكلة التى أصبحت تعرف اليوم باسم : الولاة المزدوج اليهودى ، الذى هو فى حقيقته بمكن تعريفه باسم : النفاق اليهودى ، رغم أن توقعاته بالنسبة لسلوك اليهود المقيمين خارج دولة اسرائيل - باعتبارهم سيكونون رعايا مخلصين للدول التى يعيشون فيها - كانت متفائلة وحسنة الظن بهم اكثر من اللازم .

فلقد قال هتشيوسون : « من الأسباب التى تعمى اسرائيل عن الدور الذى يجب أن تلعبه فى الشرق الأوسط ، شعور خاطيء بالأمن توحى به الصهيونية العالمية . فالقائمون على الحكم فى اسرائيل يعتقدون اعتقادا جازما بأنه عندما تجيء المعركة الفاصلة سيثبت اليهود فى كل الدول اخلاصهم لاسرائيل ، بغض النظر عن ولائهم للدولة التى يعيشون فى كنفها .

ومبعث شعور الأمن هذا عند حكام اسرائيل هو الاعتقاد بأن الصهيونية تتحدث باسم اليهود ، وأن أى اجراء يتخذه اسرائيل سيلقى تأييدا حارا من يهود العالم . ويفترضون أن الصهيونية العالمية ستقوى ويقوى نفوذها الى حد لا يضمن المساعدات الخارجية فحسب بل يعبئها لتغطية كل حاجات اسرائيل . ويعتقدون أن النفوذ الصهيونى كفىل بأن يضمن لاسرائيل الاعتراف بأى ارض جديدة تحصل عليها .

ويعتقد الحاكمون فى اسرائيل أيضا أن الضغط الصهيونى فى العواصم ذات النفوذ ، وخاصة فى مقر الأمم المتحدة ، يضمن لاسرائيل الحماية والتهرب مما عليها من التزامات ، كما يضمن لها المحافظة على المستوى الاقتصادي الذى تتطلع اليه اسرائيل .

على اليهود - وأغلبهم رعايا مخلصون لدول يعيشون فيها الآن (عام ١٩٥٥) - أن يكونوا طليعة حملة واسعة النطاق لمساعدة اسرائيل على فتح الباب نحو الواقعية ، وخير وسيلة يتبعونها هى أن يهبوا ضد هذه الاقليات الصهيونية ذوات النفوذ التى تدعو اليهود الى ربط مصائرهم باسرائيل ، وعليهم الا يسمحوا لاسرائيل بأن تعتبرهم من رعاياها . ويجب عليهم أيضا أن يعلنوا صراحة أنهم لن يذهبوا الى ابعد من محاولة تحقيق حرية العبادة والفرار من مناطق الاضطهاد ، فمصالحهم تتركز فى رغبتهم فى نشر التعليم الدينى بين الشعب اليهودى .

ويجب عليهم كذلك أن يقفوا فى وجه سياسة اسرائيل العدوانية . وقد اذاع ييشسا ياهو كلينوف مدير العلاقات العامة فى الوكالة

اليهودية خطابا من محطة اذاعة القدس يوم ٩ أبريل عام ١٩٥٤ ، دعا فيه يهود أمريكا الى ممارسة ضغط سياسى بفية تحقيق اهداف اسرائيل فقال : (ولماذا نخشى قيام كتلة من الناخبين اليهود ؟ انها قائمة بالفعل عندما نواجه أى طارئ ، ونأمل أن تظل باقية . ووجود لجان يهودية فى الأحزاب الأمريكية لا يعتبر نقضا لمبادئ الدستور الأمريكى أو لتقاليد الحرية فى أمريكا . يجب أن يدرك الحزبان الديمقراطى والجمهورى أن الأعضاء اليهود ينتظمون فى جمعيات ، لا بوصفهم أمريكيين فحسب ، بل بوصفهم يهودا لهم مصالح يهودية هامة .

ويجب أن يشعر الشعب الأمريكى والحكومة الأمريكية بالضغط ، ويدركوا كيف يفكر ملايين الرعايا اليهود فى المصاعب التى تواجهها اسرائيل ، وان فكرة الوحدة اليهودية التى عادت علينا بالفائدة من روسيا وبولندا وألمانيا لن تكون ضارة فى أمريكا ؛

كم يجهل بعض الناس أمريكا وقدرتها على مواجهة التحدى ! (١١)

✱

وبعد - هل يستطيع الشعب الأمريكى أن يلقى السمع الى أحد أبنائه ، ليس فقط لأنه :

جاء فى مهمة رسمية بفلسطين المحتلة وانطباعه المبثى - كالفالية العظمى من الأمريكيين - بأن الحق فى جانب اسرائيل ، فقد كان يعلم أن تلك « الدولة الصهيونية الجديدة ترغب فى السلام بينما يرفض العرب ذلك .. وان اسرائيل هى الدولة الناهضة المناضلة التى يحيط بها العرب وتمتلئ قلوبهم بالبغض والكراهية » - لكنه بعد أن أنهى مهمته وعاد الى وطنه ، كانت آراؤه فى القضية الفلسطينية قد تحولت الى النقيض .

أو لأن هتشييسون قام بتلك المهمة باعتباره موظفا مسئولاً نال شرف ترشيح حكومته الأمريكية ليخدم تحت علم الأمم المتحدة فى فلسطين . وأنه قضى بها ثلاث سنوات مكنته من لمس الحقيقة على الطبيعة - ومن ثم فإن آراءه لا بد وأن تتسم بالمسئولية ، ان لم يكن لاعتبارات المعرفة والضمير ، فعلى الأقل بحكم ما تملبه عليه رعاية المصالح الحقيقية لوطنه - الولايات المتحدة الأمريكية .

لكن خطورة آراء هتشييسون انما ترجع في الواقع الى ما هو أهم من تلك العوامل التي سبقت الإشارة إليها - فهي ترجع الى صدق توقعاته وسلامة تقديره لموقف ونوايا اسرائيل والصهيونية العالمية ، وهو الشيء الذي استمرت تحققه الأحداث ، بعد أن نشر هتشييسون آراءه بسنوات .

فلقد قرر هتشييسون بوضوح أن اسرائيل دولة عدوانية تبغى التوسع ، وانها تعتمد على التوتر الدائم على الحدود لتحصل به على الرعاية العاطفية والكسب الاقتصادي ، وهي تستخدم هذا التوتر ذريعة للعدوان مقبل يحقق لها أطماعها التوسعية .

والذي حدث في عام ١٩٥٦ أن بدأت اسرائيل العدوان على مصر وفق خطة التواطؤ الثلاثي المعروفة ، مستخدمة التوتر القائم آنذاك بين إنجلترا وفرنسا من ناحية وبين مصر من ناحية أخرى لعدة اسباب من بينها تأميم مصر لشركة قناة السويس . وكان من ثمره ذلك العدوان أن احتلت اسرائيل سيناء وأعلن بن جوريون - رئيس الوزراء آنذاك - ضم سيناء رسميا الى اسرائيل ، لكنه اضطر بعد ثلاثة أشهر الى سحب اعلانه وسحب القوات الاسرائيلية من سيناء .

ولما كان التوسع والعدوان من طبيعة اسرائيل ، فقد بدأ قادتها منذ عام ١٩٥٧ يخططون لعدوان على الدول العربية ، تم تنفيذه بعد عشر سنوات في عام ١٩٦٧ ، بعد توتر مصطنع على الحدود وخديعة سياسية . ولقد استطاعت اسرائيل بهذا العدوان أن تبتلع ما تبقى خارج حدودها من فلسطين ، بالإضافة الى مساحات واسعة من أراضي الدول العربية المجاورة ، ثم بدأت في اقامة المستعمرات وتغيير معالم الأراضي العربية بنسف المدن والقرى واجبار الأهالي على الرحيل ، حتى تهيبء مكانا للقادمين الجدد من المهاجرين اليهود .

لقد كان التوسع والعدوان هو السبب المباشر للحرب العالمية الثانية التي اکتوت البشرية بنيرانها سنوات طويلة ، وها هو العالم يقترب من شيء كهذا بسبب اسرائيل - النازي الجديد - ومطامعها التوسعية .



ولكل ما سبق فان هتشييسون الضابط المسئول والمواطن الأمريكي يخاطب مواطنيه الأمريكيين فيما يجب أن يكون عليه موقفهم من القضية الفلسطينية ، فيقول :

« ان من واجب الناخبين الأمريكيين الآن ان يؤيدوا الدعوة الى ابعاد المشكلة العربية الاسرائيلية عن السياسة الداخلية . ويجب أن نطالب بسياسة خارجية تحمي مصالح أمريكا وحلفائها ولا يكون فيها ثغرات تخلقها الأغراض الخاصة لأقليات ذات نفوذ . لقد حدد الرئيس وشنطن في خطبة الوداع عام ١٧٩٦ الطريق التي يجب أن تسلكها الولايات المتحدة في معالجة مشاكل الشرق الأوسط فقال : (ليس هناك أوجب من استئصال كل نفوذ دائم متأصل ضد دول معينة وكل تقرب عاطفي الى دول أخرى ، وبدلا من هذا وذلك يجب أن نقيم علاقاتنا بالجميع على أساس العدل والصداقة .

وتقرب دولة من أخرى على أساس عاطفي يخلق اضرارا كثيرة . فالعطف على الدولة المقربة يهيء وهما بوجود مصالح مشتركة في حالات لا توجد فيها مصالح مشتركة بالفعل ، ويجلب علينا عداوة أعداء تلك الدولة ويجرنا الى الاشتراك في مشاكل وحروب تلك الدولة دون أسباب او مبررات كافية) .

وفي عام ١٨٠٣ ردد الرئيس جيفرسون قولاً مماثلاً ..

وإذا طبقنا هذه الحكمة على معالجة المشكلة العربية الاسرائيلية ، أصبح من واجب المسؤولين في الحكومة أن يبلغوا الشعب الذي يمثلونه ، الأهمية الحقيقية للعالم العربي :

ثرواته الضخمة في الرجال والموارد - أهميته الجغرافية في العالم المضطرب - امتداد أراضيه الواسعة التي يمكن أن تكون جسراً للصداقة في وقت السلام وجداراً قوياً - يحتمي به في وقت الحرب .

ومن واجب هؤلاء المسؤولين كذلك أن يحذروا شعب هذه البلاد من أن تجاهلنا للمثل الأمريكية وخضوعنا لمصالح الاقليات المفرضة يفقدنا الشرق الأوسط ..

ان طريق العودة لا يزال مفتوحاً ولكنه قد لا يظل مفتوحاً في الغد . ويجب على الولايات المتحدة ، وهي تقدر مسؤوليتها الأدبية كدولة كبرى ، أن تنتهج فوراً سياسة ايجابية غير متحيزة ، وأن تستخدم نفوذها في تحقيق السلام في الشرق الأوسط ..

ونحن لا نملك أن نهدد سلامة بلادنا بأن نغمض عيوننا عن كل شيء

الا عن صداقة اسرائيل ، وهي صداقة تتأثر مباشرة بقدرتنا على مساندة وجود هذه الدولة المشاكسة وسط دول معادية . يجب أن نكون واقعيين « (١٢) .

*

٢ - الماجور جنرال الدنمركى فون بنيكه :

اشتهر هذا الضابط في بلده بأنه حجة في الهندسة العسكرية وأحبه الشعب الدنمركى لاشتراكه في حركة المقاومة السرية ابان الحرب العالمية الثانية . وقد عين الماجور جنرال بنيكه رئيساً لهيئة الرقابة الدولية في فلسطين يوم ٩ سبتمبر ١٩٥٣ خلفاً للجنرال الأمريكى وليام رايلى . وقد كتب مقدمة لكتاب هتشيون : الهدنة الدامية - أقره فيها على كل وجهات نظره ، كما طالب دول العالم أن تتحمل مسؤولياتها في إقامة سلام دائم وعادل في الشرق الأوسط ، وذلك حين قال : « لا يكاد يوجد في الأحياء من هو أكثر من هتشيون معرفة بدقائق المعارك اليومية التى تدور على طول الحدود بين المملكة الأردنية واسرائيل .

فبعد مدة طويلة عملها كمراقب في لجنة الهدنة في القدس ، تولى هتشيون رئاسة لجنة الهدنة الأردنية الاسرائيلية المشتركة في صيف عام ١٩٥٣ حيث قوبل تعيينه في ذلك الحين بثقة رجالات العرب والاسرائيليين على السواء ، كما وثق به المواطنون العاديون على جانبي خطوط الهدنة . .

أما الحوادث الواردة هنا كأمثلة على ما وقع من مشاكل على خطوط الهدنة ، فقد وصفت بطريقة واقعية واضحة وفي اسلوب بسيط بعيد عن الهوى ، ولا يشوب هذا الوصف شيء من التحيز أو المبالغة . ومن الخير الآن لجميع الشعوب المحبة للسلام الا تغمض عيونها عن هذه الحقيقة . .

ان على جميع الذين ينشدون الحقيقة عن محور الخلافات القائمة في الشرق الأوسط أن يقرأوا هذا الكتاب (الهدنة الدامية) الذى ناشد المؤلف في نهايته ، الولايات المتحدة النظر الى هذه المشكلة بين الواقع ، دون التأثير بعوامل الضغط الداخلية التى تقوم بها جماعات خاصة ، ودون السعى الى تحقيق مكاسب شخصية .

وهذا النداء موجه ايضا الى الكثيرين في الدول الأخرى التى قد تتخذ فيها قرارات بشأن الشرق الأوسط ذات أثر حاسم فى حل هذه المشكلة . « (١٣)

٣ - الكولونيل الأمريكى ماكينيش :

هو ضابط أمريكى خدم فى اوربا خلال الحرب العالمية الثانية ثم عين فى هيئة الرقابة الدولية بفلسطين من ربيع ١٩٥٢ حتى صيف ١٩٥٤ حيث عمل مساعدا لكبير مراقبى الهدنة . وهو لذلك كان وثيق الصلة بالجنرال ولم رايلي ، ومعاوننا لخلفه الجنرال بنيكه .

وقد كتب هو الآخر مقدمة لكتاب هتشيون قال فيها : « اننى اعلم تمام العلم أن أى كتاب من هذا النوع خاصة اذا كتبه الكوماندور هتشيون ، سيصبح محل تحميم دقيق من قبل اولئك الأفراد أو الجماعات الذين يعارضون أية محاولة لتوجيه اقل نقد لاسرائيل أو للصهيونية العالمية ..

وبوصفى مساعدا لرئيس هيئة الرقابة الدولية واستنادا الى معرفتى للشخصية ، فاننى اعتقد أن الكوماندور هتشيون توخى التحفظ الفائق فى سرد الوقائع والآراء التى أوردها فى كتابه .

ومن الجلى أن أى حل لمشاكل فلسطين يجب ان يأخذ بعين الاعتبار المشاحنات السياسية ، ولكنه يجب الا يقتصر على هذا الميدان ، ولذلك فقد تضمنت مقترحات الكوماندور هتشيون للوصول الى حل سلمى لهذه المشكلة عوامل على جانب كبير من الأهمية ، وهى الالتزامات الاخلاقية التى يجب ان تتوخاها الدول الكبرى فى حل هذه المشكلة الحيوية .

والى أن تحظى هذه الالتزامات بما تستحقه من اهتمام فلن يكون هناك أمل فى الوصول الى حل دائم أو سلمى .

ويجب الا يغرب عن بال قراء هذا الكتاب انه بغض النظر عن مدى عدالة هذه الحلول أو صلاحيتها فهى ولاشك ستعرض لهجوم شديد من أولئك الأفراد أو الجماعات فى الولايات المتحدة الذين يحاولون دائما أن يقنعوا

الحكومة الأمريكية وشعبها بقبول مطالب إسرائيل دون جدال ، وان يسلموا
بنداءاتها ووجهة نظرها تجاه مشكلة فلسطين .

وزيادة على ذلك فهناك ظاهرة أخرى يؤسف لها وهي انه الى امد قريب
كان شعب الولايات المتحدة بوجه عام على معرفة ضئيلة بالحالة في
فلسطين . وفي بعض الأحيان يبدو انه لا يابه بالمشكلة على الاطلاق .

واليهود الأمريكيون بوجه عام ليسوا أسوأ أو أحسن حالا من بقية
الشعب الأمريكي في هذا الشأن . ويبدو أن الصهيونية نجحت في تعمية عدد
كبير من أولئك الأمريكيين اليهود ، كما نجحت في استغلال جهل الأغلبية
العظمى من الأمريكيين ونزوعهم الى عدم المبالاة مما أدى اليوم الى تعرض
علاقات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط لخطر بالغ ..

ان قراء هذا الكتاب سيساهمون في ضمان أمن الولايات المتحدة
وعائلاتهم وأشخاصهم وذلك بدراسة الحقائق الواردة فيه ، وبدعوة الآخرين
الى أن يسلكوا نفس السبيل « . (١٤)

*

وبعد - لقد اتفقت آراء هذا النفر الهام والعديد من المراقبين
العسكريين المحايدين - الذين ادركوا بكل حواسهم حقيقة النزاع العربي
الإسرائيلي لخبرتهم اليومية بما يدور فوق أرض فلسطين - واقتنعوا تماما
بثقل الظلم الفادح الذي نزل بعرب فلسطين نتيجة لخلق دولة إسرائيل .

ولاشك أن شهادة أولئك المراقبين المسؤولين من قبل الأمم المتحدة في
القضية الفلسطينية ضد إسرائيل على تنوع جنسياتهم - بين أمريكا وبلجيكا
والدنمرك - لما يزيد وضوح رؤية الحق العربي في تلك القضية ، ويدين دولة
الظلم والعدوان : إسرائيل .

٤- الدكتور جون ديفيز مدير وكالة غوث اللاجئين :

يعتبر بحكم وظيفته من اكثر الخبراء التصاقا بمأساة اللاجئين
الفلسطينيين التي نتجت عن قيام دولة إسرائيل . وقد القى بيانا في مؤتمر
اللاجئين العالمي الذي عقد بجنيف في يناير ١٩٦١ - قال فيه :

« ان غايتى اليوم أن اقدم صورة صحيحة عن مأساة اللاجئين الفلسطينيين وحاجاتهم كما أراها ، وانى أفعل ذلك على أمل أن تستطيع الهيئات التى تمثلونها من تقديم المزيد من المساعدات لهؤلاء المنكوبين ..

ان مشكلة اللاجئين الفلسطينيين ليست مستمرة فحسب ، بل انها تكبر أكثر فأكثر مع مرور الزمن ..

ونظرا لعدم التفهم الواسع (لهذه المشكلة) قررت أن أغتتم هذه الفرصة لأحاول ايضاح بعض المفاهيم الخاطئة التى تجعل المرء يصل الى استنتاجات خاطئة ..

الفكرة الخاطئة الأولى : أن عرب فلسطين عديمو الحيلة ويفضلون الصدقات الدولية على العمل من أجل كسب رزقهم - اما الواقع فهو أن هؤلاء الناس هم على وجه العموم ميالون الى العمل ولديهم رغبة قوية في أن يصبحوا قادرين على اعالة انفسهم . ففى عام ١٩٤٨ (عام قيام دولة اسرائيل) كان الاقتصاد الفلسطينى والثقافة الفلسطينية أكثر بلدان الشرق الأوسط تقدما ، كما يدل على ذلك ظهور بوادر نشاط صناعى واقتصادى ملحوظ وبرنامج تعليمى متسع وقيام طبقة وسطى مستمرة النمو . وترى بوجه عام ان العمال البالفين الذين يؤلفون هذه الطبقة الوسطى وجدوا عملا بعد نزوحهم عن فلسطين ولم يعتمدوا على الوكالة فى أى وقت من الأوقات . ولقد كان هؤلاء يؤلفون حوالى ٢٠ بالمائة من جميع القابلين للعمل الذين نزحوا عن ديارهم .

الفكرة الخاطئة الثانية : ان الحكومات العربية المضيضة قد أساءت معاملة اللاجئين باهمالها ايهم ، حتى وبقائهم كرهائن فى صراعها مع اسرائيل - والحقيقة هى أن هذه الحكومات المضيضة بوجه عام قد أبدت عطفًا وسخاء فى مساعدة اللاجئين ضمن حدود امكانياتها . فلقد آوتهم فى بلادها فى الدرجة الأولى ، وهى تنفق فى الوقت الحاضر ما يزيد عن الخمسة ملايين دولار فى العام بشكل خدمات للاجئين ، وبالإضافة الى ذلك فقد تحملت بصبر المصاعب الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية وردود الفعل التى تنشأ عن وجود أعداد كبيرة من اللاجئين ضمن حدودها .

الفكرة الخاطئة الثالثة : انه كان بالإمكان حل مشكلة اللاجئين منذ زمن بعيد لولا تأمر السياسيين العرب المجردين عن المبادئ والذين سعوا

إبقاء اللاجئيين عاطلين عن العمل وأن هؤلاء لا يمثلون الراى العام
- اما ملاحظاتي الخاصة فهى أن السياسيين العرب يسلكون كما يسلك السياسيون فى أى مكان آخر من العالم تقريبا من حيث أنهم متنبهون لشعور شعبهم . وفى رأى أن الناطقين العرب فى بياناتهم أمام الجمعية العامة وسواها يعبرون بدقة عن الشعور العميق والآمال الكامنة فى قلوب الشعب الذى يمثلونه ، وبتعبير صريح ان عقدة شعورهم هو رفضهم قبول اسرائيل كجزء دائم من الشرق الأوسط . وان اتصالاتى الواسعة فى الشرق الأوسط مضافا اليها الآراء العديد التى تبادلتها مع أشخاص غيرهم ممن لهم مثل هذه الاتصالات ، تقنعنى أن هذا هو ما يشعر به بالفعل الشعب العربى بكامله ، إلا المليون لاجئ فلسطينى فحسب . وان هذا الموقف الذى تسنده وتقويه المشاعر العمية هو الموقف الذى يشعر به السياسيون وينعكس فى بياناتهم وتصرفاتهم .

الفكرة الخاطئة الرابعة : تتصل هذه الفكرة اتصالا وثيقا بالفكرة الخاطئة الثالثة ، ومفادها أنه لو أمكن التوصل الى حل سياسى بين اسرائيل وجارتها العربيات عن طريق التفاوض فان مشكلة اللاجئيين ستحل
- ان هذا بعيد عن الحقيقة وسوف يبعد عنها اكثر فأكثر مع مرور الزمن .

الفكرة الخاطئة الخامسة : انه ينبغى اللجوء الى الضغط الخارجى على الحكومات المضيئة لاجبارها على الاسراع فى حل مشكلة اللاجئيين - ان متبنى هذه السياسة الذين اكتشفوا انهم كثيرون العدد يشيرون بتلمل الى مايزيد عن الثلاثمائة مليون دولار التى ساهمت بها الحكومات لمساعدة اللاجئيين الفلسطينيين خلال السنوات الثلاث عشر الماضية (من عام ١٩٤٨ الى عام ١٩٦١) . . .

ان هذا الشعور بالتلمل قد شجعه ولا ريب الفكرة الخاطئة التى سبقت الاشارة اليها ، وهى ان القضية بقيت حية على الاكثر نتيجة لتأمر السياسيين العرب .

وفى الوقت ذاته تجدر الاشارة الى انه لم يبد لنا بوجه عام أن مثل هذا التلمل قد أظهر بصدد تنفيذ الحل الذى ساعدت على وضعه الاغلبية الساحقة من الحكومات الأعضاء فى الأمم المتحدة ، والتى أعادت تأكيده سنة بعد سنة فى دورات الجمعية العامة المتتابعة . انى اشير الى الفقرة ١١ من لقرار الجمعية العامة رقم ١٩٤ الذى قررت فيه :

(وجوب السماح للاجئيين الراغبين فى العودة الى بيوتهم والعيش

بسلام مع جيرانهم بأن يفعلوا ذلك في اقرب وقت عملي ممكن ، ووجوب دفع تعويض عن اموال الذين يختارون عدم العودة وعن الخسائر والأضرار التي تلحق بها والتي تقتضى مبادئ القانون الدولي والعدالة أن تقوم الحكومات والسلطات المسؤولة بتعويضها) .

واسمحوا لي أن اضيف على الهامش أن الوكالة لم تكلف قط بمسئولية تنفيذ القرار رقم ١٩٤ « (١٥)

٥ - الوزير البريطاني - السابق - انتوني نتنج :

لقد وقف نتنج يحاضر في المجلس اليهودي الأمريكى بنيويورك يوم ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ بمناسبة مرور خمسين عاما على صدور وعد بلفور ، فيعرض مأساة فلسطين منذ وعد بلفور حتى ذلك اليوم ، ويذكر من الحقائق ما يؤرق مضاجع الصهيونية ويفضح خططها للسيطرة والتوسع .

فبالرغم من الضباب الكثيف الذى خلفته الهزيمة العسكرية التى لحقت بالعرب فى حرب يونيو ١٩٦٧ الا أن ذلك لم يطمس معالم الحقيقة التى خبرها نتنج بنفسه - بحكم وضعه وتاريخه (١٦) . الذى يؤهله لذلك - ولم يلق على تلك الحقيقة أقل القليل من الظلال التى قد تشكك فى الحق العربى فى القضية الفلسطينية ، أو تضع ذلك الحق فى مواضع اليأس التى يتخلى فيها كل المدافعين والأنصار .

(١٥) المرجع ١١ - ص ١٢٣٩ - ١٢٤٣ .

(١٦) أنتخب عضوا بالبرلمان الانجليزى كمرشح لحزب المحافظين عام ١٩٤٥ ، ثم عضوا بالمجلس الأوروبى عام ١٩٥١ . عين وزير دولة للشئون الخارجية عام ١٩٥٤ ثم رئيسا للوفد البريطانى فى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وفى لجنة نزع السلاح ، ثم انتخب نائبا لرئيس الجمعية العامة للأمم المتحدة . وقد استقال فى عام ١٩٥٦ احتجاجا على الهجوم البريطانى الفرنسى على مصر بالتواطؤ مع اسرائيل . وخلال الفترة ١٩٥٦ - ١٩٥٩ عمل مراسلا خاصا لصحيفة نيويورك هيرالد تريبون ، ومحاضرا فى الولايات المتحدة عن مشاكل الشرق الأوسط . له عدة مؤلفات فى أحداث ومشاكل الشرق الأوسط وأفريقيا .

مقدمة :

قال انتونى نتنج فى مقدمة حديثه الذى جعل عنوانه : **مأساة فلسطين منذ وعد بلفور حتى اليوم** (نوفمبر ١٩١٧ - نوفمبر ١٩٦٧) :

« منذ خمسين عاما مضت حتى اليوم أصدر وزير الدولة للشئون الخارجية الرايت او نراىل ارثر جيمس بلفور ، بالنيابة عن الحكومة البريطانية ، التصريح الشهير الذى يحمل اسمه ، وقد جاء فيه : أن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية ، على أن يفهم جليا انه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن فى فلسطين .

والآن وبعد مرور خمسين عاما على هذا التصريح ، خمسين عاما من الالم والعذاب والمرارة نجد الوطن القومى للشعب اليهودى قد تحول الى دولة اسراييل ، وامتهنت حقوق العرب فى فلسطين ، وديست بالأقدام تحت وطأة جيش الاحتلال الاسرائيلى .

والآن - كيف حدث هذا ؟ كيف تحول وعد بلفور الى هذا الشئ المر ، وخلف مثل هذه المرارة والعذاب ؟

لمعرفة ذلك يلزمنا ان نتتبع باختصار تتابع الأحداث المفجعة التى حلت بفلسطين عقب تصريح بلفور واقامة الحماية البريطانية بها ، لأننا اذا أردنا تفهم المشاكل السياسية الحالية التى نجمت عن الحرب العربية الاسرائيلية فى يونيو الماضى (من عام ١٩٦٧) فمن الضرورى استعادة الأحداث التى أوصلتنا الى هذا المأزق الخطير .



وعد بريطانيا للعرب :

« اننا لانستطيع ان ننسى - لأننا لو نسينا فان العرب انفسهم لن ينسوا - انه فى عام ١٩١٥ وعدت بريطانيا العظمى الشيخ حسين شريف مكة انه فى نظير مساعدة جيوشه العربية فى تجريد حملة ضد التحالف التركى الألمانى فى الحرب العالمية الاولى فان : كل فلسطين بالاضافة الى العراق وسوريا وشرق الأردن وشبه الجزيرة العربية - كل هذه الأقاليم ستتححر وتحصل على استقلالها بمجرد هزيمة حكامها الأتراك .

ولكن ما أن اعطى هذا التعهد وتحركت الجيوش العربية للثورة ضد الأتراك سارعت كل من بريطانيا العظمى وفرنسا الى عمل الاتفاق السرى المعروف باسم اتفاق سيكس - بيكو فى عام ١٩١٦ ، والذى بمقتضاه اقتسمت الدولتان فيما بينهما : سوريا والعراق وشرق الأردن كغنائم حرب .

ولزيادة المصيبة فقد تبع هذا فى ٢ نوفمبر ١٩١٧ - أى منذ خمسين عاما بالضبط مضت حتى اليوم - فان بريطانيا العظمى قررت أن تقيم فوق فلسطين قاعدة استراتيجية تستطيع منها ان تدافع عن قناة السويس تحت مظلة الصورة الانسانية التى تبدو فى تصريح بلفور .

وهنا شعر العرب بخديعتهم لنقض العهود بتلك الطريقة الساخرة ، رغم التوكيدات بالاستقلال التى اعطيت للشيخ حسين وللشعوب العربية . ونظرا لأنه ما زال هناك بعض الثقة فى حلفائهم السابقين فان العرب قد سمحوا لأنفسهم بأن تهدأ نأثرتهم وخاصة بعد أن قدمت اليهم تعهدات وتأكيدات جديدة .

ومن هذه التأكيدات ان الوطن القومى لن يتحول الى دولة قومية ، وان الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية - التى لا يمكن وصفها بأقل من اعتبارها شؤما أححق بالأكثرية العربية سوف يحافظ عليها .

وبناء على ذلك ، وبالرغم مما حدث ، فقد شعر العرب بأن التنكر لعهود الاستقلال قد يكون شيئا مؤقتا .

وفى هذه الأثناء كان عرب فلسطين يشكون ٩٢٪ من مجموع السكان بينما كانت نسبة اليهود ٨٪ فقط .



العرب يؤون اليهود :

« وهكذا بعد التسليح بهذه التأكيدات الجديدة فان بعض قادة العرب مثل الأمير فيصل ، وافقوا على المساهمة فى خلق ملجأ بفلسطين لليهود الهاربين من اضطهاد اوربا .

ولا شك أن مثل هذه المعاونة العربية كانت تتفق تماما وكرم الضيافة

الذى عرف به العرب تجاه اليهود المضطهدين في اوربا عبر القرون : من محاكم
الانفتيش الاسبانى الى مذابح روسيا القيصرية .

ان الشعب العربى كان هو الشعب الوحيد والشعب الوحيد فقط من
بين شعوب العالم المتحضر الذى لم يمارس قط أى اضطهاد لليهود .

وفى فلسطين حتى زمن قريب - مثل عام ١٩٤٨ - كانت العلاقة
وثيقة جدا بين العرب واليهود - وبعد ان اعطيت التأكيدات بأن حقوق
العرب لن تهتد مها كانت الظروف والأحوال ونظرا لمقدار التعاطف الذى
كان سائدا خلال التاريخ بين العرب واليهود ، فقد بدأ طبيعيا وعادلا ان يتفق
الأمير فيصل مع الدكتور حاييم ويزمان عام ١٩١٩ على انه سوف تتخذ جميع
الاجراءات لتشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين على نطاق واسع والحث
عليها بأقصى سرعة لاستقرار المهاجرين اليهود فى الأرض » .



بدء تنفيذ المخططات الصهيونية :

« لم يأخذ فيصل المسكين وزملاؤه من قادة العرب فى حسابهم - سواء
من الفلسطينيين أو غيرهم - تصميم الحركة الصهيونية على خلق دولة يهودية
وليس وطنيا قوميا فقط ، وهى دولة وصفها ويزمان فى كلماته بأنها دولة
(يهودية تماما كما ان بريطانيا بريطانية) .

كذلك لم يدخل الأمير فيصل فى حسابه تخاذل الحكومات البريطانية
المتعاقبة فى وجه الضغط الصهيونى الشديد ، وهو التخاذل الذى أدى الى
انشاء الوكالة اليهودية وجعلها حكومة تعمل داخل حكومة الانتداب بفلسطين ،
بينما انكر على العرب المشاركة فى حكم وطنى على أى صورة من الصور .

وهو التخاذل والضعف (من جانب الحكومات البريطانية) الذى سمح
للووكالة الصهيونية (اليهودية) بأن تشتري بأبخس الأثمان ، الأراضى التى
كان يملكها السوريون والبنبانيون ثم حرمتهم منها التكتلات الدولية التى
كانت تفصل بين الأراضى التى تدخل تحت حماية كل من بريطانيا
وفرنسا .

وهو أيضا التخاذل الذى سمح للوكالة الصهيونية بأن تطرد الآلاف من
العرب ، مستأجرى الأرض ومزارعيها ، لتفسيح الطريق امام المستوطنين
اليهود الجدد والقادمين من اوربا ، بعد تعويض اولئك المستأجرين فى بعض

الأحيان بقيمة زهيدة لم تزد عن عشرة دولارات للعائلة الواحدة . وبعد انقضاء حوالى عشر سنوات من هذه المعاملة بدأت بريطانيا أخيراً فى عام ١٩٣٠ تظهر الاعتراف بضرورة حماية حقوق العرب ، وذلك بإحكام الرقابة على الهجرة اليهودية ، وحماية الفلاحين العرب ومستأجرى الأرض - وهو الأمر الذى لم يحتاج إلا الى تهديد الدكتور ويزمان بالاستقالة من رئاسة المنظمة الصهيونية العالمية ، حتى اضطر المستر رمزى ماكدونالد رئيس الوزراء البريطانى أن يتخلى عن تلك السياسة ، ويتحول الى سياسة اطلاق يد الصهيونية فى فلسطين .

ثم ادى تولى هتلر مقاليد الحكم فى المانيا النازية الى زيادة الهجرة اليهودية الى فلسطين بصورة مركزة مما نتج عنه زيادة نسبة اليهود السكانية من ٨٪ الى ٣٠٪ من مجموع سكان فلسطين ولقد احتج العرب على ذلك ، وفى لحظة ما بدا كما لو ان الحكومة البريطانية اعترفت بمطالبهم ، فعرضت انتخاب جمعية تشريعية على أساس النسبة العديدة وهو الشيء الذى سيجعل أغلب الأصوات لصالح العرب ، لكن الحكومة البريطانية لم تلبث ان تراجعت فى وجه الاحتجاجات من الصهاينة الذين خشوا سيطرة العرب على تلك الجمعية وهو الأمر الذى يهدد خططهم لخلق دولة يهودية قومية فى فلسطين » .



ثورة العرب :

« وبعد ان وضع العرب فى مواضع اليأس والقنوط فانهم قرروا ان تكون الثورة المسلحة هى الطريق الوحيد لتأكيد حقوقهم . وقد استمرت الثورة من عام ١٩٣٦ الى عام ١٩٣٩ حيث فقد فيها العرب الكثير من الأرواح والممتلكات اكثر مما فقد كل من اليهود أو البريطانيين .

وفى عام ١٩٣٩ وجدت الحكومة البريطانية ان عليها تقبل حقيقة الأمر وهوان للعرب قضية وان عليها ان تفعل شيئاً تعوض بها الطريقة المخزية التى خدعوا بها وضيعت بذلك حقوقهم ، ولذلك عقد مؤتمر لندن وعندما تعذر التوصل الى شيء فان الحكومة البريطانية قررت الحل كما جاء فى الكتاب الأبيض الشهير الذى صدر عام ١٩٣٩ وفيه تقرر أن تصبح فلسطين - بعد مرور عشر سنوات - دولة مستقلة ثنائية القومية ، يتقاسم فيها العرب واليهود الحكم ومؤكدة بذلك المصالح الأساسية لكلا الطائفتين . كذلك كان من المقرر أن تستمر الهجرة لمدة خمسة اعوام أخرى وبمعدل ١٥٠٠٠ يهودى كل عام وبعد

تلك المدة تكون الهجرة مقيدة بموافقة العرب الذين يجب حماية أرضهم من عمليات الشراء او الاستيلاء عليها عن طريق الوكالة اليهودية .

ولكن ما ان بدأت الحرب العالمية الثانية وهددت المانيا بريطانيا حتى وجدت الأخيرة نفسها في وضع لا تستطيع فيه ان تفرض حلا للمشكلة الفلسطينية .

ولقد أدى اضطهاد النازية في المانيا وفي اوربا المحتلة الى تدفق الهجرة اليهودية الى فلسطين على هيئة طوفان بشرى » .

« وبعد الحرب كانت بريطانيا غير مستعدة للمقاومة اكثر من ذلك ، وفي ياس سلمت حمايتها على فلسطين الى خليفة عصبة الأمم وأعنى بها الأمم المتحدة وذلك لتعمل اسوأ ما يمكن عمله ، وهو ما حدث فعلا عندما قامت الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين الى ستة مناطق : ثلاثة لليهود وثلاثة للعرب وبطريقة اعطت اليهود افضل الاراضى وتركت للعرب برية اليهودية وتلال الجليل الأعلى » .



الارهاب الصهيونى :

« منذ اللحظة التى اقرت فيها الأمم المتحدة قرار التقسيم فى نوفمبر ١٩٤٧ حتى رحيل القوات البريطانية عن فلسطين فى مايو ١٩٤٨ - عندما اعلن رسميا قيام دولة اسرائيل - فان الصهيينة بمعاونة عصابة ستيرن مضوا فى تحريض العرب على ترك المساحات التى كان من المفروض ان تدخل فى حدود دولة اسرائيل المقترحة . وللبرهنة على ان كل عربى ليس له مكان فى اسرائيل ، فان عصابة ستيرن - كما لا يزال البعض يذكر ذلك اختارت بعض القرى مثل دير ياسين لتقوم فيها بمذبحة لمواطنيها العرب حتى تخلق حالة من الرعب والفرع ينتج عنها خروج السكان العرب من أراضيهم » .



اللاجئون الفلسطينيون نتيجة للعدوان الاسرائيلى :

« ما ان جاء مايو ١٩٤٨ وتخلت بريطانيا نهائيا عن مسؤولياتها فى فلسطين ، حتى كان هناك اكثر من ٣٠٠ ألف لاجىء عربى طردوا من ديارهم ومزارعهم واصبحوا يمثلون الدفعة الاولى من تلك المجموعة من الناس سيىء الحظ فاقدى الأمل الذين ابتلوا فى انسانيتهم والذين نعرفهم اليوم باسم اللاجئين الفلسطينيين .

ان الدعاية الصهيونية تريدنا أن نعتقد بأن اللاجئين الفلسطينيين جاءوا نتيجة للهجوم العربي على اسرائيل عام ١٩٤٨ وان قادتهم العرب أمروهم بالرحيل عن اراضيهم بعد أن وعدوهم باعادتهم اليها بعد تصفية دولة اسرائيل .

ان الحقيقة عكس ذلك تماما .

فلقد كزن عدد اللاجئين الفلسطينيين - قبل هجوم العرب في مايو ١٩٤٨ - يزيد على ٣٠٠ ألف لاجيء عربي ، وكان الصهاينة هم الذين امرؤهم - كلا - بل اجبرؤهم على ترك الأراضي التي خصصت لانشاء دولة اسرائيل .

وهكذا نجد ان الصلذق هو أن يقال : ان اللاجئين العرب كانوا السبب في الحرب الأولى التي شنها العرب ضد الاسرائيليين ، بدلا من اعتبارهم نتيجة لها .

وبالطبع عندما خسر العرب الحرب في عام ١٩٤٩ وخسروا معها الجليل الأعلى وأغلب الأراضي التي خصصها لهم مشروع التقسيم ، فان عدد اللاجئين ازداد كثيرا بل انه في الحقيقة قد تضاعفت بخروج العرب من الأراضي التي احتلتها الجيش الاسرائيل .

وكما حدث تماما في يونيو الماضي ١٩٦٧ فان الأمر لم يستلزم تحذيرا من قادتهم العرب اذ ان العرب كانوا قد رحلؤ عن الضفة الغربية لنهر الأردن ضد نصيحة قادتهم العرب ، الذين طلبوا اليهم البقاء بأراضيهم وحذروهم مغبة الرحيل عنها ، ومع ذلك خرج ١٧٥ ألف عربي من ديارهم وتحولوا الى لاجئين .

لقد خرج العرب من ديارهم لأنهم فزعوا - كما يفزع المواطنون المدنيون في الحرب بسبب احتلال الغزاة الاسرائيليين لبلادهم - وكما فزع من قبيل الفرنسيون والبلجيك والهولنديون عام ١٩٤٠ ويكفي القول بأنه ما أن انجلي غبار معركة يونيو ١٩٦٧ حتى كان العرب الفلسطينيين في اسوأ حال ووجد حوالى ٧٠٠ ألف عربي أنفسهم وقد اصبحوا بلا مأوى يعيشون على احسانات الدول العربية والأمم المتحدة ، وقد انكر عليهم حق العودة الى اراضيهم التي امتلكها اجدادهم وعاشوا فيها قرونا طويلة .

ان اللاجئين الفلسطينيين دفعوا الثمن - ولا يزالون يدفعونه - لما فعلته أوروبا بالشعب اليهودي .



مسئولية بريطانيا :

« كيف حدث هذا . ؟ »

ان العرب يعتقدون بأن بريطانيا اخذت فلسطين مفتتحة ضماناتها التي اعطتها للعرب - لاسباب استعمارية استراتيجية وذلك كي تخلق منها قاعدة تستطيع ان تمارس منها نفوذها في العالم العربي ومن حوله .

ان هذا القول لا يخلو من كثير من الحقيقة ولا يمكن تجاهله بسهولة .

فبعد الحرب العالمية الثانية كانت بريطانيا قد استنفذت مواردها ، ولم يعد في مقدورها أن تقيم مثل تلك القاعدة . ومن أجل ذلك أدخلت بريطانيا وحلفاءها الغربيين هذا الجسم الغريب - دولة اسرائيل - لتقوم بالعمل في خدمة بريطانيا والحلفاء وتؤدي نفس الدور الذي لم يعد في وسع بريطانيا ان تقوم به ، ويمثل رأس جسر لتحقيق الأهداف البريطانية والغربية ومخططاتها في العالم العربي .

ان هذه الشكوك المعتمة وجدت ما يؤكدها في حرب السويس عام ١٩٥٦ . عندما قامت بريطانيا وفرنسا باستخدام اسرائيل كحصان طراوده في محاولة يائسة لاحتلال مصر والاستيلاء على قناة السويس » .

*

اسرائيل النازي الجديد :

« ان الهدوء النسبي الذي يتحدث عنه الصهاينة اليوم (نوفمبر ١٩٦٧) في الضفة الغربية لنهر الأردن انما يرجع في الحقيقة الى حالة الصدمة التي اصابت المواطنين (نتيجة لحرب يونيو) وسوف يذهب سريعا هذا الهدوء - اذا لم يفعل شيء - وينقلب الى حرب عصابات يلجأ فيها الاسرائيليون الى استخدام وسائل للقمع اكثر وحشية تماما كما فعل الألمان واليابانيون والاطاليون عندما لجأوا الى تصعيد وسائل قمعهم ضد حركات المقاومة في الأراضي التي احتلوها في الحرب العالمية الثانية .

لقد كنت في فرنسا عام ١٩٤٠ واتذكر تماما نفس الشعور - ونفس الجو بين الشعب الفرنسي - الذي بدأ يسود الآن الضفة الغربية لنهر الأردن .

لقد كان الغزاة يقولون في دعاياتهم ان الفرنسيون سعداء تماما لخروجهم من الحرب ، وكم كانوا شاكرين الجميل للألمان . ،

ولم تكد تمضى عدة شهور بعد ذلك حتى بدأت اعمال القتل والفتك ،
وفي عام ١٩٤٤ فقد كثير من الشرفاء من الرجال والنساء حياتهم ، وأخذوا
وهائن لبعض حوادث المقاومة .

أن حركة المقاومة ستنشط في الضفة الغربية وفي قطاع غزة طالما ان
اسرائيل تزهو وتسير بخطى المحتل الغاصب في هذه الاراضى وعندئذ ستلجأ
اسرائيل بدورها الى مزيد من المعاملة الوحشية » .

*

حقوق عرب فلسطين :

« ان العرب لن ينسوا قط سبب تعاسة اخوانهم الفلسطينيين ولن
يقبلوا ابدا أن تبقى ارض فلسطين كما هي اليوم - محتلة بدولة غربية ، وان
اى شىء آخر يمكن اعتباره عاملا ثانويا بالنسبة لذلك العامل الانساني
الذى يتعلق بحقوق عرب فلسطين ، والذى يمثل محور الصراع الدائر في
الشرق الأوسط والذى لا بد من ايجاد حل له .

لقد شعرت دائما - وشعر معى كثير من الناس الذين عرفوا فلسطين
في ايامها الماضية - أنه بخلاف المشاكل الانسانية التى نتجت عن خلق دولة
صهيونية غربية في الشرق الأوسط ، والآلام التى عاناها الشعب الفلسطينى
من جراء ذلك - فان اسوأ هذه النتائج هو تحطيم دولة فلسطين بتقسيمها
الى جزئين أو بالأحرى الى ستة اجزاء مختلفة . فبالرغم مما قاسته فلسطين
في العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين فانها كانت اكثر دول العالم
العربى ثقافة وتعليما . وكانت كذلك منذ ايام الامبراطورية العثمانية » .

*

الحل هو فلسطين الوحدة :

« هل هو كثير ان نرجو - حتى هذا الوقت المتأخر - ان تسود
الحكمة والتعقل بين القادة الاسرائيليين .

هل هو كثير ان تقول اسرائيل بوضوح - وان تعنى ما تقمولى - ان
الفلسطينى العربى له نفس الحقوق التى تخص بها الفلسطينى اليهودى مثل
حق الحياة والعمل ، وان يشارك العربى بنفس النصيب ابناء عمومته من
اليهود في تسيير دفة الامور في بلده وان تبقى الحقوق الاساسية لكلا الطائفتين
محفوظة ؟

قد يقال بأن هذا يتعارض مع مطالب الصهيونية ، ولكن الرد على ذلك هو انه حتى قبل الخامس من يونيو (١٩٦٧) فان حلم الصهيونية في خلق دولة يهودية تماما كما ان بريطانيا بريطانية ، لم يتحقق .

فقبل الخامس من يونيو كان باسرائيل ٣٠٠ ألف من بقايا العرب الذين التصقوا بالأرض ولم تستطع اسرائيل طردهم والتخلص منهم ، وهؤلاء كانوا يشكلون نسبة تبلغ ١٥٪ من مجموع سكانها .

والان - بعد حرب يونيو - فان اسرائيل تحتل مساحة من الأرض بها ١.٥ مليون عربي أي ٤٠٪ من السكان وهو الشيء الذي لا يتفق وحلم الصهيونية في بناء دولة يهودية نقية العنصر في الشرق الأوسط .

ماذا يقول الصهاينة القدامى في هذا ؟

انه مهما كانت الحدود النهائية التي تقبلها اسرائيل حسب مزاجها العنيد الذي تغلفه نشوة النصر المؤقتة (بعد عدوان يونيو ١٩٦٧) ، فلسوف يبقى دائما كمية كبيرة من العرب داخل حدود الأرض المحتلة .

وما من شك في ان اعادة توطين اللاجئين الفلسطينيين يمثل اللب في أي اسوية سلمية يمكن التوصل اليها مع العرب .

ان حل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين يتطلب ولاشك خلق فلسطين الموحدة سياسيا والتي تتسع لكل من العرب واليهود « (١٧)

٦ - المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي :

بعد هذا العرض الموجز الذي قدمه أنتوني نتنج للمأساة الفلسطينية - التي حدثت بفعل السياسة البريطانية وفي ظل الانتداب البريطاني - يقتضينا الموقف هنا ان نعرض بشيء من التفصيل لبعض الحقائق والبيانات التي تتعلق بوعدهم بلفور وما ترتب عليه من أحداث .

Anthony Nutting : THE TRAGEDY OF (١٧)
PALESTINE FROM THE BALFOUR DECLARATION
to TODAY, The Morssett Press, LONDON, S.W. 1.

ان كثيرا من المحققين الثقة يتفقون على ادانة السياسة البريطانية في فلسطين ، ويعتبرون أن ما حدث في ذلك البلد المنكوب وما يجرى على ارضه حتى اليوم من مآسى وآلام انما هو في الواقع نتيجة لتك السياسة التي كانت تتخبط عن عمد .

فلقد كانت بريطانيا هي الدولة المنتدبه على فلسطين وكان الالتزام الذي تعهدت به امام المجتمع الدولي هو أن تمكن لفلسطين من ان تصبح دولة مستقلة ذات سيادة ، ولم يكن لها اقل القليل من الحق في ان تتصرف على أى نحو يكون من شأنه الحاق الضرر بمصالح المواطنين الفلسطينيين والذين يتمثلون في اغلبية ساحقة من العرب تصل الى ٩٢٪ من مجموع السكان .

لكن بريطانيا بسياستها الاستعمارية اخلت بالتزاماتها الدولية ، وسمحت لنفسها بأن تتصرف في فلسطين بما يحقق اطماعها في السيطرة على المنطقة العربية ، فأعطت وعد بلفور في صورته المعروفة المتناقضة وجعلته محور سياستها طيلة فترة الانتداب . ومع أن هذا الوعد لم يتحدث صراحة أو ضمنا عن اقامة دولة يهودية في فلسطين الا انه كان التكاة التي تدرعت بها الحركة الصهيونية في اقامة تجمع يهودى في فلسطين يكون نواة لخلق دولة يهودية فيما بعد .

يقول المؤرخ البريطانى ارنولد توينبى في المناظرة التي عقدهت بينه وبين السفير الاسرائيلى في مونتريال بكندا عام ١٩٦١ - عن وعد بلفور :

« والآن احب ان اتحدث عن وعد بلفور واحب ان اؤكد أولا انى شخصيا من اشد الناس تنديدا بوعد بلفور ، وقد كنت في شبابه خلال الحرب العالمية الاولى اعمل للحكومة البريطانية في الامبراطورية التركية ، وكانت هذه تشمل بالطبع فلسطين . وعلى ذلك فقد توفرت لى معرفة داخلية بما حدث في ذلك الوقت

وكما ائدد بوعد بلفور فانى ائدد تنديدا اشد بمسلك حكومة الانتداب البريطانية خلال الثلاثين سنة التالية على التصريح ، ذلك لانى ائعتقد اننا (نحن البريطانيين) لم نتفق على خط سياسى أو نعزم ائمرنا على أمر سواء بالنسبة لهذا الجانب أو ذاك ، وهو أمر أضر بالعرب واليهود على السواء .

ان الفقرة الاولى من التصريح تنص على أن بريطانيا تتعهد بتأييد أو اقامة - أو أى شئ من هذا القبيل - وطن قومى لليهود في فلسطين ، أما

الفقرة الثانية فتخص على أن لا يتخذ أى إجراء من شأنه المساس بمصالح مسكان البلد الذين كان العرب يؤلفون منهم اذ ذلك - أى وقت صدور التصريح فى عام ١٩١٧ - ٩٠ ٪ من السكان .

وأنا أوجه اللوم الى تصريح بلفور لأن كلمة « وطن » قد أتت على نحو غامض ولكن الأمر أوضح غاية الوضوح كما أعلم بصورة مباشرة من الاطلاع على الوثائق التى صدرت فى ذلك الحين باعتبارى موظفاً مؤقتاً فى وزارة الخارجية البريطانية . لقد وضع غاية الوضوح وبصورة قبلها دكتور وايزمان اذ ذلك أن « وطن » لا تعنى « دولة » ، ذلك لأنه لو كان هذا كذلك - أى لفظ وطن يعنى دولة - لكانت الفقرة الأولى من تصريح بلفور تناقض الفقرة الثانية منه . وهذه الفقرة الثانية انما هى التزام لا يقل ايجاباً وحجية بالنسبة للحكومة البريطانية التى أصدرت التصريح ، وهو يفرض عليها ان لا يقع أى حيف بحقوق ومصالح السكان الحاليين فى البلاد .

ولعل الوطن القومى كان يمكن أن يأخذ صورة دولة فلسطينية تضم اليهود والعرب على قدم المساواة ، ولا شك فى أن جميع الأنظمة والشعوب التى عاشت فى فلسطين منذ عام ١٣٥ بعد الميلاد قد سمحت لليهود بالعيش فى فلسطين واعترفت لهم بحقوقهم . ولقد كان يعيش فى القدس دائماً جماعة من اتقياء اليهود يدرسون الشريعة ، وكان النظام التركى يسمح بهذا ، وأشك فى أن الصليبيين كانوا يسمحون به .

ولعل الدولة الوحيدة التى أنكرت على اليهود هذا الحق هى دولة الصليبيين .

وفكرة الوطن القومى هى توسيع لهذا الوضع ، لقيام ١٥٠ ألف يهودى بدراسة الشريعة فى القدس و ١٢ ألف يهودى يعملون فى الزراعة ، كما كان الحال سنة ١٩١٧ . لقد كانت هذه هى الصبغة القديمة للوطن القومى لليهود .

وقد استهدفت الحركة الصهيونية التى كان يتزعمها دكتور وايزمان ، والحكومة البريطانية توسيع قاعدة هذا الوطن اليهودى القومى واسباغ مظهر حديث عليه ، وذلك بالسماح بهجرة أوسع وأن يخول اليهود الحق وتيسر لهم السبل للاستقرار فى أعداد محدودة فى فلسطين اذ ذلك .

انى أوجه اللوم لوعد بلفور فى هذا المعنى واعتقد أن محامياً يستطيع

أن يثبت تناقض الالتزامين الذين يتضمنهما ، وعلى كل حال فقد يبدو هذا حكمة متأخرة .

لقد وضعت فلسطين في مرتبة « أ » بقصد اعدادها للحكم الذاتي والاستقلال التام . وقد فسر العرب باعتبارهم يكونون ٩٠ ٪ من سكان البلاد بأن استقلال فلسطين معناه أن تصبح دولة عربية تضم أقلية يهودية . وفسر بعض اليهود الوطن القومي باعتباره منتصف الطريق نحو الدولة اليهودية ، وأخشى أن أقول أن بعضهم كان يردد : « حتى لو أن هذا لم يرده البريطانيون فسنستخدمه كذريعة للحصول على دولة يهودية في النهاية » .

وما دام التصريح قد نص على عدم المساس بمصالح السكان غير اليهود البالغ عددهم ٩٠ ٪ فمعنى هذا أنه لا يمكن قطعاً أن يقوم وطن قومي في المعنى السياسي بل على أن يقام هذا على الأكثر في المعنى الثقافي » .



سياسة بريطانيا : تقسيم ولا تقسيم !!

لقد أحس العرب الفلسطينيون بالمؤامرة التي تستهدف وطنهم منذ صدر وعد النفاق - وعد بلفور - وعندما فتحت حكومة الانتداب البريطاني أبواب فلسطين للهجرة اليهودية تحققوا من خداع السياسة الاستعمارية ومن حالة الضياع التي ستعرض لها بلادهم اذا سارت الأمور على ذلك المنوال ، وعندئذ قرروا العمل الايجابي لاحباط تلك المؤامرة بالسير في مجالات العمل السياسي والكفاح المسلح . وفي كل مرة تلتهب فيها ثورتهم كانت الحكومة البريطانية تلجأ الى أساليب مختلفة للقضاء على ما كانت تعرفه باسم « القلاقل والاضطرابات التي تخرق القانون والنظام » ومن تلك الأساليب ما كان ناعم اللمس ، مثل اصدار المزيد من الوعود والتأكيدات بالحفاظ على المصالح العربية ، وارسال لجان للتحقيق وتقصى الحقائق ، وتقديم حلول مقترحة لازالة اسباب تلك الاضرابات ثم اصدار كتب بيضاء أو سوداء - ومنها ما كان يعتمد على أسلوب القمع والقوة الجائرة التي ذاق منها العرب الفلسطينيون الشيء الكثير .

حتى اذا كانت ثورة العرب في عام ١٩٣٦ كلفت الحكومة البريطانية لجنة عرفت باسم « اللجنة الملكية لفلسطين » رأسها الايرل بيل للتحقيق في أسباب تلك الاضرابات وعمل التوصيات اللازمة لمنع تكرارها .

وقد اقترحت اللجنة في تقريرها الذي نشرته في ٧ يوليو ١٩٣٧ تقسيم

فلسطين أو بتعبير أدق تقطيعها الى قصاصات تمحو معها تاريخها الطويل وذلك بإنشاء ثلاث دويلات كالآتي :

١ - وضع الأماكن المقدسة تحت انتداب بريطاني دائم ، وتمتد حدود هذه المنطقة المقدسة « من نقطة شمال القدس الى نقطة جنوب بيت لحم ، وأن يسر لهذه المنطقة أمر الاتصال بالبحر بواسطة ممر يمتد من شمال طريق يافا الرئيسية الى جنوبي السكة الحديدية شاملا مدينتي اللد والرملة ومنتها في يافا » . كذلك تشمل منطقة الانتداب « الناصرة وبحر الجليل (بحيرة طبرية) وأن يعهد للدولة المنتدبة بإدارة الناصرة وأن تخول السلطة التامة للمحافظة على قداسة مياه وشواطئ بحيرة طبرية (١٧) .

٢ - إنشاء دولة يهودية في أخصب قسم من البلاد وأهمها بما فيها أفضية حيفا وعكا وصفد وطبريا .

٣ - حشد العرب فيما تبقى من الأراضي الجبلية والصحراوية ومدن غزة ويافا ونابلس وجنين وطولكرم .

*

لكن صمود المقاومة العربية واستمرارها أقنع الحكومة البريطانية بعدم جدوى السير في مشروعات التقسيم ، مما اضطرها الى اصدار بيان في ٩ نوفمبر ١٩٣٨ تعان فيه التخلي عن فكرة تقسيم فلسطين لما ينطوي عليه ذلك من مخاطرة تجعل التقسيم اقتراحا غير عملي على الاطلاق .

ولقد جاء في بيان الحكومة البريطانية ما يلي :

« كانت اللجنة الملكية التي ترأسها الأيرل بيل قد نشرت تقريرها في شهر يوليو سنة ١٩٣٧ واقترحت حلا لمعضلة فلسطين بواسطة مشروع للتقسيم تنشأ بموجبه دولة عربية مستقلة وأخرى يهودية بينما تحتفظ بالمناطق الأخرى تحت ادارة الدولة المنتدبة .

وقد وضع اقتراح اللجنة الملكية على ضوء المعلومات التي كانت متيسرة

في ذلك الحين ، وما اعترف به بصورة عامة أن الواجب اجراء تحقيق مفصل قبل أن يتسنى اتخاذ قرار فيما اذا كان مثل هذا الحل سيثبت كونه عمليا . وقد كان هذا الاقتراح موضع البحث فيما بعد في البرلمان وفي اجتماعات لجنة الانتدابات الدائمة ومجلس عصبة الأمم وهيئة اللجنة الملكية ، وتلفت حكومة جلالتة عندئذ تفويضا بأن تبحث فيما اذا كان من الممكن تطبيق مبدأ التقسيم عمليا .

ثم أعربت حكومة جلالتة في رسالة وجهها وزير المستعمرات الى المندوب السامى بتاريخ ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٣٧ عن رغبتها في القيام بالتحقيقات الاضافية الضرورية لوضع مشروع آخر يكون اكثر دقة واعم تفصيلا . وقد أوضحت تلك الرسالة أيضا مهام واختصاص اللجنة الفنية التي انتدبت لزيارة فلسطين وتقديم اقتراحات لحكومة جلالتة بعد قيامها بالتحقيق المقضى فيما يتعلق بهذا المشروع المفصل .

ان حكومة جلالتة قد تلفت الآن تقرير لجنة تقسيم فلسطين بعد ان قامت هذه اللجنة بالتحقيقات التي انتدبت لها بمقتضى الدقة والكفاءة . وقد نشر تقرير اللجنة الآن مع خلاصة للاستنتاجات التي توصلت اليها .

ومما هو جدير بالذكر أن الأعضاء الأربعة قد أوصوا برفض مشروع التقسيم الذى رسمته اللجنة الملكية باجماع الراى .

وقد قرأ رأى حكومة جلالتة بعد انعام النظر والتدقيق في تقرير لجنة التقسيم ان هذا التحقيق الاضافى قد اظهر الصعاب السياسية والادارية والمالية التى ينطوى عليها الاقتراح القائل بانشاء دولة عربية مستقلة وأخرى يهودية مستقلة وانها عظيمة لدرجة يكون معها هذا الحل للمعضلة غير عملى (١٨) .



وفي ١٧ مايو ١٩٣٩ أصدرت الحكومة البريطانية بيانا بخطتها السياسية في فلسطين اعترفت فيها بصراحة بأن « الوطن القومى » لا يعنى « دولة » ، وأن الحل الذى قررت اتباعه ازاء المشكلة الفلسطينية - والذى أشار اليه نتج من قبل - هو تكوين حكومة فلسطينية يشترك فيها العرب واليهود .

قال البيان : « لقد لفتت اللجنة الملكية ولجان التحقيق الأخرى التي سبقتها ، النظر الى الغموض المحيط ببعض العبارات الواردة في صك الانتداب كعبارة « وطن قومي للشعب اليهودي » ووجدت في هذا الغموض وفي ما نشأ عنه من الريبة حول الأهداف التي ترمى اليها الخطة السياسية سببا اساسيا للقلق والشحناء بين العرب واليهود .

لقد قيل في معرض الجدل أن عبارة وطن قومي للشعب اليهودي ، تفسح المجال لسيطرة فلسطين على مرور الزمن دولة أو مملكة يهودية . ان حكومة جلالته لا تود أن تقارع الرأي الذي أعربت عنه اللجنة الملكية وهو أن الزعماء الصهيونيين كانوا يدركون حين صدر تصريح بلفور أن نصوص ذلك التصريح لا تحول دون قيام دولة يهودية في النهاية . غير أن حكومة جلالته تشاطر اللجنة الملكية الاعتقاد بأن واضع صيغة الانتداب الذي أدمج فيه تصريح بلفور لا يمكن أن يكونوا قد قصدوا تحويل فلسطين الى دولة يهودية خلافا لإرادة سكان البلاد العرب .

أما انه لم يكن المقصود تحويل فلسطين الى دولة يهودية فيمكن استنتاجه ضمنا من الفقرة التالية المقتبسة عن الكتاب الأبيض الصادر سنة ١٩٢٢ (١٩) :

(١٩) أصدر هذا الكتاب ونستون تشرشل وزير المستعمرات آنذاك ، ومما جاء فيه حول ما ذكره وعد بلفور عن ايجاد وطن قومي يهودي بفلسطين ما يأتي : « مما يلاحظ بسرور فيما يتعلق بهذا الأمر (فكرة الوطن القومي اليهودي) ان المؤتمر الصهيوني الذي عقد في كارلسباد في شهر سبتمبر سنة ١٩٢١ ، وهو المجلس الأعلى المسيطر على الجمعية الصهيونية اتخذ قرارا أعرب فيه رسميا عن المقاصد الصهيونية جاء فيه : « ان الشعب اليهودي عقد النية على أن يعيش مع الشعب العربي باتحاد واحترام متبادلين ، وأن يسعيا معا لجعل هذا الوطن المشترك زاهرا بحيث يضمن تجديده الرقي القومي لكل من الشعبين بسلام » - وهناك أمر آخر لا بد من لفت النظر اليه ، وهو أن اللجنة الصهيونية في فلسطين ، والمعروفة الآن باللجنة التنفيذية الصهيونية لا ترغب في أن يكون لها ، كما أنها لا تملك أي قسط في ادارة البلاد العامة ، ثم ان المركز الخاص الذي تشغله الجمعية الصهيونية بموجب المادة الرابعة من صك الانتداب ، لا يخولها صلاحية تولى هذه الوظيفة وإنما ينحصر مركزها الخاص في التدابير التي تتعلق باليهود ومساعدة البلاد في تقدمها دون أن يخولها ذلك حق الاشتراك بصورة ما في حكومتها - فضلا عن ذلك فان الحكومة تفكر في جعل جنسية الأهالي في نظر القانون هي : « الجنسية الفلسطينية ، ولم يقصد قط أن يكون للأهالي أو لأي فئة منهم صفة قانونية أخرى (المرجع ١١ - ص ٣٢٥) » .

(لقد قيلت اقوال غير مصرح بها مؤداها أن الغاية التي يرمى اليها هذا التصريح هي خلق فلسطين يهودية برمتها ، واستعملت عبارات كمثّل القول بأن فلسطين ستصبح يهودية كما أن إنجلترا انجليزية ، وحكومة جلالته تعتبر أن كل أمل كهذا غير ممكن التحقيق ، وهي لا ترمى الى مثل هذا الهدف ، كما انه لم يخطر في بالها في أى وقت من الأوقات أن يزول الشعب العربى أو اللغة أو الثقافة العربية في فلسطين ، أو أن تصبح مسيطرا عليها . وهي تود أن تلفت النظر الى أن نص التصريح المشار اليه لا يرمى الى تحويل فلسطين بكليتها الى وطن قومى يهودى بل ان وطننا كهذا سيؤسس في فلسطين) .

غير أن هذا البيان لم يزل الشكوك ولذلك فان حكومة جلالته تصرح الآن بعبارة لا لبس فيها ولا إبهام ، انه ليس من سياستها أن تصبح فلسطين دولة يهودية . وهي تعتبر في الواقع أنه مما يخالف الالتزامات المترتبة عليها نحو العرب بموجب صك الانتداب والتأكيدات التي أعطيت للشعب العربى فيما مضى لأن يجعل سكان فلسطين العرب رعايا دولة يهودية خلافا لارادتهم .

ان ماهية الوطن القومى اليهودى في فلسطين تنطوى على اطراد نمو الطائفة اليهودية الموجودة في البلاد بمساعدة اليهود الموجودين في أنحاء العالم الأخرى ومما يقيم الدليل على أن حكومة جلالته ما فتئت تقوم بالتزاماتها من هذه الناحية أنه منذ صدور بيان الخطة السياسية سنة ١٩٢٢ هاجر الى فلسطين ما يزيد على ٣٠٠ ألف يهودى وأن عدد سكان الوطن القومى قد ارتفع حتى بلغ نحو ٤٥٠ ألف نسمة أو ما يقرب من ثلث سكان البلاد برمتهم .

ان تشكيل دولة مستقلة في فلسطين والتخلى التام عن رقابة الانتداب فيها يتطلبان نشوء علاقات ما بين العرب واليهود من شأنها أن تجعل حكم البلاد حكما صالحا في حيز الامكان .

أضف الى ذلك أن نمو مؤسسات الحكم الذاتى في فلسطين لا بد له أن يسير على قاعدة النشوء والارتقاء شأنه في البلاد الأخرى .

وعلى ضوء هذه الاعتبارات تصدر حكومة جلالته التصريح التالى معلنة فيه نواياها بشأن حكومة فلسطين المقبلة :

١ - ان الهدف الذى ترمى اليه حكومة جلالته هو أن تشكل خلال عشر سنوات حكومة فلسطينية مستقلة ترتبط مع المملكة

المتحدة بمعاهدة تضمن للبلدين ومتطلباتهما التجارية والحربية
في المستقبل ضمانا مرضيا .

٢ - ان الدولة المستقلة يجب ان تكون دولة يساهم العرب واليهود
في حكومتها على وجه يضمن صيانة المصالح الأساسية لكل من
الفريقين « (٢٠) » .

*

والآن نضيف حقيقة أخيرة تتعلق بذلك الوعد الباطل - وعد بلفور -
لا نشك في أنها تكشف لنا واقع الزيف فيه .

فمن المعلوم أن بريطانيا أعلنت وعد بلفور في ٢ نوفمبر ١٩١٧ بينما
هي لم تدخل القدس وتعلن احتلال فلسطين الا في نهاية ديسمبر ١٩١٧ .
بل ان أجزاء من فلسطين بقيت في يد الأتراك حتى سبتمبر ١٩١٨ - أي
تقرب نهاية العام التالي .

ان بريطانيا قد أعطت بذلك وعدا في الهواء لا يقوم على أي أساس من
الحق أو القانون ولا يستند الى أية قوة ولو كانت قوة غشوم .

من الحق اذن أن يقال : ان من لا يملك قد أعطى وعدا لمن لا يستحق .

فهذا ما يتفق عليه أهل الرأي الحر والخبرة الواسعة ، ومنهم ولا شك
برتراند رسل .

٧ - الفيلسوف البريطاني برتراند رسل :

لقد تلقى المؤتمر الدولي للبرلمانيين المنعقد بالقاهرة في الفترة من ٢ - ٥
فبراير ١٩٧٠ رسالة هامة كتبها برتراند رسل بتاريخ ٣١ يناير ١٩٧٠ ،
وكانت تلك آخر رسالة كتبها في حياته الطويلة والتي اختتمها داعيا من أجل
السلام لكل شعوب الأرض ، ومدينا للعدوان في كل صورته وأشكاله .

ولقد بدأ رسل رسالته بادانة أعمال اسرائيل وأسلوبها العدواني الذي

عرف آنذاك باسم « غارات العميق » داخل الأراضي المصرية حيث تقذف بالقنابل والنباليم المنشآت المدنية والمصانع والمستشفيات وغيره ، بقصد تحطيم نفسية الشعب المصرى واجباره على تمكينها من جنى ثمار عدوان ١٩٦٧ . ولقد بين رسل خطأ هذا الأسلوب العدواني اذ انه لن يزيد المصريين الا صلابة وتصميما على المقاومة ، كما فعل الانجليز عام ١٩٤٠ اثناء القصف النازى لبلادهم ، ثم قال رسل :

« ان تطور مشكلة الشرق الأوسط - لهو جد خطير ، فلاكثر من عشرين عاما ، نجد اسرائيل قد توسعت بقوة السلاح ، وعقب كل مرحلة من هذا التوسع فانها تقترح المفاوضات .

ان هذا فى الواقع هو الأسلوب التقليدى لقوى الاستعمار التى تريد تدعيم قبضتها على ما حصلت عليه بالقوة ، بأقل ما يمكن من المقاومة والصعاب . ذلك لأن كل غزو جديد يصبح هو الأساس الجديد للمفاوضات المقترحة التى تمارس من مركز القوة ، والتى تتجاهل عدم شرعية العدوان السابق .

ان العدوان الاسرائيلى يجب ادانته ، لا لأنه لا يحق لاية دولة أن تستولى على اراضى الغير ، ولكن لأن كل توسع هو فى الواقع تجربة جديدة تبين ما سيسمح به العالم مستقبلا من عدوان .

ان اللاجئيين الذين يعيشون حول حدود فلسطين بأعدادهم التى تربو على بضع مئات الالوف ، وقد وصفهم أخيرا أحد الصحفيين بانهم يمثلون « حجر الرخى فى عنق اليهودية العالمية » وأن كثيرا من اللاجئيين قد دخلوا الآن العقد الثالث من السنين وهم يعيشون حياة قلقه ولا يملكون سوى الاقامة المؤقتة .

ان مأساة الشعب الفلسطينى تكمن فى أن وطنه قد أعطى بواسطة قوة أجنبية لشعب آخر ، من أجل خلق دولة جديدة . والنتيجة هو أن مات الالوف من الأبرياء قد فقدوا المأوى بصفة دائمة علاوة على أن أعدادهم تزداد فى كل صراع جديد .

كم من الوقت أكثر من هذا يستطيع العالم تحمل رؤية هذه القسوة الطائشة ؟

من الواضح تماما ان للاجئيين كل الحق فى وطنهم الذى طردوا منه ، وان انكار هذا الحق هو لبالصراع الدائر الآن .

اننا لا نجد شعبا في العالم يقبل طرده من وطنه وبهذه الأعداد الكبيرة ، فكيف اذن يطلب أى شخص من الشعب الفلسطيني أن يقبل العقاب الذى لا يحتمله أى شعب آخر ؟

ان عودة اللاجئين للاقامة الدائمة فى أراضيهم لهى الجوهر الأساسى لاية تسوية حقيقية فى الشرق الأوسط .

كثيرا ما يقال لنا انه يجب التعاطف مع اسرائيل بسبب ما تعرض له يهود أوروبا على يد النازى ، لكنى لا أرى فى هذا الاقتراح أى سبب معقول يسمح باستمرار المعاناة والآلام . .

ان ما تفعله اسرائيل اليوم هو أمر لا يمكن الصبح عنه ، وان استلهم ربع الماضى لتبرير ما يحدث الآن لهوالنفاق الكبير .

ان اسرائيل لم تحكم فقط على أعداد هائلة من اللاجئين بالتعانة ، ولم تحكم فقط على الكثيرين من العرب فى الأراضى المحتلة بالعيش فى ظل حكم عسكرى ، ولكن اسرائيل حكمت أيضا على الشعوب العربية التى خرجت من تحت وطأة الاستعمار ، بان تبقى فى عوز وفقير مستمر ، بسبب ما ينفق على المطالب العسكرية للقوات العربية ، والتى تنال السبق على مطالب التنمية الوطنية .

ان الواجب على كل من يريد أن يرى نهاية الصراع الدامى فى الشرق الأوسط ، أن يتأكد من ان اية تسوية يجب الا تحتوى على بذور لاستمرار الصراع فى المستقبل .

ان العدل يقضى بأن تكون الخطوة الأولى نحو أية تسوية ، هى انسحاب اسرائيل من جميع الأراضى التى احتلتها فى يونية ١٩٦٧ .

اننا نحتاج لحملة عالمية تساعد فى تحقيق العدل لشعوب الشرق الأوسط التى قاست الكثير من الآلام والمحن » .

*

بعد هذا الذى رأيناه ، لا نتصور أحدا يراجع عقله وضميره ثم ينكر على العرب حقهم فى فلسطين بعد أن يدين اسرائيل وينكر كل دعاويها المملوءة زيفا وأباطيل .

الحق الاسرائيلي

ان الحق دائماً من وجهة نظر الاسرائيليين هو ما يتفق وكبريائهم وأهوائهم ومصالحهم ، وما دون ذلك فليس بحق ، بل هو زعم باطل .

وليس ذلك هو مفهوم الاسرائيليين للحق كما يبدو في القضية الفلسطينية ، انما ذلك هو مفهومهم له في مختلف القضايا التي تمسهم من قريب أو من بعيد ، منذ عرف لهم كيان حتى الآن .



الحق الاسرائيلي في العقيدة :

فالرب هو اله اسرائيل الخاص الذي أفرزهم له شعباً مختاراً ، أما بقية الشعوب فقد قسم لها الرب آلهة أخرى مثل الشمس والقمر والنجوم تعبدها وتتقرب لها حتى لا تشارك الاسرائيليين مجدهم :

« لا ترفع عينيك الى السماء وتنظر الشمس والقمر والنجوم كل جند السماء التي قسمها الرب الهك لجميع الشعوب التي تحت كل السماء فتغتر وتسجد لها وتعبدها . وأنتم قد أخذكم الرب وأخرجكم من كور الحديد من مصر لكي تكونوا له شعب ميراث - تثنية ٤ : ١٩ - ٢٠ » .

ذلك مفهوم الحق عند الاسرائيليين في العقيدة !!



الحق الاسرائيلي في الشريعة :

وللاسرائيلي الحق في أن يقرض الأجانب برها ، أما لبني جلدته فذلك أمر محظور :

« لا تقرض أخاك برها . ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء مما يقرض برها . للأجنبي تقرض برها ، ولكن لأخيك لا تقرض برها لكي يباركك الرب الهك - تثنية ٢٣ : ١٩ - ٢٠ » .

فذلك مفهوم الحق عند الاسرائيليين في الشريعة !!



الحق الاسرائيلي في السلوك :

وللاسرائيلى أن يسطو على غيره من الأفراد والشعوب ويستحل كل ما لهم من مال وعرض وأرض ، ما دامت تلك هى رغبته وشهوته . وقد رأينا ذلك فى سلوك داود مع الفلسطينيين وغيرهم مثل نابال الذى فرض عليه داود اتاوة فلما رفض خرج داود فى عصابته للقضاء على بيت نابال حتى لا يترك له نفسا حية تستطيع أن تقف بجانب الحائط لتبول . . أو اذا استعمرنا لغة داود التى كلم بها زوجة نابال نجده يقول : « انك منعتنى من اتيان الدماء وانتقام يد نفسى . . لو لم تبادرى وتأتى لاستقبالى لما أبقي لنابال الى ضوء الصباح بائلا بحائط » .

فذلك مفهوم الحق عند الاسرائيليين فى السلوك وخاصة الذين حل عليهم روح الله !!



الحق الاسرائيلي فى الوحي :

لقد عرف عن الاسرائيليين القدامى أنهم مارسوا التجارة فى « كلمة الله » طمعا فى ربح مادى رخيص فظهر فيهم أنبياء كذبة يفترون على الله الكذب ، ويشيعون بين مواطنيهم وحييا من عند أنفسهم . ولقد كان أولئك الضالون المضلون من الكثرة بحيث تذكر لنا الأسفار أن أعدادهم فى الوقت الواحد كانت تزيد على بضع مئات . وكان الشعب الاسرائيلي سعيدا بما يسمع من انبيائه الكذابين لأنهم كانوا يتكلمون بما يتفق وأهواء ذلك الشعب . . .

وفى هذا يقول ارميا :

« قال الرب لى لا تصل لأجل هذا الشعب للخير . حين يصومون لا أسمع صراخهم وحين يصعدون محرقة وتقدمة لا أقبلهم بل بالسيف والجوع والوبأ أنا أفنيهم .

فقلت آه أيها السيد الرب . . هو ذا الأنبياء يقولون لهم لا ترون سيفاً ولا يكون لكم جوع بل سلاما ثابتا أعطيكم فى هذا الموضع .

فقال الرب لى . بالكذب يتنبأ الأنبياء باسمى . لم أرسلهم ولا أمرتهم ولا كلمتهم . برؤيا كاذبة وعرافة وباطل ومكر قلوبهم هم يتنبأون لكم .

لذلك هكذا قال الرب عن الأنبياء الذين يتنبأون باسمي وأنا لم أرسلهم . وهم يقولون لا يكون سيف ولا جوع في هذه الأرض ، بالسيف والجوع يفنى أولئك الأنبياء .

والشعب الذي يتنبأون له يكون مطروحا في شوارع اورشليم من جرى الجوع والسيف وليس من يدفنهم هم ونساؤهم وبنوهم وبناتهم واسكب عليهم شرهم - ارميا ١٤ » .

وقال الوحي على لسان ارميا :

« قد رأيت في أنبياء السامرة حماقة . تنبأوا بالبعل واضلوا شعبي اسرائيل . وفي أنبياء اورشليم رأيت ما يقشع منه . يفسقون ويسلكون بالكذب ويشددون أيادي فاعلى الشر حتى لا يرجعوا الواحد عن شره . صاروا لى كلهم كسدوم وسكانها كعمورة .

هكذا قال رب الجنود عن الأنبياء . هأنذا اطعمهم أفستينا وأسقيهم ماء العلقم لأنه من عند أنبياء اورشليم خرج نفاق في كل الأرض .

هكذا قال رب الجنود لا تسمعوا لكلام الأنبياء الذين يتنبأون لكم . فانهم يجعلونكم باطلا . يتكلمون برؤيا قلبهم لا عن فم الرب - ارميا ٢٣ » .

وهكذا كان الوحي الالهى عند الشعب الاسرائيلى طيلة قرون عديدة من حياته - هو ما اتفق وهواه !!

* * *

الحق الاسرائيلى في قضية المسيح

ولنستعرض مما بشيء من التفصيل مفهوم الاسرائيليين للحق في قضية من أخطر القضايا التى تمهمم وهى قضية المسيح . فنحن نعلم أن المسيح ظهر في فلسطين منذ أكثر من تسعة عشر قرنا مضت حيث بلغ رسالته وكان بينهم وبينه ما كان . واذا كان اليهود ينكرون هذا الذى جاء ولا يزالون ينتظرون مسيحا غيره فذاك وشأنهم ، لكن ما يثير العجب والازدراء لموقف اليهود من المسيح ليس كفرهم به وتنكرهم له ، بل هو شيء أظلم من هذا : هو ما تقوم به الجماعات المختلفة منهم بين حين وآخر - بنشر المفتريات والأراجيف حول سلوكه الشخصى والعقائدى . ولعل أحدث هذه الأباطيل ما يدعيه بعضهم من أن المسيح هو المسئول الأول والأخير عن حادثة الصلب !

للقارئ أن يعجب ولا شك ، ولكن هكذا يقولون ...

ان الكاتب اليهودى المعاصر هيو شونفيلد يطلع علينا بكتاب يقول انه جاء حصيلة أربعين عاما انفقها من عمره فى البحث والدراسة لمعرفة حقيقة يسوع الذى يعرفه الكثير باسم المسيح - وان نتيجة البحث والدراسة قد اوصلته الى الحقيقة وهى : ان حادثة الصلب كانت تمثل قمة مؤامرة خطط لها يسوع وأشرف بنفسه على تنفيذها . يسوع صلب نفسه - هكذا يؤكد هذا المفكر الاسرائيلى !

ان الشيوخ والكهنة اليهود ، بل ويهوذا الخائن كلهم ضحاياهم ، لقد كانوا دمي بين اصابعه يلعب بهم كيفما شاء ، وهو الذى اجبرهم على أن يتخذوا منه المواقف المعروفة حتى تتم المؤامرة فى عيد الفصح .

ومن أجل ذلك سمى شونفيلد كتابه : « مؤامرة عيد الفصح - THE PASSOVER PLOT وما كان لنا أن نهتم بهذا الكتاب وأمثاله من الكتب التى يبلغ بها التطاول على الحقيقة الى هذا الحد المهين ، الا أن الكتاب ما أن صدر فى لندن فى نهاية عام ١٩٦٥ حتى تلقفته الأيدي ونفذ سريعا ، وقام الناشر باعادة طبعه مرارا ، حتى انه فى فترة خمسة أشهر من اكتوبر ٦٥ الى فبراير ١٩٦٦ - أعيد طبعه ثلاث مرات . كذلك كان الكتاب موضع مناقشة وجدل حاد فى الاذاعة والتلفزيون وندوات الفكر .

والكتاب يمثل خليطا من حقائق وأباطيل صاغها الكاتب فى قالب وضع تصميمه وفق هواه وأخرجه لنا لنقرأ فيه أن : يسوع هو مهندس مؤامرة عيد الفصح .

نعم - بنفس هذه الألفاظ ...

كذلك فان أهمية الكتاب ترجع الى انه يعالج التطور الحالى فى العلاقات اليهودية - المسيحية وما يقال عن محاولات تبرئة اليهود من دم المسيح ، وهو لذلك جدير بأن يكون موضع عرض ومناقشة حتى نتبين أحدث ما وصل اليه الفكر الاسرائيلى فى قضية المسيح .

ولنتترك الآن شونفيلد يقص علينا ما تكشف له من حقائق فى قضية يسوع - المسيح ...

مقدمة :

« ان كتاب مؤامرة عيد الفصح يحكى قصة مغامرة يسوع الكبيرة ، التى قد تكون أعجب مشروع أقدم عليه رجل فى تاريخ الانسانية المسجل ، والذى تم تنفيذ بشجاعة نادرة » (٢١) .

« ويجب أن تؤمن بوجهة النظر التى تقرر بأن يسوع اعتقد أن دعوته تتلخص فى تحقيق الأمل فى المسيح وانه تصرف بما توقع أن يحقق ذلك من اشارات ونبوءات . .

وعندما ظهر يوحنا المعمدان يعلن اقتراب ملكوت الله ، ويدعو الناس للتوبة وانقاذ انفسهم من الغضب الآتى ، لم يكن أمام شخص مثل يسوع سوى الاعتقاد فى أنه المسيح المنتظر وأن يعلن بدوره أن الزمان قد اكتمل » (٢٢) .

« وعندما افتنع يسوع أنه المسيح فقد كان هذا يعنى بالنسبة له أن يعمل اعمال المسيح كما المح اليها الأنبياء السابقون ، وكان عليه أن يحقق المثل الأعلى فى السلوك القويم للانسان وفى علاقته بالله . ولم يكن هناك شئ يمكن أن يحبط عزيمته مثل الاهتمام بالحياة أو الخوف من ميتة مثل ميتة الخونة والغادرين . ولقد استخدم يسوع ذهنه المتوقد لى يفوق خصومه فى القيادة والحيلة والدهاء ، وأن يجبر مشاريعهم على أن تطابق أهدافه . لقد وضع خطه ثم أخرجها الى حيز التنفيذ وهو أخرج كلماته من فمه بحرص وعناية واختارها بدقة لتحقيق أغراضه . ورغم ان شريعة حب الأقارب كانت تتردد على لسانه فقد كان كلامه اللاذع ينم على النفاق والمداهنة ، وهو لم يكن متكبرا الا انه لم يكن متواضعا كذلك » .



« وفى فهمنا ليسوع لا نصادف أى مشكلة بخصوص لاهوته ، ذلك انه قبل أن تتطور المسيحية على صورة وثنية لحقت بالعقيدة اليهودية ، فلم توجد أى حجة أو سند يصور المسيح على انه تجسيد لله ، اذ أن اللفظ وهو « الشخص المسوح » لا يعنى أكثر من الدعوة الى خدمة أو وظيفة ولم يكن ليدل على أى مظهر من مظاهر الربوبية » .

(٢١) المرجع ٢٢ - ص ١٥

(٢٢) المرجع ٢٢ - ص ٢١ ، ٢٣

« ويجب ان نلفظ على الفور اى فكرة تقول بأن يسوع أو اى شخص آخر يمكن أن يلقب بالمسيح فى فلسطين فى ذلك الوقت قد افترض ولو للحظة واحدة ان به جانبنا الهيا .

ونستطيع ان نرى فى بدء تاريخ المسيحية كيف ظهرت هذه العقيدة نتيجة للتبشير فى العالم الوثنى .

ولدينا شواهد كثيرة حتى الآن ترىنا كيف اصطبغت المسيحية بعقائد الشرك فى بقاع كثيرة من التى قهرتها الكنيسة بيد انها امتصت عقائدها .

وماذا يعنى لفظ « ابن الله » ؟ ان المسيح المنتظر لم يعرف بهذا الاسم ، واذا كان يظن ان له علاقة بنوة لله فان تلك الفكرة لم تكن تعنى ألوهيته . ان بنوة الله كانت تعنى شيئاً مختلفاً تماماً عند اليهود عما كان فى أذهان أصحاب العقائد الوثنية » .

« لقد استطاع يسوع بفضل مواهبه الشخصية أن يشرع ويتصرف بطريقة مدهشة تتفق وفكرته عن المسيح كما فهمها رغم انه لم يستطع التحكم فيما كان يجرى وراء ذلك ، ونجد توقعاته فى كثير من المواقف يصيبها الخطأ . وسوف تواجه الكنيسة عما قريب تلك المشكلة الحادة التى نتجت عن عدم حدوث توقعاته وتأخيرها ، وهى التى عالجتها الكنيسة بعجز تام وعدم اقتناع وذلك عندما حاولت تفسيرها فى صور روحية ، فقد وقف الاعتقاد فى لاهوت يسوع حاجزاً يمنع التماس الأعدالته فى صدور أخطاء عنه » (٢٢) .

« ان الأناجيل تصر على أن يسوع كان على علم مسبق بما كان ينتظره ، وانه استخرج ذلك من الكتب وعلى الأخص عندما سحب من بطرس اعترافه فى قيصرية فيليس بأنه المسيح (من ذلك الوقت بدأ يسوع يظهر لتلاميذه أنه ينبغى أن يذهب الى اورشليم ويتألم كثيراً من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويقتل وفى اليوم الثالث يقوم - متى ١٦ : ٢١)

ان المؤرخ يوسفوس يحدثنا عن طائفة الاسينيين (من اليهود) ، الذين كان بينهم من تخصصوا فى التنبؤ بالغيب كما استخرجوه من النصوص

المقدسة ومن وحى النبؤات ، ولقد اعطى يوسفوس امثلة تدل ولا شك على قدرتهم على التكهن بالغيب نتيجة لمرانهم الطويل .

« ان الاناجيل تبين ان يسوع لقب نفسه من أول يوم - ، ابن الانسان ، وهو لقب شاع في شمال فلسطين عن المسيح - ولقد كان يسوع عالما بالكتب وتفسيراتها حتى كأنه يحمل أسفار العهد القديم في رأسه . ورغم انه لم يكن من تلاميذ الحكماء - كما فهم من الفريسيين - فقد كانت له صلوات ببعض الطوائف الأخرى وكان من الطبيعي أن يبحث عن بعض المصادر التي تعينه على فهم الأمور المختصة بالمسيح ، وكان من بين هؤلاء في الجليل من عرفوا باسم ، الاطهار ، كما كانت هناك طائفة ، الاسينيين ، والذين نفهم من الاناجيل ان يسوع اعتنق كثيرا من أفكارهم ، كما أن أخاه الصغير يعقوب قد انجذب بشدة الى حياة النذيرين . »

« لقد كان يسوع كلاعب شطرنج يعمل لتحقيق خطة رئيسية وكان يعرف كيف يجبر خصمه على تحريك قطعه ليصل بها الى الوضع المرسوم ، ولقد كان رجل الاناجيل ينفذ برنامجا خطفه نتيجة ابحاثه السابقة عن المسيح المنتظر وذلك قبل أن يعمده يوحنا . فلقد بينت الكتب شكل رسالته وموقف قومه فيها . وان اقرب فهم لانجازات يسوع هو معرفته بما الحقه الاسينيون من قدرات وطاقات نبوية بذلك الشخص الذي كنى باسم ، معلم البر .

لقد كانت رؤية يسوع لدور المسيح غاية في المسرحية ، ولقد استطاع ان يلعب دوره كممثل قدير يعبرف متطلبات كل موقف ، وان حركاته المحسوبة وافعاله الرمزية مثل تجربة البرية التي قضى فيها اربعين يوما (يجرب من الشيطان) واختياره اثنى عشر تلميذا ، ودخوله اورشليم في مجد وبهاء العشاء الأخير - كل هذا يدل ولاشك على وعيه الدرامي ، كما يدل عليه حماسه وتشهد به ايماءاته . وان شخصا له مثل هذا الوعي كان قادرا ولا شك على أن يخطط وينفذ بمهارة مؤامرة عيد الفصح . (٢٥)

*

الأعمال التمهيدية :

« اختار يسوع مركز قيادته في كفر ناحوم وهي مدينة صغيرة على

شواطئ بحر الجليل ، وكانت مركزا تجاريا تعج بخليط من الناس بما فيهم الحكام الرومان والموظفين اليهود . وعندما تجول في الاقليم يعظ ويتكلم عن ملكوت الله ، فانه تكلم بأمثال حتى يتجنب وشاية مخبرى الحكومة وجواسيسها الذين تستخدمهم في أماكن التجمهر ، ولقد كان يبين انه يتكلم بالألغاز حين يضيف في آخر اقواله ، من له اذنان للسمع فليسمع ، أو بمعنى آخر من يستطيع ان يفهم ما أعنيه فليفهم .

وفي بدء دعوة يسوع لم يتدخل احد من أجهزة الحكم في عمله لانه أعطى انطباعا بأنه ليس الا احد المتحمسين الدينيين الذين لا يخشى ضررهم ، بل أن بعض اقواله وتعاليمه كانت توافق تماما مزاج السلطات الحاكمة ، إذ انها كانت تساعد على التخفيف من عنف الجليليين وتهديء من ثورتهم . ومن أمثلة ذلك قوله : ، لاتقاوموا الشر . . من لطمك على خدك الايمن فحول له الآخر ايضا . . من سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين احبوا اعداءكم ، باركوا لاعنيكم . . صلوا لاجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم .

ولقد كان يسوع حريصا على منع أى تعطيل لدعوته في بدئها حتى لا يكون مثل يوحنا المعمدان الذى قضى عليه بسرعة لدواعى الأمن . وكان عليه أن يحترس من بعض التعليقات والنصائح غير الحكيمة التى تصدر عن تابعيه ، وان يتجنب الضجة التى يحدثها الشعب حين يدعونه ملكا . وعندما كان يسوع يسمع في بدء عمله احدا يناديه ، بابن داود ، فانه كان يعمد الى اسكاته على الفور . وعلى كل فقد كان كمن يمشى على حافة سكين .

ولقد اتخذ يسوع خطوة أخرى هامة وهى تكوين عصابة من التلاميذ تلتف حوله . وكانت المجموعة الأولى منهم صيادين من بيت صيدا . أن رجالا مثل الاخوة سمعان واندراوس وكذلك يعقوب ويوحنا ، كانوا ولاشك ذوى نفع كبير له ، فقد كانوا جليليين بسطاء الا أنهم أقويا البنية يعتمد عليهم . ولقد لقب يسوع سمعان (بطرس) بالصخرة ، كما لقب يعقوب ويوحنا بابنى الرعد ، وكان يمكنه استخدامهم حرسا يحميه ، كما كانت لهم قوارب صيد يمكن استخدامها للنجاة عندما يظهر الخطر حيث يعبر البحيرة الى المدن العشر .

وبهذه الوسائل والتكتيكات استطاع يسوع أن يضمن لنفسه الحماية وحرية الحركة حتى يؤدى رسالته دون عائق .

« ولقد كان في استطاعة يسوع ان يستخرج من تفاسير الكتب اخبار

المسيح ، مقتديا بطريقة استنباط الاسينيين لها . وعلى سبيل المثال فمن الزمور الثانى ، ، لماذا ارتجت الأمم وتفكر الشعوب بالباطل . قام ملوك الأرض وتآمر الرؤساء معا على الرب ومسيحه قائلين لنقطع قيودهما ولنطرح هنا ربطهما ..

وتفسيره : انه فى نهاية الزمان سيتآمر الأشرار ضد مسيح البر محاولين اهلاكه ولكن فى النهاية ستذهب مؤامرتهم سدى ، اذ يخلصه الله من يد أعدائه .

فملوك الأرض هنا هم الرومان الذين يحكمون أمما كثيرة ، اما الرؤساء فهم الشيوخ والكهنة فى أورشليم الذين يحكمون شعب اسرائيل من خلال مجمعهم الشرير .

ان ما فعله يسوع فى سنواته الأولى هو ان يتعرف الى المسيح فى مختلف مراحل حياته حسبما تقول النبؤات ، فقد أيقن فى نفسه بضرورة معاناة البار للآلام رغم صموده وانتصاره . ولقد طبق على نفسه ما كتبه سلفه داود الذى كان خارجا على قانون ملك (شاول) يحاول اصطياده . ولكن الله اختاره ليحكم شعبه اسرائيل ، وكذلك ما كتب عن عبد الله الذى طرد مثل أولئك الرسل الذين سخر منهم الملوك والكهنة وأدانوهم . فكل هذه الكتب وغيرها كثير كانت تشير الى ما ينتظر المسيح .

لقد كانت هناك توليفة من ألوان مختلفة ترسم صورا للمسيح الذى يكون نبيا مثل موسى - البار الذى يقاسى الآلام - ابن داود - ابن الانسان . ولقد صاغ يسوع كل هذا فى قالب واحد يحدد شخصية المسيح » . (٢٦) .



دخول اورشليم :

« كان على يسوع أن يعد الآن لأخطر جزء فى مهمته ، والذى يحتاج الى الكثير من الحذر وحسن التنظيم والتوقيت ، وكان عليه الا يستعين بأحد من تلاميذه لمساعدته فى خطته المقبلة ، ذلك انه لم يكن يثق بهم ، ومن يدرى فلعلهم يعملون ضده لو أخبرهم بذلك ، وعندئذ يفسدون كل شيء كان

قد رتب له من قبل . لقد كان التلاميذ مخلصين له غيورين من أجله لكنهم محدودى الفهم لكونهم جليليين بسطاء بعيدين تماما عن جو اورشليم وسفسطائيته ، وما كان يحتاجه يسوع في تلك المرحلة هو أصدقاء جدد من اقليم اليهودية ذاته .

ولقد تقدم يسوع صاعدا الى اورشليم - كما يخبرنا لوقا الذى اختار الفاظه هذه بدقة - ففى اورشليم وأورشليم وحدها يجب أن تمثل الدراما وتبلغ ذروتها .

ان يسوع لم يتعثر ولم يضع قدمه في موضع خطأ ، فقد خطط جيدا لما يحقق اغراضه . فعندما اجتاز قرية بيت عنيا على الطرف البعيد لجبل الزيتون شرق اورشليم . هناك رحبت به امرأة تسمى مرثا وكان لها أخت تدعى مريم وأخ يدعى لعازر ، وقد ارتبط يسوع برباط قوى من العاطفة مع هذه العائلة الصغيرة . ان ميزة وجود بيت ليسوع في بيت عنيا هو اتخاذه مأوى يستريح فيه ، ويمنعه التعرض للمفاجآت بالاضافة الى وجوده على مسيرة محدودة من اورشليم . وعندما كان يسوع يذهب الى المدينة صاعدا جبل الزيتون كان يواجه منظر اورشليم بمبانيها وحوائطها . وعندما كان يهبط عبر وادى قدرون فانه كان يسير مجاورا بستان الزيتون وضئيفة جثسيمانى التى اجتمع فيها احيانا مع تلاميذه . ان كل حجر من هذا الطريق كان مألوفاً ليسوع .

ويجب علينا ان نلاحظ المظاهر الطبوغرافية للموقع والتى كان يراها يسوع يوميا ، اذ أن بعضها ساعد على تشكيل الأحداث التى كان تجرى في مخيلته .

ان تلاميذ يسوع الجليليين مثل بطرس وابنى زبدي - يعقوب ويوحنا - ما كانوا يستطيعون مساعدته فيما كان يخطط له ، فرغم أنهم قد يطيعونه الا انه لا يثق في طرح خطته امامهم ، ذلك أن عقولهم رفضت تعرضه للالام وكان يحدوهم الأمل في انه سوف يستطيع بطريقة ما ، طريقة عجيبة ، ان ينتزع السلطة من يد الرومان وموظفيهم ويحقق بذلك مملكته . ولذلك اختار يسوع اتباعا آخرين يمكنه الاعتماد عليهم وهؤلاء نعرف منهم لعازر وكاهنا آخر نعرفه باسم يوحنا . وعن طريق هذا الأخير استطاع يسوع ان يعرف مسبقا قرارات مجمع اليهود ضده . كذلك كان هناك شخص آخر من تلاميذه استخدمه يسوع هو يهوذا الاسخريوطى . (٢٧)

« وعندما اقترب يسوع من اورشليم جاء الوقت لتنفيذ اول خطوة سبق ان خطط لها في الشتاء وهذه الخطوة نعتقد انه عهد بها الى العازر في بيت عنيا ، ولم يطلع عليها أحدا من تلاميذه الاثنى عشر . فعند مدخل بيت عنيا كان يجب الاحتفاظ بجحش مربوط لايسلمه الموجودون هناك الا للرسل الذين يبلغونهم ان ، الرب محتاج ، ولقد دعا يسوع اليه اثنين من تلاميذه وقال لهما : ، اذهبا الى القرية التي امامكما فلوقت وانتما داخلان اليها تجدان جحشا مربوطا لم يجلس عليه أحد من الناس . فحلاه واتيا به وان قال لكما احد لماذا تفعلان هذا فقولا الرب محتاج اليه . فلوقت يرسله الى هنا . لقد نفذ كل شيء حسب الخطة المرسومة ، فقد عاد التلميذان بالجحش وهما مندهشان من نبوة يسوع . ولكن فجأة فهم بعض الأشخاص مضمون ما كان يجري حولهم اذ أن لوقا يقول ان التلاميذ ، كانوا يظنون أن ملكوت الله عتيد أن يظهر في الحال ، فقد كان هذا مكتوبا في سفر النبي زكريا : (لا تخافي يا ابنة صهيون ، هوذا ملكك يأتي على جحش ابن أتان) وكثيرون فرشوا ثيابهم عليه ، وركب يسوع الدابة وانطلقت الصيحات : مبارك ابن داود .

ان يسوع هو المسيح فقد تحققت النبوة حين امتطى ظهر حماره .

لقد صمت يسوع وسط الضجة التي افتعلها الجمع من حوله وظهر من عينيه بريق الرضا والسرور ، فان تلك اللحظة تعدل كل سنوات الانتظار وكل المصاعب التي قابلها بل والتي سيقابلها ايضا .

ان الانجيل الرابع جعل يسوع يستريح تلك الليلة في بيت عنيا حيث صنعت له مرثا عشاء وكانت تخدمه بينما استقبلت اختها مريم ملكها باحضار رطل من الطيب الغالي ودهنت قدميه ومسحتها بشعرها .

كذلك كان للعازر شرف حضور تلك المائدة بعد ان ادى المهمة التي كلفه بها يسوع .

هذا بينما نجد الاناجيل الثلاثة تجعل يسوع يذهب مباشرة الى اورشليم ، اذ وصلها حسب رواية مرقس متأخرا بعد الظهر ، اذ كان الوقت قد أمسى ، وبعد أن دخل الهيكل ، ونظر حوله الى كل شيء ، فانه عاد الى بيت عنيا .

واذا اخذنا برواية مرقس نجد أن يسوع ركب الى اورشليم يوم الأحد، هلى حين يذكر انجيل يوحنا ان هذه الحادثة وقعت يوم الاثنين ، وعلى كل

فليس هذا هو التناقض الوحيد بين الأناجيل فيما يتعلق باحداث اسبوع الالام .

لقد اتفق كل الانجيليين على أن يسوع دخل أورشليم كملك بطريقة عننية، وحوله الجموع تهتف له ، باين داود وتحية بما في المزمور ١١٨ : مبارك الآتى باسم الرب ، ويخبرنا لوقا أن بعض الفريسيين أثارهم مارا واطلبوا اليه أن ينتهر تلاميذه ، فأجاب وقال لهم . . ان سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ ، والآن لقد استوت الطبخة ولم يعد هناك أى رجعة في العمل . فلقد اظهر يسوع نفسه بشجاعة امام الجماهير في الموقف الذى خطط له من قبل، وبين بطريقة سالمة تماما لم يستخدم فيها العنف انه المسيح ، وفي عمله هذا اضطر ممثلى الحكومة من اليهود للعمل ضده بدافعين : أحدهما الحفاظ على مكانتهم الشخصية ، والثانى واجبهما امام الامبراطور الرومانى .

لقد بين يسوع بطريقة ممتازة ان النبوءات التى تحدثت بها الكتب عن المسيح قد تحققت فيه وذلك حسب فهمه لها « . (٢٨) .



بعض العمليات :

« لقد كان اتجاه المسيحيين دائما - كما قررته الكنيسة - الى ادانة اليهود بجرم الصلب وغسل يد بيلاطس منه ، ولكن يجب علينا أن نعود الى الاحداث الأولى في اسبوع الالام فلسوف نجد تضاربا في الروايات وخاصة فيما يتعلق ببعض الولايم المميزة . فالانجيل الرابع يحضر يسوع الى بيت عنيا قبل الفصح بستة ايام ، وهذا يسبق مباشرة دخوله المظفر الى اورشليم وهناك ينزل ضيفا على مارتا ومريم حيث تقوم الأخيرة بمسح قدميه بالطيب الثمين ، وعندئذ يحتج يهوذا بأن الأولى ان يباع ، هذا الطيب بثلاثمائة دينار ويعطى للفقراء .

لكن مرقس يجعل هذا العشاء متأخرا عن ذلك عدة ايام (كان الفصح وأيام الفطير بعد يومين) ويحدد مكانه في ، بيت عنيا وفي بيت سمعان الابرص ، وهو لا يحدثنا عن مريم ويهوذا كلاعبى أدوار ، انما يقول أن امرأة مجهولة جاءت (ومعها قارورة طيب . . وسكبته على رأسه ، وليس على قدميه كما في يوحنا وأن عددا من التلاميذ اشتكى من بعثرة النقود هذه .

وبعد ذلك ذهب يهوذا الى رؤساء الكهنة ليتفق معهم على خيانة يسوع لكن لوقا لا يربط هذه القصة (قصة المسح بالطيب) بأسبوع الآلام اذ انه يذكرها في فترة سابقة جدا في بدء دعوة يسوع فالمنظر في بيت سمعان الفريسي والمرأة كانت خاطئة في المدينة وقد (جاءت بقارورة طيب ووقفت عند قدميه . . وابتدأت تبل قدميه بالدموع وكانت تمسحهما بشعر رأسها وتقبل قدميه وتدهنهما بالطيب) ، وكان الجدل منصبا على عدم معرفة يسوع بسلوك المرأة الخاطيء ، وليس على بعثرة النقود .

ان مشكلة الولايم تعقدت أكثر بالبناء العجيب للانجيل الرابع ، ففيما يتعلق بالعشاء الأخير لاندرى ما الذي دفع يوحنا ليجهز حجرة تلقى فيها مواظظ كثيرة ينسبها ليسوع وتشغل أربعة اصحاحات من الرابع عشر حتى السابع عشر . ولا توجد اشارة في هذا الانجيل الى احتفال الفصح بالخبز والنبيد الذي تكلم عنه يسوع وربطه بتضحيته ، ويبدو ان مؤلف هذا الانجيل لا يريد أن يعترف بأن العشاء الأخير كان هو وليمة الفصح ، حيث يشير الى أن صلب يسوع حدث قبل الفصح (يوحنا ١٨ : ٢٨ ، ١٩ : ١٤)

فهو لهذا قد جعل العشاء الأخير يحدث قبل الفصح (يوحنا ١٣ : ١) (٢٩) .

(٢٩) تقول دائرة المعارف البريطانية : « تدبج خراف الفصح بعد ظهر يوم ١٤ نيسان ويؤكل الفصح بعد غروب شمس نفس اليوم الذي كان يعتبر حسب تقويمهم الساعات الأولى ليوم ١٥ نيسان . وتذكر الأنجيل الثلاثة الأولى أن الصلب حدث يوم ١٥ نيسان حيث تجعل الفصح هو العشاء الأخير . وعلى العكس من ذلك نجد انجيل يوحنا (الانجيل الرابع) يجعل الصلب يوم ١٤ نيسان حيث كان العيد لم يبدأ بعد (انظر المرجع رقم ١٨ - ص ٥٢٦) .

ويقول جون فنتون عميد كلية اللاهوت بليتشفيلد : « يتفق متى مع مرقس في ان العشاء الأخير كان هو الفصح وعلى العكس من ذلك نجد الانجيل الرابع يجعل الفصح يؤكل في المساء بعد موت يسوع ، ويرى أغلب العلماء أن توقيت كل من متى ومرقس صحيح وان يوحنا قد غير ذلك لأسباب عقائدية » .

انظر المرجع رقم ٢٣ - ص ١٨٨ J. Fenton : Saint Matthew

وخلط بين العشاء في بيت عنيا مساء الأربعاء وعشاء الفصح في اورشليم
مساء الخميس .

وحسب رواية مرقس نجد انه بعد حادثة المسح بالطيب فان يهوذا قد
ذهب لمساومة رؤساء الكهنة لكن لوقا - كما رأينا - يذكر تلك الحادثة في
وقت سابق ، الا انه يؤكد ذهاب يهوذا الى رؤساء الكهنة قبل الاحتفال
حيث يقول : فدخل الشيطان في يهوذا الذي يدعى الاسخريوطى - لوقا
٢٢ : ٣ ، فهذه الكلمات الحاكمة التي تتعلق بما حدث مساء الأربعاء نجد
لها صدى في الانجيل الرابع فيما يتعلق باحداث مساء الخميس اذ يقول :
فحين كان العشاء وقد ألقى الشيطان في قلب يهوذا سمعان الاسخريوطى
ان يسلمه - يوحنا ١٣ : ٢ ، وعلى ذلك فان قرار يهوذا بخيانة يسوع
اتخذ في اورشليم (حسب انجيل يوحنا) بدلا من بيت عنيا (حسب انجيل
مرقس ولوقا) .

وثمة ملاحظة أخرى وهى ان كلا من مرقس ومتى يذكر ان قول
يسوع : قوموا ننطلق ، قد قيل في جشيماني بعد المعاناة في الحديقة وقبل
القبض عليه مباشرة ، على حين يذكر الانجيل الرابع ان ذلك قد قيل قبل
ان يبرح يسوع مكان العشاء الأخير وأنه ذهب للحديقة بعد موعظة أخرى .

ان لدينا هنا بيانا واضحا عن عدم التحقق من صحة الروايات التي
وصلت الى ايدى الانجيليين ، وعن الحرية التي استخدموا بها هذه الروايات
في خدمة مآربهم واهوائهم . ومن المثير حقا الا نجد بين أيدينا حقيقة الأحداث
التي تشكل قصة حياة يسوع ، وهذا يعنى ان البحث عن حقيقتها يجب ان
يستمر اليوم وغدا مستعينين بكل كشوف جديدة تساعد في القاء مزيد من
الضوء » .

« ان البرنامج الآن على وشك ان يبلغ الذروة .. ان الحركات
والأوضاع يجب ان تقدم بعناية ، وعلى الحكام والاتباع ان يؤدوا ادوارهم
دون علم منهم بأنهم أدوات تستخدم كمخلب قط ..

ان مؤامرة يجب ان تتم حيث يقوم الضحية - عامدا - بدور المحرض
الخفى .

لقد كان هذا كابوسا مزعجا جاء نتاجا لمنطق مخيف ، دبره عقل مريض
أو فكر عبقرى .

وعلى كل فلقد كان هذا ما حدث بالفعل .

« لقد رأينا سلفا كيف اتفق يسوع مع لعازر على أن يدبر له جحشا يربط عند الطرف الشرقي لقرية بيت عنيا لكي يكون جاهزا لتسليمه للرسول الذين يذهبون ومعهم اشارة كلامية خاصة . ومن الجدير بالذكر ما قيل من أن يسوع كان يحب في بيت عنيا مرثا ومريم واخوهما لعازر ، كما كان يحب في اورشليم التلميذ الذي لم يذكر اسمه وقد سميناه يوحنا الكاهن . ان هؤلاء اليهود الموثوق فيهم كانوا ضروريين لتنفيذ خطته ولسوف نتبع الآن الدور الذي لعبه كل من لعازر ومريم ويوحنا . نستطيع هنا ان نتبع الاتفاق الخاص الذي تم بين يسوع ومريم والتي حسب رواية الانجيل الرابع - أحضرت الطيب الثمين لمسح يسوع . فلقد طلب منها يسوع أن تفعل ذلك دون أن يخبرها بفرضه ، **وذلك لكي يغري احد تلاميذه بخيائنه** وبهذا تكتمل النبوءة : رجل سلامتي الذي وثقت به ، آكل خبزي رفع على عقبه - مزمو ٤١ : ٩ ، يوحنا ١٣ : ١٨ . (٣٠) .

*

دفاع عن يهوذا :

« لقد اخبرنا بأن يهوذا كان أمين صندوق الجماعة وأنه اتهم باختلاس القليل من النقود ، ولو كان هذا صحيحا لكان على التلاميذ أن يتخذوا اجراء ضده ، ولكن يبدو ان يسوع كان هو وحده الذي يعلم خسة يهوذا وتقلب طبعه ، وأنه اخبر بذلك اخيرا التلميذ الذي كان يحبه . لقد كانت استراتيجية يسوع ان يذهب بالضغط الى منتهاه ، فيجبر الخائن على تنفيذ خيائنه ، ولكي يصل الى نتيجة فعالة فقد اخفى عن التلاميذ خطته المستقبلية حتى هذه المرحلة ، ولكنه رتب مع مريم حادث المسح بالطيب الثمين حتى يطلق الكلمات الخاصة بتطويب جسده للدفن . ولقد استخدمت قيمة الطيب الثمين في الدق على نقطة الضعف عند يهوذا ، ولقد جاء ذلك بالنتيجة المرجوة حيث يقول لوقا : (فدخل الشيطان في يهوذا الذي يدعى الاسخريوطى وهو من جملة الاثنى عشر . فمضى وتكلم مع رؤساء الكهنة وقواد الجند كيفه يسلمه اليهم . ففرحوا وعاهدوه ان يعطوه فضه) .

لقد عرف يهوذا أن يسوع توقع ان يخونه احد ، فقد قال ذلك مرارا . ولنا ان نعتقد أنه حتى تلك اللحظة لم يكن يهوذا يعرف انه هو الذي سيخون . لقد كان حادث المسح بالطيب وكلام يسوع عن دفنه هو الذي

دفع بذلك الى فكرة يهوذا ، اذ فجأة كأن الهاما نزل به فعندئذ عرف يهوذا ضرورة التكسب من نفوذ تحقق ما طلبه يسوع بوضوح . وهكذا يظهر لنا كان يسوع حدثه عن ذلك بطريقة خبيثة ، داعيا اياه الى التكسب من هذه العملية . لقد جاء الأعراء هنا على يد سيده » .

« ومن المحتمل أن يكون يسوع قد أعلن أن أحد الأكلين معه سيخونه أثناء طعام الفصح . ولما ابتدأوا يخمنون ويقولون له واحدا فواحدا هل أنا ، رفض يسوع أن يستدرجه احد . فهو لم يرد ان يضع يهوذا في موقف فاضح ، وهو لا يريد أن يعطيه الفرصة للتوقف عن خيانتة أو تأجيل ذلك . لكنه اكتفى بأن قال : هو واحد من الاثنى عشر الذى يغمس معى فى الصفحة .

وحسب رواية الانجيل الرابع نجد ان بطرس لم يقنع بتلك الاجابة فاقوماً الى التلميذ ، الذى كان يسوع يحبه أن يسأل من عسى يكون الذى قال عنه . فانكأ على صدر يسوع وقال له ياسيد من هو ، أجاب يسوع : هو ذاك الذى أغمس أنا اللقمة واعطيه . فغمس اللقمة واعطاها ليهوذا سمعان الاسخريوطى . فبعد اللقمة دخله الشيطان . فقال له يسوع ما أنت تعمله وتعلمه بأكثر سرعة .

لقد فهم يهوذا هذا ، نهض بسرعة من المائدة بعد أن ايقن بأن يسوع عرف خيانتة وآته يطلب منه ان يكملها فخرج منطلقا فى الليل .

وطبعي ان الجماعة لم تعلم شيئا عن هذا وانهم (ظنوا ان يسوع قال له اشتر ما نحتاج اليه للعيد ، أو أن يعطى شيئا للفقراء) (٣١) .

※

دفاع عن مجمع اليهود :

« اما بالنسبة لشيوخ المجمع وكهننته فيجب ان يقال بصدق ان نواياهم لم تكن شريرة بالفطرة . فهم قد اعتقدوا أن هناك مغامرة حقيقية على وشك أن تحدث نتيجة لثورة يهودية يقودها ذلك الذى تظاهر بأنه المسيح ، وهو ناثر جليلي مثل يهوذا الجليلي الشهير (المكابى) . وعلى ذلك فان شرارة صغيرة يمكن ان تحيل الاقليم الى كتلة من اللهب . ان الواجب يقضى بأن

تكون حذرين في حكمنا على ما حدث فلا نقضى بالحكم على ضوء ما يعتقدونه .
المسيحيون في يسوع ، بل على ضوء الصورة التي ظهر بها في نظر المجمع
حيث وضع اعضاءه في ذلك المأزق الخطير . فمن وجهة نظرهم كان القرار
الذي اتخذه عادلا تماما وله مايرره (خير لنا أن يموت انسان واحد عن
الشعب ولا تهلك الأمة كلها) ، وكان يسوع - وهو يدرك تماما ما كان
يفعله - قد اضطرهم الى اتخاذ هذا القرار ، وذلك بتخطيطه الماهر
وحركاته المحسوبة » .

«ويجب أن نتذكر كيف ناور يسوع أعضاء المجمع بحزم ووضعهم في الوضع
الذي اضطرهم الى العمل ضده . وهو لو لم يثر سخطهم ويعطيهم من
الأسباب ما جعلهم يتوقعون حدوث حركة وطنية ، فما كان احد منهم ليهتم
به على الاطلاق » .

« لقد كان المجمع يتصور انه يمارس مشيئته الحرة في اتخاذ قرار
باهلاك يسوع ، وقد يكون يهوذا الاسخريوطى قد اعتقد نفس الشيء بالنسبة
لخيانته ، ولكن الواقع هو أن يسوع كان المهندس الماهر لمؤامرة عيد الفصح،
وجميع هؤلاء لم تكن تصرفاتهم اكثر من استجابة لقدرته على اللعب بعواطفهم
وأفعالهم » . (٣٢) .

*

الساعات العصبية :

« لقد كانت ضيقة جشيماني من الأماكن المفضلة ليسوع ، فكثيرا ما
ذهب اليها من تلاميذه ، وفي هذه المرة شعر بحاجته الى من يؤنسه لذلك
صحبه بطرس ويعقوب ويوحنا . ويذكر مرقس أنه ابتداء يدهش ويكتئب
فقال لهم نفسى حزينة جدا . وحتى ذلك اليوم كان يسوع يعتقد أن الآلام
المادية التي تنتظره هي في الغالب آلام غير شخصيه . والآن لقد أنت الساعة
وخارت قواه النفسية والبدنية، وقد يموت من شدة الكرب، وابتداء يسوع،
يصلى لكى تعبر عنه الساعة ان امكن ، ولكن لتكن ارادة الله .

وما أن انتهى يسوع من كلامه حتى جاء يهوذا بصحبة قوة ارسلها
المجمع حيث تم القبض عليه بسرعة ، وهناك قال يسوع بضع كلمات ليهوذا
ولرئيس القوة اختلفت فيها الأناجيل » .

« وحسب رواية لوقا نجد حاشية من ، النساء اللواتى كن يلطن

وينحن عليه ، قد تبعن يسوع الى مكان الصلب ومن هؤلاء الذين وقفوا بجانب الصليب نجد ذكرا لأمه والتلميذ الذي كان يحبه ولم يكن هناك أحد من التلاميذ ، ولكن ، كانت أيضا نساء ينظرن من بعيد بينهن مريم ومريم ام يعقوب الصغير ويوسى وسالومة .

ان الروايات التي وصلت الينا لتقص ماحدث في موقع الجلجثة (تل الاعدام) متضاربة ، وقد تكلم كل انجيل عن ظروف تخالف الآخر ، واستخدم الخيال في اضعاف جو من الرهبة على عملية الصلب ، وحاول ان يجعلها شيئا له دلالة ومعناه . (٣٣)

« ويجب الا يغيب عن اذهاننا أن يسوع قد خطط لقيامته كما سبق أن خطط للأحداث التي أدت الى الحكم باعدامه . ويجب أن ندرك تماما أن تخطيط يسوع قد وضع بعناية وتوقيت مضبوط . فلقد اختار عيد الفصح ليعانى فيه ، وتهرب من أى محاولة للامساك به قبل ذلك . وفي النصف الأول من اسبوع الآلام اظهر نفسه امام الجمهور بنشاطه في الهيكل وعمل على اخراج السلطات الدينية الى آخر المدى حتى صمموا على اهلاكه بمجرد تملكهم لأول فرصة لا تحدث فيها اثارة للجماهير .

لكنه كان حريصا على عدم تمكينهم من هذا ، وذلك بمغادرة اورشليم قبل حلول الظلام ، ولم يحدث ان زاد يسوع من ضغطه على يهوذا قبل مساء الاربعاء مما اضطر هذا الأخير للذهاب الى المجمع عارضا خيانه . وباتفاقات يسوع السرية قدر أن عملية القبض لن تتم قبل مساء الخميس بعد أن يكون قد تناول العشاء الأخير مع تلاميذه في اورشليم .

ان كل هذا يؤيد انه قصد ان يكون الصلب يوم الجمعة وهو عشية السبت . وبالحساب وجد أن المجمع لن يستطيع الحصول من بيلاطس على تصديق بادانته قبل انقضاء عدة ساعات من صباح الجمعة . ولما كان واثقا انه لن يترك على الصليب الى يوم السبت حسب العادة وانما سينزل عنه قبل غروب شمس الجمعة ، لذلك قدر يسوع بحسابه هذا أنه لن يبقى على الصليب لأكثر من بضع ساعات ، على حين جرت العادة أن يمتد عذاب الصلب الذي يعانيه المصلوبون قبل موتهم الى بضعة أيام »

*

تنبؤات الكتب بنجاة المسيح :

« لقد اعتمد يسوع على نبؤات العهد القديم واشاراته التي فهم منها انه رغم تأمر الحكام ضده لاهلاكه (باعتباه المسيح كما في المزمور ٢) فان رحمة الله سوف تتداركه في النهاية ، وتكتب له حياة . ولبيان ذلك فاننا نذكر هنا بعض الفقرات التي تنبىء بذلك :

أن سلكت في وسط الضيق تحيينى . على غضب أعدائى تمد يديك . تخلصنى يمينك . الرب يحامى عنى . . حبال الهاوية حاقت بى . اشراك الموت انتشبت بى . فى ضيقى دعوت الرب ، والى الهى صرخت . فسمع من هيكله صوتى وصراخى قدامه دخل اذنيه . . ارسل من العلى فأخذنى نشلنى من مياة كثيرة . انقذنى من يدعدوى القوى . . أخرجنى الى الرحب . خلصنى لانه سربى . . فرح قلبى وابتهجت روحى . جسدى ايضا يسكن مطمئنا لانك لن تترك نفسى فى الهاوية لن تدع تقيك يرى فسادا . تعرفنى سبل الحياة .

يارب . . حياة سألك فأعطيته . طول الأيام الى الدهر والابد . . .

يا خائفى الرب سبحوه . . لانه لم يحتقر ولم يرذل مسكنه المسكين ولم يحجب وجهه عنه ، بل صراخه اليه استمع . . يخبر عن الرب الجيل الاتى . . يأتون ويخبرون ببره شعبا سيولد بأنه قد فعل . . .

اقول للرب ملجأى وحصنى فأتكل عليه . لانه ينجيك من فخ الصياد . . انما بعينيك تنظر وترى مجازاة الاشرار لانك قلت انت يارب ، ملجأى ، جعلت العلى مسكنك لا يلاقيك شر ولا تدنو ضربة من خيمتك . لانه يوصى ملائكته بك لكى يحفظوك فى كل طرقتك على الايدى يحملونك لئلا تصدم بحجر رجلك . . لانه تعلق بى انجيه أرفعه لانه عرف اسمى . يدعونى فاستجيب له . معه انا فى الضيق انقذه وأمجده من طول الأيام وأريه خلاصى .

من هذه التنبؤات وغيرها كان مفهوما أن المسيح سيبقى حيا بعد اجتياز محنته الرهيبة ولذلك خطط يسوع لكى تكون آلامه أقل ما يمكن .

ان حياة المصلوب يمكن انقاذها طالما ان فترة الصلب لن تطول . ويحدثنا عن هذا المؤرخ يوسفيوس فيما يذكره عن حصار الرومان لأورشليم

فقد أرسله القائد تيطس ليفتش على معسكر على بعد ١٢ ميلا جنوب المدينة، وفي اثناء عودته مر ببعض المصاوبين فتعرف على ثلاثة منهم كانت تربطه بهم علاقة . وبعد ان رجع اشتكى لتيطس من سوء حالتهم ، فأمر على الفور بتخليصهم من الصلب واعطائهم كل رعاية ممكنة ولقد مات اثنان منهم بينما بقي الثالث حيا ، وهذا يدل على انه رغم ان اولئك المصاوبين قد علقوا على الصليب فترة اطول من يسوع ، الا انه قد امكن انقاذ حياة واحد منهم . ان لدينا امثلة كثيرة تبين ان يسوع استخدم ذكائه ليؤكد تحقق النبوات والكتب ، فلقد كان يعتقد ان المسيح يجب ان تكون له روح الحكمة والفهم ، وان مشيئة الله تقضى بان يستخدم تلك القوى الذهنية في اتمام الحوادث ولم يكن من طبعه ان يجلس مطبقا يديه في انتظار ما تأتي به الاحداث ولذلك فقد تأمر وخطط لمؤامرتة بذكاء مستعينا باتفاقاته السرية وبكل فرصة تسنح له . . لقد عرفنا من قبل ان يسوع قدر ان فترة صلبه يجب الا تزيد عن ثلاثة أو أربع ساعات ، فاذا تتبعنا رواية الانجيل الرابع لوجدنا تلك المحنة لم تستغرق اكثر من ثلاث ساعات تبدأ من بعد الظهر بقليل حتى الساعة الثالثة . . ولكن هذا لن يكون كافيا لخداع الموت اذ كان عليه ان يجعل مظهره كالأموات قبل الساعة الخامسة حيث سينزل من على الصليب استعدادا ليوم السبت والا فان الجنود المسؤولين عن التنفيذ سيعجلون بموته . ولهذا يجب ان تأتي نجدة عاجلة تضمن وضع الجسد بين أيدي صديقه ، خشية أن يقذف به في اى مقبرة عامة وعندئذ يضع أى أمل في استعادته حيا . ولذلك عقد يسوع اتفاقا خاصا مع شخص ممن يثق فيهم ويذكره لنا الانجيل باسم، يوسف الذى من الرامة ، انه واحد من اكبر الألفاظ في الأناجيل ، فهو يظهر لنا كرجل ثرى وعضو في المجمع ، وحيث انه كان ينتظر ملكوت الله فلا بد انه كان فريسيا مشغول العقل بالمسيح . ان يوسف هذا يدخل القصة دون سابق اذذار ، وبعد ان يكمل عمله فانه يختفى تماما من وثائق العهد الجديد .»

« لقد اخبرنا بأن يوسف كان له ممتلكات قريبة من جلجثة - تل الاعدام - وكان جزء منها مزروعا كحديقة ، وعلى مرأى النظر كان هناك مقبرة في الصحراء اختير مكانها بعناية لكى يحضر اليها جسد يسوع بعد الصلب . وعلى كل فكان لابد من توفير شيئين لنجاح تلك المغامرة ، أحدهما اعطاء مخدر ليسوع وهو على الصليب لكى يظهر بمظهر الموتى الحقيقيين ، واما الثانى فكان سرعة توصيل الجسد ليوسف .

ولقد اخبرنا كذلك انه كان هناك متفرجون حول الصليب وان واحدا منهم ملاً اسفنجة بالخل وحملها على قصبه ووضعها في فم يسوع ، وهو لم

يفعل ذلك مع اللصين الآخرين الذين صلبا معه ، ولو كان دافع هذا الشخص انسانيا بحثا لكان عليه ان يفعل نفس الشيء مع الآخرين .

ويذكر مرقس ان هذا العمل تم بعد ان صرخ يسوع قائلا (الوى الوى لما شبيقتنى الذى تفسيره الهى الهى لماذا تركتنى) فعندئذ تدخل الرجل الذى أرسله يوسف بالمخدر (فملاً اسفنجة خلا وجعلها على قصبه وسقاه قائلا اتركوا لترى هل يأتى ايليا لينزله) . فهذا الرجل اغتنم الفرصة ليتدخل بحيث لا يجعل احدا يشك فى مساعدته ليسوع . ولا يعطى مرقس اى تعليل لهذا العمل ، بينما نجد الانجيل الرابع يقول ان يسوع قال : انا عطشان وهو القول الذى يعتبر اشارة كلامية . وبعد ان تناول يسوع ما قدم له نجده قد ذهب فى غيبوبة تامة ، اذ ارتخى جسده وتدلّت رأسه فوق صدره وظهر بمظهر الأموات .

وما أن وضع مفعول المخدر بيسوع حتى أسرع الرجل الى يوسف الذى كان قلقا فى انتظار الأخبار ، ثم أسرع يوسف بدوره الى بيلاطس يسأله ان يأخذ الجسد ، فتعجب بيلاطس انه مات كذا سريعا ، فدعا قائد المئة وسأله هل له زمان قد مات . ولما عرف من قائد المئة وهب الجسد ليوسف . وأسرع يوسف وانزله ولفه بكتان ووضع فى قبر منحوت حيث لم يكن احد قد وضع قط ، وكما تم تربييه من قبل فقد وضع يسوع فى المقبرة القريبة » . (٣٤)



الأحداث الأخيرة :

« فى الصباح الباكر يوم الأحد ذهبت النساء صاحبات يسوع الى القبر ، تفودهن مريم المجدلية ، وكان هناك رجل غريب لم نعرفه . وحسب رواية مرقس نجد الرجل (شابا لابسا حلة بيضاء) وقد أخبرهن بان يسوع قام ، وطلب منهن أن يذهبن ويقفن (لتلاميذه ولبطرس انه يسبقكم الى الجليل) .

وهكذا بدأت قصة قيامة يسوع تروى وتنتشر بعد ذلك حيث تحول الرجل الذى عند القبر الى (ملاك الرب) - كما فى انجيل متى - ثم الى (ملاكين بشيا ببيض) - كما فى انجيل يوحنا .

ولعل انجيل يوحنا هو الأقرب للصواب حين جعل مريم المجدلية تذهب وحيدة الى سمعان بطرس والتلميذ الآخر الذي كان يسوع يحبه ، وتنقل اليهما الأخبار المفجعة نيابة عن بقية النسوة . ولا يوجد هنا ذكر لأى رسالة من يسوع الذى قام من الأموات الى تلاميذه ، فلم تزد مريم عن أن انفجرت قائلة : لقد (أخذوا السيد من القبر ولسنا نعلم أين وضعوه) من (هم) - الذين اخذوه ؟ لا أحد يدري .

لقد كانت هذه الأخبار بمثابة صدمة شديدة للتلاميذ ، وكان لابد من التحقق من صحتها ولذلك جرى التلميذان فسبق التلميذ الآخر بطرس . . ثم جاء سمعان بطرس ودخل القبر ، ولقد كان ما قيل عن ذهاب جسديسوع من القبر صحيحا .

ويذكر الأنجيل انه حتى تلك اللحظة لم يكن التلاميذ (يعرفون الكتاب انه ينبغى أن يقوم من الأموات) . لقد كانت تلك هى بداية القصة : مقبرة خاوية ، ثم احياء بالقيامة من جانب التلميذ الذى كان يحبه يسوع ولم تكن هناك أى شهادة محققة غير هذا .

لقد تبعت مريم المجدلية التلميذان الى القبر ، وبعد رحيلهما فانها بقيت (واقفة عند القبر خارجا تبكى) ومن خلال دموعها لمحت شخصا (فظنت تلك انه البستاني فقالت له ياسيد ان كنت أنت قد حملته فقل لى اين وضعته) . وحسب رواية الأنجيل الرابع نجد ذلك الشخص يظهر نفسه لها على انه يسوع . . ومن الواضح أن مريم لم تعرف الرجل الذى قيل انه يسوع ، ولكن لأنها رآته فجأة بجوارها فى حالتها المضطربة ، جعلها تتصور انه يسوع وقد تحدث اليها ثم اختفى . اننا نعلم ان مريم هذه كانت مخبولة اذ أخرج منها يسوع سبعة شياطين وكانت متعلقة به تماما ولعلها تصورت انه كان يبادلها الحب ، وفى حزنها الشديد عليه تصورت انه قد ظهر لها ليخفف ما بها من آلام ومن ثم انطلقت (مريم المجدلية وأخبرت التلاميذ) انها رأت يسوع ومن تلك اللحظة بدأ الصراع بين الشك واليقين فى العقيدة الجديدة .

ان كلا من سمعان بطرس ويوحنا يمكنه ان يؤكد خلو القبر من جسد يسوع ، (ولما قام بطرس وركض الى القبر ونظر الاكفان موضوعة وحدها فمضى متعجبا فى نفسه مما كان) وقد اعترف التلاميذ انهم لو يروا يسوع بأنفسهم : (ومضى قوم من الذين معنا الى القبر فوجدوا هكذا كما قالت أيضا النساء وأما هم فلم يروه) .

إذا كان يسوع حياً، فمن ذا الذى يستطيع أن يحدد وقت ظهوره وعلى
أى صورة يكون ؟

السنا نقرأ على لسان يسوع نفسه ، ان ايليا ظهر فى شخص يوحنا
المعمدان ؟

لقد كان اولئك القوم ريفيين سذج يعتقدون بتناسخ الأرواح .

ففى هذا الجو نقرأ روايات عن ظهور يسوع للتلاميذ فى اورشليم كما
فى لوقا ويوحنا ، وان كان هذا يخالف ما يذكره متى عن ظهوره فى الجليل .
ففى لوقا ويوحنا نجد يسوع يظهر نفسه علانية للتلاميذ فى اورشليم
وسط جو من الشك والريبه :

(وبينما هم يتكلمون بهذا وقف يسوع نفسه فى وسطهم .. فجزعوا
وخافوا انهم رأوا روحا . فقال لهم ما بالكم مضطربين ولماذا تخطر افكار فى
قلوبكم .. وبينما هم غير مصدقين من الفرح ومتعجبون قال لهم اعندكم
هنا طعام فناولوه جزءا من سمك مشوى وشيئا من شهد عسل فأخذوا وكل
قدامهم - لوقا ٢٤ : ٣٦ - ٤٣) .

وكانت الأبواب مغلقة حيث كان التلاميذ مجتمعين لسبب الخوف من
اليهود جاء يسوع ووقف فى الوسط .. اما تواما احد الاثنى عشر .. فلم
يكن معهم .. فقال له التلاميذ الآخرون قد رأينا الرب . فقال لهم ان لم
أبصر .. لا أؤمن - يوحنا ٢٠ : ١٩ - ٢٥) .

اما فى متى فان التلاميذ لم يروا يسوع فى اورشليم ، ولكن بعد الفصح
يذهبون الى الجليل غير مقتنعين بروايات ظهوره ، اذ لو كان حيا لا ظهر
نفسه لهم فى المكان الذى عينه من قبل : (وأما الأحد عشر فانطلقوا الى
الجليل حيث أمرهم يسوع .. ولما رأوه سجدوا له ولكن بعضهم شكوا - متى
٢٨ : ١٦ - ١٧) .

ولنا أن نهتم الآن بعملية الظهور التى حدثت فى الجليل والتى يعرضها
الانجيل الرابع بالتفصيل . وتتلخص القصة فى أن بطرس قرر أن يذهب
للصيد مصحوبا بستة من التلاميذ ، فخرجوا ودخلوا السفينة .. وفى تلك
الليلة لم يمسكوا شيئا ، وعندما نظروا تجاه الشاطئ فى الصباح الباكر
وجدوا رجلا يحييهم ويسألهم عن شئ من الطعام ، فأجابوه بأنه ليس لديهم
شئ بعد وفى الحال اصطادوا سمكا كثيرا . وعندئذ صرخ التلميذ المحبوب
الذى كان أول من اعتقد بقيامة يسوع : (دخل التلميذ الآخر الذى جاء أولا
الى القبر ورأى فأمن - يوحنا ٢٠ : ٨) .

وقال : (انه الرب) ولقد كان هذا كافيا بالنسبة لبطرس الذي ألقى نفسه في البحر واقترب من الرجل الذي افترضوا انه يسوع وان كان يوحنا يقول (لكن التلاميذ لم يكونوا يعلمون انه يسوع) وعندما عاد التلاميذ الى الشاطئ وجدوا جمرا موضوعا وسمكا موضوعا عليه وخبزا) وهناك دعاهم شخص غريب للأكل معه ، وهناك (لم يجسر احد من التلاميذ ان يسأله من انت اذ كانوا يعلمون انه الرب) لكن هذا هو ما لم يعرفوه تماما .

ان حقيقة الأمر تكمن في ان يسوع الذي عرفه التلاميذ عن كثب ، قد اخفقوا في معرفته في شخص ذلك الرجل الغريب الذي راوه ، وهم قد انجزوا فقط للاعتقاد بأنه يسوع بناء على تحريض التلميذ المحبوب . ان ذلك الرجل الغريب لم يستطع احد من أصحاب يسوع التحقق من تطابق شخصيتهما ، تماما كذلك الشخص الذي قابلته مريم عند القبر أو ذلك الرجل الذي ظهر في الطريق الى قرية عمواس . ويبدو انه هو ذات الشخص الذي يتحدث عن ظهوره متى على جبل الجليل والذي عندما رآه التلاميذ (سجدوا له ولكن بعضهم شكوا) .

لم يصل البنا الا القليل من انباء قيامة يسوع وظهوره ، ولكن هذا القليل سرعان ماتحول الى اساطير وخرافات متناقضة لا تثبت امام البحث الذي يستهدف الوصول الى نتائج محققة .

كذلك لم يكن هناك كذب متعمد في شهادة أصحاب يسوع عن قيامته ، اذ ان النتيجة التي توصلوا اليها بدت حتمية ، فلم يكن هناك من يخبرهم بما حدث لجسده ، وهم لم يتمكنوا من معرفة ان ذلك النبي - الذي قالت عنه الكتب انه يكون مثل موسى قد استقر جسده اخيرا في قبر مجهول تماما مثل موسى « . (٣٥)

*

موضوع تبرئة اليهود من دم المسيح :

« ان الوشاية التي قيل ان الشعب اليهودي يعتبر مسئولاً بسببها عن قتل يسوع ، كانت عملا معاديا للسامية ينم عن غش وخداع تمسكت به الكنيسة بعد ان اصطبغت بالوثنية ، ولقد كان هذا سببا مباشرا للكثير من الآلام والمظالم التي ابتلى بها اليهود عبر القرون .

(٣٥) المرجع ٢٢ - ص ١٧٤ - ١٨٠

وأن أفكار الكنيسة الكاثوليكية اليوم في موضوع ، تبرئة اليهود (٣٦) قد جاءت متأخرة جدا ، ويعتبر تراجعاً منها لا يفي بالفرض .

ومن الواضح أن الكنيسة قد وقعت في ورطة من جراء ذلك ، إذ أنها لا يمكنها التمسك على إزالة وصمة الطار التي الحقتها باليهود ، دون الكف عن ممارسة الإيمان في صحة عقائدها ووثائقها المقدسة » . (٢٧)

*

ملحوظة :

« أن ما قصده هذا الكتاب أن يبين أن يسوع كان رجلاً عزيز الإيمان لدرجة أنه استطاع أن يترجم التصورات القديمة والأفكار الممتدة إلى واقع أرضي لموس » .

« ورغم كل ما علمته الكنيسة طيلة قرون وأصرت عليه ، فإن يسوع الذي يجد علماء المسيحية في اكتشافه ، ليبدو في أول معرفة به عن كتب أقل بهجة وقبولاً من تلك الشخصية المثالية الملقبة بالأساطير الإلهية التي تتنادى بها العقيدة المسيحية » .

« وإن ما بدأ - في الإنجيل والرسائل - كقصص تهديبية ، قد انتهى إلى اعتباره حقائق مسلماً بها » . (٣٨)

* * *

(٣٦) أقر المجمع المسكوني بروما بياناً صدر في أكتوبر ١٩٦٥ ، وعرف باسم « وثيقة تبرئة اليهود من دم المسيح » وقد جاء فيه :
« تشهد الكتب المقدسة أن القدس لم تتذكر وقت مجيئه (المسيح) وأن اليهود في سوادهم لم يقبلوا الإنجيل ، وأكثر من هذا فإن عدده كبيراً منهم قد عارض في نشر تعاليمه ، ومع ذلك فإن اليهود بسبب آباؤهم بقوا أحراراً عند الله . .

ومع أن نوى السلطة عند اليهود واتباعهم قد حرضوا على موت المسيح ، فإن ما ارتكب أثناء آلامه لا يمكن أن يعزى ، دون تمييز ، إلى جميع اليهود ، الذين كانوا عاشرين إذ ذاك ولا إلى يهود أيامنا » .

(٢٧) المرجع ٢٢ - ص ١٤٩

(٣٨) المرجع ٢٢ - ص ١٨٦ ، ٢٦٠ ، ٢٧٥

مجنون المنطق الاسرائيلي :

وبعد - فهذه مؤامرة يسوع التي دبرها في عيد الفصح ، ليخضع نفسه ويخضع الناس من حوله ، فذلك هو الحق كما يراه المنطق الاسرائيلي المموج .

اى حق هذا ايها الناس ؟

واى عاقل - او مجنون - يقول بأن يسوع صلب نفسه ؟

ولكن ما الحيلة ... !!

انه المنطق الاسرائيلي الذي يقدر على قلب الحقائق وتحويل الضحية الى مجرم قاتل وغسل يدم المجرم الحقيقي من دم صحبته القاتل للبريء ...

وهو نفس المنطق الاسرائيلي الذي يصور العرب على هيئة قتلة يتفنون دائما العدوان على اسرائيل الضحية البريء التي لا تبغي شيئا سوى العيش في سلام . هكذا تقول ابواق الدعاية الصهيونية وتدعى زورا وبهتانا ، بعد ان تمكنت من السيطرة بوسائلها الرهيبة على اغلب تيارات الفكر في العالم الغربي ، وطمست معالم الحقيقة - او كادت تطمسها - في قضية من اخطر قضايا القرن العشرين : قضية فلسطين .

اى سلام ذلك الذي تتمسح باسمه اسرائيل بعد ان غزت الارض وقتلت اهلهما ، وشردت من بقى منهم حيا ، وخربت بذلك الحرث والنسل ؟

انه السلام المخادع الذي يطلبه كل قاتل وظالم حتى يستطيع ان يتلذذ بعمرة عدوانه ولكن : محال ان يفلت اهل الظلم من العقاب الالهى الذى لا يبد ان ياتى يوما ما - ولو بعد حين - لينزل بالقادة العمى والشعب المسوق على السواء .

*

واخيرا - ماذا نقول في المنطق الاسرائيلي ومفهومه للحق في مختلف الصاوى والقضايا ؟

نطلب منه اولاً ان يحرر نفسه من الكبرياء والتعصب الاسرائيلي هو

يراجع موقفه من الحق - دائما - بعد أن يكف عن خلط الحقائق بالباطيل .
ثم نقول له بعد ذلك ما يقول الكتاب :

« ويل للقائلين للشر خيرا وللخير شرا ، الجاعلين الظلام نورا والنور
ظلاما ، الجاعلين المرحلوا والظلمة مرا .

ويل للحكماء في أعين انفسهم والفهماء عند ذواتهم .. الذين يبررون
الشرير .. أما حق الصديقين فينزعونه منهم .

لذلك كما يأكل لهيب النار القش .. يكون اصلهم كالعفونة ، ويصعد
زهرهم كالغبار .

من أجل ذلك حمى غضب الرب على شعبه ومد يده عليه وضربه ..
مع كل هذا لم يرتد غضبه ، بل يده ممدودة بعد - اشعيا ٥ : ٢٠ -
٢٥ .

الويل ثم الويل يا اسرائيل ...

هكذا يقول الكتاب ...

القوة

مقدمة :

لسنا بصدد الخوض في دراسة مجردة لموضوع القوة ، فذلك امر لا يعنيننا هنا . لكن غاية ما نبغيه هو ان نلم بشيء عن أشكال القوة ، وأخلاقياتها ، واستخدام الاسرائيليين لها في مساندة مختلف قضاياهم ، مع عرض مقارن لسياسة الاستخدام في مختلف العصور .

ان هناك طرقا مختلفة لتبويب اشكال القوة ، وكل له استخدامه الخاص . فهناك : قوة العقيدة ، والقوة المادية ، والقوة الاقتصادية ، وقوة الحماية ... الخ .

وتتكون القوة المادية من مركبات تتمثل محصولتها الرئيسية في نتاج القوة البشرية بأعدادها وطاقاتها .

كذلك « تعتبر القوة العسكرية اهم الصور التي تظهر عليها القوة المادية ، والتي من صورها كذلك قوة الجزائر على ذبائحه ، وقوة جيش الاحتلال على الأمة المقهورة .

وإذا عقدنا مقارنة بما نجده في العلوم الطبيعية ، لوجدنا أن القوة هنا مثلها مثل الطاقة هناك ، اذ يجب النظر اليها على اساس امكانية التحول من صورة الى اخرى . ولا شك أن اى محاولة لعزل اى شكل من اشكال القوة عن بقية صورها الأخرى ، انما يعتبر في الواقع خطأ كبيرا له آثاره العملية الضارة » . (٣٩)

وإذا أردنا وصف القوة على أساس الاخلاقيات ، لوجدنا أن القوة التي تستخدم في تأييد الحق ، انما تعتبر - بدهاة - قوة حق ، بينما تعرف القوة التي تسند الباطل ، بأنها قوة باطل .

من أجل ذلك كان تحديد جوانب الحق والباطل في كل قضية ، يعتبر بحق الزم اللزوميات .

بعد ذلك يأتي شكل استخدام القوم - بصرف النظر عن اعتبارها قوة حق أو قوة باطل - فنجد ان القوة قد تستخدم على صور وحشية عمياء ، لا تعرف قيودا أو اخلاقيات ، فهي بذلك قوة غشوم ، اما اذا احيط استخدام القوة بضوابط من العرف والتقاليد الكريمة التي تعترف بحقوق الانسان ، بل تعتبر احاسيس الحيوان كذلك ، فانها ولاشك قوة واعية .

لنا بعد ذلك أن نتحدث من : قوة حق أو قوة باطل ، وعن القوة
الروحية أو القوة الفسوم .

القوة عند الهكسوس :

غزت قبائل الهكسوس مصر في حوالى عام ١٧٠٠ ق . م ويصفه
الكاهن المصرى مانيثو هذا الغزو فيقول :

« لقد زحف على ارضنا من الناحية الشرقية رجال من أصول منحطة
لم تكن نتوقع قدومهم ، ومع ذلك كان النصر حليفهم فاحتلوا البلاد باعدادهم
الهائلة وأحرقوا المدن بوحشية ، وعاملوا المواطنين معاملة الأعداء فلدغوا
بعضاً منهم ، بينما أخذوا زوجات الآخرين وأطفالهم خدماً وبيدا . »

القوة عند الاسرائيليين :

لقد عرضنا في فصل « التاريخ الاسرائيلى بفلسطين » مشاهد من
استخدام القوة عند الاسرائيليين ، ونشير الآن اليها بايجاز .

فلقد حدث على عهد موسى ، وبناء على تعليماته أن خرج الاسرائيليون
لفقتال المديانيين فسبوا ، « نساءهم وأطفالهم ، ونهبوا جميع بهائمهم وكل
املاكهم ، وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار » .

لكن موسى لم يكتف بذلك الذى حدث لشعب المديانيين - أصهاره -
فقد خشى أن تبقى منهم أنفس حية ، لذلك سخط على رؤساء جيشه
وأعطاهم أوامر صارمة هذا نصها :

« اقتلوا كل ذكر من الأطفال ، وكل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة ذكر
أقتلونها » .

وقد كان أن أفنى الاسرائيليون المديانيين أو كادوا .

*

وقعت قيادة يشوع - خليفة موسى - بلغ الاسرائيليون بأعمالهم
من العنف والشراسة حداً بعيداً ، فكانوا إذا استولوا على قرية أو مدينة
« حرموا كل ما فى المدينة من رجل وامرأة ، من طفل وشيخ ، حتى البقر
والغنم والحمير - بحد السيف ، وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها » .
بعد ذلك يملب يشوع اسراه وخاصة ملوك المدن التى يستولى عليها .

فيطقتهم على الصليب حتى الموت .

*

كذلك كان سلوك داود ، الذي عرف بين شـعبه باسم « رجل الدماء » فقد كانت القسوة والعنف هي الطابع الذي عرف به ذلك العهد ، وكان الويل لأعدائه الذين يتمكن منهم ، أحياء أو أموات .

فبالنسبة للأسرى من أعدائه الأحياء ، كان يجمعهم على الأرض صفوفا ، ثم يقيس منهم « بحبلين للقتل وبحبل للاستحياء » .

وكان إذا اقتحم مدينة « أخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد ، وفؤوس حديد ، وأمرهم في أتون الأجر (للحرق) . »

وأما أعداؤه الأموات ، فقد كان يمثل بهم أشنع تمثيل . ومن أمثلة ذلك ما فعله بالفلسطينيين الذين قتلهم ، إذ قام بتقطيع أعضاء ذكورهم ، وأتى بمائتين منها لسيدة شاول ، مهرا لابنته ميكال التي أراد الزواج بها - علما بأن ما طلبه شاول كان مائة عضو فقط .

*

وإذا تركنا التاريخ الإسرائيلي الغابر وصـبغته الدموية القائمة ، ثم انتقلنا إلى إسرائيل القرن العشرين ، لوجدناهم غرقى حتى الأذان في مستنقعات من الأرهاب والتوحش والدموية .

إن الأرهاب الإسرائيلي المعاصر ليس شيئا عارضا على أساليب عمل الإسرائيليين ، ولكنه في حقيقة الأمر - كما سبق أن ذكرنا - يعتبر عقيدة إسرائيلية ، تمتد جذورها عبر القرون إلى الواقع الدموي القديم ، وإن كانت تغلف نفسها بفلسفة متجددة بين الحين والحين .

ولهذا نجد الإرهابي الإسرائيلي المعاصر مناحم بيجين قد نسج له فلسفة دموية استعار لها صورة رياضية من صور فلسفة ديكارت .

فاذا كان ديكارت قد سبق أن قال : أنا أفكر ، فأنا اذن أكون - فإن هذا الإرهابي يقول : نحن نحارب ، فنحن اذن نكون .

ويشرح بيجين فلسفته في كتابه « الثورة » فيقول : « عندما قال ديكارت : أنا أفكر فأنا اذن أكون فهو قد قال فكرة عميقة جدا . غير أن هناك

أحيانا في تاريخ الشعوب لا يكفي التفكير وحده لاثبات وجودها ، فقد يفكر شعب ثم يتحول أبناؤه بأفكارهم وبالرغم منهم الى قطيع من العبيد . هنالك أحيانا يصرخ كل ما فيك قائلا : أن عززتك ككائن حي رهن بمقاومتك للشمر .

نحن نحارب ، فنحن أذن نكون « . (٤٠) .

وتحت راية هذه المبادئ الأتمة ، حاربت العصابات الاسرائيلية لتقيم دولة اسرائيل ، ثم حارب الجيش الاسرائيلي - الذي امتص هذه العصابات بمبادئها وأفرادها - ليحمي دولة الارهاب ، بل ليتمكن لها من أن تتوسع وترداد .

وليت مبدأ « الحرب لاثبات الوجود » قد استخدم ضد القوات والجيوش النظامية التي تأخذ الحرب حرفة وفق نظم ومعايير متفق عليها ، لكنه - وبالنزلة والوحشية - قد طبق على المدنيين العزل المسالمين ، فتحوّلت الحرب بذلك الى ارهاب وسعار حيواني ولحق دم . ان سجل الارهاب الاسرائيلي بعرب فلسطين ليمتلئ بالكثير من المذابح الدموية التي تقشعر من وصف هولها الأبدان . وفيما يلي عرض موجز جدا لبعض ما عرف العالم انباءه من تلك المذابح الاسرائيلية .



مذبحة دير ياسين :

وقعت تلك المذبحة يوم ٩ ابريل ١٩٤٨ حين قامت عصابة الارجون - التي يتزعمها مناحم بيغن - تشاركها وحدة من عصابة شتيرن ، ويعلم الهاجاناه ، بمباغمة سكان قرية دير ياسين الامنيين ، فأعملت فيهم الذبح والتقتيل ، ثم التمثيل بجث الضحايا من الموتى والأحياء على السواء .

فقد جمع من النساء خمسة وعشرين امرأة ذوات حمل ، بقرت بطونهن بالخناجر وأسلحة البنادق وهن على قيد الحياة .

وذبح اثنان وخمسون طفلا في أحضان امهاتهم ، وقطعت اجسادهم ، ثم اجهب بعد ذلك على الامهات المفجوعات ...

(٤٠) الجذور الإرهابية لحزب جيروت الاسرائيلي - بسام ابو غزالة - دراسات فلسطينية - ص ٣٤ .

وافقت القرية الشيوخ والشباب والصبيان ، ولذلك بلغت جملة الضحايا ٣٠٠ قتيل ولم يكتف الاثريون بذلك ، بل انهم جمعوا من بقى من النساء والبنات العربيات وجردوهن من ملابسهن ، ثم قاموا بوضعهن في عربات مكشوفة ، طافت بهن شوارع القدس ، باعتبارهن سبايا تلك الحملة الارهابية المظفرة

ولقد روع العالم بانباء تلك الجرائم النكراء ، فلم تكن في نية القيادات الاسرائيلية ان تتكتمها ، اذ كان الهدف الرئيسى منها هو اشاعة الرعب في نفوس المواطنين العرب حتى يضطروا الى الفرار بعيدا خارج فلسطين ولم تفعل القوات الانجليزية - المسئولة عن النظام آنذاك - شيئا سوى ارسال كونستابل يهودى ليحقق في ذلك الحادث !

ولقد كان تحقيقا مزيفا - ولاشك - لم تستطع ان تقوم عوجه شهادة مندوب الصليب الاحمر الدولى ، الذى عشر على بئر القرية وقد القيت فيه اكثر من مائة جثة ، كما عشر على كومة من بقايا الضحايا وقد انبعثت منها انثى طفلة لم تزال بعد من الاحياء ، فنقلها بنفسه الى المستشفى .

*

مذبحة قبية :

قام الجيش الاسرائيلى بتلك المجزرة في ليل ١٤ - ١٥ اكتوبر ١٩٥٣ ويصف تقرير رئيس هيئة الرقابة الدولية الى مجلس الامن بتاريخ ٢٧ اكتوبر ١٩٥٣ تلك الفارة فيقول :

«انتقل القائم باعمال رئيس اللجنة (لجنة الهدنة) الى قبية في صباح اليوم نفسه ، وحين وصل الى القرية وجد بين ثلاثين او اربعين بيتا قد نسفت تماما ومن بين هذه المباني مبنى المدرسة ومحطة المياه ومركز البوليس ومكتب التليفون .

دلت الجثث التى وجدت بجوار ابواب المباني وقد مزقتها الرصاص ، فضلا عن الرصاص العديد الذى اصاب الابواب نفسها ، دل على ان السكان ارغموا على البقاء بداخل بيوتهم حتى نسفت عليهم . . .

وقبل ان يفادر القائم باعمال رئيس اللجنة قبية كان قد تم استخراج ٢٧٠ جثة من بين الانقاض وكان اهل القرية لا يزالون يحفرون بحثا عن غيرها . . .

مقد اجتماع عاجل للجنة الهدنة المشتركة بعد ظهر يوم ١٥ أكتوبر وقد وافق المجتمعون بأغلبية الاصوات على القرار التالي الذى صوت الوفاق الاسرائيلى ضده :

عبور قوة قريبة من نصف كتيبة كاملة المعتاد من الجيش الاسرائيلى العامل خط الهدنة الى قرية قبية فى ليل ١٤ - ١٥ أكتوبر سنة ١٩٥٢ لتهاجم السكان باطلاق النار من الأسلحة الأوتوماتيكية والقنابل اليدوية واستخدام طوربيد البنجالور ومتفجرات ت . ن . ت . ن . س . س . ف . سببها ٤١ منزلا ومبنى مدرسة نسفا تماما نتج عنه مصرع ٤٢ شخصا بينهم رجال ونساء واطفال ، واصابة ١٥ شخصا بجراح . . ان هذا كله خرق للمادة الثالثة الفقرة الثانية من اتفاق الهدنة العام » .

ويصف مراقب عسكري امريكى عاين ذلك الحادث ، فيقول :

« يصعب على الانسان أن يصف مدى التخريب المتعمد الذى اقترفته القوة الاسرائيلية وكان ابشع المناظر التى عقلت فى ذهنى هو منظر تلك المرأة العربية التى جلست على قمة تل من الأنقاض تبرز من أماكن متعددة منه الأرجل والأيدى البشرية ، وقد تحجرت عيناها فى نظرة جامدة خلت من أى تعبير انساني أو شعور . فقد كانت تجلس على قمة الصخور المحطمة التى تضم جثث اولادها الستة بينما تمددت أمامها على جانب الطريق جثة زوجها التى مزقها رصاص اليهود .

وعندما أدركنا وجوهنا عن هذا المنظر البشع وقعت أعيننا على رجل يهيم على وجهه وقد احتضن بين يديه جثة ابنته الممزقة . وطلق الرجل يناشداً أن نمنحه الاذن بمواراتها التراب ، وبدأ كأنه لا يدري بما أصاب وجهه من جراح عميقة دامية .

وجدنا القصة نفسها مكررة مرة بعد مرة ، تقصها آثار العدوان . فقد كانت الثقوب التى صنعتها الطلقات فى الأبواب والجثث المطروحة على وجوهها ، توضح بجلاء ان اليهود اطلقوا النار على ابواب المنازل لمنع سكانها من الخروج حتى يتم لهم نسف المنازل بأكملها على الذين بداخلها .

وقد أدينت اسرائيل فى هذا الحادث الاجرامى ، وغدت المرة عاجزة تماماً عن أن تغطى آباء المذبحة الفظيعة بوسائل الدعاية المعروفة . فقد أفر العالم فاه دهشة واشمئزازاً من هذا العمل الوحشى » . (٤١)

ان سجلات الأمم المتحدة تمتلئ بالجرائم البشعة التي أتمرها الوجود الاسرائيلي بفلسطين وهي جرائم تفوق الحصر ، ومن بينها ذلك الهجوم القادر الذي شنته القوات الاسرائيلية على معسكر اللاجئين الفلسطينيين بفترة ليلة ٢٨ أغسطس ١٩٥٣ . وفي هذا يقول تقرير رئيس هيئة الرقابة الدولية ، المشار اليه آنفا ما يلي :

« من أحدث وأخطر هذه الحوادث في قطاع غزة ، ذلك الهجوم الذي وقع على عدد من المنازل والاكواخ في معسكر اللاجئين العرب في البريج ليلة ٢٨ أغسطس . ويقع ذلك المعسكر الذي نظمته هيئة اغاثة اللاجئين وتولت الاشراف عليه ، على بعد نحو كيلو مترين الى الغرب من خط الهدنة . وفي تلك الغارة القيت القنابل من خلال النوافذ على اللاجئين النائمين في اكواخهم ، فلما فروا هاربين هوجموا بالأسلحة الصغيرة والأتوماتيكية .

وقد قتل في تلك اللية عشرون عربيا ، وأصيب سبعة وعشرون بجراح خطيرة وخمسة وثلاثون بجراح اقل خطرا .

وعقدت لجنة الهدنة المشتركة اجتماعا عاجلا اصدرت فيه باغليبية الأصوات قرارا نصت فيه على أن الهجوم وقع من جماعة اسرائيلية مسلحة » .

*

تلك بعض نتائج القوة عندما تكون في يد الاسرائيليين .

فهي اما ان تكون قوة شيطانية تجلب العذاب والالام لغيرهم ، أو تكون قوة شمشونية تجلب الخراب لهم وللعالمين .

وفي هذا وذاك فهي قوة غشوم ، والويل للبشرية حين تكون القوة في يد الاسرائيليين .

القوة عند العرب :

سوف نكتفي هنا بعرض نماذج مختصرة للتعليمات والأوامر التي كانت تصدر لقادة الجيوش العربية وجنودها ، والتي تقيد استخدام القوة ضد الإعداء ، وتطلب مراعاة الجوانب الانسانية في معاملتهم ، بل ومراعاة الأخلاقيات عموما حتى في معاملة الحيوان والنبات .

قال ابو بكر في وصيته لاحد الجيوش : « ايها الناس تفقوا اوصيكم
بمشر فاحفظوها عنى :

لا تخونوا ، ولا تفلوا ، ولا تغفروا ، ولا تمشلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا
ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تعفروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة
مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لملكه .

وسوف تمررون بأقوام قد فرغوا انفسهم في الصوامع فدعوهم وما
فرغوا انفسهم له .

وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآتية فيها الوان من الطعام فاذا اكلتم
منها شيئا بعد شيء فاذكرو اسم الله عليها » .

*

وكان عمر يقول عند عقد الالوية : « بسم الله وبالله وعلى عون الله .
امضوا بتأييد الله وما النصر الا من عند الله ولزوم الحق والصبر ، فقاتلوا
في سبيل الله من كفر بالله ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين .

ولا تجبنوا عند اللقاء ولا تمشلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور ،
ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا ، وتوقوا قتلهم اذا التقى الزحفان وعند
شن الغارات » .

*

وكتب عمر الى قائد احد الجيوش - وهو سعد بن ابي وقاص -
يقول له :

« اما بعد فاني آمرك ومن معك من الاجناد بتقوى الله على كل حال ،
فان تقوى الله افضل العدة على العدو ، واقوى المكيدة في الحرب . آمرك
ومن معك ان تكونوا اشد احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم ، فان ذنوب
الجيوش اخوف عليهم من عدوهم ..

اهلموا ان عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ماتفعلون : فاستحيوا
منهم ولا تعملوا بمعاصي الله وانتم في سبيل الله .

ونح منازل (جنديك) عن قرى اهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من
اصحابك الا من تشق بدينه ، ولا يرزا احدا من اهلها شيئا فان لهم حرمة
وذمة » . (٤٢)

(٤٢) العقد الفريد - لابن عبد ربه - المرجع رقم ١٢ - ص ٤٨ - ٥٠ .
انظر كذلك : تاريخ الطبري - طبعة بيروت ١٩٦٥ - القسم الاول - الجزء
الرابع - ص ١٨٥ .

القوة عند التتار :

في اوائل القرن الثالث عشر الميلادي تدفقت جحافل التتار بقيادة جنكيزخان متجهة نحو الغرب « فا ستولوا على بخارى وسمرقند وفتكوا بأهلها شرفتك ، وقد فعلوا بالاهلين افاضيل فظيعة من حرق مدنهم وبقر بطونهم ، وهتك اعراض نسائهم والتمثيل باطفالهم وشيوخهم ، ثم انساحوا الى ايران فتملكوها بعد ان خربوا العواصم والمدن الكبرى ، وكثير من مدن اقليمي اذربيجان وخراسان » .

وتكفل هولاءكو وجنوده بعد ذلك بأمر المراق فاذا قوه ما اذا قوا ايران من صنوف القسوة والوحشية ، وانطلقوا في شوارع بغداد يعمدون الى « الفتك وقتل الناس وسلب اموالهم وهدم بيوتهم ، ولم يسلم احد من الناس الا من كان مختبئاً في الآبار والقنوات والسراديب .

ثم ترك هولاءكو بغداد لفساد هوائها من كثرة الجيف ، وانتشار الاويثة والامراض وطلب الى بعض رجاله ان يتولوا الاشراف على الخليفة ويسبئوا معاملته هو واهل بيته ، ثم يقتلوهم جميعا .

وهكذا فعلوا : قتل الخليفة واولاده الثلاثة ثم في اليوم التالي قتل جميع الامراء العباسيين والعلويين حتى لم تبق منهم باقية » . (٤٣)



القوة عند الفانست :

يضرب برتراند رنسل بالنظام الفاشي في ايطاليا - تحت زعامة موسوليني - المثل السيء في استخدام القوة ، ويعتبر نظرتة اليها نموذجاً لما يعرف باسم « جنون القوة » - ذلك الجنون الذي يدفع من بيده سلطاتها الى استخدامهما في تحقيق اطماعه بأساليب وحشية غاشمة ، مجردة من كل صور الاعتبارات الاخلاقية .

فلقد طار موسوليني يوماً . فوق احدى مناطق القتال بين قواته - التي غزت الحبشة عام ١٩٣٦ - وبين القوات الحبشية التي كانت تقاتل دفاعاً عن أرضها ، وكم كان سعيداً وهو يرى قواته وآلياته الحديثة وهي

(٤٣) تاريخ الامة العربية - محمد اسعد طلس - عصر الانحدار -

المرجع رقم ٤ - ص ٩ - ١٣

تحصيل مواقع الأحباش البدائية بما تحوى من انسان وحيوان الى جميع مستعمر ، لذلك كتب موسوليتي يصف هذا المنظر فيقول :

« كان علينا ان نشمل النيران في الأشجار والحقول والقرى الصغيرة ... لقد كان هذا المنظر من أكثر المناظر اثاره وتسليه ... ان القنابل لم تكد تلمس الأرض حتى تكون قد انفجرت وتحولت الى دخان ابيض والى كمية كبيرة من اللهب ، وعندئذ يبدأ الحشيش الأخضر في الاحتراق .
لقد فكرت في الحيوانات : يا الهى ، ... كيف كانت تمرول مدعورة ...

وكانت هناك حظيرة كبيرة محاطة بالأشجار الطويلة ولم يكن من السهل ضربها وكان علينا ان نحكم الرماية مستهدفين سقفا المصنوع من القش ولم ننجح الا في المحاولة الثالثة .

وعندما رأى الحقراء الذين كانوا بداخلها سقف الحظيرة وهو يحترق اندفعوا الى الخارج يجرون كالجائنين . لقد احاطت النيران المشتعلة على هيئة دائرة بحوالى خمسة آلاف من الأحباش ، فاحالتهم الى بقايا متحجرة . ان ما حدث كان يمثل الجحيم » . (٤٤)

القوة عند النازى :

كانت القوة عند النظام النازى فى ألمانيا بزعامه هتلر هى كل شىء بالنسبة اليه ، فقد كانت الهه الذى يعبد ، بها بعظمته واعجابا بنسبة بطشه ، ذلك الاعجاب الذى اصاب النظام النازى وزعيمه بجنون القوة .

وعندما قرر هتلر بدء الحرب ، والهجوم على بولندا عام ١٩٣٩ ، قال فى احد اجتماعاته مع كبار ضباطه يوم ٢٢ أغسطس من ذلك العام :

« ان النصر لن يسأل بعد ذلك عما اذا كان فى جانب الحق او فى جانب الباطل . عندما تشن الحرب لا يهم أين الحق ، لكن النصر هو المهم .

نحوا قلوبكم عن الشفقة . تصرفوا بشراسة ووحشية . ان شعبنا يجب ان يؤمن بوجوده . ان الرجل الأقوى هو الأحق دائما . عليكم بالبطش الشديد » . (٤٥)

*

(٤٤) المرجع ٢٤ - ص ٢١

(٤٥) المرجع رقم ٢٥ - ص ٥٢٧ Alan Bullock : HITLER

ولقد تمكنت القوات هتلرية من تحطيم بولندا فعلا ، وبدأت الحرب العالمية الثانية ، واندفعت جيوش النازي لتجتاح أوروبا ، وكأنها أسد الغابة وسيدها دون منازع الذي كان وجبته للغذاء دولة ، ووجبته للعشاء دولة الأخرى .

ثم جاء دور فرنسا : « ففي صباح ٥ يونيو ١٩٤٠ جدد الجيش الألماني الهجوم متوجها نحو الجنوب عبر السوم . وكان الموقف غاية في السؤ إذ فقد الفرنسيون ما يقرب من ٣٠ فرقة في القتال في بلجيكا ، ولم يبق للبريطانيين هناك سوى فرقتين من بين ١٤ فرقة . وكان على القائد الفرنسي الجنرال ويجان أن يواجه بقواته المستنزفة - القوات الألمانية المنتصرة والتي كانت متفوقة في العدد والعدة ، وتمتع بغطاء جوي قوى ، وتقدمها تشكيلات من قوات البانزر المدرعة أمام دفاعات الفرنسيين المنهارة .

وفي ١١ يوما انتهت المعركة ، فقد احتلت باريس في ١٤ يونيو ، وكانت فرق البانزر تتسابق لاحتلال وادي الرون . وفي مساء ١٦ يونيو استقال المشير ديمو ، وفي نفس الليلة شكل المارشال بيتان حكومة فرنسية جديدة كان هدفها الوحيد إجراء مفاوضات لمقد هدنة » .



ثم استدار هتلر نحو روسيا ، فكشّر من أتيابه ، وبدأ الهجوم عليها في يونيو ١٩٤١ وقد استطاعت قواته أن تحقق انتصارات مذهلة ، الأمر جعل خسارة النصر للعب برأيه « فتحوّلت أحلامه في السيطرة والتوسع إلى عقائد هتلرية تطلّعت منه تماما ، وجعلته أسرا لها لا يستطيع الفكك من قبضتها .

لذلك قال هتلر في الأيام الأولى لتلك الانتصارات - في شهر أغسطس

: ١٩٤١ :

« ان ما تمثله الهند لانجلترا سوف تمثله الاراضى الروسية لنا ...

وددت لو انى استطعت ان اجمل الشعب الالماني يفهم ماذا يعنى هذا المجال لمستقبلنا . يجب علينا الا نسمع بعد ذلك للالمان بالهجرة الى امريكا ، بل العكس ، اذ يجب علينا ان نجذب النرويجيين والسويديين والدانمركيين والهولنديين للعيش في اراضينا الشرقية وسوف يصبحون اذن اعضاء في الرايخ الالماني .

ان المستعمر الالمانى يجب ان يعيش فى مزرعة جميلة واسعة ، كما يعيش الحكام الالمان فى قصور .

ولسوف نشيء مدنا كثيرة ، نقيم حولها حزاما من القرى الجميلة بعمق من ٢٠ الى ٤٠ كيلومتر تربطها طرق سهلة معبدة .

وما يتبقى وراء مجتمعنا هذا فسوف يكون عالمه آخر نترك فيه الروس يعيشون وشأنهم ويكفيننا فقط أن نحكمهم » . (٤٦)

*

وتوالت انتصارات هتلر ، وعمقت بذلك أعلامه ومطامعه ، فقال فى مساء ١٧ اكتوبر ١٩٤١ ما يلى :

انا سوف نعمر هذه الصحراء الروسية ، وسوف نغير ملامحها من اقليم اسيوى الى بلد اوربى .

ولتحقيق ذلك بدأنا بإنشاء الطرق التى تصل بنا الى القوقاز فى أقصى الجنوب ، وحول هذه الطرق ستمتد المدن الالمانية ، والتى من حولها سوف تنتشر مستعمراتنا .

وفىما يتعلق بالمليونين او الثلاثة ملايين عامل الذين نحتاجهم لهذه الاعمال فسوف نجدهم باسرع مما نتصور ، اذ سنجلبهم من المانيا واسكندنافيا والاقاليم الغربية وأمريكا .

قد لا ابقى حيا لأرى كل هذا وقد تحقق ، لكن فى بحر عشرين سنة سوف تصبح أوكرانيا وطينا لعشرين مليوناً من السكان الجدد ، بخلاف أن أمامنا واجبا رئيسيا وهو : أن نجعل هذا البلد المانيا بهجيرا الالمان ، ثم النظر بعد ذلك الى مواطنيه على أنهم هنود حمر » .

*

وفى ٢٧ اكتوبر ١٩٤١ تحدث هتلر عن السلام - سلام المتعدين الذى يطمع فيه كل معتد وظالم حتى يحنى ثمار عدوانه - فقال :

« ان اأخذ لن يستطيع ان ينتزع الشرق من ايدنا . . . وسوف نمع أوربا كلها بالقمح ، كما نمدها بالفحم والصلب والخشب .

ولاستغلال اوكرانيا - هذه الامبراطورية الهندية - على الوجه الاكمل، فاننا لن نحتاج الا الى السلام في الغرب ..

وعندما تكون سادة لاوروبا فسيكون لنا مركز الثقل في العالم . ان ١٣٠ مليون في الرايخ ، و٩٠ مليوناً في اوكرانيا ، بالاضافة الى مواطنى الدول الأخرى في أوروبا الجديدة ، فسوف يبلغون ٤٠٠ مليون نسمة ، وهو الشيء الذى لا يمكن مقارنته بأولئك الأمريكيين الذين لا يتعدون ١٣٠ مليون نسمة » . (٤٧)

* * *

بعد هذا الذى رأيناه - لا نتصور أحدا يشك في أن القوة في يد الاسرائيليين عبر القرون كانت دائماً هي القوة الغشوم . وإذا صح لنا أن نغمض أعيننا عن استخدام موسى وداود وسليمان للقوة - باعتبارهم من اهل الوحي - ونترك الحكم في هذا الأمر لله فان السمات الواضح للقوة الاسرائيلية هو تليفها دائماً بطابع الظلم .

ان القوة الاسرائيلية هي قوة ظالمة غشوم ، وصورتها في ايديهم لا تختلف في قليل أو كثير عن صورتها في يد الهكسوس أو التتار أو الفاشست أو النازى .

والويل للعالم حين يمتلك الاسرائيليون القوة لأنها لما ان تمكنهم من تحقيق اطماعهم الدينية في السيطرة والتوسع ، وتبرز استعلاءهم المكبوت على سائر خلق الله - وأما أن تذهب بهم وبالناس جميعاً معهم الى جحيم . لقد ضرب شمشون - رمز القوة المادية الاسرائيلية - المثل في ذلك . حين تمكن منه اعداؤه ، ورأى انه قد احيط به ، وتقطعت به سبل النجاة ، فحطم شمشون البيت عليه وعلى اعدائه « وقال شمشون لتمت نفسى مع الفلسطينيين » .

تلك عقيدة اسرائيل في القوة ..

ان على العالم أن يعى دورس التاريخ والعقائد الاسرائيلية ، حتى لايفاجأ بحرب عالمية رهيبة ، يشعلها صهاينة شعب - وصفه الله في توراة موسى بأنه شعب « صلب الرقبه » - صمموا على حكم العالم والسيطرة عليه . مهما استخدموا لذلك من احط الوسائل والأساليب .

ولئن استطاعت الصهيونية أن تحكم حتى الآن من وراء ستار عن طريق : مستشارى الرؤساء ، وملوك الذهب والصحافة والدعاية ، وغيرهم ، فانما ذلك انتظارا للوقت الذى تتحقق فيه خطة « حكماء صهيون » للسيطرة على العالم كما ترسمها البروتوكولات - التى تقول : (٤٨)

« ان حقنا يكمن فى القوة وكلمة ، الحق ، فكرة مجرد قائمة على غير أساس ، فهى كلمة لا تدل على اكثر من : (اعطنى ما اريد لتمكننى من أن ابرهن لك بهذا على أنى اقوى منك) .

فى هذه الاحوال الحاضرة المضطربة لقوى المجتمع (العالمى) ستكون قوتنا اشد من أى قوة أخرى ، لانها ستكون مستورة حتى اللحظة التى تبغ فيها مبلغا لا تستطيع معه أن تنسفها أى خطة مأكرة . ومن خلال الفساد الحالى الذى نلجا اليه مكرهين ستظهر فائدة حكم حازم يعيد الى بناء الحياة الطبيعية نظامه الذى حطمته التحررية . ان الفاية تبرر الوسيلة ، وعلينا ونحن نضع خططنا ، الا نلتفت الى ما هو خير واخلاقى قدر ما نلتفت الى ما هو ضرورى ومفيد .

يجب أن يكون شعارنا : كل وسائل العنف والخديعة .

ان القوة المحضة هى المنتصرة فى السياسة وبخاصة اذا كانت مقنعة بالالمية اللازمة لرجال الدولة .

يجب ان يكون العنف هو الأساس . ان هذا الشر هو الوسيلة الوحيدة للوصول الى هدف الخير ، ولذلك يتحتم الا تتردد لحظة واحدة فى اعمال الرشوة والخديعة والخيانة ، اذا كانت تخدمنا فى تحقيق غاياتنا .

ان مبادئنا فى مثل قوة وسائلنا التى نعددها لتنفيذها ، وسوف فننصر ونستعبد الحكومات جميعا تحت حكومتنا العليا ، لا بهذه الوسائل فحسب بل بصرامة عقائدنا ايضا ، وحسبنا ان يعرف عنا اننا صارمون فى كبح كل تمرد « - بروتوكول رقم (١)

*

« من رحمة الله ان شعبه المختار مشئت ، وهذا التشتت - الذى يبدو ضعفا فينا امام العالم - قد ثبت أنه كل قوتنا التى وصلت بنا الى عتبة السلطة العالمية « - بروتوكول رقم (١١) .

*

(٤٨) الخطر اليهودى أو بروتوكولات حكماء صهيون - ترجمه عن الانجليزية محمد خليفه التونسى - دار الكتاب العربى - بيروت .

« ان الصحافة التى فى ايدى الحكومات القائمة هى القوة العظيمة التى
بها نحصل على توجيه الناس . فالصحافة تبين المطالب الحيوية للجمهور
وتعلن شكاوى الساكنين وتولد الضجر احيانا بين الغوغاء ، وان تحقيق حرية
الكلام قد ولد فى الصحافة ، غير ان الحكومات لم تعرف كيف تستخدم
هذه القوة بالطريقة الصحيحة ، فسقطت فى ايدينا .

ومن خلال الصحافة احرزنا نفوذا وبقينا نحن وراء الستار ، ويفضل
الصحافة كدسنا الذهب ولو ان ذلك كلفنا انهارا من الدم ، فقد كلفنا
التضحية بكثير من جنسنا ، ولكن كل تضحية من جانبنا تعادل آلافا من
الامميين امام الله » - بروتوكول رقم (٢) .

« سنعامل الصحافة على النهج الآتى : ما الدور الذى تلعبه الصحافة
فى الوقت الحاضر ؟ انها تقوم بتهييج العواطف الجياشة فى الناس ، وحيانا
بإثارة المجادلات الحزبية الأتانية التى ربما تكون ضرورية لمقصدنا، وما أكثر
ما تكون فارغة ظالمة زائفة ومعظم الناس لا يدركون أغراضها الدفينة أقل
ادراك .

اننا سنسرحها وسنقودها بلجم حازمة ، وسيكون علينا أن نظفر
بإدارة شركات النشر الأخرى وسنحول انتاج النشر الغالى فى الوقت الحاضر
موردا من موارد الثروة يدر الربح لحكومتنا بتقديم ضريبة دمغة باجبار
الناشرين على يقدموا لنا تأمينا ، لكى نؤمن حكومتنا من كل انواع الحملات
من جانب الصحافة .

لنعد الى مستقبل النشر . كل انسان يرغب فى ان يصير ناشرا أو كتيبيا
أو طابعا -سيكون مضطرا الى الحصول على شهادة ورخصة ستسحبان منه
اذا وقعت منه مخالفة .

الادب والصحافة هما أعظم قوتين تعليميتين خطيرتين ، ولهذا السبب
ستشترى حكومتنا العدد الأكبر من الدوريات ، وبهذه الوسيلة نعطل التأثير
السيء (المضاد) لكل صحيفة مستقلة ، ونظفر بسطان كبير جدا على
العقل الانسانى - بروتوكول رقم (١٢)

*

« حينما نمكن لانفسنا فنكون سادة الأرض ، فلن نبيع قيام أى دين
غير ديننا ولهذا السبب يجب علينا ان نحطم كل عقائد الايمان ، واذا تكون
النتيجة المؤقتة لهذا هى اثمار ملحدين فلن يدخل هذا فى موضوعنا ، ولكنه

سيضرب مثلا للأجيال القادمة التي ستصفي الى تعليمنا على دين موسى الذي وكل الينا بعقيدته الصارمة ، واجب اخضاع كل الأمم تحت اقدامنا . « - بروتوكول رقم (١٤) .

*

« يوم يضع ملك اسرائيل على رأسه المقدس ، التاج الذي اهدته له كل اوربا ، سيصير بطريك لكل العالم » . - بروتوكول رقم (١٥) .
« ما الفرق بالنسبة للعالم بين أن يصير سيده هو رأس الكنيسة الكاثوليكية ، وان يكون طاغية من دم صهيون ؟ » .

ولكن لايمكن ان يكون الامران سواء بالنسبة الينا نحن ، الشعب المختار ، قد يتمكن الامميون فترة من أن يسوسونا ، ولكننا مع ذلك لسنا في حاجة الى الخوف من أى خطر مادمنا في أمان بفضل البذور العميقة لكرهيتهم بعضهم بعضا ، وهى كراهية متأصلة لا يمكن انتزاعها .
اننا نقرا في شريعة الانبياء اننا مختارون من الله لنحكم الأرض ، وقد منحنا الله العبقرية لكي نكون قادرين على القيام بهذا العمل - بروتوكول رقم (٥) .

*

« سنغير الجامعات ونغير انشاءها حسب خططنا الخاصة ، وسيكون رؤساء الجامعات واساتذتها معدين اعدادا خاصا ، وسيلته برنامج عمل سرى متقن سيهدبون ويشكلون بحسبه ولن يستطيعوا الانحراف عنه بغير عقاب وسيرشحون بعناية بالغة » . بروتوكول رقم (١٦)

*

« صار في الامكان قيام عصر جمهورى ، وعندئذ لن تكون حائرين في أن ننفذ بجسارة خططنا التي سيكون « دميثنا » مسئولا عنها ولكي نصل الى هذه النتائج ، سندبر انتخاب أمثال هؤلاء الرؤساء ممن تكون صحائفهم السابقة مسودة . ان رئيسا من هذا النوع سيكون منفذا وافيا لاغراضنا لانه سيخشى التشهير وسيبقى خاضعا لسلطان الخوف الذي يملك دائما الرجل الذي وصل الى السلطة والذي يتلهف على أن يستبقى امتيازاته وامجاده المرتبطة بمركزه الرفيع » - بروتوكول رقم (١٠) .

وبعد : هل يشك احد في أن قوى الصهيونية تسعى للسيطرة على العالم وفق مخطط مدروس يتفق جملة وتفصيلا مع هذه البروتوكولات .

ان كان احد في شك من ذلك، فليعلم أن ملوك الذهب والمال والصحافة والدعاية والسينما والنشر ... الخ كلها في قبضة النفوذ الصهيوني .

وان قوى صهيونية تتحكم تماما في الكثير من نتائج الانتخابات التي تحدث في الكثير من دول العالم - كبيرها وصغيرها - لاختيار الرؤساء وأعضاء البرلمانات .

وان قوى الصهيونية استولت على الكثير من كراسي مواد العلوم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والانسانية في أغلب الجامعات وخاصة في الغرب - حتى تضمن بذلك توجيه دفة الأمور في كافة المجالات لصالحها .

ان كان احد في شك مما تحويه هذه البروتوكولات - التي عرفت في مطلع هذا القرن والتي ماتكاد تظهر بأى لغة حتى تنفذ سريعا وتختفى كى لايشيع خطرهما بين الناس - فما عليه الا أن يقرأ في أسفار العهد القديم المزمور ١٤٩ الذى يقول :

« ليتهيج بنو صهيون بملكهم - ليسبحوا اسمه برقص .. لأن الرب راض عن شعبه . يجمل الودعاء بالخلاص .. »

تنويهات الله في افواههم وسياف ذو حدين في يدهم . ليصنعوا نقمة في الأمم وتدابيات في الشعوب . لأسر ملوكهم بقيود وشرفاتهم بقبول من حديد .

ليجروا بهم الحكم المكتوب .»

اليس هذا ما تقوله البروتوكولات وهو أن يتحكم بنو صهيون في العالم فيستعبدون ملوكه ورؤساءه ، وبالتالي يتملكون كل أمم الأرض ، التي تتجرع على أيديهم كأس العذاب ، وتندوق ويلات الانتقام - لا لشيء الا لأنهم غير يهود .

ولعله بسبب هذا الفكر الصهيونى المنفلق - والذي كان يجد له بين اليهود على مر العصور من يعتنقه ويتعصب له - نجد بولس وهو اليهودى العريق والذي صار فيما بعد قديس المسيحية ، يصب لعناته على اليهود

جميعا ويقرر انهم اعداء لكل الانسانية ، وان غضب الله محيط بهم الى ابد الابد في قوله المشهور :

« انكم ايها الاخوة . . تألمتم انتم ايضا من اهل عشيرتكم تلك الالام، حينها كما هم ايضا من اليهود الذين قتلوا الرب يسوع وانبياءهم واضطهدونا نحن . وهم غير مرضين لله واضداد لجميع الناس . يمنعوننا، من ان نكنم الامم لكي يخلصوا حتى يتمموا خطاياهم كل حين .

ولكن قد ادركهم الغضب الى النهاية - (١) تسالونيكي ٢ : ١٤-١٦»

* * *

الفصل السابع

إسرائيل... والعرب... والعالم

اسرائيل... والعرب... والعالم

اسرائيل :

ورث اسرائيل وبنيه عقيدة التوحيد عن جدهم ابراهيم ، فعلموا ان هناك الها واحدا ، رب كل شيء ومليكه « واله ارواح جميع البشر » (1) وقد تعارف عليه بنو اسرائيل باسم الاله « يهوه » .

وبعد ان نزلت القبيلة الاسرائيلية بمصر واتخذت منها مقاما آمينا لما يزيد قليلا عن قرنين من الزمان ، تغير وجه احد الفراعين تجاههم ، فاذاقهم المذلة والاضطهاد ، وعندئذ صرخوا الى الله وتعلقوا باسمه ، ومن اجل ذلك خلصهم مما كانوا فيه واخرجهم من مصر بقيادة موسى الذى طوف بهم فى سيناء .

لقد كانت كل ميزة بنى اسرائيل الحقيقيين - الاولين - أنهم عرفوا الله الواحد رب العالمين ، وسط شعوب الأرض التى غرقت آنذاك فى الكفر والوثنية . وقد مارس الاسرائيليون هذا الايمان تطبيقيا بما احساسوا به من تجاوب الله معهم ، وما شهدوا من تجارب ، وما رأوا من آيات وأعاجيب على يد موسى واخيه هارون .

بل ان الله - تقدست سماؤه - لم يترك الاسرائيليين حيارى ، قد يصلون بتفكيرهم الى تلك النتيجة الحتمية أو قد لا يصلون ، لذلك لفت نظرهم منذ تاريخهم المبكر - وحتى قبل ان يتلقى موسى التوراة - الى ان كرم صنيع الله بهم ، وضمان تعامله معهم على تلك الصورة ، يقتضى منهم ان يكونوا شعبا متطهرا من كل ما ينجس الروح أو الجسد ، حتى يضربوا للناس المثل فى صدق العقيدة وحسن السلوك :

« فى الشهر الثالث بعد خروج بنى اسرائيل من أرض مصر . . جاءوا الى بركة سيناء . وأما موسى فصعد الى الله فناداه الرب من الجبل قائلا هكذا تقول لبيت يعقوب وتخبر بنى اسرائيل : ان سمعتم لصوتى وحفظتم عهدي تكونون لى خاصة من بين جميع الشعوب فان لى كل الأرض وأنتم تكونون لى مملكة كهنة وأمة مقدسة » (2) .

(1) عدد ١٦ : ٢٢ .

(2) خروج ١٩ : ٦-١ .

لقد كان ذلك هو العهد الالهي الذي عاهد عليه الله بنى اسرائيل .
عهد مشروط : ان ساروا مع الله ، كانوا مملكة كهنة مقدسة من العابدين
والصالحين ، ليست مملكة كممالك الأرض التي يرأسها ملك متوج ولها
حدود يقف عليها حراس من الجنود - لكنها مملكة روحية لجماعة من
المؤمنين .

ولكن ماذا فعل الاسرائيليون ؟

ما أن مرت أيام لاتعدى الأربعين تغيب فيها موسى عن بنى اسرائيل
حين ذهب لميقات ربه حتى كفروا بالله وصنعوا لهم « عجلا مسبوكا وقالوا
هذه آلهتك يا اسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر .. وجلس الشعب
للأكل والشرب ثم قاموا للعب » (٣) .

لقد عبث الاسرائيليون من أول يوم - بالمقدسات ، بل بأقدس
المقدسات .

ولقد كادت النقمة ان تنزل بهم لولا تضرع موسى واعتذاره عن سوء
طباعهم وسقطاتهم .

فلقد قال موسى في صلاته : « الرب اله رحيم .. غافر الائم
والمعصية ..

ان وجدت نعمة في عينيك أيها السيد فليسر السيد في وسطنا فانه
شعب صلب الرقبة .

افقر ائمتنا وخطيتنا واتخذنا ملكا » (٤) .

واستمر موسى يصقل من طبع الاسرائيليين ويحاول تهذيبهم طيلة
عشرات من السنين فما قدر ، وأصابه منهم وبسببهم الكثير من الآلام
والفواجع . وكان آخر عهد موسى بالوحي الالهي تقرير يسئء وجوه
الاسرائيليين ، ويعترف بفشلهم عن أن يكونوا أهلا لما أريد بهم من خير :

« انى باسم الرب انادى ... ان جميع سبله عدل .. اله امانة
لاجور فيه ..

افسد له الذين ليسوا اولاده عيبتهم . جيل أعوج ملتو .

الرب تكافئون بهذا يا شعبا غيبا غير حكيم ؟

(٣) خروج ٣٢ : ٤-٦ .

(٤) خروج ٣٤ : ٦-٩ .

انهم جيل متقلب ، اولاد لا امانة فيهم .
هم اغارونى بما ليس الها . اغاظونى بأباطيلهم .
انهم امة عديمة الراى ولا بصيرة فيهم ..
لى النعمة والجزاء . فى وقت تنزل اقدمهم . ان يوم هلاكهم قريب
والهيئات لهم مسرعة ...
انا انا هو وليس اله معى . انا اميت واحيى .. ليس من يدى
مخلص « (٥) .

ومرت قرون عاش فيها الاسرائيليون قلة مقهورة بين شعوب فلسطين ،
فرغبت نفوسهم فى انشاء مملكة مثل بقية الممالك المجاورة ، وطلبوا ذلك
من قاضيه ونيهم صموئيل الذى جاءه الوحي الالهى يندد بذلك الاتجاه
الذى مالوا اليه ، وارادوا به استبدال مملكة الأرض - التى هى ادنى -
بمملكة السماء - التى هى خير وأبقى . وجاءهم النذير بما ينتظرهم من وراء
ذلك فى المستقبل :

« قال الرب لصموئيل . . هم لم يرفضوك أنت بل اياى رفضوا حتى
لا املك عليهم . حسب كل اعمالهم التى عملوا من يوم أصعدتهم من مصر الى
هذا اليوم وتركونى وعبدوا آلهة اخرى هكذا هم عاملون بك أيضا » .

ولقد بصرهم صموئيل عاقبة امرهم السئ ، لكنهم اصروا على اختيار
الملك وانشاء المملكة وبعد ان عين لهم صموئيل ، شاول ملكا ، عادوا يعترفون
بجرمهم وسقطتهم « وقال جميع الشعب لصموئيل صل عن عبيدك الى الرب الهك
حتى لانموت . لاننا قد اضعنا الى جميع خطايانا شرا بطلبنا لانفسنا
ملكاً » .

لقد كان التفكير الاسرائيلى خاطئا من اساسه حين رغب فى اقامة مملكة
أو انشاء دولة ، لان آيات الله التى غرقوا فى تجلياتها صباح مساء - منذ
ظهر فيهم موسى ومن خلفه من النبيين - كانت تفرض عليهم التزاما بطرح
كل شهوات قلوبهم جانبا ، وخاصة ان بدا ولو للحظة واحدة انها تمثل
اتجاها يخالف اتجاه المشيئة الالهية .

ولقد كان واضحا ان فكرة اقامة مملكة للاسرائيليين تخالف اتجاه

المشيئة الالهية ، لذلك لما عرفوا اعترفوا بخطيئتهم وندموا بسببها حتى لا يصيبهم حدها الذي بلغ الموت .

لقد كان اتجاه المشيئة الالهية أن يكون الاسرائيليون طائفة نسك وعبادة « مملكة كهنة وأمة مقدسة » تؤمن بالله وتحفظ شرائعه - وكفاهم فخرا ان يكونوا كذلك ، لكن نفوسهم رغبت عن هذا فتردوا في متاهات الكفر والوثنية ، ونزلوا بعقيدتهم الدينية الى الحضيض ، فأصابهم لذلك الكثير من المآسى والآلام عبر القرون الطويلة .

يقول جوستاف لوبون في وصف العقيدة الدينية عند الاسرائيليين :

« كان للآلهة يهوه وبعل وعشيرا طبائع وصفات خاصة بالسيارات والجو والشمس ، كما كان لجميع آلهة كلدنة . وظلت عبادة الشمس والقمر والنجوم قائمة طويل زمن لدى جميع أمم سورية ولدى بنى اسرائيل على الخصوص .

وفي زمن حزقيال ، حوالى اواخر مملكة يهوذا ، كان يمكن أن يرى حتى في هيكل اورشليم يهود كانوا يسجدون أمام الشمس مولين وجوهم شطر المشرق ، وكانت الشمس تختلط آنئذ بعبادة الحيوانات ، وذلك لما كان من تصوير القوم على جدر معبد يهوه صور الزحافات والبهائم والأشياء الكريهة وجميع آلهة آل اسرائيل الفاضحة كما روى النبي ذلك .

ومع ذلك أسفر الإصلاح اليهودي العظيم الذى قام به يوشيا قبل ذلك بقليل سنوات عن تطهير الهيكل من الأصنام التى كان حافلا بها . فقد أمر ذلك الملك الكهنة كما جاء في سفر الملوك : (أن يخرجوا من هيكل الرب جميع الأدوات المصنوعة للبعل والعشتاورت ولجميع جنود السماء فأحرقها ، وأزال الخيل التى اقامها ملوك يهوذا للشمس من عند مدخل بيت الرب وأحرق مراكب الشمس) .

ولكن شعب اسرائيل كان قد بلغ من الفرق في الاشرار ما كان يتعذر معه على عزيمة ملك أو خطب نبي تخليصه منه .

وكان اله النار مولك الهائل الذى هو من الأصنام المفضلة يمثل بتماثيل نحاسية فيوضع صفار الأولاد على ذرعانها المحماة . وكان التقى يوشيا يحارب تلك الخرافة الظالمة فنجس توفت التى في وادى بنى هنوم لكى لا يجيز أحد ابنه في النار لمولك .

وكان لعشيرا ، وهى عشترتا الفنيقيين وعشتر بابل ، او ميليتا بابل ،
مظيم حظوة لدى شعب اسرائيل الشبق ، وذلك لما كان من شعائر
شهوانية .

وكانت هياكل ذلك الاله تقوم على تلال ذات هواء منعش رطيب فوق
سهول محرقة ذات بعوض مفسد لبقاع الدنيا . وكانت تحاط تلك الهياكل
بغاب الزيتون حيث يسمع للحمام العاشقات سجع وهديل ، وحيث كانت
الفتيات اللائى يتألف من اجسامهن اللطيفة ضحايا حية معدة على الدوام
لتكتوى بنيران آلهة الحب ، يقضين نهرهن فى تطريز الخيام للغياض ،
وليالهن فى قضاء اوطار المؤمنين الذين يتقاطرون الى هناك . وكان وتد
صغير مغروز فى الأرض ، رمزا غليظا لعضو التذكير ، يكفى لتلقين مبدا
عشيرا وتقديس الغابة .

وغدت تلك العهارات المقدسة تكتسب شكلا كريها عندما صار
الخصيان ، لا النساء هم الذين يبيعون انفسهم للمؤمنين فى ليل الغاب
الكثيف .

وعلى ما كان من نعت الأنبياء لهؤلاء الخصيان بالكلاب ، وعلى ماكان
من حظر نذر اجور هؤلاء الفاسقين ، لم ينفك بنو اسرائيل عن مضاجعتهم .

فمن اجل هذه المنكرات وصف الأنبياء اشعيا وارميا وحزقيال على
الخصوص ، اورشليم بالمدينة العاهرة التى لا تشبع من الفجور . قال يهوه
لتلك المدينة الآمئة : انكلت على جمالك وزيت على اسمك وسكبت فواحشك
على كل مجتاز كان له ما تبتغين ، واخذت من ثيابك فصنعت لك مشارف
ملففة الشقق وزيت فيها زنى لم يكن ولن يكون « (٦) .



لقد تعثرت مملكة الاسرائيليين منذ نشأتها . فهذا شاول - مسيح الله
وأول ملك فى اسرائيل لم يلبث طويلا حتى تخلى عنه « روح الله » وباغته روح
شرير ، وأصابه الجنون ، وقهره اعداؤه ، فقتلوه ومثلوا بجثته اسسوا
تمثيل .

وداود بطل المملكة - « ومسيح اله يعقوب ومرنم اسرائيل الحلو » -
لطح كتبة الأسفراحياته بالكثير من المأسى والمخازى حتى تعرض للنقمة والعقاب .

وسليمان حكيم زمانه ، زاغ كثيرا عن طريق الله ، لدرجة ان الأسفار تدعى عليه الكفر وتنعت نهايته بالخسران ، الأمر الذى عرضه للغضب والعقاب . ففى نهاية عهده بدأت المملكة تسير نحو التفتت والانحلال ابداً بالزوال .

وما كان الاسرائيليون بمافضل من ملوكهم ، فقد غرقوا الى الآذان فى الكفر والخطيئة وعرضوا انفسهم للغضب الالهى ، فانقض عليهم الاشوريون وابتلعوا الغالبية العظمى منهم ، وحولوا وجودهم الى طيف مر ذات يوم بذاكرة التاريخ ، ثم ما لبثت البقية الباقية أن تعرضت لشيء من ذلك عنى يد البابليين .

لقد كانت تلك هى النهاية الخاسرة لدولة الاسرائيليين التى بدأت خاطئة منذ تأسيسها ، لأنها دولة أقاموها رغم الأوامر والنذر الالهية .



وأخيراً جاء المسيح الذى انتظره الاسرائيليون طويلاً .
وكم كانت الصدمة عنيفة حين وقف يدعوهم من أول يوم - الى التجرد عن ماديات الأرض والعيش فى سلام ومحبة وتسامح ثم يعدهم بميراث فى السماء . فقد وقف المسيح يعظ الناس من الجبل ويقول :

« طوبى للمساكين بالروح ، لأن لهم ملكوت السموات ... »

طوبى لصانعى السلام لأنهم ابناؤ الله يدعون .

طوبى للمطرودين من أجل البر ، لأن لهم ملكوت السموات » .

ثم ما لبث المسيح أن قذف بسهم اصاب مقتلاً من كثير من القلوب التى جعلت المال « الهها المطمأن » وذلك حين قال :

« لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض .. بل اكنزوا لكم كنوزاً فى السماء .. لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك .. »

لا يقدر أحد أن يخدم سيدين .. لا تقدرُوا ان تخدموا الله والمال » .

بعد ذلك لم يبق هناك شك فى ان هذا المسيح لا يتفق وذلك الذى الهبت صورته الفكر الاسرائيلى المادى لبضع مآت من السنين ، حين بات يحلم به ملكاً متوجاً ، يعيد مملكة داود ذات الحرس والحدود ، بكل عنفها وجبروتها .

من أجل ذلك رفضوه ...

ولقد استمر المسيح يحدث الاسرائيليين عن المملكة الحقيقية التى

تكلمت عنها الاسفار المقدسة ويضرب لهم الأمثال حتى يعوا مملكة الموعد
أو ملكوت السموات ، لكن عمله هذا كان صرخة في واد خرب .

« فتقدم التلاميذ وقتلوا له لماذا تكلمهم بأمثال . فأجاب وقال لهم . .
لأنهم مبصرين لا يبصرون وسامعين لا يسمعون ولا يفهمون . فقد تمت فيهم
نبوة اشعيا القائلة تسمعون سمعا ولا تفهمون . ومبصرين ولا تنظرون .
لأن قلب هذا الشعب قد غلظ » (٧) .

هذا - ولما يؤس المسيح من الاسرائيليين ، ساق لهم نذيره الأخير
بالخراب ونزع ملكوت الله منهم الى الابد :

« ايها الحيات اولاد الافاعي : كيف تهربون من دينونة جهنم . .

يا اورشليم ، يا اورشليم ، يا قاتلة الانبياء وراجمة المرسلين اليها ،
كم مرة أردت أن اجمع اولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم
تريدوا .

هو اذ بيتكم يترك خرابا » .

« لذلك أقول لكم ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل
أثماره » (٨) .



ولقد ظل الكثير من الاسرائيليين - حتى أولئك الذين آمنوا بالمسيح -
غارقين في صورة المملكة الأرضية ، لم يستطيعوا التخلص منها ، لدرجة أنهم
حاولوا تنصيبه ملكا على اسرائيل الا انه رفض ذلك :

« واما يسوع فاذا علم أنهم مزعمون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكا ،
انصرف أيضا الى الجبل وحده » (٩) .

ولقد قال المسيح بوضوح . « مملكتي ليست من هذا العالم » (١٠) .

كذلك حذر المسيح من الدجل والأباطيل التي سوف يثيرها الاسرائيليون
تحت زيف « دولة اسرائيل » ، واعتبر ذلك كله تخرصات يجب مقاومتها
والحذر منها .

ولقد تحدث المسيح عن أولئك المسحاء الكذبة حاملي لواء الدعوة

(٧) متى ١٣ : ١٠ - ١٥

(٨) متى ٢٣ : ٣٣-٣٨ ، ٢١ : ٤٣ .

(٩) يوحنا ٦ : ١٥

(١٠) يوحنا ١٨ : ٣٦

لانشاء مملكة اسرائيل وعن الفرق بينه وبينهم ، فقال للاسرائيليين انه جاء يدعوهم باسم الله الى مملكة الحق والخير فلم يقبلوه ، لكن « ان اتى آخر باسم نفسه فذلك تقبلونه » (١١) .

ولقد ظهر في الاسرائيليين الكثير من ادعاء الباطل ، الذين سعوا جاهدين لانشاء دولة اسرائيل ذات الجنود والحدود ، ولم يتورع الكثير من الشعب الاسرائيلي عن تلقيب أى من أولئك الدجالين باسم « المسيح مخلص اسرائيل » . ومن اشهر هؤلاء ، ذلك الذى « دعى مسيح كوكب أو باركوشبا » وهو الذى اندفع وراءه الاسرائيليون فى حربهم الأخيرة ضد الامبراطورية الرومانية (١٣٢ - ١٣٥ م) ، وكان من نتاج ذلك الخبل العقائدى المزيف ان تم تدمير الوجود الاسرائيلي فى فلسطين تدميرا كاملا .



ومرت قرون حتى اذا كانت نهاية القرن التاسع عشر ظهر من يعرفه الناس باسم تيودور هرتزل ، ويعرفه غلاة الصهاينة باسم « المسيح ملك صهيون ومؤسس دولة اسرائيل » .

وبين باركوشبا وهرتزل ظهر كثيرون من الكذبة والأفاكين من الساعين لانشاء دولة اسرائيل ، والذين تحدثنا عنهم المصادر الاسرائيلية فتقول :

« ان الاحلام بالمسيح التى يحلم بها اليهود وجدت لها صدق فى فلسطين ، بدأ المسحاء الكذبة - الذين كان من اشهرهم شبتاي زفى - فى قيادة اتباعهم الى الارض المقدسة ورغم ما صاحب ذلك من مأس ومرارة الا ان ذلك لم يضعف من عزيمة أولئك الذين ربطوا كل آمالهم فى تحقيق العودة الى صهيون .

ولقد ادى تسلط هذه الفكرة الى ظهور بعض الاشخاص الذين تصوروا عليهم رسالة عملوا من أجلها . وحاولت شخصيات غريبة - مرت كالشهب فى السماء اليهودية - من وقت لآخر ان توجه مشيئة الله ، فأعلنوا انهم ينحدرون من العائلة المالكة - نسل داود - واعتقدوا فى انفسهم او اعتقد فيهم اليهود ان كلا منهم كان المسيح المنتظر .

لقد كان لهم اتباعهم وتلاميذهم وضحاياهم ، ومن هؤلاء المسحاء : موسى

الكريتي الذي ظهر في القرن الخامس الميلادي ، وسيرنيوس السورى ، وأبو عيسى الاصفهاني في القرن السابع ، وداود البغدادي في القرن السادس عشر .

وكان اكثرهم شهرة في العصور الحديثة : دواد راوبين ملك اورشليم غير المتوج ، وسليمان مولشو الذي طوف بفكره بين عقائد التوحيد بحثا عن الحقيقة المطلقة ، ثم شبتاي زفي الذي اشتهر وعرف بأنه المسيح ، ويعقوب فرانك وهو مسيح آخر كذاب - ولقد تحول الأول (شبتاي) الى الاسلام ، بينما تحول الاخير الى المسيحية .

لكن عدم تحقيق اى من هذه الاوهام الكاذبة لم يمنع تجديد المحاولات ، فقد كان الشعب اليهودى في حاجة الى الاعتقاد بأن ، الزمان قد اكتمل ، وكان من الواجب خلق توليفة تضم كل هذه الآمال والرغبات . وفوق هذا كان يجب التفكير بلغة العصر ، ومعرفة مداخل السياسة ومخارجها . وباختصار فانه كان يلزم لتجسيد فكرة التجديد القومى لاسرائيل ان يكون هناك رأس للدولة قبل انشاء الدولة ذاتها . ولقد استطاع الشعب اليهودى ان يلد هذا القائد في بودابست عام ١٨٦٠ .

لقد كان يلزم ان يولد موسى جديد ..

لقد عاش هذا في فينا وكانت له لحية سوداء لطيفة ، وكان يدعى تيودور هرتزل .

كان هرتزل يكتسب عيشة من العمل كصحفى الا انه كان رائيا يتكهن الغيب .

ولقد كتب روايات الا انه كان نبيا .

وهناك في بازل عام ١٨٩٧ دعا هرتزل الى عقد أول مؤتمر . ولما ظهر امام الأعضاء بلحيته السوداء ، وطوله الفارع ، وصورته التى تمثله على هيئة ملك سورى ، هتف بعض الأعضاء (يحييا الملك) - ملك صهيون .

ولقد كتب هرتزل في مذكراته عن هذا اليوم يقول . اذا أردت تلخيص نتائج المؤتمر في كلمة احتفظ بها سرية غير قابلة للنشر - فانها تكون هكذا : في بازل أسست الدولة اليهودية « (١٢) .

حقيقة اسس هرتزل الدولة اليهودية لكنه اسسها من أول يوم على الكذب والخداع .

أما يكفي لاثبات الكذب على هرتزل أن نذكر قوله الشهيرة عن فلسطين بأنها « أرض بلا شعب » يجب دفع العمل الصهيوني من أجل تحويلها وطننا « لشعب بلا أرض » - ويقصد به الشعب اليهودي ؟ .

ان الكذب على الحقيقة في هذا القول لا يحتاج الى كثير من الأدلة والبراهين ، ويكفي أن نذكر هنا ما كتبه الصهيوني العالمي ناحوم جولدمان في جريدة « الاوبزيرفر THE OBSERVER اللندنية في عددها الصادر يوم ١٢ ابريل ١٩٧٠ ، في مقال تحت عنوان :

طريق اسرائيل الوحيد للسلام ISRAEL'S ONLY WAY TO PEACE

قال جولدمان : « عندما تأسس الوطن القومي اليهودي بفلسطين ، كان اكثر الامور غفلة في تاريخ الصهيونية هو اهمالها العلاقات مع العرب .

ويبدو لي ان مفكرى الحركة الصهيونية وساستها قد اكدوا دائما - برغبة واخلاص - على ضرورة تأسيس الوطن القومي اليهودي في ظل السلام والوفاق مع العرب ، بيد أنه لسوء الحظ - ظلت هذه المعتقدات في حيز الخيال .

حتى معادلة هرتزل الشهيرة لحل المسألة اليهودية ، والتي اعتبرها اساسا مسألة نقل « شعب بلا أرض ، الى أرض بلا شعب » - كانت هذه تمثل نظرة عمياء لحقوق العرب في فلسطين ، وتثير الفزع والاضطراب .

ان فلسطين لم تكن ارضا بلا شعب حتى في ايام هرتزل ، فقد كان يسكنها مات الألوف من العرب الذين كانوا - بمضى الزمن - ان أجلا أو عاجلا سيحققون وجود دولة مستقلة اما بمفردها أو كوحدة سياسية داخل اطار اكبر يضم الدول العربية » .

*

من الحق اذن أن يقال انه لا توجد للاسرائيليين دولة تجد لها من بين نصوص الاسفار المقدسة سنداً ونصيراً ، ولئن صح تواجد نص يشير من قريب أو من بعيد الى دولة اسرائيل فلا بد انه نص مدسوس أو نص محرف ، هبثت بأصله أيدي الكتبة الاسرائيليين ، ولم يحفظ قداسته أولئك الذين أوتمنوا على الكتاب .

وليس عجيبا أن تعبت الأيدي الاسرائيلية بالاسفار المقدسة - وقد

رأينا ذلك مؤيدا بالبراهين - بعد أن كفر الاسرائيليون بالاله الحى منذ تاريخهم المبكر وموسى لا يزال حيا بين ظهرانيهم رغم ما رأوا من الآيات والاعاجيب .

وهل التحريف اكبر من الكفر ؟ !

ان الذين يحرفون كلمة الله انما يتلمسون فى الواقع من ورائها سندا يحقق شهوات قلوبهم ومطامعهم ، اما الكفرة فقد نسوا الله وكلماته وعموا عن الحقيقة القدسية .

لقد استمر كفر الاسرائيليين ووثنتهم قرون عديدة ارتبطت فيها تلك الظاهرة الخبيثة بوجود الدولة الاسرائيلية طيلة عهد المملكة والملوك . والعن من ذلك كله ان تسرب الكفر والضلال الى الانبياء والكهنة ورجال الدين من بنى اسرائيل .

ولقد سجل عليهم الكتاب فيمابقى من الحق ، ذلك الزيف والتحريف فقال على لسان النبي ارميا :

« اذا سألك هذا الشعب او نبي او كاهن قائلا ما وحي الرب فقل لهم اى وحي . انى ارفضكم هو قول الرب ..

اما وحي الرب فلا تذكره بعد .. اذ قد حرفتم كلام الاله الحى رب الابجنود هنا - ارميا ٢٣ : ٢٣ - ٢٦ » .

فاذا كانت فكرة دولة اسرائيل باطلة من اساسها - منذ النبوات وتلقى الكلمة الالهية والمسيح مخلص اسرائيل المرفوض ..

واذا كانت الدولة التى اقامها الاسرائيليون فيما مضى ، ورأسها « مسحاء الله » وكان مستشاروها من انبيائه وقديسيه - دولة ظم وغشم ووثينة وفساد .

فكيف يكون الحال بالنسبة لدولة اسرائيل التى تقام فى القرن العشرين ، بعد أن انقضى عهد النبوات منذ زمن بعيد ؟

انها ولا شك - لن تكون خيرا من سابقتها ، رغم ما فى هذا القياس من فارق بعيد ، يطاول حده بعد الارض عن السماء ..

ولن تكون نهايتها بأفضل من نهاية سابقتها رغم كل المحاولات التى تميدلها قوى البغى والظلم والعدوان .

باطل يا اسرائيل : دولة الاباطيل .

... والعرب :

منذ فجر الانسانية المبكر نزحت مجموعات من شعوب الجزيرة العربية في اتجاه الشمال الغربي حتى استقر بها المقام في فلسطين ، ويذكر التاريخ المسجل وجود العرب الكنعانيين في أرض كنعان - فلسطين - حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م ، ثم تتابع ظهور شعوب عربية أخرى منها : العمالقة والأموريين واليبوسيين والآراميين وغيرهم .

وقبل خروج الاسرائيليين من مصر كانت تلك الشعوب العربية قد أسست لها ممالك وأقامت مدنا وحصونا وحولت فلسطين الى جنة تفيض بالخيرات - أو بتعبير الكتاب المقدس - « أرض تفيض لبنا وعسلا » .

لكن غالبية تلك الشعوب كانت قد تردت في عقائدها الدينية الى الحضيض ، ففرقت في الوثنية ، وأقامت لها شرائع وطقوسا منحطة ، ومارست الكثير من العادات القبيحة .

وفي القرن الثالث عشر قبل الميلاد خرج موسى بالاسرائيليين من مصر يطلب لهم مكانا في فلسطين بين شعوبها العربية أصحاب البلاد الأصليين . وحرص موسى على أن يعلم الاسرائيليين أن المؤمن مطالب بأن يفر بدينه الى الأرض التى يستطيع فيها أن يمارس عقيدته في طمأنينة وسلام . ومن أجل ذلك عمل موسى على رفع معنويات قومه حتى لا يرهبهم بأس الشعوب الفلسطينية فيرتدوا على أعقابهم يطلبون العيش في رخاء مصر وبين خيراتها رغم أنها كانت « أرض ذلهم وعبوديتهم » .

وعلم موسى الاسرائيليين أن الله ناصرهم - كشعب يؤمن بالله - على تلك الشعوب الوثنية الكافرة ليس من أجل ميزة خاصة تفردت بها السلالة الاسرائيلية عن بقية خلق الله ، ولكن لسبب واحد ووحيد فقط ، وهو فساد عقائد تلك الشعوب وسوء سلوكها ، اذا ما قورنت بعقيدة التوحيد التى عرفتها القبيلة الاسرائيلية :

قال موسى : « اسمع يا اسرائيل . أنت اليوم عابر الأردن لكى تدخل وتمتلك شعوبا أكبر وأعظم منك ومدنا عظيمة ومحصنة الى السماء .. فاعلم اليوم أن الرب الهك هو العابر أمامك نارا آكلة .

هو يبدهم ويدلهم أمامك فتطردهم وتهلكهم سريعا كما كلمك الرب .
لا تقل في قلبك حين ينفهم الرب الهك من أمامك قائلا . لأجل
برى أدخلنى الرب لامتلك هذه الأرض ..

**ليس لأجل برك وعدالة قلبك تدخل لتمتلك أرضهم بل لأجل أنهم
أولئك الشعوب يطردهم الرب الهك من أمامك ..**

فاعلم أنه ليس لأجل برك يعطيك الرب الهك هذه الأرض الجيدة
لتمتلكها لأنك شعب صلب الرقبة « (١٣) .

ومن الملاحظ أنه رغم اصطباغ عقائد غالبية الشعوب الفلسطينية
أيام موسى بالوثنية فقد عاش بينهم أفراد وجماعات تعرف منذ القدم
الاله الحي مالك الأرض والسماوات - وذلك من قبل أن يفد ابراهيم الى
تلك الأرض .

وتخبرنا بذلك قصة استرجاع ابراهيم لابن أخيه لوط من سبيه
في حرب الملوك التسعة :

« فلما سمع ابرام أن ابن أخيه سبي ، جر غلمانه المتمرنين ..
وانقسم عليهم ليلا .. واسترجع كل الأملاك واسترجع لوطا ..

فخرج ملك سدوم لاستقباله .. وملكى صادق ملك شاليم أخرج
خبزا وخمرا وكان كاهنا لله العلى . وباركه وقال مبارك ابرام من الله
العلى مالك السماوات والأرض . ومبارك الله العلى الذى أسلم أعدائك
في يدك « (١٤) .

كذلك تبنينا قصة سارة مع ملك جرار - التى سبقت الاشارة اليها -
بأن ذلك الملك كان يعرف الله وأنه كان يحدثه فى الحلم وحيا ، اذ لما عنف
أبيمالك ملك جرار ، ابراهيم على اخفائه الحقيقة فى أن سارة زوجته كان
اعتذار ابراهيم بأنه حدث نفسه بأنه « ليس فى هذا الموضع خوف الله البتة »

(١٣) تشنيه ٩ : ١-٦ .

(١٤) تكوين ١٤ : ١٤-٢٠ .

لكن ابيمالك كان حريصا على أن يكون سلوكه هو وأفراد مملكته قويا يرضى الله ، لذلك قال لابراهيم « ماذا فعلت بنا وبما أخطأت اليك حتى جلبت على وعلى مملكتى خطية عظيمة . اعمالا لاتعمل عملت بي » (١٥)

لذلك يمكن القول بحق بأن فلسطين أرض مقدسة من قبل ان يطأها الاسرائيليون ، وان اورشليم مدينة مقدسة من قبل ان يكون للاسرائيليين بها سلطان ودولة ، تلك الدولة التي جلبت على مدينة السلام صنوفا . شتى من الخراب والدمار .

هذا - وبعد أن تسلل الاسرائيليون الى فلسطين وعاشوا بين شعوبها واقاموا مملكة في اجزاء منها فان شعبها العربى ظل مقيما في أرضه ، محافظا على وجوده ، مقاوما لكل القوى الدخيلة عليه ، رغم ماتميزت به من قسوة وشراسة . ولهذا لم يصبه ما أصاب الاسرائيليين من سبى وضياع .

فى عهد سليمان الذى يمثل قمة الوجود الاسرائيلى بفلسطين ، كان الشعب العربى مستقرا فى وطنه ، بعد أن عجزت كل محاولات الاسرائيليين لاستئصالهم منه :

« جميع الشعب الباقين من الاموريين والحثيين والفرزيين واليبوسيين ، الذين ليسوا من بنى اسرائيل . ابناؤهم الذين بقوا من بعدهم فى الأرض ، الذين لم يقدروا بنو اسرائيل أن يحرموهم ، جعل عليهم سليمان تسخير عبيد » . (١٦) .

ثم مرت على فلسطين قرون واحداث كانت كلها تعمل على انحسار الأثر الاسرائيلى من فلسطين ، وكانت سنواته الحاسمة قرب عامى ٧٠ ، ١٣٥ بعد الميلاد حين دمر الرومان الوجود الاسرائيلى فى فلسطين . تدميرا تاما ، استطاع المؤمنون أن يعتبروه عقابا الهيا نزل بالاسرائيليين . جزاء لحربهم العدوانية ضد المسيح .

واذا تركنا تلك الفترة الغابرة من التاريخ وانتقلنا الى العصور

(١٥) تكوين ٢٠ .

(١٦) الملوك الأول ٩ : ٢٠ - ٢١ .

الوسطى ، حين بدأ العرب يؤكدون وجودهم مرة أخرى كسادة لوطنهم الكبير - منطقة الشرق الاوسط - بعد أن خلسوه من براثن الامبراطوريات المتصارعة - الرومانية والفارسية - لوجدنا أن القوة حينما كانت في يد العرب ، فانها قد حمت الاسرائيليين ومكنت لهم من العيش في أمن وسعة حيثما كان يرفرف علم الدولة العربية ، وذلك بالرغم مما حدث في الماضي حينما كانت القوة الاسرائيلية تجاه العرب لاتعنى شيئا سوى الابداء والتقتيل . ان الباحثين من الاسرائيليين وغيرهم ليعترفون بسماحة القوة العربية ووعيتها ، ويعترفون بازدهار الحياة الاسرائيلية في ظلها مما مكن الفكر الاسرائيلي من أن ينتج في كنفها أحسن ما يمكنه الفخار به .
يقول الباحث الاسرائيلي المعاصر جويتين : « من المؤكد أن الفتوحات الاسلامية كانت تعنى بالنسبة لليهود تحسنا كبيرا في موقفهم من عدة اعتبارات :

اولا - فقد كف اليهود عن اعتبارهم طائفة منبوذة تضطهدها السلطات الكنسية الحاكمة ، وأصبحوا جزءا من طبقة كسيرة من الرعايا ، لهم منزلة خاصة .

ثانيا - ان التشريعات التي نظمت الأوضاع القانونية لأعداد كبيرة من الطوائف كانت أفضل من التشريعات البيزنطية وخاصة بالنسبة لليهود « (١٧) .

ويقول الفرد جيوم : « انا لنجد الكتاب من اليهود والمسيحيين - في عهد الخليفة الثاني عمر - يعبرون عن رضاهم التام بالمعاملة السمحة التي لقوها من العرب ، وهم يشكرون الله على تخلص العرب اياهم من طغيان البيزنطيين « (١٨) .



ورغم كل مايجرى الآن من صراع دموى فوق الأرض العربية ، فان الفكر الصهيوني المعاصر لا يسعه الا أن يعترف بالآثار العربية ، ويشيد بحسن الصنيع الذي قدمه العرب لليهود عبر القرون .

S. D. Goitein : JEWS AND ARABS, New York, (١٧)

Schocken. 1955, pp 63-3. المرجع رقم (٢٦) . . .

Alfred Guillaum : ISLAM . المرجع رقم ٢٧ - ص ٨٠ .

فلقد أفردت مجلة « الأزمنة الحديثة » الصادرة في باريس في منتصف عام ١٩٦٧ عددا خاصا عن « النزاع العربي الاسرائيلي » تضمن سلسلة من المقالات لعدد من الكتاب الصهاينة ، بينهم نسيم رجوان الذي تكلم في موضوع « التعايش العربي اليهودي » فقال :

« ان الاتصالات بين العرب قبل نشوء الاسلام وبعده كانت في الاجمال سعيدة ومفيدة ، وأينما تقوم امبراطورية الهلال يبدأ وضع اليهود في التحسن ، وكان ذلك بصورة خاصة وضع فلسطين ومصر ، حيث كان الأباطرة البيزنطيون قد تدخلوا ، ليس في حياة اليهود الاجتماعية والاقتصادية فحسب ، بل أيضا في حياتهم المعيشية والدينية ، وفي ادارة كنيستهم . فبابل كانت دائما مركز التشتت ، حيث يتمتع اليهود بوجود متميز ، وطلته الفتوحات الاسلامية وزادت من نفوذ اليهود وتحسين أوضاعهم ... »

وكانت القرون الوسطى أكثر الأزمنة أهمية وفائدة للقاء بين اليهود والعرب المسلمين .. ففي أسبانيا لاقى اليهود الذين كانوا قد أقاموا هناك منذ أجيال ، مصيرا بائسا ، حيث أظهر تجاههم بعض الملوك النصراني الكثير من القسوة والتعسف . وعندما وصل المسلمون الى أسبانيا لم يكتفوا فقط بتحرير اليهود من ظالمهم بل شجعوا عندهم - كما يقول الدكتور ايزدور ابزتاين - ثقافة تعادل في غناها وعمقها أكثر الثقافات رونقا في أي بلد وفي أي عصر من العصور .

ففي ذلك العصر كان القسم الأكبر من اليهود يعيشون تحت السيطرة العربية .. وثمة اجماع على الاعتراف بأن هذا اللقاء ولد أكثر الفترات ازدهارا في كل التاريخ اليهودي ، وان أثره على اليهودية والشعب الهودي اليوم لاجدال فيه . ففي كتابه « اليهودية والاسلام » يؤكد الدكتور أروين روزنتال - وهو مؤرخ ومستشرق في كامبردج - بأنه ماعدا الحقبة ليس من فترة كانت أكثر خلقا وايجابية في تاريخنا المضطرب ، من العصور التي مد فيها الاسلام امبراطوريته من البحر المتوسط الى المحيط الهندي .

فنشاطات الفاتحين العرب الثقافية والتجارية والفنية جعلت من أسبانيا أكثر بلدان أوروبا تفتحا . وكتب التاريخ ، اليهودية منها وغير اليهودية ، تتكلم باحترام عن قرطبة عاصمة الخلفاء الأمويين الجدد ، التي أصبحت مركزا حضاريا بارزا .. وهذا الإشعاع لم يكن ماديا فقط . فالبلاط كان يستقطب الشعراء والفلاسفة ورجال الأدب والعلماء ويرعاهم

بسخاء ، وقد لبى اليهود بحرارة هذه الدعوة ، وانصرفوا من تلقاء أنفسهم متحمسين للثقافة العامة ، التي وجدوا فيها ما كانوا بحاجة اليه من الهام ، ليعيدوا احياء ثقافتهم الخاصة ، فانتعشت اضاء ثقافة اليهود الشرقية في الغرب . وعندما تفكك المركز البابلي أخيرا ، انتقلت الهيمنة للثقافة اليهودية الى يهود اسبانيا ، حيث استمرت مدة خمسة أجيال .

وفي كتاب « التاريخ اليهودى : نظرة في فلسفة التاريخ » وصف سيمون دوبنوف هذه الحقبة من التاريخ اليهودى بأزهى الألوان . ففترة الأجيال الخمسة التى بدأت مع ظهور الحضارة اليهودية فى أسبانيا ، وانتهت بنفى اليهود (٩٨٠ - ١٤٩٢ م) وضعت حدا ، كما يقول دوبنوف ، للركود والعزلة والحوائل التى طبعت فى الماضى حياة اليهود الوطنية وعلاقتهم الخارجية ، فلأول مرة - كما يضيف دوبنوف - استطاع قسم كبير من الشعب اليهودى أن يتمتع بإمكان التفكير . وشهد القرنان الحادى عشر والثانى عشر قمة التطور الفكرى لليهودية المتوسطة ..

وفى ذلك العصر - كما يقول دوبنوف - تخلى الشعب اليهودى عن وحشته وميله الى العزلة وأحاط اليهود بكل أنواع المهن . وإلى جانب رجال الدولة النافذين والمثقفين مثل هاسداى بن شبروت وصموئيل هانايد ، ظهر فى بلاط الخلفاء مجموعة من اللغويين اللامعين والشعراء والفلاسفة ..

وفى هذا المناخ المؤانى الذى لم يسبق له مثيل فى التاريخ ، استطاع يهود اسبانيا العربية ، الى اليهود المقيمين وسط المسيحية ، بل العكس : الواسعة وبالأخص تحديد اليهودية وشرحها بوضوح وعمق لم يعرفهما تاريخ شعبهم من قبل ..

وللمناسبة ، يبدو مفيدا ايضا وضع اليهود الذين كانوا يقيمون فى الحقبة نفسها فى بلدان أوروبا المسيحية .

فبينما كان اخوتهم فى اسبانيا يتمتعون كليا بالسلام والحرية ، كان هؤلاء اليهود يعيشون فوق بركان يهدد بازالتهم فى كل وقت ، وبسبب تعرضهم الدائم للاضطهاد وكانوا يعيشون معزولين تقريبا ، منصرفين من تلقاء أنفسهم الى نشاط فكرى منغلق ولكنه كبير ، وفى هذه الظروف ومع هذه الآفاق ، لم تصل أية نفحة من ذلك النضج الروحى الذى عرفه يهود اسبانيا - كيهود بابل من قبل - أن يدركوا ويحققوا المشاريع فالحملات الصليبية التى بدأت عام ١٠٩٦ ، أظهرت بوضوح أية مشاعر

يكنها جيرانهم ليهود فرنسا والمانيا . وكانت تلك اول ضريبة تدفعها
المسيحية للشعب اليهودي لقاء تعليمه الدين في القديم .

وفي شمالي فرنسا والمانيا انحطت دراسة التلمود الى درجة الادعاءات
الكلامية ، وتوصلت مجموعة من الشراح الى جعل الكتب التلمودية اكثر
تشويشا وأقل فهما ، وبالأخص في الطرق الملتوية للعب بالالفاظ من غير
كبير طائل .

في هذا الجو القاتم والثقيل بدون هواء أو ضوء لايمكن لاية فلسفة
عقلانية ذات حس سليم ان تنشأ . فعوضا عن ابن عزرا أو ابن ريمون
(اللذين أثمرتا في الجو العربي) . نجد يهودا هي هاسيد واليزردو ورمس ،
وكتبهم في التقوى الصوفية ، المليئة بالتعابير التقية عن العالم الآخر ، وحيث
تظهر الأرض كأنها واد للدموع « (١٩) .

ولقد تكلم حايم وايزمان - القطب الصهيوني الكبير وأول رئيس
لدولة اسرائيل - وحث في مناسبات كثيرة على ضرورة مراعاة المصالح
العربية في فلسطين ، ان لم يكن بسبب ما قدمه العرب لليهود من مآثر في
الماضي ، فلا أقل من أن يكون ذلك لمصلحة الدولة الصهيونية التي كان
يسعى مع غيره لانشائها . فقد جاء في خطابه في مؤتمر بلتيمور عام ١٩٢٣
ما يلي :

« مضت علينا سنوات طويلة ونحن نضع القرارات السياسية التي
تنص على أننا نرغب - نحن اليهود - في أن نعيش في سلام مع العرب ، وقد
أصدرنا قرارات حملت طابع الهدوء من جانبنا . ولكن عندما نشرع في اتخاذ
الخطوات الفعالة والحاسمة لتنفيذ هذه القرارات يتعرض الواحد منا
للحملات من كل ناحية ، لأن فهم هذه المشكلات يعتبر قضية حياة أو موت
لكل ما عملناه في فلسطين .

ويجب أن يكون واضحا لجميع ساستنا الكبار أنه ليس من السهل
علينا الخلاص من العرب بمجرد الانطلاق بأقوال سخيفة .
وقد مضت علينا سنوات ونحن نتخذ القرارات ، ولكن مهما حدث في
النهاية للوطن القومي اليهودي ، وحتى لو استوعب هذا الوطن ملايين
اليهود ، وأصبحت لنا - كما آمل - الأغلبية في فلسطين ، فيجب ألا ننسى

هؤلاء الناس الذين يمتون إلنا بصله القربى ، والذين عشنا معهم طويلا فى الماضى - فى وئام وسلام « (٢٠) .

وبعد أن قامت دولة اسرائيل وصاروا ايزمان رئيسا لها فانه قال عام ١٩٤٩ :

« أنا على يقين من أن العالم سيحكم على الدولة اليهودية بما ستفعله للعرب » (٢١) .

لقد أصابوا ايزمان بقولته هذه كبد الحقيقة حين وضع القاعدة التى تستطيع بها شعوب الأرض أن تتبين جوانب الباطل والظلم والشر فى قضية الوجود الاسرائيلى بفلسطين . ويكفى أن نستعرض ما أصاب تلك الأرض المنكوبة وشعبها المظلوم مذ قامت دولة اسرائيل حتى اليوم - من مذابح وحشية وقتل وابادة جماعية ، وهدم للبيوت واعتداء على المقدسات واماكن العبادة ، وممارسة لكل صنوف الارهاب والتدمير التى تعمل على اقناع الشعب الفلسطينى باستحالة حياته فوق تلك الأرض ، فيضطر الى تركها لاجئا فقد كل شئ من مقومات الحياة .

لقد فعلت دولة اسرائيل بالعرب كل أنواع الشرور وأنزلت بهم شتى المظالم والنكبات ، واستنادا الى قاعدة ايزمان السابقة لم يعد هناك من يختلف فى أن تلك الدولة انما هى شر زرع لم يثمر الا شرا ونتاج باطل ، محال أن يقدر على الصمود ..



لقد عض الاسرائيليون اليد العربية التى قدمت لهم الكثير ، وكان من أهم ما قدمت لهم - الأمن والسلام والتكريم ، وكلها أشياء افتقدوها كثيرا وعانوا الحرمان منها على يد أغلب شعوب الأرض .

لقد خان الاسرائيليون العرب ، وما ذلك بالشئ الجديد .. فمن قبل خان يهوذا ولى نعمته ، فبعد أن أكل خبزها وتردى بين يديه اذا به يرفع عليه عقبه ...

(٢٠) المرجع ١١ - ص ٣٤٣
(٢١) المناظرة بين المؤرخ البريطانى توينبى والسفير الاسرائيلى بكندا -

ولأمر ما كان خائن المسيح يهوديا يدعى يهوذا .
لم يكن اسمه بطرس أو يوحنا ، بل كان يهوذا الخائن .
ولقد بقيت خيانتته وغدره مثل سوء يتناقله الناس عبر القرون ، منذ
نطق به داود في مزاميره قبل المسيح بألف عام حتى الآن :

« رجل سلامتى الذى وثقت به ، آكل خبزى - رفع على عقبه ...
انسان عدلى ، الفى وصديقى ، الذى معه كانت تحلو لنا العشرة ...
ليقف شيطان عن يمينه اذا حوكم فليخرج مذنبا ، وصلاته فلتكن
خطية . لتكن أيامه قليلة ووظيفته ليأخذها آخر .

ليكن بنوه ايتاما وامراته أرملة . ليته بنوه تيهانا ويستعطوا .

لتنقرض ذريته . فى الجيل القادم ليمح اسمهم .

ليذكر اثم آبائه لدى الرب ولا تمح خطية أمه . لتكن أمام الرب دائما
وليقرض من الأرض ذكرهم . من أجل أنه لم يذكر أن يصنع رحمة بل طرد
انسانا مسكينا وفقيرا » (٢٢) .

لقد عاش داود - كما رأينا سلفا - فترة تزيد عن العمام لاجئا بين
القبائل الفلسطينية التى آوته هو ورجاله بعد أن نبذتهم القبيلة
الاسرائيلية ، ولهذا كان يحس مرارة التجوء ويستشعر مذلة فقدان الوطن
وآلام الغربة ، ومن أجل ذلك صب داود كل لعناته على أهل الظلم والظغيان
الذين يطردون السكان الآمنين ويحيلونهم الى لاجئين ، لا لشيء الا تحقيقا
لأحلام مخبولة تهفو الى السيطرة والتفرد بالحكم .

معنرة ...

لقد أصيب تاريخ الأنبياء بالكثير من الأذى على أيدي كتبة الأسفار ،
فرسمت لنا أقلامهم المعوجة ابراهيم يقبل الدنية فى بيته وداود زانيا ،
وسليمان وثنيا مرتدا ، و ... وغير ذلك كثير .

والحق الذى لامرية فيه أن انبياء الله « المصطفين الأخيار » براء من كل
هذه المفتريات .

وبكفى أن نذكر في هذا المقام قول الله في كتابه - الذي « فصلت آياته
قرآناعربيا لقوم يعلمون » - فنعلم أن أنبياء الله هم « عباد مكرمون .
لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم
ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون » . - (الأنبياء: ٢٦ -
٢٨) .

تلك حقيقة الأنبياء اجمالا ، وهي لا تختلف عن حقيقتهم بالتفصيل .

فابراهيم « كان أمة فانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين . شاكرا لأنعمه
اجتباها وهداه الى صراط مستقيم . وآتيناه في الدنيا حسنة وأنه في الآخرة
من الصالحين » . - (النحل : ١٢٠ - ١٢٢)

وأما داود وسليمان فقد قال الحق في أمرهما : « ولقد آتينا داود
وسليمان علما وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » -
(النمل : ١٥٠) .

« ووهبنا لداود سليمان نعم العبد أنه أواب » - (ص : ٣٠) .

وكل ما يقال عن كفر سليمان وفساده انما في الحقيقة فساد أصاب
عقول كتبة الأسفار وقلوبهم ، فلم يكن لهم علم بحقائق تاريخه الا مادسته
عليهم أقلام العابثين والسنتهم من شياطين الانس والجن .

ولقد براه القرآن الكريم من تلك الفرية ، ثم قذف بها في وجوههم
حين قال : « واتبعوا ماتلو الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان
ولكن الشياطين كفروا » - (البقرة : ١٠٢) .

اللهم معذرة .. فلقد أنزلت الحق وبينت الحقائق .

... والعالم :

انتهت الحرب العالمية الثانية بانتصار بريطانيا والحلفاء على النظم
العنصرية - النازية والفاشستية - ولم تعد هناك حاجة لكسب ود العرب ،
وعندئذ دخلت المؤامرة الدولية على فلسطين مرحلتها الأخيرة .

فبعد أن كانت بريطانيا قد أعلنت في عام ١٩٣٩ صرف النظر عن
تقسيم فلسطين بين العرب واليهود واعتزامها تحمل مسؤولياتها في حكم
الاقليم لمدة عشر سنوات تقوم بعدها حكومة مركزية موحدة تدير شؤون

البلاد - اذا بها تعلن فجأة عزمها عن التخلي عن الانتداب على فلسطين ، وتقرر نقل القضية الى الأمم المتحدة في ابريل عام ١٩٤٧ . « فقامت الجمعية العامة بعقد دورة خاصة بناء على طلب بريطانيا في ١٩٤٧/٤/٢٨ ، ثم عقدت عدة جلسات متتالية استمرت حتى ١٩٤٧/٥/١٥ تقرر في نهايتها تأليف لجنة خاصة للتحقيق في قضية فلسطين تضم ممثلى أحد عشر دولة من الدول الأعضاء في الأمم المتحدة ..

وقامت هذه اللجنة برفع تقريرها الى الجمعية العامة في نوفمبر ١٩٤٧ خلال الدورة الثانية لها .

وقد انقسم أعضاء هذه اللجنة الى فريقين « (٢٣) قدم أحدهما مشروعا يقضى بانشاء دولة اتحادية فلسطينية تشمل البلاد كلها ، بينما قدم الفريق الآخر مشروعا يقضى بتقسيم فلسطين الى دولتين أحدهما عربية والأخرى يهودية مع تدويل منطقة القدس .

وقد أحالت الجمعية العامة كلا المشروعين الى اللجنة السياسية الخاصة لمناقشتها والتصويت عليهما تمهيدا لعرضهما على الجمعية العامة . لكن بريطانيا فاجأت اللجنة باعلان « مندوبها عن عزمها على الجلاء فورا عن فلسطين ، وعدم استعدادها للاشتراك في تنفيذ أى حل لا يقبل به العرب واليهود معا .

وكان التوقيت البريطاني لاعلان عزم بريطانيا عن الجلاء عن فلسطين مفاجأة مذهلة وغير متوقعة للأعضاء ، نظرا لأن جلاء القوات البريطانية سيوجد نزاعا في البلاد التى تضم فريقين وصل العداء بينهما حدا طاغيا ، ما لم تسارع الأمم المتحدة الى اتخاذ قرار عاجل ، وليس أمامها سوى الخيار بين المشروعين « (٢٤) .

ولقد فشل المشروع الأول في الحصول على الأغلبية اللازمة لاقراءه وعندئذ شرع رئيس اللجنة السياسية في عرض المشروع الثانى الخاص بالتقسيم . وعندما تم الاقتراع عليه يوم ١٩٤٧/١١/٢٥ حصل على تأييد ٢٥ صوتا مقابل ١٣ معارضا وامتناع ١٧ دولة عن التصويت وتغيب دولتين .

(٢٣) التصويت والقوى السياسية في الجمعية العامة للأمم المتحدة - مصطفى عبد العزيز - المرجع رقم ١٤ - ص ٢٦٥
(٢٤) المرجع ١٤ - ص ٢٦٧

لكن هذه الاكثوية التي حصل عليها مشروع التقسيم في اللجنة السياسية « لم تكن لتضمن له النجاح في الجمعية العامة حيث انه من المسائل الهامة التي تنطبق عليها قاعدة اغلبيية الثلثين . . لذا كان أمل الصهاينة والوفود التي تؤيدهم ضئيلا في تأمين عدد الأصوات اللازمة لقراره .

وفي يوم ٢٦/١١/١٩٤٧ كانت المناقشات قد غطت جميع الجوانب المتصلة بمشروع التقسيم وكان من المنتظر أن يتم التصويت عليه في هذا اليوم في الجلسة المسائية فتبين للصهاينة أن المشروع سيفشل اذا ماتم الاقتراع في هذه الليلة « (٢٥) .

فبدلوا كافة المحاولات والضغوط لتأجيل الجلسة ونجحوا في ذلك .

« وقد وافق اليوم التالي لهذا التأجيل عيد الشكر عند الأمريكيين ، وبالرغم من أنه ليس من الأعياد الرسمية التي تعطل فيها أعمال الأمم المتحدة ، فان رئيس الجمعية العامة - آنذاك وقد كان معروفا بميوله الصهيونية - قرر ولأول مرة في تاريخ الأمم المتحدة أن لا يعقد اجتماعا للجمعية العامة في هذا اليوم ، وأن يعقدها في مساء اليوم الذي يليه . وهكذا توفر للصهاينة ومؤيديهم ثمان وأربعون ساعة للمناورات والضغوط ومحاولات الاقناع والتأثير والاتصال بالوفود المشكوك في موافقتها من التقسيم . .

وحينما استأنفت الجمعية العامة اجتماعها بعد ظهر يوم ٢٩/١١/١٩٤٧ تم التصويت على مشروع القرار فحصل على ٣٣ صوتا مقابل ١٣ وامتناع ١٠ أصوات وبذلك حصل على اغلبيية الثلثين التي تطلبها المسائل الهامة طبقا للمادة ١٨ من الميثاق « (٢٦) .

وما كان مشروع تمزيق فلسطين ليحظى بموافقة الجمعية العامة دون استخدام كافة أنواع الضغوط والاغراء والتهديد واستخدام سياسة « لوى الأذرع » وكلها أمور تشكل نقطا سوداء كبيرة وخطيرة لحقت بالأمم المتحدة منذ تاريخها المبكر .

ويصف أحد المسؤولين الأمريكيين وهو سمير ويلز الصورة العامة لتلك الضغوط فيقول :

« ان الأمريكيين استخدموا كل شكل من أشكال الضغط المباشر وغير المباشر بعد تلقيهم الأوامر المباشرة من البيت الأبيض ، على الدول الاعضاء في الأمم المتحدة من غير الدول الاسلامية والتي كانت حائرة بين معارضة التقسيم أو الامتناع عن تأييده . وقد استخدم البيت الأبيض عددا من المثليين والوسطاء للتأكد من الحصول على الأغلبية المطلوبة لقرار الجمعية العامة لمشروع التسميم » (٢٧) .

ويقول الصهيوني دافيد هو روفيتز : « ان الطريقة التي تم بها تحويل التصويت النهائي في الجمعية اعامة يجب أن تعزى لوزن نفوذ الولايات المتحدة الأمريكية الذي مارسه في الساعة الأخيرة » (٢٨) .

وإذا ما أردنا الدخول في تفاصيل لصور الضغوط التي وقعت على بعض الدول لاجبارها على الموافقة على مشروع التقسيم ، لانتقل بنا مسرح الحوادث فجأة من أروقة وقاعات الأمم المتحدة الى أزقة وشوارع خلفية يكسوها الظلام وتفوح منها الروائح الكريهة وتمارس فيها الأعمال القذرة . وعلى سبيل المثال نذكر ماحدث لحكومات ليبيا وهاتى والقبليين .



فبالنسبة لحكومة ليبيا يقول الدبلوماسي الأمريكي كرمت روزفلت : « انه بعد أن وضع موقف ليبيا من التقسيم ، قام اقتصادى مشهور - وهو روبرت ناتان - ومن المقربين للبيت الأبيض والمرتبطين بالصهيونية بممارسة سلطاته في اقناع الوفد الليبيرى ، فادى ذلك الى تغيير موقفه » (٢٩) .

وذكر جيمس فورستال وزير البحرية الأمريكية السابق في عهد ترومان : « ان شركة فاير ستون للمطاط قامت بالابراق لشركتها في ليبيا للقيام بالضغط على الحكومة الليبيرية للتصويت في صالح التقسيم » (٣٠) .

Sumner Welles ; WE NEED NOT FAIL , Boston' (٢٧)
1948, p 63

David Horowitz : STATE IN THE MAKING, (٢٨)
New York, 1953. p. 301.

Kermit Roosevelt: THE PARTITION OF PALESTINE, (٢٩)
The Middle East Journal, Vol. 2; No. 1, p. 14

The Forrestal Diaries, p. 346. (٣٠)

وذكر الكاتب اليهودي الفرد ليتنتال أن هارفي فاير ستون صاحب الأعمال والمصالح الواسعة في ليبيريا قام بالاتصال تليفونيا بالحكومة الليبيرية للدلاء بصوتها في صالح التقسيم « (٣١) » .

وكانت النتيجة من وراء ذلك كله هو تحول ليبيريا من معارض للتقسيم الى مؤيد له .

وما حدث لحكومة ليبيريا حدث مثيله لحكومة هايتى التى اضطر مندوبها أن يعلن والدموع فى عينيه أنه تحول من معارض لتقسيم الى مؤيد له بعد أن قام الوسطاء مثل « أدولف بيرلى الذى استغل وعد أمريكا لهايتى بالمعونة الاقتصادية لهذا الغرض » (٣٢) .

كذلك كان الحال مع حكومة الفلبين ، فبعد أن هاجم مندوبها الجنرال روميلو مشروع التقسيم وقال « ان حل مشكلة تخلص أوربا من اليهود يجب الا يكون على حساب عرب فلسطين ، وفى اقامة دولة يهودية فى بلادهم » وانه لذلك سيقترع ضد التقسيم — اذا بحكومة الفلبين تضطر الى تغيير موقفها وتبرق الى الجنرال روميلو بالعودة الى بلاده وتحل محله السفير الفلبينى بواشنطن « بعد أن تلقى رئيس جمهوريتها تهديدا من السفير الأمريكى فى مانىلا بأن الكونجرس الأمريكى لن يوافق على القوانين السبعة المعروضة عليه والمتعلقة بالفلبين ، اذا لم تبدل حكومته موقفها من قرار التقسيم » (٣٣) .

وبهذه الطرق القذرة استطاعت القوى الصهيونية ومؤيديها من الحصول على موافقة الجمعية العامة للأمم المتحدة على تقسيم فلسطين وانشاء دولة اسرائيل .

وتوجد الكثير من المآخذ والاعتراضات على مشروع قرار التقسيم الذى أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة نكتفى منها بذكر ثلاث هى :

Alfred Litienthal : WHAT PRICE ISRAEL ? Henry (٣١)
Regnery Co : Chicago, 1953. p 66.

(٣٢) المرجع ١٤ — ص ٢٨٨

(٣٣) المرجع ١٤ — ص ٢٨٩ — ٢٩٠

١٤ - يعتبر مشروع التقسيم الذي أقرته الجمعية العامة ظلماً صارخاً لحق العرب أصحاب البلاد الشرعيين ، إذ أنه يعطيهم « مساحة قدرها ١٢٢٠٠ كيلومتر مربع فقط ، أى بنقص قدره ٢٢٠٠ كيلومتر مربع عما خص به اليهود ، وفي ذات الوقت يقيم الدولة اليهودية في منطقة يسكنها ما يزيد عن ٤٩٠ ألف عربى يملكون ثلثى الأراضى والعقارات مقابل ما يقرب من ٥٠٠ ألف يهودى يملكون ثلث الأراضى والعقارات فحسب . وبمعنى آخر يقيم الدولة اليهودية في منطقة يتكون نصف سكانها تقريبا من العرب وكل امكانياتها في يدهم - بينما نجد الدولة العربية يبلغ عدد سكانها من العرب ٧٢٥ ألف بالإضافة الى ١٠ آلاف يهودى . وهذا التقسيم الشاذ غير الطبيعى قصد منه أن تضم الدولة اليهودية كل الأجزاء التى يملكها ويسكنها اليهود فضلا عن ضم مناطق عربية كبيرة يملكها ويسكنها العرب . بينما تضم الدولة العربية أقل عدد ممكن من اليهود » (٣٤) .

١٥ - ويعتبر مشروع التقسيم تجاوزا من الجمعية العامة للأمم المتحدة لسلطاتها التى خولها لها الميثاق ، إذ أنه لم يعطها « فى أى نص من نصوصه خلق دولة لشعب غير مقيم فى أرض مأهولة . فهذه الهيئة حصرت صلاحيتها بحسب الميثاق فى البحث والمناقشة واصدار التوصيات غير الملزمة ، أى لا يحق لها اتخاذ قرارات .

وعندما طلبت الجمعية العامة من مجلس الأمن الذى له حق اصدار هذه القرارات أن يطبق المادة ١٠٦ على هذا القرار ، قرر مجلس الأمن فى ١٩٤٨/٣/٥ أن يحيل الى الدول الخمس الأعضاء الدائمين وفقا لنص هذه المادة موضوع تنفيذ تلك التوصية ، لكن هذه المحاولة أخفقت وانتهى الأمر الى رفض مجلس الأمن ذاته الموافقة على أن يتولى تنفيذ مشروع الجمعية العامة الخاص بالتقسيم بالقوة .

١٦ - « عند التصويت على مشروع التقسيم فى الجمعية العامة ، لم يصوت مع هذا المشروع أية دولة آسيوية أو أفريقية فيما عدا بلد آسيوى واحد (الفلبين) ، وبلد افريقى واحد (ليبيريا) - بالإضافة الى جنوب افريقيا وهى دولة ينبذها المجتمع الدولى بسبب سياستها العنصرية - ولم تصوت كل من الفلبين وليبيريا مع هذا المشروع الا بعد أن خضعتا لضغط كبير من جانب الولايات المتحدة الأمريكية .

ومن هذا يتبين أن الدولة اليهودية قد غرست في نقطة التقاء آسيا
وأفريقيا دون الحصول على تأييد حر من أى بلد في الشرق الأوسط أو آسيا
أو أفريقيا - علما جنوب أفريقيا .

وبذلك تكون دولة إسرائيل عضو غريب زرعه قسرا قوى الاستعمار
العالمى فى الجسم الأسيوى الأفريقى ، وفرضته جار سوء وأداة عدوان
يستخدمها الاستعمار الجديد . وإذا كان الجسم البشرى يلفظ القلوب
الفريية التى تزرع فيه بعد مدة - سواء طال زمنها أو قصر - رغم أنها
أعضاء بشرية تتشابه كثيرا مع قلبه السابق ، فكيف يكون الحال مع دولة
إسرائيل التى زرعت بالدم والحديد والنار وسط الشعوب العربية و فوق
أرض الوطن العربى ؟؟

ان شعوب العالم مطالبة اليوم أكثر من أى وقت مضى أن تراجع موقفها
وتقوم بالتزاماتها ازاء الشعب الفلسطينى المهور ، فتمكنه بكل الوسائل
والأساليب من استعادة أرضه وترواته .

ان دول العالم مطالبة بتحمل مسئولياتها تجاه قضية السلام العالمى
والعمل على تخليصه من أسباب التوتر وأدوات العدوان .

ان دول العالم مطالبة باعادة النظر فى القضية الفلسطينية من جديد
على ضوء الحقائق والمآسى التى ترتبت على انشاء دولة إسرائيل منذ
عام ١٩٤٨ حتى الآن ، وعلى ضوء روح العصر ، ومطالب قضايا التحرر
الانسانى .

لقد حدث فى الماضى أن راجعت بريطانيا موقفها من فكرة التقسيم
وأعلنت فى بيانها الصادر فى ٩ نوفمبر عام ١٩٣٨ - بوصفها الدولة المنتدبة
على فلسطين : « ان الصعاب السياسية والإدارية والمالية التى ينطوى
عليها الاقتراح القائل بانشاء دولة عربية مستقلة وأخرى يهودية مستقلة
هى عظيمة لدرجة يكون معها هذا الحل للمعضلة غير عملى » .

وفى ١٧ مايو ١٩٣٩ أصدرت الحكومة البريطانية بيانا بخطتها
السياسية فى فلسطين أكلت فيه صرف النظر نهائيا عن مشروعات التقسيم
وأعلنت « ان الهدف الذى ترمى اليه حكومة جلالاته هو أن تشكل خلال عشر
سنوات حكومة فلسطينية مستقلة .

وان الدولة المستقلة يجب أن تكون دولة يساهم العرب واليهود في حكومتها على وجه يضمن صيانة المصالح الأساسية لكل من الفريقين » .

أما الولايات المتحدة الأمريكية . وهي المسؤولة عن جميع الاجراءات الهامة والأخيرة التي أدت الى قيام دولة اسرائيل - ابتداء من اتخاذ القرارات التي « تحبذ فتح ابواب فلسطين لهجرة يهودية غير محدودة ولاستعمار يهودي واتخاذ سياسة من شأنها أن تؤدي الى انشاء كومون ولث يهودي ديمقراطي هناك . » والعمل على ادخال « مائة ألف لاجيء يهودي اضافي الى فلسطين » ، ثم الضغط بكل ثقلها وراء مشروع التقسيم حتى استطاعت أخذ موافقة الجمعية العامة للأمم المتحدة عليه في نوفمبر ١٩٤٧ - فانها مع ذلك كله راجعت موقفها على ضوء الأحداث الدامية التي جرت فوق أرض فلسطين ، مما دفعها الى تقديم مشروع قرار الى مجلس الأمن في ١٩ مارس ١٩٤٨ تطالب فيه بإلغاء قرار التقسيم ، وكان هذا نصه :

« انه طالما بدا واضحا أن قرار الجمعية العامة للتقسيم الصادر في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ لا يمكن تنفيذه بالطرق السلمية وأن مجلس الأمن ليس لديه الاستعداد لتنفيذه ، فان المجلس يوصي :

أولا - بفرض وصاية مؤقتة على فلسطين تحت وصاية المجلس .

ثانيا - يطلب المجلس عقد جلسة خاصة للجمعية العامة .

ثالثا - والى أن تعقد هذه الجلسة يجب أن تصدر تعليمات الى لجنة فلسطين لتوقف جهودها لتنفيذ مشروع التقسيم .

رابعا - دعوة العرب واليهود الى اجراء هدنة في فلسطين .

خامسا - مناشدة بريطانيا البقاء كدولة منتدبة تحت اشراف الأمم المتحدة الى حين التوصل الى حل نهائي لقضية فلسطين « (٣٥) .

ولقد وافق مجلس الأمن بالاجماع على مشروع القرار ، وأبلغه للسكرتارية العامة لتنفيذه .

وهكذا نجد أن أمريكا والعالم قد تراجعوا جميعا عن فكرة التقسيم ، وقرروا البحث عن حل آخر لقضية فلسطين . ثم ما لبثت أمريكا أن تقدمت بمشروع قرار في ٢٠ أبريل ١٩٤٨ يهدف الى وضع فلسطين تحت

وصاية هيئة الأمم المتحدة الى أن يتم وصول العرب واليهود الى اتفاق ينقل الى الجمعية العامة وتنتهى بعده الوصاية، أو أن يبقى نظام الوصاية سارى المفعول لمدة ثلاث سنوات يقرر بعدها نوع الحكومة عن طريق الاستفتاء العام (٣٦) .

*

فاذا كان هذا هو موقف أمريكا وبريطانيا فى الماضى القريب من المراجعة وإعادة النظر فى انشاء دولة اسرائيل ، فلماذا لا تعيد دول العالم النظر من جديد فى القضية الفلسطينية على ضوء التجربة المريرة التى نتجت عن خلق وجود عسكري اسرائيلى بفلسطين ، جُلب ولا يزال يجلب عليها الكثير من المآسى والتكبات منذ أكثر من عشرين عاما حتى الآن .

ان إعادة النظر فى القضية الفلسطينية واجب يلتزم به الضمير العالمى، وانه لحق لكل عربى فلسطينى يطوق عنق العالم ممثلا فى شعوبه ودوله . وحين يتحقق ذلك - وتبدو فى الأفق بشائر لوضع حد للصراع الدامى الذى ان ترك وعلاجه التقليدى فلا بد أن يستمر الى أكثر من ١٠٠ عام - فلسوف يجد العالم أن فى قيام الدولة الفلسطينية الديمقراطية الموحدة ، الحل الوحيد لأزمة السلام وآلام الانسان فوق هذه البقعة المنكوبة من الأرض .

أما بعد :

فمهما طال الزمن ، وتمثرت المسالك ، وتكاثرت التكبات
فلا بد أن يزول الباطل ونتاجه ، وتذهب كل الأباطيل ...
ولابد أن يبقى الحق وتظهر أنواره فتضىء طريق السلام للعالمين ...
السلام القائم على العدل ، وليس السلام المراءوغ الذى تفرضه قوى الظلم بالبطش والإرهاب .

*

ما أشبه اليوم بالأمس القريب حين وقف هتلر يدعى أن غزو بولندا كان ضرورة اقتضتها مطالب تأمين الوجود والحدود الألمانية .

واليوم تدعى اسرائيل أن عدوانها المستمر أو المتقطع على الدول العربية إنما هو حرب وقائية وضرورة يقتضيها تأمين وجودها وحملودها .

وعمل هتلر على جلب المستعمرين الجند الى الاراضى المحتلة المجاورة،
وانشأ بها المستعمرات بدعوى اقامة مجتمع جديد يعمر الصحراء
الاسيوية .

وتعمل اسرائيل على جلب يهود العالم الى اراضى العرب المحتلة، وتقيم
بها المستعمرات بدعوى اقامة مجتمع عصرى متقدم يحقق الرخاء لتلك الارض.
وكان هتلر يحقر تلك الشعوب المهزومة ويسفه خصائصها ومقوماتها ، ثم
يفتخر بمنجزاته العلمية وتفوقه التكنولوجى .

وتردد اسرائيل اليوم نفس أقاريل الباطل والغرور ، فتعمل بكل
وسيلة على تحقير العرب وتشكيكهم فى قدراتهم ، وتتهمهم بالعجز عن
ملاحقة ركب التفوق التكنولوجى الحديث .

واخيراً وليس آخراً - كان هتلر يتحدث بعد علوانه - عن السلام فى
الشرق والغرب ، ويعمل على فرضه بالقوة حتى يستطيع أن يجنى ثمار
عدوانه .

واليوم تكثر اسرائيل من الحديث عن السلام - بعد العدوان - لكي
تحقق أطماعها العنصرية فى السيطرة والتوسع .

*

ان اسرائيل هى النازى الجديد ، والفاشيست الجديد بل وكل نظام
عنصرى ظهر فى الماضى ، حيث تعيد اسرائيل تمثيله اليوم من جديد
بتركيبه وأنكاره وأحلامه المجنونة .

ان هذا هو ما يقرره الخبراء والمحللون من غير العرب ومنهم الكاتب
الامنى جونتر جراس الذى كتب مقالاً نشرته له بنيو يورك صحيفة
INTELLECTUAL DIGEST بتاريخ ٢٨/٣/١٩٧٢ حيث قال :

ان قوى الانجاعات النازية تظهر الآن فى اسرائيل حيث توجد عقدة
التفوق اليهودى وحلم اقامة اسرائيل الكبرى . وهذه النظرة العنصرية الى
تفوق الجنس اليهودى والحلم بدولة كبرى لاسرائيل - نموذج للنزعة
النازية .

*

وانا اردنا ان نعرف ماذا ينتظر اسرائيل - نتاج زيف الاستعمار

والصهيونية وأباطيلها - فان علينا أن نراجع دروس التاريخ ونبحث عن مصر قوى البقي والعسوان التي اقامت دولا ، بل وامبراطوريات اقوى واكبر بكثير من اسرائيل ، امتد وجودها طيلة العشرات من السنين ، ثم كانت نهايتها جميعا الى زوال .

ان ذلك ما تؤكده انباء قوى : الهكسوس ، والتتار ، والفاشست ، والنازى .

واذن لن يكون مصر هكسوس القرن العشرين - اسرائيل - بافضل من مصر اسلافهم الغابرين .

لو راجع الاسرائيليون انفسهم قليلا ، وتلمسوا الحل للمشاكل المعقدة التى حدثت نتيجة لوجودهم فوق ارض فلسطين على هيئة كيان عسكرى شرس ، جلب على العرب واليهود الكثير من المآسى والنكبات - ولو كان الاسرائيليون راغبين حقا فى سلام حقيقى يحل بتلك البقعة المذبذبة من الارض ومن عليها من البشر ، لاعلنوا للعالم ما تهمس به ضمائر ذوى الضمائر منهم ، من ضرورة العمل من جديد على خلق دولة فلسطينية واحدة يتآلف بين جوانبها كل من العرب واليهود .

ان الشئ المؤكد هو ان ما ارتكبه الاسرائيليون فى حق العرب من جرائم طيلة بضع عشرات من السنين لا يمكن أن يمضى دون عقاب تنزله بهم عدالة السماء .

فاما رجوع الى الحق واما نذير يتلوه عقاب .

تلك سنة الله فى خلقه فى جميع العصور والاجيال ، ولا حاجة بنا للاستشهاد لهذا بنص من سفر او كتاب .

فان كانت اسرائيل لا محالة متمسكة بالنصوص والاقاويل فلتسمع ما يقوله الكتاب :

« أرسل الرب قولا فى يعقوب فوقع فى اسرائيل ..

صار مرشدو هذا الشعب مضلين ، ومرشدهم مبتلعين .. كل واحد منهم منافق وفاعل شر ، وكل فم متكلم بالحماقة ..

لأن الفجور يحرق كالنار .. بسخط رب الجنود تحرق الأرض ،
ويكون الشعب كماكل للنار « (٣٧) .

*

وإذا كان عدوان عام ١٩٦٧ قد مكن الاسرائيليين من اصطياد القدس
فلم يكن ذلك الا من سوء حظ المدينة المقدسة - مدينة الصلاة - التي
انتهكت بها كل الحرمات ، وامتألت بالفجور والموبقات ، واعتدى فيها على
أماكن العبادة والصلوات .

« طوفوا في شوارع اورشليم وانظروا واعرفوا وفتشوا في ساحاتها
هل تجدون انسانا أو يوجد عامل بالعدل ..

انهم يحلفون بالكذب .. صلبوا وجوهم أكثر من الصخر . أنوا
الرجوع .. كسروا النير جميعا وقطعوا الربط .. ذنوبهم كثرت . تعاضمت
معاصيهم .

كيف أصفح عن هذه ؟؟

لما أشبعتم زنوا ، وفي بيت زانية تراحموا . صاروا حصنا مغلوقة
سائبة . سهلوا كل واحد على امرأة صاحبه .

أما أعاقب على هذا . يقول الرب !!!؟

أو ما تنتقم نفسى من أمة كهذه !!!؟

ها أنذا أجلب عليكم أمة من بعد يا بيت اسرائيل يقول الرب .

أمة قوية ، أمة منذ القديم .. جعبتهم كقبر مفتوح . كلهم جبلة
فيالكون حصادك وخبزك .. يهلكون منك الحصينة التي أنت متكل
عليها « (٣٨) .

*

ان الحق هو ما يقوله يوحنا للاسرائيليين حين يطلب منهم أن يراجعوا
انفسهم :

٩ (٣٧) اشعيا : ٩

٥ (٣٨) ارميا : ٥

« يا أولاد الافاعى من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى فاصنعوا أثمارا هليق بالتوبة ولا تفتكروا أن تقولوا فى أنفسكم لنا ابراهيم ابا ..

الآن قد وضعت الفأس على أصل الشجر . فكل شجرة لا تضع ثمرها جيدا تقطع وتلقى فى النار » (٣٩) .

والحق ما يقرع به المسيح سمع الاسرائيليين حين يقول لهم :
« انكم تشبهون قبورا مبيضة تظهر من خارج جميلة وهى من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة .

هكذا انتم أيضا من خارج تظهرون للناس أبرارا ولكنكم من داخل مشحونون رياء واثما ..

أيها الحيات أولاد الافاعى كيف تهربون من ديونة جهنم ! » (٤٠)

ويعد : أن أساسيات الدين — كل دين — وحقائق التاريخ تؤكد أن ما قام على الشرور والأباطيل لن يلبث أن يدوى ويزول ، ولو سحر الناس هريقه من عل ، كما يجذب الانتظار زبد الربى .

« كذلك يضرب الله الحق والباطل .

فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض .

كذلك يضرب الله الأمثال » .

ومهما طال الزمن أو قصر فسوف يأتى اليوم الذى يقف فيه المؤمنون المجاهدون بين يدى الله ويقولون بلسان الحمد ورضاء النفس :

« قطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين » .

قائمة المراجع الرئيسية

- ١ - الكتاب المقدس .
- ٢ - تاريخ العرب العام - تأليف المستشرق الفرنسي ل . ا . سيديو (كلية سان لويس) - مترجم عن الفرنسية - دار احياء الكتب العربية - القاهرة - ١٩٤٨
- ٣ - تاريخ العرب - تأليف الدكتور فيليب حتى وآخرين (جامعة برنستون) - مترجم عن الانجليزية دار الكشاف - بيروت - ١٩٤٩
- ٤ - تاريخ الأمة العربية - عصر الانحدار - تأليف محمد أسعد طلس - دار الأندلس - بيروت - ١٩٦٣
- ٥ - الشرق الأدنى القديم : وادي الرافدين - تأليف الدكتور نجيب ميخائيل - دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٣
- ٦ - فضل العرب على أوروبا - تأليف الدكتور سيجريد هونكه - ترجمة عن الألمانية للدكتور فؤاد حسنين على - دار النهضة العربية - القاهرة - ١٩٦٤
- ٧ - تاريخ الفلسفة اليونانية - تأليف يوسف كرم - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٥٨
- ٨ - مذهب الذرة عند المسلمين - تأليف الدكتور س . بينس - نقله عن الألمانية محمد عبد الهادي أبو ريده - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٤٦ .
- ٩ - مقالات الاسلاميين : تأليف الامام أبي الحسن الاشعري - طبع بمطبعة الدولة باستانبول عام ١٩٢٩ .
- ١٠ - التصوف وفريد الدين العطار - تأليف الدكتور عبد الوهاب عزام - دار احياء الكتب العربية بالقاهرة - ١٩٤٥ .
- ١١ - ملف وثائق فلسطين - وزارة الارشاد القومي - القاهرة .
- ١٢ - العقد الفريد - لابن عبد ربه - القاهرة - ١٢٩٣ هـ - الجزء الاول .
- ١٣ - من الفكر الصهيوني المعاصر - مركز الأبحاث بمنظمة التحرير الفلسطينية .
- ١٤ - التصويت والقوى السياسية في الجمعية العامة للأمم المتحدة - تأليف مصطفى عبد العزيز - مركز الأبحاث بمنظمة التحرير الفلسطينية - بيروت - ١٩٦٨ .

- ENCYCLOPEDIA AMERICANA, Volume 3, (10) 1959.
- ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA, Volume 3, (17) 1960.
- Sabatino Moscati : THE SEMITES IN ANCIENT HISTORY, Cardif University of Wales Press, 1959.
- H. Polano : THE TALMUD, English Translation, Frederieh Warne & Co. London & New York
- James Parkes : A HISTORY OF THE JEWISH PEOPLE, Penguin Books, Harmondsworth, Middlesex, England, 1964
- W.F. Albright : FROM THE STONE AGE TO CHRISTIANITY, Anchor Books, New York 1957
- R.K. Harrison : ARCHAEOLOGY OF THE OLD TESTAMENT, The English Universities Press, London, 1963
- Hugh J Schonfield : THE PASSOVER PLOT, Hutchinson of London, 1966
- J. C. Fenton : SAINT MATTHEW, Penguin Books, 1963
- Bertrand Russel : POWER, Union Books, London, 1965.
- Alan Bullock : HITLER, Penguin Books, 1964.
- S.D. Goitein : JEWS & ARABS, Schocken, New York, 1955.
- Alfred Guillaume : ISLAM, Penguin Books, 1964.

فهرس الكتاب

الصفحة	مقدمة
٣	المخطط الاستعماري - المخطط الصهيوني - الصهيونية ضد المصالح الحقيقية لليهود
٨-٢	
١٩	الفصل الأول : أسفار العهد القديم
	أسفار العهد القديم : مقدمة وتعريف - كيف صارت كتب العهد القديم أسفارا مقدسة - متى اكتسبت أسفار ٢٢-١٩ العهد القديم الصبغة القانونية اللغات واللهجات التي كتبت بها أسفار العهد القديم - كيف ٢٤-٢٣ وصلتنا أسفار العهد القديم تراجم أسفار العهد القديم : النسخة السامرية - النسخة الاغريقية - النسخة السورانية - النسخة اللاتينية - ٢٧-٢٦ النسخة القبطية ٢٩-٢٨ الأسفار المفقودة - فحص أسفار العهد القديم
٣٥	الفصل الثاني : ابراهيم
	ابراهيم : الموطن والنسب - ابراهيم وزوجه في مصر - العهد والأرض - ابراهيم يستوطن أرض كنعان - العهد الالهى - ٤١-٣٧ تحقق البشرى ومولد اسماعيل - تجديد العهد ٤٤-٤٣ ذرية ابراهيم - حقيقة الذبيح ابن ابراهيم ابراهيم وأرض الموعد - حقيقة مفهوم الوعد بالأرض - نتائج ٥٦-٥١ محسدة العرب والاسرائيليون في أسفار العهد القديم : الاسماعيليون - الاسرائيليون - اسرائيل على عهد موسى - اسرائيل حتى عهد داود وسليمان - اسرائيل على عهد نحemia وعزرا - ٦٣-٥٧ اسرائيل ايام يحيى والمسيح ٦٦ عهد الله وميثاقه مع بنى اسرائيل

٧٣

الفصل الثالث : التاريخ الاسرائيلي بفلسطين

التاريخ الاسرائيلي بفلسطين : مقدمة - اسرائيل تحت قيادة

٨٠-٧٥

موسى ويشوع - عصر القضاة

١٠٣-٨١

عصر الملوك : شاول - داود - سليمان

السبي والضياع - حركة عزرا للاصلاح الديني - ثورة

١٢٠-١٠٧

المكابيين الدينية - الشتات الطويل

١٢٧

الفصل الرابع : فلسطين عربية

١٣١-١٢٩

فلسطين عربية : مقدمة - الساميون - الساميون عرب .

١٣٤-١٣٣

الساميون في العراق القديم : الاكديون - الاموريون - الاراميون

الساميون في سوريا الكبرى : الكنعانيون - الاموريون -

١٣٦-١٣٥

الاراميون

١٣٧

الساميون في شبه الجزيرة العربية

١٤٢-١٣٩

اسماء شعوب لا يعرف لها أصل : العبريون - الهكسوس .

١٥١

الفصل الخامس : الحضارة العربية

الحضارة العربية : مقدمة - الصورة العامة للحضارة العربية

١٥٤-١٥٣

ومحاولات ظمسها

١٦٧-١٥٨

الفتوحات العربية : العرب في اسبانيا - العرب في صقلية .

اثر العرب في المجالات العلمية - اثار العرب في العلوم الرياضية -

اثر العرب في العلوم الطبيعية والفلكية - اثار العرب في

١٧٥-١٧٠

العلوم الطبية والكيميائية

اثر العرب في الذرة - المجموعة الشمسية - الذرة نظام شمسي -

١٩٠-١٨٦

نتائج وتطبيقات

تاريخ البحث عن حقيقة الذرة : الذرة في تفكير الاغريق -

الذرة في تفكير الهنود - الذرة في تفكير العرب - الذرة

١٩٦-١٩٢

في التفكير العلمي الحديث - الفتح العربي في الذرة .

٢٠٥

الفصل السادس : القضية بين الحق والقوة

القضية بين الحق والقوة : مقدمة - الحق العربي - احرار

٢١٢-٢٠٧

الحق - حقيقة التحرير

الكوماندور البحري الأمريكي هتشيون - الماجور جنرال

- الدنمركى فون بنيكه . الكولونيل الأمريكى ماكسينش -
٢١٣-٢٢٧ . الدكتور جون ديفيز مدير وكالة غوث اللاجئین .
الوزير البريطانى السابق أنتونى ننتج - مأساة فلسطين منذ
وعد بلفور حتى اليوم : مقدمة - وعود بريطانيا للعرب -
العرب يؤون اليهود - بدء تنفيذ المخططات الصهيونية -
ثورة العرب - الارهاب الصهيونى - اللاجئون الفلسطينيون
نتيجة للعدوان الاسرائيلى - مسئولية بريطانيا - اسرائيل
النازى الجديد - حقوق عرب فلسطين - الحبل هو
٢٢٣-٢٢٨ . فلسطين الموحدة
المؤرخ البريطانى ارنولد توينبى - سياسة بريطانيا تقسيم ولا
٢٢٩ ٢٤٧ . تقسيم - الفيلسوف البريطانى برتراند رسل
الحق الاسرائيلى : الحق الاسرائيلى فى العقيدة - الحق
الاسرائيلى فى الشريعة - الحق الاسرائيلى فى السلوك -
٢٥٠-٢٥١ . الحق الاسرائيلى فى الوحي
الحق الاسرائيلى فى قضية المسيح : مقدمة - الأعمال التمهيدية -
دخول اورشليم - بدء العمليات - دفاع عن يهوذا -
دفاع عن مجمع اليهود - الساعات العصبية - تنبؤات
الكتب بنجاة المسيح - الأحداث الأخيرة - موضوع تبرئة
اليهود من دم المسيح - خاتمة - جنون المنطق الاسرائيلى
٢٥٢-٢٧٥ . القوة : مقدمة - القوة عند الهكسوس - القوة عند الاسرائيليين -
مذبحة دير ياسين - مذبحة قبيلة - القوة عند العرب -
القوة عند التتار - القوة عند الفاشست - القوة عند
٢٧٧-٢٨٦ . النازى

٢٩٥

الفصل السابع : اسرائيل والعرب والعالم

- ٢٩٧-٣١٧ اسرائيل والعرب والعالم : اسرائيل - والعرب - معصرة - والعالم
٣٢٠ . قائمة المراجع الرئيسية

تصويب

توجد بعض الأخطاء المطبعية التي ترجع أساساً لملحودت زيادة أو نقصان في حروف بعض الكلمات — وهذه من السهل تداركها بمعرفة القارئ .
لكن هناك أخطاء أخرى رؤى من الواجب تداركها بهذا التصويب .

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٧٠	١٤	بالإسرا تيليين	ببني لإسرائيل
١٣٠	٩	فالسورميون	فالسوريون
١٤٦	٢٤	غيره . واذكروا	غيره . . واذكروا
١٧٢	١٠	وكالـ	وكان
١٨٧	٢٤	، كأنه العرجون القديم ،	، كالعرجون القديم ،
١٨٨	١	٢٧٩٣ في الترتيب ٣٦٧٥	٣٦٧٥، ٢٧٩٣ على الترتيب
١٩٩	١٠	أما	أم
٢٠٧	٢٢	ويحرص	ويحرصون
٢٠٧	٢٨	الأرض	الأرض
٢٦١	١	٣٦١	٢٦١
٣٠١	٢٠	الآمة	الآئمة
٣١٧	١٥	إنما في	إنما هو في
٣٢٠	١٢	الساعة	الساعات

هَذَا الْكِتَابُ

□ يعتبر دراسة لقضية فلسطين من زوايا العقيدة والتاريخ - من أجل ذلك فإنه يعتمد على النصوص المقدسة ، والوثائق والتقارير التي تزداد قيمتها بما تتضمنه من أقوال المتخصصين من غير العرب .

□ ويبدأ انكتاب بكشف « المخطط الاستعماري والعمل الصهيوني » وتحالفهما لاغتصاب فلسطين - ثم دراسة مركزة « لأسفار العهد القديم » باعتبارها المرجع الرئيسي الذي تستخرج منه النصوص والتأويلات - و « ابراهيم » صاحب العهد الالهى - يعقب ذلك عملية مسح « للتاريخ الاسرائيلى بفلسطين » - وتاريخ شعوب الشرق الأوسط القديم ، الذي يؤكد أن « فلسطين عربية » وأن عروبتها قديمة تمتد جذورها لاكثر من ٥٠٠٠ عام .

□ وفي عرض لشيء من « الحضارة العربية » نجد أن العرب قد أسهموا ايجابيا فى مختلف فروع العلوم ، حتى الذرة كان لاسهامهم فيها شأن ملحوظ حين قرروا حقيقتها قبل أن يكتشفها العلم الحديث بأربعة عشر قرنا ، مما جعل علماء الغرب يشهدون بأن العربى عنصر حضارى بطبعه ، على عكس ما تحاوله الدعايات المسمومة من الصاق تهمة التخلف المتوارث بالعرب .

كذلك فان دراسة « القضية بين الحق والقوة » تؤكد وضوح الحق العربى فى فلسطين ، رغم اصطدامه بالقوة الاسرائيلية الفشوم التي لاتحمى سوى المزاغم والأباطيل .

□ ومن ثم فان الحل الحتمى لهذه القضية هو اقامة الدولة الفلسطينية الواحدة الخالية من التعصب والعنصرية ، وهى دولة تمتد بحدودها الفلسطينية المعروفة من البحر الى النهر . ان هذا هو الحل الذى يفرض نفسه على « اسرائيل .. والعرب .. والعالم » .

□ ويسر مكتبة وهبه أن تقوم بنشر هذا الكتاب ليكون « شمعة » تنير الطريق أمام المشتغلين بقضايا العالم العربى عامة ، وقضية فلسطين بوجه خاص .

مكتبة وهبة

الثمن ٨٥ قرشا